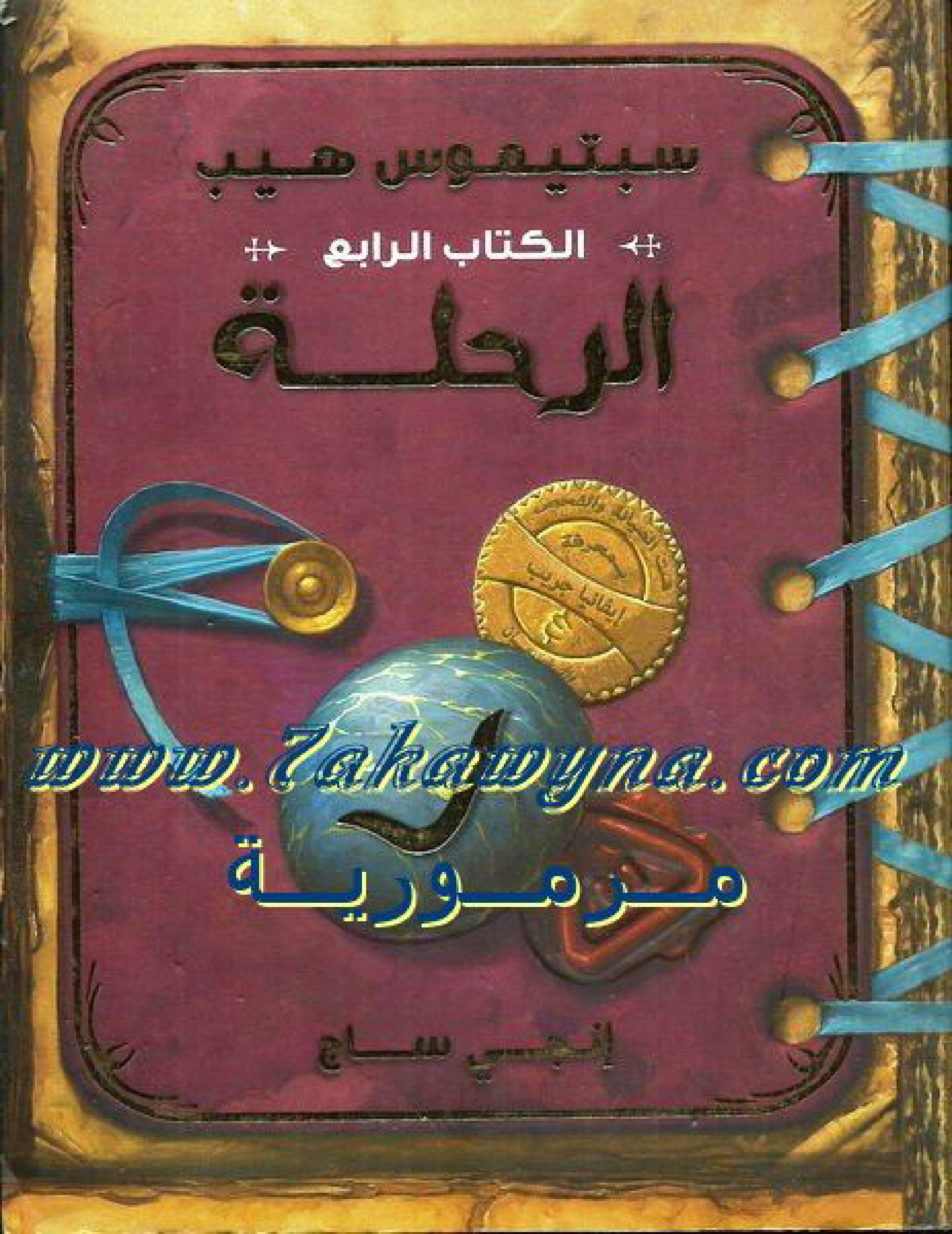

سبتيموس هيب
الكتاب الرابع
الرحلة
www.7akawyna.com
مرمورية
أنجي ساج



سبتيموس هيب

الكتاب الرابع

ملحمة تفعمها العجائب والغرائب والتعاويذ السحرية والمفاجآت، وعالم فريد ثري بالتفاصيل المدهشة، ندعوك لتدخله، ولن ترغب في مغادرته أبدًا!

صدر منها:

1- السحر
2- الطيران
3- الطب
4- الرحلة

من أكثر السلاسل مبيعًا



دار نهضة مصر للنشر
www.nahdetmisr.com

سبتيموس هيب

الكتاب الرابع

الرحلة

سبتيموس هيب

الكتاب الرابع

الرحلة

إنجي ساج

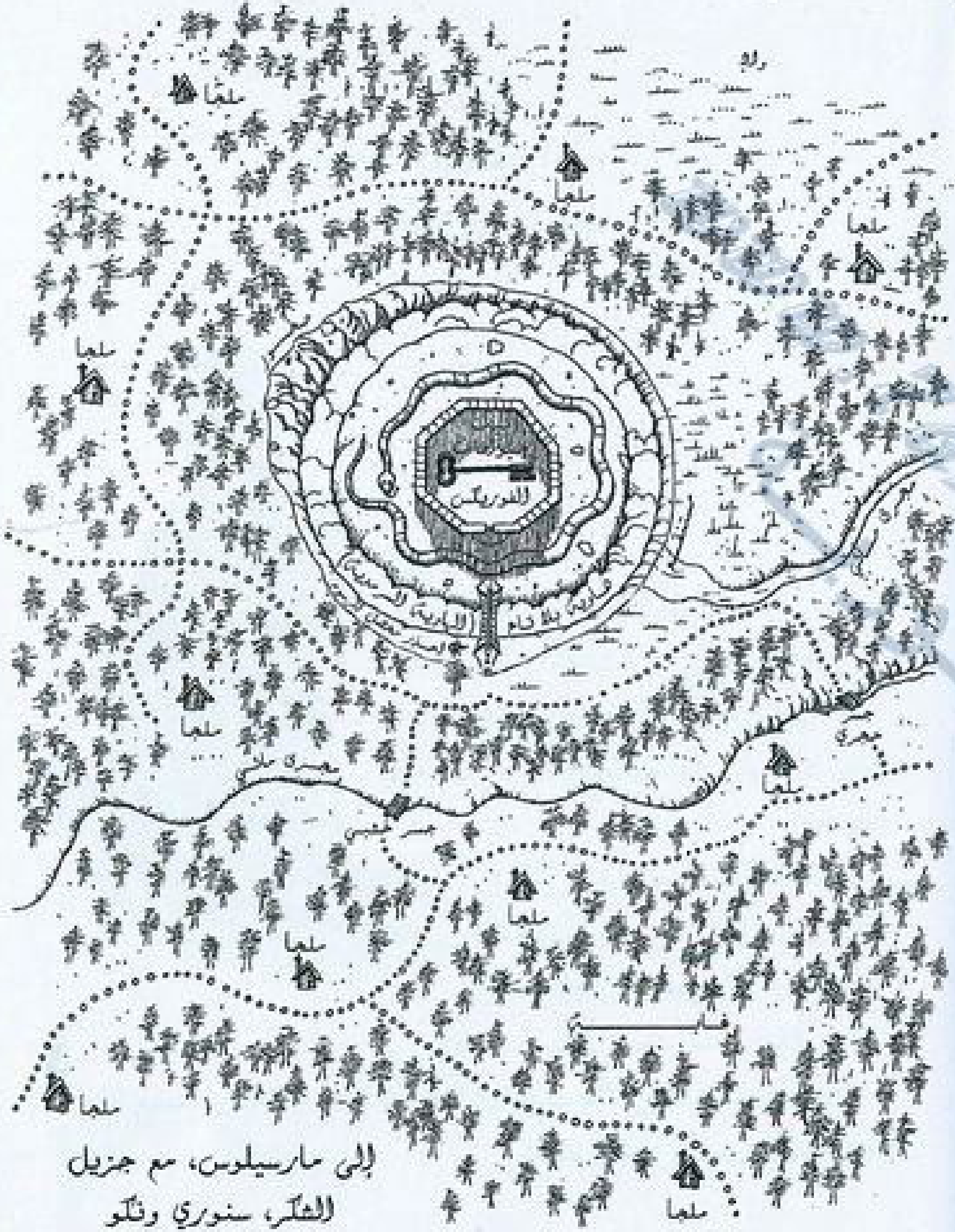
رسوم: مارك زوج

إلى كاترين
المحررة الخاصة بي
أشكرك

محتوى الكتاب

الرحلة

خريطة سنوري
إلى بيت الفوريكس



تمهيد:
نكو وسنوري



إنه يوم السوق الأسبوعي في «طريق السحرة». توقف فتى وفتاة أمام كشك يبيع سمك الرنجة المخللة. إن للفتى شعرًا أشقر ملفوفًا ومضفرًا بالنمط الذي سيسود بين البحارة في زمن مستقبلي لم يأت بعد، ويكسو عينيه الخضراوين تعبير جاد أقرب إلى الحزن، وهو يحاول أن يقنع الفتاة بأن تتركه يبتاع لها بعض الرنجة.

الفتاة أيضًا شعرها أشقر، لكنه أقرب إلى الأبيض، وهو منسال وطويل، يثبته شريط رأس جلدي من النوع الذي يعتمره تجار الشمال. تنظر الفتاة بعينيها الزرقاوين الباهتتين إلى الفتى قائلة له: «لا، لن أستطيع أن أتناولها، إنها تذكرني كثيرًا بموطني».

يرد عليها الفتى قائلًا: «ولكنك تعشقين الرنجة».

البائعة سيدة عجوز، وعيناها أيضًا زرقاوان باهتتان كعيني الفتاة، ولم تكن طوال هذا الصباح قد تمكنت من بيع سمكة واحدة، وتصر الآن على ألا تفوّت فرصة البيع هذه وتجعلها تفلت من يدها. فتقول للفتاة: «إذا كنت تحبين الرنجة فلا بد أن تجربي هذه؛ إنها مُصنعة كأفضل ما يكون، بالطريقة التي ينبغي أن يُخلل بها سمك الرنجة»، ثم تقطع قطعة وتغرس فيها عصا خشبية مدببة وتناولها للفتاة.

يقول الفتى شبه متوسل: «هيا يا سنوري، جربي هذه القطعة، أرجوكِ».

تبتسم سنوري وترد عليه قائلة: «حسنًا يا نكو. سأجربها من أجلك».

فتسألها البائعة: «لذيذة، أليس كذلك؟».

ترد عليها سنوري قائلة: «فعلًا، إنها لذيذة يا سيدتي. لذيذة جدًّا».

ثم يستغرق نكو في التفكير؛ إنه يرى البائعة تتحدث بنفس طريقة سنوري، فهي تنطق بنفس النبرة الغناءة التي تميزها، ولا تتحدث بالنمط القديم الذي اعتاد سماعه هو وسنوري في الشهور القليلة الماضية التي قضياها في هذا الزمن. فيسألها: «بعد إذنك، من أين أنت؟».

تعلو السيدة نظرة حزينة وترد قائلة: «لن تفهم إذا أخبرتك بذلك».

لكن نكو يصر ويقول لها: «لكنك لستِ من هذا البلد. لديَّ إحساس بذلك من طريقة كلامك. فأنت تتحدثين مثل سنوري»، ثم يحيط كتفي سنوري بذراعه فيحمر وجهها.

تهز المرأة كتفيها وترد قائلة: «هذا صحيح، أنا لست من هذه البلاد. أنا من بلاد أبعد بكثير مما يمكن أن يتصوره عقلك».

والآن تنظر سنوري إلى السيدة العجوز، ثم تتحدث إليها بلغتها هي؛ لغة زمنها الذي جاءت منه.

يبدو الإشراق على عيني السيدة العجوز، وهي تسمع لغتها يتم التحدث بها بالطريقة التي عرفتها وهي طفلة صغيرة، ثم ترد على السؤال الذي سألته سنوري على استحياء قائلة: «نعم، أنا إيلس لاروسدوتير».

تتحدث سنوري ثانية بلغتها إلى السيدة العجوز، فترد السيدة بحذر قائلة: «نعم، أنا لديَّ - أو كان لديَّ - أخت اسمها هيرديس. لكن كيف عرفتِ ذلك؟ هل أنتِ ممن يقرءون الأفكار؟».

تهز سنوري رأسها نافيةً، وتقول لها وهي لا تزال تتحدث بلغتها: «لا، لكنني رائية ترى الأرواح، مثل جدتي هيرديس لاروسدوتير، وكوالدتي ألفرون التي لم تكن قد وُلدت بعد عندما اختفت خالتها عبر لوح زجاجي».

تساءل نكو في سره: ما الذي قالته سنوري للسيدة العجوز وجعلها تحكم قبضتها فجأة على طاولة كشكها الهزيلة بكل هذا الاضطراب حتى ابيضت مفاصل أصابعها. وعلى الرغم من أن سنوري كانت تعلمه لغتها فإنها تحدثت مع السيدة العجوز بسرعة أكبر من السرعة التي اعتادها، والكلمة الوحيدة التي فهمها كانت كلمة «أمي».

* * *

وكان هذا هو ما حدث وأدى إلى أن تأخذ خالة والدة سنوري نكو وسنوري إلى بيتها المرتفع ذي الواجهة الضيقة في سور القلعة، ثم تلقي بعد ذلك بكتلة خشبية في موقدها المبلط وتقص عليهما حكايتها. وبعد ساعات طويلة، تغادر سنوري ونكو بيت الخالة إيلس ممتلئيْن بسمك الرنجة المخلل ومفعميْن بالآمال. لكن الأهم من كل هذا هو أن سنوري ونكو أصبح في حوزتهما الآن خريطة توضح طريق الوصول إلى بيت حيوانات الفوريكس، وهو المكان الذي تتلاقى فيه كل الأزمان. وفي مساء ذلك اليوم، نسخت سنوري نسختين من الخريطة، وأعطت إحداهما إلى مارسيلوس باي؛ الكيميائي الذي يقيمان في بيته. وظلا طوال الأسابيع القليلة التالية يقضيان الساعات تلو الساعات في التخطيط؛ استعدادًا للرحلة التي سيقومان بها إلى المجهول.

وفي يوم ملبد بالغيوم، وقف مارسيلوس باي على رصيف القلعة، ولوح لهما مودعًا مع استعدادهما للإبحار على متن مركبهما. وتساءل في سره ما إذا كان سيتسنى له أن يراهما مرة أخرى.. ولا يزال حتى الآن يتساءل.

I

إنهاء عمالة نكو



كانت جانيت مارتن، *بناءة المراكب*، في طريقها إلى القصر..

وهي امرأة نحيلة وخفيفة الحركة، تتميز بمشية واسعة الخطوات، وتربط شعرها من الخلف بالنمط السائد بين البحارة، وما كان سيخطر على بالها، ولا حتى في الأحلام، أنه سيأتي عليها يوم تربط فيه قاربها في «المنزلق الثعباني» قاصدةً بوابة القصر. لكن ها هي الآن، في يوم من أيام الربيع الملبدة بالغيوم، تفعل ذلك بالتحديد، ويخالجها إحساس تجاوز حدود التوتر بعض الشيء.

بعد عدة دقائق، كانت هيلدا جارد - الساحرة العادية المسئولة عن حراسة باب مدخل القصر - قد رفعت بصرها عن أوراق واجب المدرسة الليلة، والذي كان بعنوان «سياسة ومبادئ وممارسة **التحول**» فرأت چانيت مارتن وهي تسير بتردد على الجسر الخشبي العريض الذي يعبر الخندق المائي الزخرفي، ويؤدي إلى باب مدخل القصر. ومع سعادتها بالحصول على قسط من الراحة، هبت واقفة على قدميها، ثم قالت بابتسامة علت وجهها: «صباح الخير يا آنسة مارتن، أي خدمة؟».

ردت چانيت باندهاش: «أنت تعرفين اسمي؟».

ولم تذكر هيلدا جارد بالطبع لچانيت أن شغلها الشاغل هو معرفة كل اسم في القلعة، وقالت لها: «بالطبع أعرف اسمك يا آنسة مارتن. إن ساحة مراكبك أصلحت مركب أختي السنة الماضية، ولقد سرها كثيرًا مستوى الخدمة الذي حصلت عليه».

لم تعلم چانيت، بأي حال من الأحوال، من هي أخت هذه الساحرة العادية، لكن كان من المستحيل ألا تتساءل في سرها عن أي مركب تتحدث الساحرة، فچانيت لا تنسى أي مركب. فابتسمت لها على نحو أخرق، ثم رفعت عن رأسها طاقية البحارة البالية التي اعتمرتها اليوم خصيصًا بمناسبة زيارتها للقصر، والتي تُعد بالنسبة لچانيت بمثابة الرداء الرسمي والإكليل اللذين ترتديهما النساء في الحفلات.

قالت هيلدا جارد: «إن السيدات من ذوات المقام العالي مسموح لهن بأن يدخلن بقبعاتهن بكل ترحيب».

«ياه!» هكذا ردت چانيت وهي تتساءل في سرها ما علاقة ذلك بها؛ فهي لا تعتبر نفسها من ذوات المقام العالي.

ثم همت هيلدا جارد أن تسألها، مع اعتيادها الزوار الذين لا يتحدثون بسهولة: «هل هناك شخص محدد تريدين مقابلته؟».

أخذت چانيت تلف طاقيتها بين يديها، ثم قالت: «سارة هيب إذا سمحتِ».

«سوف أرسل لها رسولًا. أتودين أن أخبرها بالموضوع الذي جئتِ من أجله؟».

وبعد لحظة صمت طويلة، ردت چانيت وهي تحدق إلى طاقيتها: «نكو هيب».

«ياه! تفضلي بالجلوس وانتظري لحظة يا آنسة مارتن. سوف أرسل لك أحد الخدم ليصطحبك إليها».

بعد عشر دقائق، كانت سارة هيب التي ازداد نحولها الآن - وإن كانت لا تزال محتفظة بنفس خصلات الشعر الذهبية التي تميز أسرة هيب - تجلس إلى مائدة صغيرة في غرفة جلوسها، وتنظر إلى چانيت بعينين خضراوين يكسوهما القلق.

كانت چانيت تجلس على حافة أريكة ضخمة.. وعلى الرغم من توترها، فلم يكن هذا هو ما جعلها تجلس على حافة الأريكة، إنما سبب ذلك أن هذه الحافة كانت الجزء الوحيد الذي يمكن الجلوس عليه، ففيما عدا هذا الجزء، كانت الأريكة مفروشة بالأغراض العديدة التي

يبدو أنها دائمًا ما تصاحب سارة أينما ذهبت. وهكذا، جلست چانيت كالخط المستقيم، ينحشر خلف ظهرها عدد من أصص الزرع وكومة متأرجحة من المناشف تضفي إحساسًا بالدفء والراحة على المكان، ثم كادت تنتفض من مكانها لدى سماعها صوت وقوقة قادمًا من أسفل كومة من الملابس بجانب النار. ولدهش چانيت، رأت بطة وردية اللون، يغطيها ريش خفيف وترتدي معطفًا قصيرًا متعدد الألوان مشغولاً من الكروشيه، تنبثق من بين الكومة وتتوجه نحوها وهي تتبختر لتجلس بعد ذلك عند قدميها.

طقطقت سارة بأصابعها وقالت للبطة: «تعالي هنا يا إثيل»، فنهضت وذهبت إليها فرفعتها من على الأرض وأجلستها على «حِجرها»، ثم قالت مبتسمة: «إنها من الكائنات التي تربيها چينا. لم تكن من قبل من هواة تربية الحيوانات الأليفة، وإذا بها فجأة تربي اثنين منها. ما أغرب ذلك! إنني لا أعرف من أين أتت بهما».

ابتسمت چانيت بأدب واحترام، لا تعلم كيف تبدأ وتخبر سارة بما يجب أن تخبرها به. وبعد أن خيم عليهما صمت حائر، قالت أخيرًا: «لم أكن أعلم أن... أن القصر فسيح بهذا الشكل».

ردت سارة قائلة: «نعم، فسيح جدًا بالفعل».

«إنه رائع بالنسبة لأسرة كبيرة» هكذا ردت چانيت، ثم تمنت على الفور لو ما كانت قالت ما قالته.

قالت سارة بنبرة تشوبها المرارة: «هذا في حالة *إن* أراد أفراد هذه الأسرة أن يعيشوا معك، لكن ليس هذا هو الحال عندما يقرر أربعة منهم

أن يعيشوا في الغابة مع مجموعة من الساحرات، ويرفضوا العودة إلى أسرتهم، حتى ولو لمجرد الزيارة، ثم هناك سايمون بالطبع. أعلم أنه أخطأ، لكنه لا يزال أكبر أبنائي. *لكم أفتقده*، كنت أتمنى من كل قلبي لو كان معنا هنا ويعيش بيننا الآن. لقد حان الوقت كي يستقر. إنه أسوأ بكثير من لوسي جرينج رغم رأي والده، والقصر يمكن أن يسعهم جميعًا، ويسع أبناءهم أيضًا، وهناك ابني الأصغر سبتيموس. فبعد أن افترقنا طوال تلك السنوات الماضية، ها هو الآن يحبس نفسه أعلى برج السحرة مع مارشا أوفرستراند التي - بعد كل ذلك - تجرؤ كلما رأتني أن تسألني إذا ما كنت أستمتع الآن بزيارات سبتيموس المتكررة لي. أعتقد أنها ترى في ذلك نوعًا من الدعابة، بما أني لا *أكاد* أراه الآن. بل إنه منذ اختفاء نكو...».

قاطعتها چانيت مغتنمة الفرصة، وقالت: «ياه! نكو. إن هذا ما جئت... أعتقد أنه في وسعك أن تتكهني سبب زيارتي لكِ».

ردت سارة، والتي كان في وسعها ذلك لكنها لا تريد حتى التفكير في هذا الأمر وقالت: «لا».

«ياه!» هكذا قالت چانيت وهي تنظر للأسفل إلى طاقيتها، ثم بتعمد تام وضعتها على كومة خلفها فسقط قلب سارة فهي تعلم ما سيلي ذلك.

تنحنحت چانيت ثم قالت: «إن نكو اختفى منذ ستة أشهر.. وعلى حد علمي، لا أحد يعلم أين هو أو متى - أو بالأحرى *إذا ما كان بالفعل* - سيعود مرة ثانية. بل في واقع الأمر - وأنا في غاية الأسف وأنا أقول ذلك - لقد سمعت أنه لن يعود أبدًا».

احتبست أنفاس سارة؛ فلا أحد تجرأ من قبل وصارحها بهذا الكلام مباشرة.

«أنا في غاية الأسف يا سيدة هيب لحضوري هكذا، لكن...».

«أرجوكِ، ناديني بسارة، سارة فحسب».

«حسنًا، سارة فحسب، أنا أسفة جدًّا يا سارة، لكننا ما عاد في وسعنا مواصلة العمل بدون نكو، وموسم الصيف يقترب، وهناك المزيد من الحمقى المتهورين سوف يخرجون إلى البحر لمحاولة صيد بعض سمك الرنجة وجميعهم يريدون أن تكون مراكبهم جاهزة، هذا بالإضافة إلى أن بارجة الميناء ترسو لدينا في الساحة حاليًا *لإعادة* إصلاحها مرة أخرى بعد العواصف التي هبت علينا هذا الشهر؛ أي إننا جميعًا في الساحة تواجه أكثر المواسم ازدحامًا بالعمل. وأنا أسفة جدًّا، لكن مادام نكو مدرجًا لديَّ كتلميذ تحت التدريب، فوفقًا للقوانين الخاصة بالعمالة المتدربة في شركات بناء المراكب – وهي قوانين تزخر بحقول ألغام، لكن لا بد أن ألتزم بها – لا أستطيع أن أعين شخصًا آخر. وأنا في أمس الحاجة لتلميذ جديد، خاصة أن روبرت جرينج أوشك على أن ينهي فترة تدريبه المتعاقد عليها».

شبكت سارة هيب يديها تشبيكة محكمة، ولاحظت چانيت أن أظافر سارة مقضومة حتى آخرها. كانت سارة ترتعش، ولم تنطق لعدة ثوانٍ. وفي اللحظة التي فكرت فيها چانيت أن تكسر هذا الصمت، قالت سارة: «سوف يعود. أنا لا أصدق أنهم رحلوا إلى زمن في الماضي – فلا أحد يستطيع أن يفعل ذلك. لكن چينا وسبتيموس يعتقدان ذلك. من المؤكد

أنهما تعرضا لتعويذة شريرة؛ شريرة جدًّا. وأنا باستمرار أطلب إلى مارشا أن تكتشف سر هذا الأمر، فباستطاعتها أن تعثر على نكو، أعلم أنها تستطيع، لكنها لم تفعل شيئًا. *على الإطلاق*. إنه *كابوس مزعج!*»، وكانت نبرة اليأس في صوت سارة تزداد علوًّا.

همست چانيت قائلة: «آسفة جدًّا. أنا فعلًا آسفة جدًّا».

أخذت سارة نفسًا عميقًا، وحاولت أن تهدئ نفسها، ثم قالت: «إنه ليس خطأك يا چانيت. بل إن نكو في واقع الأمر استفاد كثيرًا منك، وقد كان يحب جدًّا العمل معك، وأنا أتفهم تمامًا حاجتك لتعيين تلميذ جديد، وإن كنت أود أن أطرح عليك سؤالًا».

ردت چانيت قائلة: «بالطبع، تفضلي».

«عندما يعود نكو، هل ستجددين تعاقدك معه كتلميذ لك؟».

ابتسمت چانيت، وقد أسعدها أن سألتها سارة عن شيء في وسعها أن توافق عليه: «بالطبع، ولسوف يسعدني ذلك. فحتى لو كنت قد عينت تلميذًا آخر حينها، فنكو سوف يأخذ مكان روبرت ويصبح هو تلميذي الأول، أو الصانع الماهر كما نسمي التلميذ الأول في الساحة عندنا».

ابتسمت سارة ابتسامة يشوبها الحزن وقالت: «عظيم، هذا مناسب تمامًا».

«والآن» هكذا بدأت چانيت كلامها وقد حانت اللحظة التي تخشاها، ثم واصلت قائلة: «أنا آسفة لو كنت سأزعجك وأطلب أن توقعي على أوراق إنهاء خدمة نكو»، ثم وقفت چانيت لتُخرج لفافةً من ورق الرق من

جيب معطفها ففقدت كومة المناشف اتزانها فجأة وسقطت مكان جانيت.

أخلت جانيت مكانًا على المائدة، ثم بسطت اللفافة الطويلة التي تمثل عقد عمالة نكو. وأخيرًا، ثبتت طرفيها بما وقع في يدها - وشمل ذلك رواية معروفة هي قصة حب *في أعالي البحار*، وباكو بسكويت كبير الحجم.

حبست سارة أنفاسها وهي ترى أمامها توقيع نكو الملتوي في أسفل الصفحة مرفقًا بتوقيعها هي وجانيت.

وفي عجالة، وضعت جانيت فوق التوقيعين ورقة إنهاء عمالة نكو وهي قصاصة صغيرة من ورق الرق، ثم قالت: «أنا مضطرة الآن لأن أطلب منك يا سارة بصفتك من الموقعين على عقد العمل - أن توقعي على ورقة إنهاء عمالة نكو. معي قلم إذا كان... إذا كان سيتعذر عليك العثور على واحدٍ الآن».

وبالفعل لم تتمكن سارة من العثور على قلم، وأخذت القلم والمحبرة اللذين أخرجتهما جانيت من الجيب الآخر من معطفها، ثم غمسته في الحبر ووقعت على ورقة إنهاء عمالة نكو - كأنها توقع شهادة رحيله عن الدنيا. وهنا، سقطت دمعة من عينها على الحبر فافترش الورقة؛ لكنَّ كلتيهما تظاهرت بأنها لم تلحظ شيئًا.

وقعت جانيت باسمها بعد ذلك بجانب توقيع سارة، ثم أخرجت من جيب علوي من معطفها إبرة بها خيط قطني سميك من الخيوط التي

يستخدمها البحارة، وحاكت بهما ورقة إنهاء عمالة نكو فوق التوقيعات السابقة.

وهكذا، تم إنهاء التعاقد الذي كان نكو بموجبه قد تم تعيينه تلميذًا متدربًا لدى جانيت مارتن.

وعلى الفور، اختطفت جانيت الطاقية القابعة باتزان خلفها وخرجت، ولم تلحظ، إلا عندما وصلت إلى مركبها، أنها أخذت قبعة سارة التي تعتمرها أثناء عملها في الحدائق، لكنها اعتمرتها رغم ذلك، وأخذت تجدف ببطء عائدة إلى ساحة مراكبها.

وجد سايلاس هيب والكلب الذئبي ماكسي سارة في حديقتها التي تزرع فيها أعشابها، وكانت سارة - لسبب لم يفهمه سايلاس - تعتمر طاقية من طواقي البحارة، كما كان في صحبتها بطة چينا. لم يكن سايلاس متحمسًا لهذه البطة؛ فكلما نظر إلى ريشها الخفيف اقشعر بدنه، كما أنه يرى في المعطف القصير المشغول بالكروشيه الذي ترتديه البطة إشارة على أن سارة بدأت تصاب بلوثة في عقلها.

قال سايلاس - وهو يسير على امتداد الممر العشبي المعتنَى به بدقة - متوجهًا نحو الحوض المزروع بالنعناع الذي كانت سارة تحفر فيه الآن بذهن شارد: «ها *أنت* يا سارة. لقد بحثت عنك في كل مكان».

ردت سارة عليه بابتسامة فاترة، ولم تجازف بإبداء أدنى اعتراض عندما كان هو وماكسي يقتحمان رقعة الأرض غير المسورة المزروعة بالنعناع. بدا سايلاس مهمومًا كما هو حال سارة، ولقد تسلل إلى

خصلات شعره الذهبية مؤخرًا لون رماديٌّ، وكانت عباءته الزرقاء الخاصة بالسحرة العاديين تتدلى فضفاضة على جسمه، كما ثبت حزامه الفضي الخاص بالسحرة العاديين في ثقب، أو اثنين، أضيق من المعتاد. وصل سايلاس إلى سارة، تصاحبه الرائحة النفاذة لأوراق النعناع المهروسة، ثم انطلق مباشرة في حديثه المعد سلفًا، وقال: «لن يعجبك كلامي يا سارة، لكني اتخذت القرار. سوف نذهب أنا وماكسي إلى الغابة ولن نغادرها إلا عندما نعثر عليه».

رفعت سارة البطة واحتضنتها بقوة بين ذراعيها، فصاحت البطة بوقوقة مختنقة، ثم ردت سارة عليه قائلة: «أنت مجنون وعنيد يا سايلاس. لقد سبق أن قلت لك مرارًا وتكرارًا إنك إذا تمكنت فحسب من أن تضغط على مارشا وتجعلها تتصرف مع هذا **السحر الأسود** البشع الذي حبس نكو في مكان ما، فسوف يعود حينها على الفور. لكنك لا تريد أن تفعل ذلك، وتواصل رحلات الذهاب والإياب من وإلى الغابة...».

تنهد سايلاس وقال: «لقد ذكرت لكِ من قبل أن مارشا تقول إن هذا ليس **سحرًا أسود**، فلا داعي إذن لأن ألح عليها مرة تلو أخرى». نظرت سارة إلى سايلاس شزرًا، فحاول مرة أخرى متخذًا منحى آخرَ، وقال: «اسمعي يا سارة، لن أستطيع أن أظل هكذا مكتوف اليدين. إن هذا يقودني إلى الجنون. لقد مضى الآن ستة أشهر منذ عودة جينا وسبتيموس بدون نكو، ولن أنتظر أكثر من ذلك، وأنت يراودك نفس الحلم الذي يراودني. إنكِ *تعلمين* أن هذا له مدلول ما».

تذكرت سارة الحلم الذي رأته بعد مرور عدة شهور من اختفاء نكو؛ فقد رأت نكو يسير وسط غابة في أعماق الثلوج، وكان ذلك وقت الشفق، وأمامه ضوء أصفر أخذ يبرق بين الأشجار، وكانت هناك فتاة تقف إلى جواره، والفتاة، كما قالت سارة في سرها، بدت بالكاد أطول وأكبر منه. كان شعرها أشقر مائلًا إلى الأبيض وطويلًا، وتلتحف بفروة من فراء حيوانات الولڤرين، وكانت تشير إلى الضوء الذي يبرق أمامهما، ثم أمسك نكو بيدها، وهرعا معًا نحو الضوء. وفي تلك اللحظة كان سايلاس قد بدأ غطيطه الذي أيقظ سارة من النوم منتفضة. وفي اليوم التالي، حكى لها سايلاس بحماس الحلم الذي رآه لنكو. ولدهش سارة، كان حلمه صورة طبق الأصل لحلمها.

ومنذ ذلك الوقت، بات سايلاس مقتنعًا بأن نكو في الغابة، وأراد الخروج للبحث عنه. لكن سارة لم توافقه الرأي؛ فالغابة التي رأتها في الحلم، وكما قالت لسايلاس، لم تكن غابة القلعة؛ لقد كانت مختلفة، ولم يساورها أدنى شك في ذلك. لم يوافقها سايلاس بدوره الرأي، وقال لها إنه يعرف الغابة، وهو *واثق* بأن التي رآها كانت غابة القلعة.

وعلى الرغم من أن سارة وسايلاس عادة لا يتفقان في الرأي في معظم الأوقات عندما يجلسان معًا - فإنهما سرعان ما كانا يتوصلان إلى حلول تصفي خلافاتهما، وكثيرًا ما يكون ذلك عندما يعود سايلاس ومعه طاقة من الورد البري أو الأعشاب يقدمها لسارة حتى يعيد المياه إلى مجاريها. لكن هذه المرة اختلف الوضع، ولم تعد المياه إلى مجاريها؛ إذ أخذ الجدال بينهما حول الغابات تتصاعد فيه نبرة المرارة، وسرعان ما فقد

كل منهما القدرة على رؤية السبب الحقيقي لتعاستهما؛ ألا وهو اختفاء نكو.

لكن الآن وقد اصطدم سايلاس لتوه بجانيت مارتن أثناء مغادرتها القصر، وهي تحمل معها أوراق إنهاء عمالة نكو، استقر به الرأي ولسوف يرحل إلى الغابة ليبحث عنه، ولن يمنعه *أحد* عن ذلك - وسارة خاصةً.

2

حرًّا!



قال *سايمون هيب لمساعده التعس ميرين ميريديث*: «أطعم كائنات المأجوج، وإياك أن تقترب من سلوث، أو أن تتطفل وتعبث في غرفتي، مفهوم؟».

رد ميرين بسخط قائلًا: «مفهوم، مفهوم». كان يجلس بفتور واسترخاء على المقعد الوحيد المريح في غرفة المرصد، وشعره الداكن الجعد ينسدل على وجهه بشكل عشوائي، حاجبًا حبة كبيرة تتوسط جبينه كانت قد انبثقت بين عشية وضحاها.

ثم كرر سايمون كلامه متمتمًا: «*هل كلامي واضح*؟».

همهم ميرين وقد أخذ يؤرجح قدميه الطويلتين مع اصطدامهما بالمقعد يصاحبهما صوت منتظم مثير للأعصاب، وقال: «لقد سبق *أن قلت* لكَ مفهوم، أليس كذلك؟».

ثم قالت له لوسي جرينج: «وخير لك أن تحافظ على المكان مرتبًا. فأنا لا أريد لدى عودتي أن أراه في حالة مزرية».

هب ميرين واقفًا، وانحنى انحناءة ساخرة للوسي وهو يقول لها: «تحت أمر فخامتك. هل تأمرين فخامتك بأي شيء آخر؟».

بدأت لوسي تقهقه.

فقطب سايمون جبينه، ثم قال لها بتوتر: «هيا بنا يا لوسي. فليس أمامنا وقت إن كنتِ تودين الوصول إلى الميناء قبل حلول الظلام».

«انتظر لحظة، أريد أن أجلب...».

«إن *حقيبتك* و*معطفك* معي يا لوسي. هيا بسرعة الآن»، ثم عبر سايمون غرفة المرصد بخطوات واسعة تدك الإردواز الأسود مصدرة صوتًا أجوف، ليتوارى عن الأنظار بعد ذلك مع مروره عبر المدخل الجرانيتي المقنطر المؤدي إلى السلم، ثم تردد صدى صوت سايمون بين جدران السلم ووصل إلى ميرين وهو يقول له: «وإياك يا ميرين أن تقدِم على أي تصرف غبي».

ركل ميرين المقعد بغضب، وتطايرت في الهواء سحابة من الأتربة والعثة المضطربة. إنه ليس غبيًا، إنه ليس وليس *وليس* غبيًا. لقد ظل سيده القديم دومدانيال يُطلق عليه (الغبي) على مدار السنوات العشر

الأولى من حياته ولقد طفح به الكيل الآن. وكان ميرين طوال تلك السنوات يُعرف خطأً باسم سبتيموس هيب، لكنه مهما كدَّ وحاول، لم يكن سوى بديل ضعيف لسبتيموس الحقيقي. ولم يُدرك دومدانيال قطُّ هذا الخطأ، أو السبب الذي كان يجعل تلميذه المنحوس لا يُفلح أبدًا فيما يقوم به.

وبتجهم، عاد ميرين مرة أخرى يجلس مستندًا إلى ظهر المقعد القديم، وأخذ يراقب لوسي جرينج بضفائرها وشرائطها وهي تتطاير خلفها في الهواء بينما كانت تجري هنا وهناك تجمع ما يتبادر إلى ذهنها في اللحظة الأخيرة من أغراض تحتاج إليها.

وأخيرًا، باتت لوسي جاهزة، ثم خطفت في طريقها الكوفية متعددة الألوان التي كانت قد نسجتها بالتريكو لسايمون أثناء ليالي الشتاء الطويلة التي قضتها في محل (فطائر الميناء والرصيف)، عندما هربت من البيت لتلحق به. وبينما كانت في طريقها للاختفاء هي أيضًا وسط ظلام المدخل الجرانيتي المقنطر، لوحت لميرين بيدها بشكل خاطف، فتلاشت التكشيرة الغاضبة التي كانت تكسو وجهه، ورد إليها تحيتها؛ فلوسي، بشكل أو بآخر، تستطيع دومًا أن تجعله يبتسم.

ومع شعورها بالسعادة أخيرًا بابتعادها عن المكان الذي تعتبره أكثر الأماكن كآبةً في العالم، كانت قد نسيت أمر ميرين، بينما كان هو يستمع إلى الصوت الأجوف لحذائها الطويل مع بداية رحلة النزول الطويلة التي ستأخذها إلى جحر الدودة البارد الرطب، والذي تكسوه المادة اللزجة التي تفرزها الدودة، ويعد حظيرة لرعد؛ حصان سايمون.

وبينما بدأ صوت حذاء لوسي الطويل يتلاشى شيئًا فشيئًا، وحل محله صمت مطبق، همَّ ميرين بتنفيذ ما خطط له؛ فأمسك بقائم طويل، وبسرعة بدأ يسدل الشيش الأسود الذي يغطي النافذة السقفية للغرفة – وهي غرفة تنبثق من بين النجيل الخشن والكتل الصخرية عند قمة منحدرات صخور الإردواز الشاهقة، وتُعد الجزء الوحيد من المرصد الظاهر فوق سطح الأرض. ومع إسدال ميرين شيشًا وراء آخر، بدأ الظلام يخيم على الغرفة الشاسعة رويدًا رويدًا إلى أن عمَّها ضوء خافت أشبه بالشفق، ثم توجه ميرين إلى (الحجرة المظلمة) – وهي القرص المقعر العريض الذي يشغل مركز الغرفة مستديرة الشكل – وراح يحملق فيه بتعبير تملؤه النشوة. فما بدا في ضوء شمس بداية الصباح الذي كان يتدفق عبر النافذة السقفية قرصًا أبيض خاويًا تحول الآن إلى قرص يُعرض مشهدًا ملونًا ومفصلًا جميل الشكل. وراح ميرين، مفتونًا بالمنظر الذي يمتد أمامه، يراقب صفًّا من الأغنام الصامتة تتحرك بتمهل دون عجلة على امتداد قمة المنحدرات الصخرية التي تعلو الخور، مع انجراف السحب الوردية التي تصاحب شروق الشمس ببطء خلفها.

مد ميرين جسمه عاليًا وأمسك بقائم طويل يتدلى من مركز النافذة السقفية، وبدأ يحركه فأخذ القائم يصدر صريرًا معترضًا عند غطاء صغير يقع لدى قمة النافذة السقفية، وهو المكان الذي يحمل العدسة التي تعكس صورة المشهد الخارجي على القرص في الأسفل. ومع مواصلة ميرين تحريك الغطاء ببطء في حركة دائرية كاملة، بدأ المشهد الممتد أمامه يتغير، عارضًا منظرًا عامًّا صامتًا للعالم الخارجي، قام ميرين بلفة

كاملة حول دائرة القرص من باب المرح، ثم توجه نحو البقعة التي يريد أن يراقبها. وهنا، ترك القائم فسكت الصرير، ثم انحنى للأمام وهو يزيح شعره الأسود المتشابك بعيدًا عن عينيه، وأخذ يدقق النظر في المشهد الممتد أمامه الآن.

كان القرص يُظهر ممرًّا طويلًا متعرجًا يلتف بين كتل صخرية، وعلى يمين الممر كان هناك خور عميق، وعلى يساره ارتفعت منحدرات من صخور الإردواز شديدة الانحدار، لا يعترضها بين حين وآخر سوى انهيار صخري أو سقوط شلالات من الركام. انتظر ميرين بصبر إلى أن ظهر رعد أخيرًا؛ كان الحصان يسير في طريقه ببطء، يقوده سايمون بحرص شديد وهو ملتحف بعباءته السوداء، يحتمي بها من برد الصباح الباكر، كما كان يلف حول عنقه ووجهه كوفية لوسي التي كان طرفها يلتف حول عنقها هي أيضًا. كانت لوسي تجلس خلف سايمون ملتحفة بعباءتها الزرقاء الثمينة، ويداها تحكمان تشبثها حول خصره.

ابتسم ميرين وهو يراقب الحصان بصمت فوق القرص؛ فهو الآن – وكما قال في سره – يودعهما مع رحيلهما من هنا. وبينما كان يراقب «رعد» وهو يتقدم في طريقه ببطء، هنأ نفسه؛ لأنه هو الذي خطط لهذا السيناريو برمته. فمنذ اللحظة التي حضرت فيها لوسي جرينج منذ عدة أسابيع – وفي صحبتها جُرذ في غاية الإزعاج، هو أيضًا ودعه من هنا بركلة مُحكمة التصويب – بدأ يخطط. ولقد تجلت له فرصته أسرع مما كان يتوقع. فلوسي أرادت شراء خاتم ليس كأي خاتم، إنها تريد خاتمًا من *الألماس*، وكان ما يُدهش ميرين هو سرعة انصياع سايمون لكثير من آراء

لوسي حول العديد من الأمور حتى في موضوع الخاتم الألماسي، ومستغلًّا فرصته، اقترح ميرين عليهما أنه يستطيع أن يتولى حراسة المرصد وفي تلك الأثناء يستطيع سايمون أن يصطحب لوسي إلى الميناء ليبحثا عن الخاتم المناسب. ووافق سايمون؛ حيث كان يخطط أيضًا للقيام بزيارة لتصفيات بضائع مخزن دراجو ميلز التي طالما تحدث عنها الجُرذ. ولقد بدأت هذه التصفيات بعد أسبوع من وفاة صاحبة المخزن، وفيما يبدو أنها تصفيات تزخر بصفقات من أدهش ما يكون. إلا أن لوسي جرينج كان لديها مخطط آخر؛ لقد استقر بها الرأي على الخاتم الذي تريده بالتحديد، وهو بالطبع *لن* يكون ضمن تصفيات بضائع مخزن دراجو ميلز.

وأخيرًا، تكلل صبر ميرين بالنجاح ورأى «رعد» وهو يصل براكبيْه إلى طرف القرص. ومع اختفاء ذيل الحصان، أطلق ميرين صيحة تعبر عن فرحة الانتصار؛ لقد أصبح أخيرًا - وبعد طول انتظار - بعد أن ظل طوال حياته يُملى عليه ما يفعله - *حرًا*!

3
دليل السحر الأسود



جذب ميرين من مخبئه *أسفل* حشيته كتابًا غير سميك، له غطاء جلدي وصفحات مطوية الأطراف، وكلمات عنوانه - دليل ***السحر الأسود*** - مدونة بأحرف سوداء باهتة. وابتسم ميرين؛ فأخيرًا سيستطيع أن يقرأ في الكتاب دون أن يضطر لأن يختبئ من سايمون هيب الفضولي ولوسي جرينج المزعجة؛ فهي أسوأ من سايمون نفسه، وتقضي معظم الأوقات تزعجه بأسئلة، منها على سبيل المثال: *ماذا تفعل*

يا ميرين؟»، أو «ماذا تقرأ يا ميرين؟ أرني ما معك. ياه! هيا واصل قراءتك، ولا داعي لأن تكون سريع الغضب هكذا يا ميرين».

ولقد ظل ميرين منبهرًا بهذا الكتاب منذ أن عثر عليه في آخر دولاب مترب طلب إليه سايمون أن ينظفه؛ فكتاب دليل **السحر الأسود** يخاطب ميرين باللغة التي يفهمها؛ فهو يفهم التعاويذ، والقواعد والقوانين - وأحب على وجه الخصوص من الكتاب القسم الذي يعلمه كيف يكسر القواعد والقوانين؛ إنه كتاب ألفه شخص يستطيع ميرين أن يفهمه.

ولقد اعتاد ميرين في المساء أن يصطحب معه أنبوبًا مملوءًا بـ«اليرقات الدودية المضيئة» إلى غرفته الصغيرة التي يفصلها عن غرفة المرصد الآن ستار (بعد أن حولت جينا ذات مرة الباب إلى كتلة من الشيكولاتة)، ويواصل القراءة أسفل أغطيته لساعات. ولقد لاحظ سايمون الضوء، وكان يستفز ميرين، ساخرًا من خوفه من الظلام، لكن ولمرة واحدة أخيرًا، لم يستفزه ذلك. فقد جاء ذلك لصالحه؛ إذ كفَّ سايمون بعد ذلك عن سؤاله عن ذلك الضوء الذي يظل متوهجًا حتى ساعات الصباح الباكر. فإذا كان هذا هو ما يريد سايمون أن يعتقده، فلا بأس إذن. وسوف يأتي اليوم الذي سيكتشف فيه سايمون هيب أن ميرين لا يخشى الظلام، أو بالأصح لا يخشى **السحر الأسود**.

أضاء ميرين الآن كل الشموع التي عثر عليها - بما أن سايمون يبخل في استخدامها ولا يسمح إلا بإشعال واحدة في كل مرة - ورصها حول محيط غرفة المرصد الشاسعة فتحول ضوء الغسق الخافت الذي كان يخيم على الغرفة بعد أن أسدل ميرين الشيش إلى ضوء ساطع ودافئ

يصدر عن الشموع. وأقنع ميرين نفسه بأنه فعل ذلك لأنه يحتاج إلى ضوء كافٍ للقراءة، لكن سايمون كان محقًّا بعض الشيء فيما قاله في هذا الشأن؛ فميرين يخشى الظلام - لاسيما عندما يكون بمفرده.

وقرر ميرين أن يستمتع بوقته، فأغار على المطبخ الذي يشغل فراغًا صغيرًا جدًّا، باحثًا عن بقايا من فطائر لوسي فعثر على شريحتين من اللحم والكلاوي، ودجاجة وعيش غراب وفطائر صغيرة بالتفاح المهروس، ثم سكب لنفسه ملء فنجان كبير من عصير التفاح الخاص بسايمون، ثم وضع كل ذلك على مائدة صغيرة جدًّا تكتنف سريره الضيق المتكتل، وأضاف إلى كومة الطعام هذه بعض قطع الشيكولاتة التي كانت في الأصل بابًا، عثر عليها في ركن مترب أسفل السرير. وأخيرًا، ذهب وجلب البطانية الصوف الثقيلة التي تفترش سرير سايمون؛ فميرين يكره الشعور بالبرد، وإن كان هذا هو ما يشعر به عادة، بما أن المرصد، والذي شُق في أعماق منحدرات صخور الإردواز، يخيم عليه برد قارس ينخر العظام.

وسعيًا لقضاء يوم يفعل فيه ما يحلو له بحرية تامة، التحف بالبطانية، وبدون أن يكترث حتى بخلع حذائه، صعد على السرير وبدأ يلتهم ذخيرة الطعام التي أعدها لنفسه. وبحلول منتصف النهار، كان كتاب ميرين قد سقط على الأرض، وكان ميرين يغط في سُبات عميق وسط بحر من كسرات الفطير وقطع من الشيكولاتة وبعض القطع المستبعدة من الكلاوي، فقد عزف ميرين عن تناول الكلاوي منذ أن أخبره سايمون عن وظيفتها في الجسم.

بدأت شعلات الشموع المضاءة في المرصد تنطفئ واحدة تلو أخرى، بنيما ظل ميرين مستغرقًا في نومه، إلى أن أفزعته بقبقة شعلة الشمعة الأخيرة مع انطفائها، فاستيقظ في حالة من الهلع. فقد سقط الليل وكان الظلام حالكًا، ولا يتذكر أين هو فانتفض من فراشه ليصطدم بقائم السرير، وأثناء رجوعه للوراء رأى قرص الحجرة المظلمة تنيره حزمة ضوئية وجدت طريقًا لها بين شيش النافذة السقفية. وبعد أن خفت حدة هلعه، أخرج علبة الكبريت وبدأ يشعل شموعًا جديدة، وسرعان ما كان المرصد يتوهج بضوء الشموع الدافئة الذي أضفى على الغرفة جوًا مريحًا - إلا أن ما كان يخطط له ميرين أوشك الآن أن ينتزع من الغرفة هذا الإحساس الدافئ والمريح إلى أبعد الحدود.

رفع كتاب دليل **السحر الأسود** من على الأرض وفتحه على الصفحة الأخيرة التي كان عنوانها كالتالي:

تسويد مصير شخص آخر
أو تدمير عدوك باستخدام
الخاتم ذي الوجهين
وصفة جربها واختبرها
بنجاح باهر مؤلف الكتاب

كان ميرين يحفظ هذا الجزء عن ظهر قلب، لكنه لم يجرؤ على تجاوز هذه الأسطر من قبل بسبب السطر التالي الذي كان يقول:

لا تقرأ المزيد إلى أن تكون مستعدًا لتنفيذ مهمتك
وإلا فسوف تنقلب الأمور عليك

ازدرد لعابه؛ فقد بات الآن مستعدًا للتنفيذ، وشعر بجفاف فمه فلعق شفتيه اللتين كانتا بمذاق الفطائر غير الطازجة - وهو مذاق غير لطيف. فذهب وجلب كوبًا من الماء، ارتشفه بصعوبة، ثم تساءل في سره ما إذا كان من الأفضل أن يُرجئ الأمر إلى الليلة القادمة، لكنه لم يستحسن فكرة قضاء ليلة أخرى كئيبة بمفرده في المرصد، فضلًا عن احتمال عودة سايمون ولوسي في أي وقت. لا بد إذن من التنفيذ الآن. ومن ثم، بدأ ميرين يقرأ السطور التالية وهو يخالجه إحساس بالخوف أحدث اضطرابًا في معدته:

*أولا، **استدعِ الشيء** خادمك*

كان قلب ميرين يخفق بشدة؛ إنها خطوة مرعبة؛ إذ إن **استدعاء الأشياء** عملية لا يجرؤ عليها حتى سايمون نفسه. لكن الآن، وقد بدأ، لا يجرؤ على التوقف. وبحذر، سحب ميرين **الوصفة السحرية للاستدعاء** من جيب في أسفل الصفحة وكأنه يسحب عنكبوتًا شريرة جدًا من بيتها. كانت **الوصفة السحرية** - والتي كانت عبارة عن شريحة من الألماس الأسود رقيقة جدًا - باردة كالثلج في ملمسها. وكما أشارت إليه التعليمات، أمسك ميرين بالألماسة قبالة قلبه، وبينما كانت برودة قطعة

الألماس تتغلغل في أعماق صدره، بدأ يلقي كلمات **الاستدعاء** ولكن لم يحدث أي شيء. فلا رياح هبت، ولا اضطرابات في الجو حدثت، ولا ظلال عابرة ظهرت - لا شيء من كل هذا حدث على الإطلاق، وظلت الشموع مشتعلة بثبات، وبدا المرصد خاويًا كعادته، فحاول مرة أخرى ولكن دون جدوى.

وبدأ يتسلل إليه إحساس رهيب - فما يُقال عنه إذن صحيح، إنه *بالفعل* غبي. ومرة أخرى، أعاد قراءة السطور وهو ينطقها ببطء ولكن لم يحدث شيء هذه المرة أيضًا. أخذ ميرين يعيد ويزيد في قراءتها مرة تلو أخرى، مقتنعًا بأنه من المؤكد أنه في كل مرة يفوته إدراك شيء ما واضح للعيان - شيء كان سيدركه على الفور أي شخص آخر ولو كان بنصف عقل. ومع ذلك، لم يظهر أي **شيء** على الإطلاق. فبدأ يستشيط غضبًا، وأخذ يصيح بكلمات **الاستدعاء** - بلا أي جدوى، ثم همس بكلماتها، ثم ألقاها متوسلًا، ثم تغنَّى بها.. ومع شعوره باليأس، صاح بكلماتها معكوسة، دون أن يسفر كل هذا مطلقًا عن أي شيء. ومن فرط الإرهاق، انهار يائسًا على الأرض؛ لقد جرب كل شيء يمكن أن يفكر فيه، ولم ينجح كالمعتاد.

لكن ما لم يكن ميرين يعلمه أن **استدعاءاته** - جميعها بلا استثناء - نجحت بالفعل، وبات المرصد في واقع الأمر مملوءًا عن آخره الآن **بالأشياء**، إلا أن المشكلة كانت تكمن في أنه لم يكن في وسعه رؤيتها.

فبوجه عام، تُعد رؤية **الأشياء** أمرًا مستحيلًا وهذا لحسن الحظ؛ لأن منظرها لا يسر. فمعظم **الأشياء** لها هيئة بشرية، وإن كان لا يمكن تحديد

ما إذا كانت لأنثى أم لذكر، **والأشياء** عمومًا طويلة القامة، ونحيلة بالدرجة التي تجعلها قريبة الشبه بالهياكل العظمية، كما أنها ضعيفة وهزيلة إلى أقصى حد، ولا ترتدي من الملابس سوى مجموعة من الخرق البالية داكنة اللون. أما ملامحها فتكسوها تعبيرات بائسة وأحيانًا يائسة، مع امتزاجها بتعبير ينمُّ عن حقد دفين يترك لأسابيع إحساسًا باليأس والقنوط في نفوس سيئي الحظ من ذوي المشاعر المرهفة الذين تصادف وتلاقت نظراتهم بنظرات **الأشياء**. وميرين له عمة اسمها إدنا ينطبق عليها هذه الأوصاف إلى حد التطابق شبه التام، ومع ذلك لو قارن بين عمته إدنا **والشيء** لاستطاع أن يميز وجه الاختلاف بينهما؛ لأن **الأشياء** تبدو أشبه بالأموات.

وما لبث ميرين بعد ذلك أن قرأ الجزء الثاني من التعليمات، والتي كانت تقول:

*والآن خاطب **الشيء**،*

اطلب أن تراه.

وانزع عنه خاصية الخفاء.

فإذا به يصرخ مدركًا فجأة هول ما حدث. وبغضب، رمى الكتاب على الحائط؛ فكيف كان سيتسنى له معرفة أن **الأشياء** غير مرئية؟ لماذا لم يذكر الكتاب ذلك من قبل؟

وبعد نصف ساعة، كان قد هدأ. ولعلمه أن ليس هناك بدٌّ ولا بد أن يواصل، رفع الكتاب من على الأرض، وعاد إلى الصفحة التي باتت جعدة الآن، ثم بدأ يتبع التعليمات المذكورة. وهكذا، بدأ يقرأ السطور التي ستمكنه من **رؤية الأشياء**، ثم أغمض عينيه وعد إلى الرقم 13، ثم فتح عينيه وهو مرعوب - فإذا به يصرخ؛ إذ وجد ميرين نفسه *محاطًا* **بالأشياء**، كان هناك ستة وعشرون **شيئًا** تشعر بالظلم والاضطهاد والانزعاج منه، وكل منها يقول في سره ألا يرى أني أكفيه.. وراحت جميعها تُحدق به، وكانت شفاهها تتحرك، وتغمغم وتئن لكن دون أن يُسمع لها صوت. كانت تقف بهامات فارعة الطول إلى جواره، وأخذت تحملق فيه بنظرات تنفذ إلى أعماقه، حتى إنه شعر - وهو ليس من ذوي المشاعر المرهفة - بإحساس عميق بالكآبة يخالجه. فقد بدأت الأمور - وكما قال في سره - تسوء على نحو رهيب. لقد كان سايمون محقًّا، والجميع أيضًا كانوا محقين؛ إنه بالفعل غبي. لكن ليس هناك بد الآن، ولا بد أن يواصل، وإلا - وكما ذكر الكتاب - سوف تنقلب الأمور عليه. وبإحساس مزعج بالاضطراب في معدته، قرأ ميرين السطرين التاليين:

*والآن خذ معك **الشيء** خادمك؛*

ليبحث عن الخاتم ذي الوجهين ويجلبه لك.

وهنا، خفق قلبه وهو يقرأ عبارة الخاتم ذي الوجهين؛ فحتى اليوم لاتزال الكوابيس تراوده حول هذا الخاتم.

فمنذ بضعة أشهر، كان سايمون ينظف المرصد متذمرًا، يشتكي بصوت مسموع من إهمال ميرين، وكان ميرين في تلك الأثناء مختبئًا في المخزن. وبينما كان يلتهم، خلسةً، ذخيرة سرية من المقانق الباردة، إذا به يسمع صراخ سايمون. كاد ميرين يختنق وهو يبتلع الطعام؛ فسايمون ليس من عادته الصراخ. وما إن خرج ميرين من مخبئه مترنحًا وهو يشهق ويسعل حتى رأى منظرًا بشعًا جدًا؛ كانت هناك مجموعة منفرة من العظام قريبة الشبه بالمطاط، تكسوها مادة لزجة سوداء متلألئة، أخذت تلاحق سايمون ببطء في أنحاء غرفة المرصد. وكان سايمون يتقهقر للوراء، متشبثًا بكيس القمامة بين ذراعيه، وكأنه درع يحتمي به، ووجهه يكسوه رعب ما بعده رعب.

علم ميرين في التو من هو صاحب العظام؛ إنها عظام سيده القديم دومدانيال، وكان الخاتم هو الذي كشف له ذلك؛ إذ كان الخاتم السميك ذو الوجهين المصنوع من الذهب واليشم - والذي كان دومدانيال يلبسه دائمًا في إبهامه - يتلألأ وسط لمعان العظام السوداء. «إن هذا الخاتم»، وكما قال له دومدانيال ذات يوم، «يمنح الخلود. فمن يلبسه يصبح خالدًا. وبما أني ألبسه فأنا خالد. تذكر ذلك أيها الفتى!»، ثم ضحك وهز إبهامه الوردية السمينة في وجه ميرين.

وقد أخذ ميرين يراقب العظام حينها وهي تضيق الخناق على سايمون المذعور، وكان يُنصت إلى صوت قادم من مكان ما من أعماق العظام يرتل أنشودة، **شيطانية** جوفاء، تأثيرها مدمر، مستهدفةً سايمون بشكل

مباشر، ولقد جعلت ميرين يود لو يتكور على نفسه ويتحول إلى كرة صغيرة دون أن يعرف السبب. ولحسن حظ ميرين، لم يتذكر حينئذ عندما كان في مستنقعات مرام واستهدفه دومدانيال بنفس هذه الأنشودة.

وبينما كانت الأنشودة تقترب بلا رفق ولا هوادة من نهايتها - وعندها يكون سايمون قد **استُهلك** - رأى ميرين سايمون هيب يتبدل حاله ولكن ليس بالطريقة التي خطط لها دومدانيال؛ إذ تبدل الرعب الذي كان يملأ عينيه إلى غضب جامح متوحش، ولقد سبق لميرين أن رأى هذه النظرة من قبل، وعلم أنها تعني المتاعب..

وهذا بالفعل ما حدث.

وبحركة خاطفة سريعة - كصائد الفراشات الذي يلاحق نوعًا ثمينًا نادرًا - ألقى سايمون بكيس القمامة على العظام، وهو يصيح مرتلًا لعنة **شيطانية** من ابتكاره هو فانهارت العظام، وفر بعضها هاربًا فوق سطح الأرض، إلا أن الأنشودة لم تكف. أخذ سايمون الذي بدأ يتملكه الهلع يبحث عن العظام الشاردة، ويلقي بها في الكيس كما كان يلقي فيه بالقمامة منذ دقائق قليلة. وظلت الأنشودة **الشيطانية**، المكتومة داخل الكيس، تواصل ترتيلها بلا توقف.

وبهلع، دفع سايمون آخر قطعة عظام في الكيس، ثم عبر بأقصى سرعة له غرفة المرصد، وكأن حياته تعتمد على ذلك - وهو ما كان صحيحًا - ثم فتح على الفور الباب المؤدي إلى الدولاب السرمدي، وألقى فيه بالكيس ثم

صفَق باب الدولاب **وأغلقه بالمتاريس**. راقب ميرين باستمتاع ساقي سايمون اللتين لم تتحملا، فسقط إثر ذلك منهارًا على الأرض كالخرقة المبللة؛ فانتهز ميرين الفرصة واستأنف تناول ما تبقى من المقانق.

لكن ميرين سيضطر الآن لأن يرى تلك العظام البشعة مرة أخرى. والأسوأ من ذلك، سيضطر لأن يخلع الخاتم من أحد أصابعها، لكن ما هو أسوأ أنه سيضطر لأن يدخل الدولاب السرمدي ليبحث عنها، وهو أمر حتمًا يفزعه. وكان دومدانيال قد بنى بنفسه هذا الدولاب، وهو مكان مخصص لدفن الأمور **الشيطانية** التي ما عادت لها حاجة ولا يمكن **إبطال مفعولها**. وكان الدولاب محفورًا في مسار ثعباني في أعماق الصخور، وعلى الرغم من أنه فعليًا لا يمتد إلى ما لانهاية، فإن امتداده يصل إلى أميال.

ازدرد ميرين لعابه؛ فهو يعلم أنه حتمًا لا بد أن يُنفذ هذه الخطوة، وما من سبيل للتراجع الآن؛ فبدأ يغمغم بتعويذة **إبطال مفعول مترسة** الباب وهو يرتعد من فرط الخوف، ثم أمسك بقوة بمقبض الباب النحاسي ذي المظهر البريء، وجذبه. وما إن انفتح الباب حتى وجد ميرين نفسه يترنح؛ إذ تلقى صفعة من الهواء البارد كالثلج، والذي تتخلله رائحة من أقذر ما يكون؛ تمزج بين رائحة الكلاب المبللة واللحم المتعفن مع لمسة من المطاط المحروق فشعر برغبة في التقيؤ وبصق مشمئزًا.

وبإحساس بالموت والفناء، نظر ميرين في الظلام.. بدا الدولاب خاويًا، لكنه يدرك أنه ليس كذلك؛ فالدولاب السرمدي يُحرك كل

الأشياء التي تدخل فيه، آخذًا **أكثرها شيطانيةً** إلى الأعماق في الصخور، وخاف ميرين هنا أن يفكر إلى أي مدى أخذ الدولاب العظام بعيدًا.

دخل الدولاب رافعًا الشمعة فوق رأسه، كان المسار بداخله يمتد متعرجًا في أعماق الصخور كالمحلاق اللولبي، ومع كل خطوة خطاها ميرين كان الجو يزداد برودة. وبعد نحو اثنتي عشرة خطوة، بدأت الشعلة تذيب الشمعة في هذه الأجواء القذرة، إلا أنه واصل السير رغم ذلك، وتعمق أكثر داخل الدولاب. بدأت الشعلة تصغر الآن، وباتت مشتعلة باحمرار باهت، وشعر ميرين بخطر داهم؛ فإذا كان الهواء غير كافٍ لإشعال الشعلة، أفليس هذا معناه أنه غير كافٍ له هو أصلًا؟ تقدم ميرين بضع خطوات أخرى، مع شعوره بدوار وطنين قوي في أذنيه، وفجأة انطفأت الشمعة تاركةً وهجًا أحمر للحظات في طرف الفتيلة، ثم تلا ذلك ظلام حالك.

شعر ميرين بضيق في صدره ففتح فمه محاولًا أن يتنفس مزيدًا من الهواء، ولكن لم يكن هناك ما يتنفسه. وهنا، علم أنه لا بد أن يخرج من الدولاب، وبسرعة. وما إن التف بجسمه للخلف لاهثًا حتى اصطدم **بشيء** واقف لا يتحرك من مكانه. وفي حالة من الهلع الأعمى، مر من أمام هذا **الشيء** ليجد في طريقه **شيئًا** آخر، ثم تلاه **شيء** ثالث. وبفزع، أدرك ميرين أنه محاصر وواقع في الفخ، وأن الدولاب الضيق الطويل مملوء عن آخره **بالأشياء**، وأنها على الأرجح لاتزال تحاول أن تدخل الدولاب، وهذا هو ما كانت بالفعل تقوم به. أما خارج الدولاب فكان

هناك حشد من **الأشياء** المضطربة التي أخذت تقفز وتتدافع وتخمش وتصارع، تتسابق في دخول الدولاب، واجتاحت ميرين موجة من الخوف، ثم قامت أرضية الدولاب بشيء غريب جدًا؛ لقد اندفعت عاليًا لتضربه على رأسه.

وعندما استعاد ميرين وعيه، وجد نفسه بغرفة المرصد وقد انطرح ممدد الجسد على الأرض الإردواز الباردة.

وما إن نظر لأعلى بعينين غائمتين حتى حدقت إليه عيون ستة وعشرين **شيئًا**. وبوجه عام، فإن تحديق ستة وعشرين **شيئًا** إلى شخص كفيلٌ ببث اليأس في نفسه إلى الأبد، إلا أن عيني ميرين كانتا عاجزتين عن التركيز، وكان كل ما أمكنه أن يراه هو صورة ضبابية مموجة تحيط به كأنها سياج خشن.

وبدأ يدرك رويدًا رويدًا أن هناك شيئًا على الأرض بجانبه، فالتفت برأسه – والذي كان يؤلمه – ليجد نفسه وجهًا لوجه مع كيس متسخ من القماش؛ إنه كيس قمامة وبداخله شيء يتحرك، كما لو كان مهدًا لقطط صغيرة.

ومع استعادته كامل وعيه فجأة، انتفض وهب واقفًا على قدميه، ثم خطف الكيس وقلبه رأسًا على عقب فانزلقت منه مجموعة متشابكة من العظام اللينة اللزجة على الأرض، وأخذت العظمة الصغيرة السميكة التي تلبس الخاتم تتحرك بسرعة على الأرض مُصدرةً رنة معدنية. أخذ ميرين يحدق إليها – تُرى، ما الذي يجب أن يفعله الآن؟ كانت هناك

عظمة ترتجف بجانب قدمه، وعلى الفور صرخ ميرين. وكالديدان العمياء، بدأت العظام تتحرك، كل عظمة منها تبحث عن العظمة المجاورة لها؛ لقد بدأت العظام **تتجمع**.

وخز أصبع نحيل صدر ميرين فأطلق صرخة أخرى؛ إن دومدانيال يوخزه، وهو سوف يمووووت! وجد ميرين كتاب دليل ***السحر الأسود*** مدفوعًا أمام عينيه، وأدرك بارتياح أن الأصبع النحيل أصبع **شيء**. وبانصياع، قرأ الفقرة التي يشير إليها أصبع **الشيء**، والتي كانت تقول:

خذ الخاتم ذا الوجهين

من إبهام

الشخص

الذي يلبسه.

انزع الخاتم من الاتجاه ***الآخر***

إن حيازتك تتحكم فيه

توجه ميرين إلى ذلك الشيء الأسود النحيل اللزج الذي يلبس الخاتم ذا الوجهين ونظر إليه بنفور، ثم استجمع شجاعته كي يرفع العظمة من على الأرض؛ واحد، اثنين، ثلاثة – لا، لن يستطيع أن يفعل ذلك. نعم يستطيع – بل لا بد. واحد.. اثنين.. ثلاثة – *يا للهول*! لقد أمسك بها.. كانت عظمة الإبهام لينة كالغضروف، وكانت منفرة.. وشعر ميرين بالغثيان.

وبعد بضع ثوانٍ، اجتاح فمه مذاق بغيض، أمسك ميرين بالخاتم ذي الوجهين مدركًا أنه سيجذبه من قاعدة الأصبع – أي في الاتجاه *الآخر*. وبدأ ميرين يجذبه، إلا أن الخاتم انحشر عند الجزء العريض من عظمة المفصل، فصارع ميرين الهلع حتى لا يتملكه. لكن *الخاتم* **لا** يريد أن يتحرك. وعظام دومدانيال سرعان ما ستنتهي من **تجميع** نفسها، وحينها سيصبح فريسة لدومدانيال. لكن اليأس الذي كان ينتاب ميرين منحه قدرًا من الشجاعة؛ فأخرج مطواته، ثم وضع عظمة الإبهام على الأرض، وأخذ ينشر في طرفها فسال منها سائل أسود غليظ، وسقط الخاتم ذو الوجهين.

وبانبهار رهيب، رفع ميرين الخاتم وأخذ يُحدق إلى الشريط الذهبي العريض الملفوف ذي الوجه الداخلي المنقوش بأشكال لرءوس شريرة في اليشم، ثم عاد ويداه ترتعشان إلى تعليمات كتاب دليل **السحر الأسود** التي كانت تقول:

في يدك اليسرى

في إبهامك

ضع الحلقة

ذات الوجهين.

وبجسم مرتجف، زج ميرين الحلقة في إبهامه، طاردًا من رأسه فكرة أنه سيأتي يوم قد يحاول فيه شخص آخر أن يخلع الخاتم من إبهامه هو في الاتجاه **الآخر**. في بادئ الأمر، كان الخاتم أكبر من إبهامه النحيلة

المتسخة ذات الظفر المقضوم والمفصل العريض، لكنَّ ذلك لم يدم طويلًا؛ إذ شعر ميرين أن الخاتم الذهبي أخذ يسخن شيئًا فشيئًا، حتى كادت درجة سخونته تصل إلى حد الإزعاج، ثم بدأ قُطر الخاتم ينكمش، وسرعان ما أصبح محكمًا تمامًا حول أصبعه، إلا أن الانكماش لم يتوقف عند هذا الحد، فمع مواصلة ارتفاع درجة سخونته أكثر مما كانت عليه واصل الخاتم إحكام دائرته أكثر فأكثر حول أصبعه فبدأ يتورم.

أُصيب ميرين بالهلع، وأخذ يقفز لأعلى وأسفل وهو يهز إبهامه، ويصيح ويضرب في الأرض بقدميه من شدة الألم. ازداد ضغط الخاتم أكثر حول إبهامه حتى احمرت ثم تحولت - إبهامه - إلى اللون الأرجواني، وأخيرًا إلى الأزرق الداكن العميق. وعند هذا الحد، كفَّ ميرين عن الصياح وأخذ يُحدق بذعر إلى إبهامه؛ وهو لا يساوره شك في أن طرف الإبهام على وشك الانفجار الآن. لكن تُرى، هل سينفصل الطرف ويطير في الهواء، أم أنه سيُهرس ويتسطح؟ أبى ميرين أن يفكر في ذلك وأغمض عينيه. وفي تلك اللحظة، خفت فجأة وطأة ضغط الخاتم، فعاد الدم يتدفق إلى طرف إبهامه، ثم زال التورم.. أصبح اتساع الخاتم ذي الوجهين الآن في اتساع الإبهام وإن كان يضغط عليها ضغطًا طفيفًا - بالقدر الذي يُذكِّره بوجوده، وأدرك ميرين بهذا أن الخاتم أصبح ملكه الآن وللأبد، أو على الأقل طوال فترة حياة إبهامه اليسرى، وبدأ يدرك أن **السحر الأسود** ليس حتمًا يناصر من يمارسه ويقف في صفه، لكنه لا يستطيع أن يكف الآن؛ فقد وقع في

الفخ، ولا بد أن يواصل ما بدأه إلى أن يصل حتى آخر جزء من التعويذة، والذي يشمل **تسويد مصير *شخص آخر*.** وهذا الجزء لا بد أن يتم في القلعة؛ لأنه المكان الذي يقيم فيه هذا الشخص الآخر، في قمة برج السحرة، تمامًا كما أقام هو هناك من قبل، وهو يقيم هناك مستخدمًا نفس الاسم الذي سُمي به في السابق؛ سبتيموس هيب.

4

الخروج من أرض الأشرار



قبل *أن ينبلج الفجر مباشرة، استيقظ ميرين وترك فراشه،* ثم سار مترنحًا إلى غرفة المرصد المظلمة وهو شبه نائم، متوجهًا إلى وعاء اليرقات الدودية المضيئة. وبعينين يملؤهما النعاس، اغترف من الوعاء ملء أنبوب استعدادًا لرحلته، ولم يفتح عينيه إلا وهو يغلق غطاء البرميل فإذا به يصرخ فجأة؛ لقد نسي أمر **الأشياء**. كان هناك دستة منها محتشدة حول وعاء اليرقات الدودية المضيئة، تراقب كل حركة يقوم بها، بينما كانت بقية **الأشياء** تهيم في أنحاء الغرفة بلا هدف وكأن ثمة رياحًا خفية هبت وأخذت تطيرها.

سار ميرين بخطوات صامتة، مع إدراكه الآن أن كل حركة يقوم بها مراقبة، وتوجه إلى غرفة سايمون المفروشة بقليل من الأثاث، وبعد أن

فتح دولابًا كان مغلقًا بالمفتاح، أخرج منه صندوقًا صغيرًا مكتوبًا عليه: سلوث.

سلك ميرين طريق العودة متدافعًا بين حشد **الأشياء** المخلصة، ووضع الصندوق الذي يقبع فيه سلوث في حقيبة ظهر وأرفق معه عددًا آخر من الأغراض الثمينة، ثم رفع الحقيبة على ظهره وأخذ نفسًا عميقًا؛ لعلمه بأنه قد حان الوقت الآن للرحيل، لكن بدا له المرصد رغم ذلك - حتى بجوه البارد والمخيف وشديد الرطوبة والمملوء عن آخره **بالأشياء** - أهون كثيرًا من رحلته التي لا بد أن يقوم بها، فسوف تتضمن استخدام سلم شديد الانحدار محفور في الصخور نازلٍ مئات الدرجات المظلمة اللزجة، ثم المرور متسللًا بالغرفة القديمة الخاصة بكائنات المأجوج، ثم بعد ذلك بجحر الدودة اللزج والممتد طويلًا، حتى يخرج من هذا المكان.. لكن ليس هناك مفر من ذلك، ولا بد أن يغادر الآن.

وبعد أن نزل ميرين الدرجات الأولى من السلم، تلاشت كل آماله بأن تكون **الأشياء** قد أنهت مهمتها وسوف تمكث في المرصد عندما التف ليجد صفًا منها خلفه، وقد أخذت جميعها تضرب بالكوع ويركل بعضها بعضًا؛ كل منها يحاول نزول السلم خلفه. «سحقًا!» هكذا قال ميرين في سره، *كأن هذا هو ما ينقصه*.

بعد نصف ساعة كان قد وصل إلى مدخل جحر الدودة غير المستخدم الآن، إلا أنه لم يكن بمفرده؛ فقد كان يعلم أن خلفه ستة وعشرين **شيئًا**؛ إذ كان في وسعه أن يشعر بتحديقها إليه، ولقد جعلته يشعر بإحساس شائك وبارد كالثلج في مؤخرة عنقه. وبأعصاب متوترة،

أخذ ينقر بأصابعه المتسخة على الجدران اللزجة لجحر الدودة، وجسمه يرتجف من شدة رطوبة الجو، ثم راح يُحدق بالأفق المظلم في الخارج على امتداد قمم المنحدرات الصخرية عند الجانب البعيد من الخور.

ورغم لهفته لأن يترك جحر الدودة، ظل ينتظر بزوغ أول خيوط الفجر؛ فالخروج وسط محاجر الإردواز في أرض الأشرار أثناء الظلام أمر محفوف بالمخاطر، ولقد سمع على مدار السنوات الماضية ما يكفيه من الحكايات الدموية حتى يعلم أن أخطر الأوقات هو وقت الشفق والفترة التي تسبق بزوغ أول خيوط الفجر، فهذان هما الوقتان اللذان تخرج فيهما الديدان من جحورها، في المساء كي تبحث عن غذاء يسد رمق جوعها بعد قضاء يوم بلا طعام وفي الصباح لدى عودتها إلى جحورها تفتش عن آخر لقمة لذيذة تعينها على مدار اليوم الطويل الذي تقضيه ملتفة حول نفسها في جحورها داخل منحدرات صخور الإردواز الباردة.

بعد عشر دقائق طويلة وباردة، كان ميرين واثقًا أنه يرى الصخور المتعرجة المواجهة له بشكل أوضح. وبينما كان يراقبها، أنبأته حركة انزلاق بطيئة أسفل خط الأفق مباشرة بأن الفجر لا بد أنه اقترب؛ إذ كانت هناك دودة عائدة إلى جحرها. وبانبهار، أخذ يراقب الجسم الأسطواني الممتد إلى ما لانهاية وهو يتدفق على واجهة المنحدر الذي يقع عند الجانب البعيد من الخور. تُرى، كم دودة تفعل ذلك في هذه اللحظة تحديدًا على الجانب الذي يقف عليه الآن؟ وربما أنها لا تبعد عنه في هذه اللحظة بما لا يزيد على عدة أقدام حسب علمه؛ حيث إن الديدان الأرضية تتحرك بصمت كسكون الليل، والصوت الوحيد الذي

يُنذر بقدومها - هذا إن كنت محظوظًا - قد يكون قعقعة صخرة تتزحزح من مكانها أثناء تحرك الدودة استعدادًا للقتل. وهنا، سقط وابل من شظايا الصخور من المنحدر الذي يعلو ميرين.. وعلى الفور، بقلب يخفق بشدة، تراجع ميرين للوراء.. وبسرعة كان ستة وعشرون **شيئًا** تتراجع هي أيضًا للوراء كما لو كانت قطعًا من الدومينو تسقط على التوالي.

ملأ الرعب قلب ميرين، وعلى الرغم من لهفته لأن يفر الآن من **الأشياء**، قرر أنه لن يخطو خطوة واحدة إلى الخارج حتى يرى قرص الشمس ويعلم أنه أصبح آمنًا. لكن الشمس لا تريد أن تشرق، وظلت السماء كما هي بلونها الرمادي الكئيب، وظل ميرين ينتظر.. وينتظر. وفي اللحظة التي وصلت فيها قناعته إلى أن حظه العاثر كالمعتاد جعله يختار اليوم الوحيد في تاريخ العالم بأسره الذي لن تشرق فيه الشمس، رأى قرصًا ضبابيًا أبيض يتحرك ببطء لأعلى في السماء فوق المنحدرات الصخرية الكئيبة.. وأخيرًا، حان وقت الانطلاق.

لكن لا بد أولًا أن يتخلص من **الأشياء**؛ فهو بالطبع لن يقوم برحلته إلى القلعة وهو يسحب خلفه صفًا طويلًا من **الأشياء** البائسة الكئيبة، هذا من رابع المستحيلات. فالتفت إلى أول **شيء** خلفه وقال له: «لقد تركت عباءتي في المرصد، اذهب واجلبها لي».

بدا الارتباك على **الشيء**، فسيده كما هو واضح يرتدي عباءته.

فصاح ميرين قائلًا: «هيا! اذهبوا جميعًا وأحضروا عباءتي!».

و**الشيء** الخادم ليس في وسعه إلا أن يطيع أمر سيده. وبنظرات لائمة - إذ إن **الأشياء** خدم ميرين لا ينقصها الذكاء - التفت **الأشياء** للداخل

واختفت على امتداد جحر الدودة، ولم يدهشها عندما سمعت صوتًا مدويًا لاصطدام أجوف تلته هبّة هواء قوية أخبراها بأن ميرين أغلق السدادة الحديدية الضخمة التي تسد فتحة الجحر. وبهيئة مستسلمة، واصلت الأشياء تنفيذ مهمتها، وظلت جميعها إلا واحدًا تبحث عن العباءة التي لا وجود لها إلى أن عاد سايمون ولوسي بعد بضعة أيام.

لكن ما لم يكن ميرين يعلمه هو أن أحد **الأشياء** - وهو **الشيء** الذي **استدعاه بالاستدعاء** المعكوس - ليس ملزمًا بأن يطيع أوامر سيده، وهذا هو السبب في أن السدادة الحديدية الضخمة انفتحت مرة أخرى بعد أن انطلق ميرين في طريقه، ثم خرج هذا **الشيء** منسلًا وبدأ يتبع مسار الشخص الذي **استدعاه**، وكان يتدلى من على كتفيه كيس قذر من القماش يحوي عظامًا؛ فقد استنتج **الشيء** على الفور أن سيده الجديد سيحتاج إلى كل المساعدات الممكنة، وقد يكون كيس من **العظام الشيطانية تحمل سحرًا أسود** هو بالتحديد ما سيحتاج إليه.

سلك ميرين الطريق الذي يحتضن جوانب منحدرات صخور الإردواز، والذي يؤدي إلى الحقول، وكان يعرف هذا الجزء من الطريق جيدًا، ولم ينزعج وهو ينعطف عند المنعطف الأول عندما سد عليه الطريق صخور تراكمت نتيجة لانزلاق أرضي. وبإحساس يملؤه الحماس - وشيء من الحذر أيضًا - تسلق ميرين الصخور الزلقة. وكان حريصًا على التأني وعدم العجلة؛ خشية أن يُزحزح إحدى الصخور ويجد نفسه هاويًا من على ارتفاع مئات الأقدام ليسقط في السيل المتدفق بالأسفل. وصل ميرين إلى قمة الصخور في أمان، ثم بدأ ينزل الجانب الآخر منها

بحرص شديد، لكن قدمه زلت في منتصف الطريق، وهوت مجموعة كبيرة من الصخور الصغيرة وهي تفعقع أثناء سقوطها إلى الخور. توقف ميرين على الفور وكتم أنفاسه، منتظرًا أن يأخذه هذا الانهيار الصخري في الطريق معه، ولكن الحظ حالفه، وبغاية الحذر واصل النزول من فوق الصخور المكومة. وبعد دقائق معدودة، لمست قدماه سطح أرض الطريق الصلبة. وهنا، سمح ميرين لنفسه بأن يُطلق صيحة معبرًا عن فرحة الانتصار وهو يضرب بقبضة يده في الهواء؛ لقد أصبح حرًّا!

واصل ميرين السير على امتداد طريق الخور يصاحبه هدير المياه القوي بعيدًا في الأسفل بقاع الخور، لم ينظر خلفه ولو لمرة واحدة. لكن حتى لو كان قد فعل، فعلى الأرجح ما كان سيلحظ **الشيء** الذي يتبعه، والذي كان يمتزج بالظلال، متخذًا أشكال الصخور بالأسلوب الذي تتبعه **الأشياء** عندما لا تريد أن يلحظها أحد.

لم يمضِ وقت طويل حتى كان ميرين قد ترك خلفه منحدرات صخور الإردواز القاسية في أرض الأشرار، متوجهًا نحو التلال المتناثرة في أراضي الحقول العليا. كانت هذه الأرض غير مألوفة بالنسبة له، لكنه واصل سيره في مسار ترابي عريض كثير الاستخدام. وعندما تفرع الطريق أمامه تكلل سعيه بالنجاح؛ إذ وجد أمامه قائمًا حجريًا، كان القائم الجرانيتي الطويل المقام محفورًا عليه سهم يشير إلى اليمين وكلمة واحدة هي القلعة.. ابتسم ميرين.. وبخطوات واسعة واثقة بنفسها، انطلق على امتداد التفريعة اليمنى.

كان اليوم من أيام الربيع الباردة، وكانت الشمس لا ينبعث منها سوى قدرٍ ضئيلٍ من الدفء مع انبثاقها ببطء من خلف السحب المنخفضة، لكن خطواته السريعة كانت كفيلة بأن تبث في جسمه الدفء، ثم سرعان ما بدأت معدته الخاوية تقرقر بقرقرتها المألوفة، وإن كان قد اعتاد الشعور بالجوع، إلا أنه الآن – وقد أصبح من حيث المبدأ حرًا – ليس في نيته أن يستمر هذا الوضع.

وبينما كان يسير متبخترًا ومرحًا في الطريق المتعرج حول حقول مزروعة حديثًا بالكروم وأشجار فاكهة قصيرة – رأى بيتًا ريفيًا صغيرًا مبنيًا من الأحجار، لم يكن بعيدًا، كان نصفه تحجبه الأرض المنخفضة التي أُقيم عليها، فأسرع ميرين الخطى وبدأ يهرول. وبعد بضع دقائق، كان يسير في فناء كثير العشب، محاط بهياكل مسقفة متداعية، ومهجور فيما عدا عددًا محدودًا من الدواجن الموحلة التي أخذت تنقر التراب بمناقيرها. وجد ميرين نفسه يقف أمام بيت ريفي بواجهة عريضة محدود الارتفاع، وكان الباب مواربًا.. وما إن وصل إلى الباب حتى اشتم رائحة خبز يُخبز ضربت رأسه كالمرزبة.

وعلى الفور شعر بحركة في جوفه أشبه بالقفزة المزدوجة في الهواء – وكان لا *سبيل أمامه* إلا أن يأخذ هذا الخبز. وبحرص شديد على ألا يُحرك الباب الموارب الذي بدا أنه سيصدر صريرًا شريرًا مع أقل حركة، تسلل ودخل البيت، فوجد نفسه في غرفة طويلة مظلمة، لا ينيرها سوى ضوء نار تشتعل في موقد عند طرفها، ثم توقف ونظر حوله، لكن لم يكن بالغرفة أحد؛ هذا بكل تأكيد. فيبدو أن من خبز الخبز، سواء كان رجلًا

أو امرأة، كان لديه أعمال أخرى يباشرها، وميرين سوف ينتهز هذه الفرصة التي سُنحت له.

وكالقطط، سار ميرين بخطوات صامتة عبر الغرفة ذات الأرضية الطينية، ومر بكومة ضخمة من التبن وكومة أخرى من الصناديق الخشبية. لكن – وخلافًا للقطط – وطئت قدمه على دجاجة. وبصرخة مدوية، طارت الدجاجة العجوز العمياء وهي ترفرف بجناحيها، فهمس لها قائلًا: «صه! اصمتي أيتها الدجاجة الغبية». لم تولِ الدجاجة اهتمامًا لكلامه وواصلت صراخها، مصطدمة بكومة من القوائم المتراصة بعناية وجاهزة للغرس لزراعة الفول. وعلى الفور، كانت الكومة قد انهارت بقعقعة مدوية لم يسمع لها ميرين مثيلًا من قبل، تلاها وقْع خطوات أقدام تهرع جريًا.

وظهرت لدى مدخل باب سيدة يرسم خيالها الضوء في الخارج، ويبدو عليها مظاهر طِيبة وحنان الأم، وفي التوّ كان ميرين قد قفز وانحنى خلف كومة الصناديق. صاحت السيدة تنادي على الدجاجة وهي تجري على بعد عدة أقدام قليلة من ميرين، لكن قدمها زلت في الدجاجة وسط الظلام، وبسرعة كانت قد رفعتها وهي تقول لها: «أيتها الدجاجة البلهاء. هيا الآن، لقد حان موعد إفطارك يا حبيبتي».

إنه موعد إفطاري *أنا*، هكذا قال ميرين في سره، منزعجًا من أن دجاجة عجوزًا هزيلة تُرفع من على الأرض ويُقدم لها إفطار، ويُطلق عليها فوق *كل ذلك* حبيبتي، في الوقت الذي يختبئ هو فيه في الظلال يتضور جوعًا، وهو لا يساوره أدنى شك في أن السيدة لو كانت قد زلت قدمها فيه هو

بدلًا من الدجاجة - لاختلفت المسألة تمامًا. حبس أنفاسه مع مرور السيدة مباشرة بجواره وهي تحمل الدجاجة، وتابعتها عيناه الداكنتان إلى أن خرجت في ضوء الشمس من الباب الأمامي وتوارت عن الأنظار. وكشعاع من البرق الأسود، انطلق ميرين إلى الموقد، وبعد أن جذب طرف كمه ليغطي به يده، فتح باب الفرن بعنف، ثم أخرج رغيفًا ضخمًا جدًا مستدير الشكل.

شهق ميرين متألمًا بصوت هامس، وأخذ يقفز مبدلًا قفزه من قدم إلى أخرى بعد أن وجد البخار المنبعث من الخبز الساخن طريقًا تسرب منه على الفور داخل كمه، ثم انطلق ميرين كالصاروخ وخرج من أقرب باب، وبعد أن التف جريًا حول الواجهة الخلفية للبيت وجد نفسه في الفناء. كان الطريق أمامه مسدودًا بمجموعة من الدجاج، تطعمها السيدة التي لايزال خبزها تتقاذفه يدا ميرين كثمرة بطاطس كبيرة ساخنة. وعلى إثر الاضطراب الذي طرأ بين الدجاج، رفعت السيدة بصرها فصاحت قائلة: «أنت أيها الغريب!».

توقف ميرين، لا يدري ماذا يفعل. أيلتف ويعود متوجهًا جريًا إلى الحقل مجازفًا بأن يجد نفسه في مواجهة زوج السيدة أو أحد المزارعين الأقوياء، أم ينطلق مباشرة ويخرج إلى الطريق المكشوف؟

قالت السيدة وهي تتقدم نحوه: «هذا خبزي».

نظر ميرين إلى الخبز كأنه فوجئ برؤيته، وهنالك اتخذ القرار وانطلق جريًا مباشرة في اتجاه الدجاج. ومع كثير من الصياح والوقوقة، تشتت

الدجاج، وأخذ الريش يتطاير بينما كان ميرين يسلك طريقه بين هذا السرب موجهًا إليه بعض الركلات.

وفي ثوانٍ، كان قد خرج إلى الطريق وانطلق يجري مسرعًا.. التف ميرين خلفه لإلقاء نظرة فرأى السيدة واقفةً في منتصف الطريق وهي تلوح بقبضة يدها نحوه؛ فعلم أنه في أمان الآن وأنها لن تأتي وراءه، لكن ما لم يره ميرين هو هذا **الشيء** الذي يتتبعه، وسبب ذلك هو أن الوقت كان نهارًا **والأشياء** لا تُرى بوضوح في الضوء الساطع - ولكن السبب الرئيسي أنه لم يكن يتوقع وجوده. وكان **الشيء** يتقدم في طريقه منسلًا على امتداد سياج من الأشجار خلف ميرين لا تبعد عنه كثيرًا، كأنه سيل متدفق من المياه المتسخة، كما كان هناك شيء آخر لم يره أيضًا أثناء انطلاقه مهرولًا على امتداد الطريق، محتضنًا بين ذراعيه رغيف الخبز الذي أصبحت سخونته الآن لطيفة - هو جُرذ بني يجلس وسط النجيل في أحد جانبي الطريق، لكن ستانلي رأى ميرين. إلا أن ستانلي، الجُرذ الرسول ثم العضو في جهاز المخابرات سابقًا، ما كانت لديه أية نية للاقتراب من ميرين بأي حال من الأحوال، لاسيما من فردة حذائه الطويل اليمنى، لكن عادات ستانلي القديمة المتعلقة بعمله في جهاز المخابرات لا تندثر بسهولة، وأراد من باب الفضول معرفة إلى أين يتجه ميرين، فالفتى - في رأيه - بدا من النوع المثير للمتاعب.

وكان ستانلي قد قضى الأسابيع القليلة الماضية مع هامفري، رئيسه القديم في مكتب خدمة الجرذان الرسل، وكان هامفري قد فر هاربًا من القلعة منذ نحو ستة أشهر بعد أن تشكلت مجموعة قتلة الجرذان. وعلى

الرغم من أن هامفري يستمتع بقضاء فترة تقاعده بالإقامة بعيدًا عن سطح الأرض على إحدى أشجار التفاح في حقل صغير يصنع عصير التفاح، ولا ينوي أن يعود إلى القلعة، حاول أن يقنع ستانلي بأن يبدأ من جديد في تشغيل مكتب خدمة الجرذان الرسل، ولقد وعده ستانلي بأنه سوف يفكر في الأمر.

راقب ستانلي ميرين وهو يتوقف عند مفترق طرق، حدق الفتى إلى العلامة المحفورة على الحجر لعدة ثوانٍ، ثم انطلق متبخترًا في اتجاه القلعة، ثم راقبه الجُرذ بعد ذلك وهو يسير بخطوات واسعة على امتداد الطريق. ومع وجود مثل *هذا النوع* من الناس الذين يقصدون القلعة - كما قال الجرذ في سره - فإن خدمة الجرذان الرسل قد يكون لها بالفعل دور مطلوب هنا، وأبرم اتفاقًا مع نفسه كان مضمونه أنه سيتبع ميرين، ولو توجه الفتى بالفعل إلى القلعة لأخذ بنصيحة هامفري.

وهكذا، تابع هذان الكائنان خطى ميرين بينما كان يسلك طريقه على امتداد المسارات المتعرجة وسط الحقول.. ومنتشيًا بحريته حديثة العهد، تقدم ميرين في طريقه. ومع بداية سقوط الليل رأى القلعة على مسافة ليست ببعيدة عنه، ومع إحساسه بالإرهاق بدأ يسير بتثاقل. كان ينظر باشتياق إلى الشموع التي كانت تضيء نوافذ البيوت الريفية وإلى أسرة متجمعة يتناول أفرادها العشاء معًا، لكنه أخذ يواصل طريقه متبعًا مسارًا وسط غابة صغيرة. وما إن انعطف عند منعطف حاد بعد قليل حتى وجد نفسه قد تجاوز منطقة الأشجار فجأة ووصل إلى ضفة النهر. ومع

إحساس بالذهول خالجه، ألقى بنفسه على النجيل، ثم أخذ يُحدق إلى المشهد أمامه، وكان مشهدًا لم ير له مثيلًا من قبل.

فعلى الجانب الآخر من النهر العريض، والذي تتدفق فيه المياه ببطء، كان هناك سور ضخم من الأضواء يرتفع عاليًا وسط سماء الليل، ينعكس متلألئًا على سطح مياه النهر القاتمة، ومن خلف هذه الأضواء كان يُمكن رؤية الكتلة الضبابية للقلعة. نظر ميرين إلى هذا المشهد مدركًا أن هناك آلافًا من البشر داخل هذه الكتلة، يخص كل واحد منهم أحد هذه الأضواء، وجميعهم يواصلون حياتهم ويباشرون أعمالهم من دون أن يفكر أحدهم في ذلك الفتى الجالس الآن على الضفة الأخرى من النهر.. وفجأة، شعر ميرين بضآلة حجمه ومدى وحدته.

أخذ يحدق إلى الأضواء، مقاومًا رغبةً ملحةً في نفسه لأن يحصيها - فميرين يميل كثيرًا لأن يحصي الأشياء - وسرعان ما بدأت عيناه تلتقطان مزيدًا من التفاصيل وتضعان تصورًا منطقيًا للأشكال خلفها، رأى الأسوار المرتفعة لمنطقة العشوائيات التي بدت أنها تمتد لأميال على طول النهر. ومع سكون النهر، سمع أصوات ثرثرة وضحك تتسلل عبر المياه، ورأى عوامات الأرصفة القديمة المهجورة وظلالًا لعدد قليل من السفن التي تسلل إليها العفن ثم لمح، وهو يُحدق بعينين واسعتين كعيني البومة، صفوفًا رأسية من الأنوار يصدر عنها ضوء أرجواني وذهبي، وترتفع باسقةً وسط السماء. كان يتوج هذا المشهد هرم ذهبي، يبرق بضوء أرجواني مخيف، مضيئًا السطح السفلي لكتلة من السحب المنخفضة التي تحيط به.

سرت رجفة في جسم ميرين؛ إذ أدرك الآن ما الذي يراه؛ إنه برج السحرة؛ المكان الذي قضى فيه بضعة أشهر مزعجة مع سيده القديم دومدانيال. وهو المكان - كما قال في سره وقد استشاط غضبًا فجأة - الذي يمكث فيه هذا الذي يُطلق عليه سبتيموس هيب، وهو بلا شك يجلس الآن في الدفء بجانب نار متوهجة، يتناول عشاءه، ويتحدث فيما يتحدث فيه السحرة، ويُصغِي إليه الناس وكأن ما يتحدث به سيُحدث فارقًا. لكن لا - هكذا قال ميرين في سره - إن هذا الوضع لن يدوم طويلًا، ثم أجرى سبابته على السطح البارد من خاتمه ذي الوجهين الذي يحيط بإبهامه اليسرى - والذي لايزال حتى الآن يُحكم ضغطه عليه بعض الشيء - وابتسم.

وبحركة خاطفة، نهض ميرين بقفزة من على النجيل الرطب وانطلق بأقصى سرعة له على امتداد الطريق، كان يعلم أنه سيضطر لأن ينتظر إلى الفجر حتى يتم إنزال الجسر المتحرك كي يدخل القلعة، ويحتاج إذن إلى أن يجد مكانًا يقضي فيه الليلة. أخذه الطريق بعيدًا عن ضفة النهر، ثم تخلل بعض الحقول الموحلة والمسورة عاليًا. ومع انبثاقه من الحقل الأخير، رأى أضواء حانة (الترسة الممتنة). وهنا، وضع يده في جيبه وقبض على الكيس الذي استولى عليه ويحتوي على ذخيرة النقود السرية، الخاص بسايمون. وكما قال في سره، لقد حان الوقت الآن لأن أُنفق بعضًا من المال الذي كسبته بشق الأنفس.

راقب ستانلي ميرين وهو يدفع باب حانة (الترسة الممتنة) ويدخل إلى الأضواء المرحبة التي تشع دفئًا. لقد بات الأمر واضحًا تمامًا الآن،

وميرين يتوجه بكل تأكيد إلى القلعة. فالحانة تشتهر بأنها مسكونة بالأشباح، ولا أحد يختار أن يقضي ليلته فيها إلا إذا كان ينتظر إنزال الجسر المتحرك في صباح اليوم التالي.

وفي الوقت الذي كان الجُرذ ينطلق فيه بعيدًا عن الحانة بخطوات صغيرة وسريعة، كان **الشيء** يجري بخطوات سريعة أيضًا متجهًا إلى بابها، لكنه لم يجازف بالدخول، وقبع عند ركن مظلم على إحدى الدكك المتراصة على امتداد السقيفة الأمامية، يؤنسه كيس العظام الذي يحمله. كان من الصعب الجزم بأن التعبير الذي كان يكسو وجهه المنهك يشير إلى الرضا، لكنه لم يبدُ عليه الانزعاج أيضًا. ولو فُرض أن سُئل **الشيء** عن تصوره لمفهوم قضاء ليلة ممتعة في الهواء الطلق - وهو للدهش لم يحدث قط - فلربما سيأتي على رأس قائمة تصوراته الجلوس خارج حانة مسكونة بالأشباح في صحبة حقيبة تحتوي على عظام **نكرومانسر**.

5

حانة «الترسة الممتنة»



لا يعلم ميرين كم يبلغ من العمر، وعلى الرغم من أنه في واقع الأمر يقترب من الثالثة عشرة فإن التعبيرات التي تميز نظراته تجعله يبدو أكبر من ذلك بكثير، وهو في الأونة الأخيرة ازداد طولًا، ومع إحساسه بالثقة بالنفس بعد استقلاله الذي ناله حديثًا، فضلًا عن إدراكه أنه يحمل معه من النقود ما يكفيه لعدة أيام – جعله ذلك يدخل حانة «الترسة الممتنة»

بخطى واسعة.. وبصوت جعله غليظًا بأقصى ما في وسعه، طلب العشاء وغرفة يقضي فيها ليلته.

بعد عدة دقائق، كان ميرين يجلس بجانب كتل خشبية مشتعلة تبقبق، وأمامه على المائدة قدح من مشروب الترسة الداكن المخصوص، رغم أنه كان يتمنى لو كان لديه من الشجاعة ما يجعله يطلب مشروب الليمونادة. كانت الليلة في الحانة ليلة أحدٍ هادئة.. وفيما عدا عددًا محدودًا من المزارعين الذين كانوا يتفاوضون حول سعر بقرة، رأى ميرين أنه يستحوذ على المكان بأسره. لكن ما لم يكن في وسعه أن يراه – كونه ليس من نوعية الفتيان الذين تختار الأشباح عادة أن **تظهر** لهم – أن حانة «الترسة الممتنة» كانت مكدسة عن آخرها بالأشباح، ومن كثرتها كان ميرين قد اخترق ستة منها وهو في طريقه من المائدة الطويلة إلى المكان الذي جلس فيه بعد ذلك بجانب النار قبل أن يتسنى لها أن تبتعد عن طريقه؛ مما تسبب في حركة تذمر شبحية واسعة النطاق.

ومع جلوسه على مقعد بجانب النار ظن أنه كان خاليًا، كان في واقع الأمر محاطًا بالأشباح التي تحب الوقوف بجانب نار متوهجة في الليالي المظلمة كسائر الأحياء.

كان بجوار ميرين ثلاثة صيادين، أحدهم كان متذمرًا حيث جلس ميرين لتوه على المقعد الذي كان يجلس عليه. هؤلاء الصيادون كانوا قد غرقوا منذ نحو خمسين عامًا خارج الحانة مباشرة إثر جدال نشب حول من منهم الذي اصطاد أكبر سمكة.. وحتى الآن، لايزال هذا الجدال قائمًا بينهم. وكان يجلس في الجهة المقابلة من المائدة التي يجلس إليها

ميرين أحد القدماء وامرأة كانت عاملة سباكة متجولة، وكان شبحها باهتًا، وكانت تحصي بنساتها مرارًا وتكرارًا بلا توقف. ولقد ماتت بسبب كبر السن على هذه المائدة بالتحديد، ولاتزال حتى الآن لا تدرك أنها في عداد الموتى، كما كانت هناك مجموعة من ستة فرسان محتشدة حول النار، وكانوا قد قُتلوا جميعًا أثناء معركة منسية منذ زمن بعيد، اندلعت إثر الاستيلاء على الجسر ذي الاتجاه الواحد. وكان الفرسان يثرثرون مع خادمتين كانتا تعملان في مجال إنتاج الألبان، وقد ضلتا الطريق منذ سنوات قليلة مضت عندما هبت عاصفة ثلجية أثناء عودتهما من السوق، وتجمدتا أثناء الليل. وكانت هناك أميرة تتكئ على حافة مائدة ميرين، وكانت قد هربت لتقابل حبيبها ثم تفيأت ظلال شجرة تحميها من عاصفة رعدية هبت فجأة ثم ضربتها صاعقة، أخذت الأميرة تتفحص ملامح ميرين بحزن إلى أن بدأ يتحرك باضطراب في مقعده. إن هذا الفتى، وكما قالت الأميرة في سرها، يشبه بعض الشيء حبيبها الذي فقدته منذ زمن بعيد – لكن بعض الشيء فقط.

كانت حانة «الترسة الممتنة» يخيم عليها أجواء يشوبها أمر مريب، وهو ما لم يكن مستغربًا ويفسر أن لا أحد يتردد عليها بوجه عام فيما عدا هؤلاء الذين يصلون إلى مشارف القلعة في وقت متأخر من الليل ويحتاجون إلى أسرَّة يبيتون عليها لليلة، وكذلك تجار الشمال الذين يُمنعون من دخول معظم حانات القلعة. وكان أول شبح رآه ميرين في حياته – رغم أنه لم يُدرك ذلك قطُّ – شبح أحد تجار الشمال.

فبعيدًا في الظلال، كان أولاف سنوريلسن يجلس منزويًا بعض الشيء عن المجموعة المحتشدة حول النار – وهو شبح لأحد تجار الشمال كان قد استغرق في النوم ذات ليلة على الجسر ذي الاتجاه الواحد ولم يستيقظ بعد ذلك. جلس أولاف في ركنه المظلم وأخذ يراقب ميرين الذي كان يجلس في الطرف الآخر من الغرفة؛ فقد لمحت عيناه شيئًا في الفتى؛ فالفتى رحَّالة مثله، غريب في بلد غريب مثلما كان أولاف نفسه معظم حياته. وقرر أولاف، في نوبة من المشاعر الجارفة أثارها فجأة في نفسه تشابه الظروف بينهما، أن **يظهر** لأول مرة لشخص حي.

وبينما كان أولاف في طريقه إلى ميرين، ألقى بنظرة خاطفة إلى إحدى المرايا الداكنة التي تصطف حوائط الحانة ورأى نفسه لأول مرة منذ خمسة عشر عامًا، أو بالأحرى رأى أجزاء من نفسه، وكانت الصدمة! وقف أولاف أمام المرآة وحملق في صورته، كان الموقف غريبًا جدًّا؛ فكل أطرافه كانت في أماكنها، لكن كانت هناك فجوة مزعجة تتوسط جسمه حتى إنه كان في وسعه أن ينظر من خلالها، كما أن أعلى رأسه لم يكن واضحًا. ركز أولاف بقوة، ورويدًا رويدًا **ظهر** باقي رأسه برباطه الجلدي القديم وشعره الأشقر الخفيف. بحق السماء! هل شعره أعلى رأسه خفيف إلى هذا الحد؟ ثم تحسس بيده هذا الجزء من رأسه، لكن لم يبد له ملمس. وشعر أولاف فجأة بالاكتئاب؛ فقد نسي لوهلة أنه شبح، ثم تذكر نصيحة الأشباح الأخرى حول **الظهور** لأول مرة؛ إذ قالوا له: احترس! **فالظهور** للأحياء يقلِّب عليك المواجع والذكريات القديمة، فسوف يبدو لك الأحياء وكأن حركتهم سريعة وأصواتهم عالية، وسوف

يجعلونك تشعر، أكثر من أي وقت مضى، بأنك أصبحت شبحًا. أخذ أولاف نفسًا عميقًا، ووقف بثبات أمام المرآة، فتبدت له بقية بطنه، ورأى بوادر كرش. إن هذه الكرش لا يتذكرها أيضًا، ثم تذكر أنه ما كان ينتبه كثيرًا لمظهره عندما كان حيًا.

ومع وصول الشبح إلى مائدة ميرين، كان قد بدا في الضوء الخافت بالحانة جسمًا ملموسًا كما لو كان شخصًا حيًا. رفع ميرين بصره ونظر إلى أولاف الذي شعر بالانزعاج؛ إذ لم يره أحد من الأحياء من قبل وهو شبح.

قال أولاف ناطقًا بأول كلمات له لأحد من الأحياء منذ خمسة عشر عامًا: «مرحبًا».

لم يرد عليه ميرين، ولم يدرِ أولاف ماذا يفعل أو يقول تحديدًا، فهمَّ بالجلوس قبالة الفتى. لكنه لم يلحظ الشبح الباهت للعاملة العجوز التي انتفضت من مكانها وهي تصيح، وسقطت بنساتها متناثرة على الأرض.

«أخ! أنا آسف يا سيدتي» هكذا قال أولاف، وقد هبَّ واقفًا على قدميه وأخذ يبحث حوله على الأرض، محاولًا العثور على بنسات السيدة العجوز – وهو أمر مستحيل بما أن البنسات أصبحت جزءًا من شبح السيدة – متسببًا في شعورها بمزيد من الإهانة. دفعت العاملة أولاف بعيدًا عن طريقها، ثم أخذت تجمع البنسات بنفسها، وأخيرًا تراجعت وهي تهمهم إلى ركن مظلم بعيد عن النار؛ وهو المكان الذي سوف تقضي فيه الأعوام المائة القادمة مستغرقة في إحصاء بنساتها؛ لتتأكد أنها كاملة.

قال ميرين متذمرًا ومكشرًا في وجه أولاف: «لا تناديني بسيدتي، أنا لست فتاة»، ثم تساءل في سره ما الذي جعل هذا الغريب يأتي إلى مائدته كي يتحدث معه، ثم يقفز فجأة إلى الأرض. ورأى ميرين أن هناك شيئًا غريبًا في الرجل، دون أن يُدرك على وجه اليقين ما هو هذا الشيء.

قال أولاف الذي اعترته الحيرة: «بالطبع لا، فأنت بالفعل لست فتاة»، ثم واصل مثابرًا، ومتحدثًا بصوت ناعم بالنبرة الغناءة التي يتميز بها سكان الشمال: «أنت غريب هنا، أليس كذلك؟».

رد ميرين بتجهم قائلًا: « لقد وُلدت في القلعة. وأنا... وأنا عائد إليها الآن».

قال أولاف بنبرة اشتياق: «ياه! العودة. أنت محظوظ إذن، فالبعض منا لا يمكنه العودة أبدًا إلى وطنه حيث مسقط رأسه».

نظر ميرين إلى الرجل الجالس أمامه، إن وجهه الذابل بدا عليه مظهر الطيبة، كما أن عينيه الزرقاوين الباهتتين تعلوهما نظرة ودود فهدأت نفس ميرين بعض الشيء؛ فقد كانت هذه أول مرة يسعى فيها أحد إلى الاقتراب منه مهتمًا بالتحدث معه، وأول مرة يتحدث فيها أحد معه كما لو كان إنسانًا ناضجًا ومحترمًا، وكان ذلك إحساسًا جميلًا، فجازف ميرين وابتسم للرجل.

وجازف أولاف هو أيضًا، وقال له بعد أن شجعته الابتسامة: «هل لك أسرة هنا؟».

رد ميرين مقرًا على الفور أن احتمال أن تكون له أم في الميناء لا يوضع في الحسبان: «لا، ليس *لديَّ أية* أسرة».

كان صعبًا على أولاف، الذي كانت له عائلة كبيرة جدًّا، أن يتصور ذلك عمليًّا، وقال: «ليس لديك أسرة؟! أي أسرة!».

هز ميرين رأسه وقال: «لا».

«إذن، أين ستقيم؟ وماذا ستفعل؟».

هز ميرين كتفيه؛ فهو أيضًا سأل نفسه هذا السؤال، لكنه نحّاه جانبًا في الوقت الراهن.

وهنا، اتخذ أولاف قراره؛ فهو يعلم أن لديه بمكان ما في بلاد الليالي الطويلة طفلًا لم يره ولن يراه أبدًا، وإن كان يخالجه إحساس بأنه رُزق بطفلة وليس طفلًا، رغم أنه لا يعرف سبب هذا الإحساس. وطفلته هذه – كما تصور – سوف تكون في نفس سن هذا الفتى. وهو وإن كان لا يملك أن يمارس دوره كأب، ويساند طفلته، فسوف يفعل ذلك مع طفل آخر. ومن ثم، عرض على ميرين قائلًا: «غدًا سوف أصطحبك إلى القلعة وآخذك إلى مكان محترم تستطيع أن تقيم فيه، هل ستقيم هنا الليلة؟».

فأومأ له ميرين برأسه.

بدأ أولاف يتجاوب مع وضعه الجديد ويستمتع به أيضًا، وواصل قائلًا: «أنت اليوم قطعت رحلة طويلة على ما أعتقد؟».

«لقد قطعت الطريق كله من أرض الأشرار، ولا أريد أبدًا العودة».

فسأله أولاف: «وهؤلاء، من كنت تقيم معهم، ليسوا أسرتك؟».

«بالطبع لا، هذا من *رابع المستحيلات*؛ إذ كانوا يعاملونني كأني خادم لديهم، أو حتى أسوأ من ذلك، فانتهزت أول فرصة وتركتهم».

فأومأ له أولاف برأسه متعاطفًا معه، وقال في سره إن الفتى عاش حياة بائسة، ولقد حان الوقت ليمد له أحد يد العون.

ثم بدأ ميرين، وقد شجعه اهتمام أولاف، يقص عليه حكايته، وقال: «لقد سبق لي أن هربت مرة من قبل وانتهى بي الأمر حينها إلى أن وجدت نفسي منعزلًا في المستنقعات مع ساحرة عجوز مجنونة كانت تجعلني أتناول سندوتشات محشوة بثعابين البحر والكرنب».

همس أولاف: «هذا مزعج جدًّا».

«لقد كان مذاقها *منفرًا جدًا*، ولكنني اضطررت حتى أهرب منها لأن أقبل العمل لدى سايمون هيب وكان الوضع معه أسوأ، وانتهى بي الحال إلى أن وجدت نفسي قد عدت إلى نفس المكان البشع الذي نشأت فيه. لم أصدق نفسي، وظننت طوال تلك الفترة – حتى الأسابيع القليلة الماضية – أني بت مغروسًا للأبد هناك مع سايمون وحقيبة العظام المنفرة».

فسأله أولاف ظنًّا منه أنه لم يفهم تمامًا: «*حقيبة عظام*؟».

«نعم. عظام سيد سايمون القديم، وسيدي أنا أيضًا.. إنه دومدانيال. كانت عظامه تعيش في كيس إلى أن أخرجته ليلة أمس».

وهنا، كان أولاف واثقًا من أنه ما عاد يفهم شيئًا من هذا الكلام، وقال: «*أخرجته*..؟!».

«نعم، وأخذت خاتمه – أتريد أن تراه؟».

وبدون أن ينتظر رد أولاف، لوح ميرين بإبهامه في وجه الشبح، وقال له: «لقد أصبح ملكًا لي الآن. ولقد حصلت عليه بمجهودي *الشخصي*.

لم يكن الأمر لطيفًا عندما اضطررت لأن أعبث وسط كل تلك العظام، فبعضها كان مكسوًا بمادة غضروفية ومواد لزجة أيضًا وكانت رخوة، إلا أنني استطعت أن أخلع الخاتم من أصبعه في نهاية الأمر. وكان ذلك عندما قطعت طرف الإبهام، ها ها! إنه يستحق ذلك. هل تعلم أن عظام الإبهام تشبه تمامًا أصابع الأقدام؟».

وبحذر، أومأ له أولاف برأسه؛ لقد اتضح له أن الفتى ليس كما كان يتوقع، وبدأ يندم على عرضه الذي قدمه له منذ قليل. لقد صدق إذن ما يُقال عن الأحياء - فهناك البعض منهم غريبو الأطوار. ولحظه العاثر، يوم أن اختار أن يظهر لأول مرة لأحد من الأحياء اختار واحدًا من هؤلاء. وأنقذ أولاف من سماع المزيد من هذا الحديث عن العظام قدوم النادلة بعشاء ميرين، وهو طبق ضخم من المقانق المغروسة في كومة هائلة من البطاطس المهروسة.

قال أولاف وهو ينهض على عجل بينما كانت النادلة تضع الطبق أمام ميرين بصوت مكتوم: «سوف أتركك الآن لتتناول عشاءك». فأومأ له ميرين برأسه سعيدًا لأنه لا يريد أن يشاركه هذا الغريب في عشائه، ثم طعن ميرين بشوكته قطعة ضخمة من المقانق وغرسها فيها فجفل أولاف وهو يقول في سره إن المقانق تبدو مثل عظام الإبهام، وتخيلها الآن وهي في كيس وتلبس خاتمًا.

ثم قال ميرين بفم ممتلئ بالمقانق: «أراك غدًا إذن».

«نعم نعم، أراك غدًا»، هكذا رد أولاف بنبرة كئيبة؛ فهو لا يحنث أبدًا بوعوده.

«حسنًا» هكذا رد عليه ميرين وهو يرفع بصره لأعلى نحوه في اللحظة التي كان يوجه فيها طعنة لقطعة المقانق الثانية. لكنه وجد الغرفة خالية الآن؛ فقد رحل المزارعون، وكذلك الغريب الأشقر طويل القامة.

6

العودة إلى القلعة



بينما كان ميرين يحاول أن يجد وضعًا مريحًا على حشية الفراش المتكتلة أسفل بروزات سقف حانة «الترسة الممتنة»، كان ستانلي يحفر جحرًا وسط بعض القش يقود إلى «حفرة الجرذان» أسفل المكان الذي يستند إليه جسر القلعة المتحرك عند إنزاله. كانت «حفرة الجرذان» هذه موقعًا مشهورًا للجرذان العائدة إلى القلعة، باعتبارها مكانًا آمنًا للنوم فيه أثناء انتظار بزوغ الفجر حتى يُنزل العامل الجسر المتحرك.

كان ستانلي يخشى أن يجد «حفرة الجرذان» مكدسة عن آخرها، لقد تعرض في السابق لهذا الموقف عدة مرات، وكان يضطر حينها لأن يقضي ليلة

غير مريحة على شجرة مجاورة، وهو مكان يُعد، في أسوأ الظروف، أفضل من مطابخ حانة «الترسة الممتنة» التي تسكنها الأشباح. تسلل ستانلي أسفل الضفة، ودخل مسرعًا إلى الجحر المتوارى عن الأنظار، متمنيًا في سره ألا يكون قد تأخر في الوصول والحصول على مكان ينام فيه. لكن لدهشته وجد أنه كان الجُرذ الوحيد في الحفرة، ثم تذكر السبب؛ إنهم قتلة الجرذان.

فمنذ نحو ستة أشهر، تمكن ستانلي بصعوبة هو وزوجته داوني من الفرار منهم.. ومع وصولهما إلى الأمان النسبي في الميناء، نشرت داوني أخبار هروبهما التي كانت تزداد تشويقًا. وليس هناك ما يروق مجتمع الجرذان أكثر من الحكايات المروعة، وكانت النتيجة أن القلعة لم تطأها بعد ذلك قدم جُرذ واحد عاقل. لكن ليست كل الجرذان - كما قال ستانلي في سره - على علم بآخر ما آلت إليه الأوضاع، *كما أنه* يعلم أن عهد قتلة الجرذان قد ولّى وانتهى. فلتكن عودة بلا رجعة، كما قال في سره. سار ستانلي إلى الأعماق الدافئة المتعفنة داخل «حفرة الجرذان»، كاسيًا نفسه ببعض القش القديم.

كانت حفرة الجرذان مكانًا موحشًا بلا رفقاء.. ولأن ستانلي جُرذ اجتماعي ولا يحب شيئًا أكثر من الثرثرة مع جرذان رسل آخرين، وجد نفسه مكتئبًا من الإقامة وحده فيما كان يومًا مكانًا مؤنسًا. حاول أن يقضم ثمرة لفت شبه متعفنة خلّفها أحد الجرذان وراءه، لكن التفكير في داوني وقتلة الجرذان أفسد شهيته. ومن ثم، بسط ستانلي أرجله القصيرة وهو يتأوه تأوهًا قصيرًا، مع شعوره بالإرهاق والآلام بعد هذه الرحلة الطويلة،

وتثاءب، ثم راح في سُبات عميق. وسرعان ما تسلل غطيطه عبر الخندق المائي، لكن ما من أحد – ولا حتى أفراد أسرة جرينج الذين يقطنون بيت البوابة في الجهة المقابلة – سمعه.

ومع ظهور شعاع الصباح الباكر في السماء، أدى *الصوت الأجوف* المدوي المصاحب لارتطام الجسر المتحرك بالأرض إلى رجرجة ستانلي فوق القش وإرساله متدحرجًا حتى أول الجحر. وبعينين يملؤهما النعاس، نظر ستانلي في الخارج في الضوء الباهت، لم تبدُ له الأجواء مبشرة، كانت الرياح تنجرف منسابة عبر السطح الأملس لصخور الخندق المائي الإردوازية، وكانت قطرات الأمطار تتساقط على سطح مياهه في دوائر ما تلبث أن يزيد اتساعها ما إن تسقط. لكن «حفرة الجرذان» الخالية لم تكن هي أيضًا بالمكان اللطيف للمكوث فيه. فقفز ستانلي خارج الحفرة، واستنشق هواء الصباح الباكر، وامتزجت رائحة أوراق الشجر الذابلة ورائحة الأمطار ومياه الخندق المائي برائحة مزعجة لعصيدة غير طازجة تهب عبر سطح المياه، مصدرها بيت البوابة في الضفة المقابلة. وبسرعة، وقف الجُرذ باتزان فوق الصخرة التي يستخدمها الجرذان للقفز منذ أجيال، ثم قفز قفزة محسوبة. هبط الجُرذ بخفة على حافة معدنية ضيقة أسفل الجسر المتحرك، ومع حرصه على ألا ينظر إلى المياه العميقة في الأسفل، عبر الخندق المائي ركضًا على امتداد المجرى الذي يستخدمه الجرذان والمخفي أسفل ألواح الجسر.

وبعد أن وصل في أمان إلى الجانب الآخر، تسلق الضفة الموحلة.. وبرأس مطأطئ في مواجهة الرياح التي كانت تهب بعنف وتذر التراب في

عينيه، انطلق ستانلي بخطوات صغيرة وسريعة على طول المسار الممتد عبر البوابة الشمالية وفجأة، وجد نفسه – لفزعه – يعبر أثناء انطلاقه من فوق قدمي السيدة جرينج؛ زوجة حارس البوابة. ولقد اعتاد ستانلي أن يتجنب جرينج الذي يتميز بقدمين عريضتين ثقيلتين يستطيع أي جُرذ أن يسمع حركتهما على بُعد ميل، وصوت له نفس المواصفات. لكن السيدة جرينج، وهي سيدة قصيرة القامة ذات ملامح يكسوها القلق والتوتر، كانت تجلس بهدوء في أمان بيت البوابة وقدماها الصغيرتان ممتدتان خارج الباب، كأنهما يدعوان جُرذًا غافلًا لأن يتعثر بهما. وبالطبع لن تدع السيدة جرينج مسألة قفز جُرذ من فوق أصابع قدميها الرقيقة تمر مرور الكرام. وفي لحظة، بدأت تصرخ، وأمسكت مكنسة وجهت بها ضربة قوية إلى الجُرذ فسقطت بصوت مكتوم على ذيله وهو ينسل.

انطلق ستانلي كالصاروخ وتوجه إلى أقرب بالوعة، والتي لم تكن بالمكان المريح بعد ليلة من الأمطار الغزيرة، كما اتضح له أنها مسدودة..

ثم سمع صوت السيدة جرينج وهي تصيح قائلة: «جُرذ! جُرذ!».

فجاء صوت متذمر من داخل بيت البوابة يقول: «أين هو؟».

«في البالوعة.. أمسك به يا جرينج!».

وبعد أن أصبح ستانلي محاصرًا الآن، راح ينصت لوقْع خطوات أقدام جرينج الثقيلة وهي تدب فوق رأسه، وأخذ نفسًا عميقًا وتمكن من الغطس أسفل سطح الماء في الوقت المناسب.

جثا جرينج على ركبتيه ونظر في البالوعة، ثم قال: «لا أرى شيئًا، أمتأكدة أنتِ من أنك رأيتِ جُرذًا؟».

«بالطبع أنا متأكدة، لقد رأيته بأم عيني».

أخذ جرينج يُحدق إلى المياه الآسنة، وقال ببطء: «مازلت لا أرى شيئًا. أتعلمين؟ عندما كنت تصيحين خُيل إليَّ... خُيل إليَّ لوهلة أنك أنت ولوسي تتعاركان. كم كانت أيامًا جميلة!».

قالت السيدة جرينج متنهدة: «نحن لم نكن نتعارك *طوال الوقت*. أو بالأصح كنا نتعارك فقط حول موضوع ذلك الفتى؛ سايمون هيب».

شعر ستانلي أن رئتيه على وشك الانفجار، وتسللت من فمه فقاعة هواء صغيرة، قال على إثرها جرينج: «أخ! أعتقد أن ذلك الجُرذ المزعج يختبئ أسفل سطح الماء».

«هل أحضر لك جاروفًا؟».

«نعم، الجاروف الكبير. سأخرجه ثم أضربه على رأسه. تمرين لا بأس به، أستعد به لذلك الفتى سايمون لو لمحت وجهه هنا».

ما عاد ستانلي الآن يتحمل حبس أنفاسه أكثر من ذلك. وعلى الفور، كانت نافورة من المياه النتنة قد انطلقت من البالوعة - تحمل معها جُرذا مبللًا - فتراجع جرينج للوراء وهو يدمدم. وبعد أن كان قد نظف عينيه أخيرًا من المياه المتسخة، كان ستانلي قد اختفى وانطلق بعيدًا في متاهة الحارات والطرق الجانبية التي تتفرع من عند البوابة الشمالية في اتجاه قلب القلعة.

وما إن وصل ستانلي إلى أعتاب القصر حتى استحم سريعًا في حوض لسقي الخيول كان ماؤه باردًا كالثلج، ولم يكن الاستحمام من الأمور التي تحبذها الجرذان - وستانلي نفسه لا يتذكر متى كانت آخر مرة

استحم فيها - لكن عندما يستعد جُرذ لدخول القصر فلابد أن يبذل مجهودًا.

بالعودة إلى حانة «الترسة الممتنة»، كان ميرين على الجانب الآخر لا يبذل مجهودًا يذكر؛ فقد ظل أولاف سنوريلسن ينتظر لساعات حتى استيقظ ميرين أخيرًا، وقد قضى الشبح المسن طوال ذلك الوقت في تلقي عبارات اللوم والتأنيب من العاملة السباكة المتجولة. وأخيرًا، نزل الفتى بعد الساعة العاشرة عندما اضطرت مالكة الحانة - والتي كانت تريد إخلاء الغرفة - لأن تسحبه من السرير.

ومع حرص أولاف على الوفاء بوعده الذي ندم أن وعد به، **ظهر** من بين الظلال، ثم سأل ميرين، آملًا أن يرفض الفتى عرضه: «سوف آخذك إلى القلعة، موافق؟» لكن لسوء حظه، ميرين لم يرفض.

ورد عليه بنبرة متذمرة قائلًا: «نعم، دعنا نخرج من مقلب القمامة هذا».

وهكذا، اصطحب أولاف الفتى متوجهًا إلى الجسر ذي الاتجاه الواحد، وقد جثم على صدره كالسحابة الثقيلة نفس الإحساس الكئيب المألوف الذي يثيره الجسر في نفسه. ولم تنقشع السحابة بينما كان أولاف يقود الفتى بكل إخلاص عبر الجسر، ثم توسط الشبح لفض جدال نشب بين الفتى وحارس البوابة، والذي كان هو أيضًا متعكر المزاج وذا رائحة منفرة. وبعد ذلك، توجه إلى منطقة العشوائيات، وهي مكان فسيح أشبه بالمتاهة يكنُّ له أولاف حبًا خالصًا. وكان من الصعب

على أولاف، أثناء قيادته لميرين عبر الممرات الضيقة والمزدحمة أحيانًا أن يطرد من ذهنه إحساسًا غريبًا يحدثه بأن هناك من يتعقبهما. لكن كلما كان ينظر خلفه لم يكن يرى أكثر من ظل يظهر بشكل خاطف من حين إلى آخر، وهو ما لم يكن مستغربًا في هذه الحارات المتعرجة المظلمة. ومع إصرار الشبح على الوفاء بوعده، اصطحب ميرين إلى قلب منطقة العشوائيات وقاده إلى نزلٍ صغير هو نفسه كانت له فيه ذكريات سعيدة أثناء إقامته به منذ سنوات طويلة مضت.

وكانت هذه الفكرة – كما قال أولاف فيما بعد وهو مستغرق في التفكير – قد جانبها الصواب؛ فميرين لم يعجبه المكان إذ إنه، وكما قال له، ليس سوى مقلب قمامة منفر. وعندما علم ميرين سعر الغرفة من مالكة النزل، والتي كانت بالفعل سيدة لطيفة، رد عليها الفتى ووصفها بالجشعة العجوز. فقرر أولاف أن **يظهر** للسيدة ويعتذر لها، إلا أن هذا القرار أيضًا جانبه الصواب، وكانت نتيجته أنه ارتبك واضطرب، وأساء فهم الموقف. فمع **ظهوره** المفاجئ ومع عدم اكتماله، أخذت السيدة تصرخ وصفقت في وجهيهما الباب الذي **اخترق** قدمه وجعله يشعر بالغثيان، وما إن تعافى حتى كان ميرين قد تركه. ومع شعوره بالارتياح بهذه النتيجة انطلق عائدًا، غير مدرك أنه **يظهر** بشكل غير مكتمل لكل المارة، متسببًا بذلك في حالة من الفوضى العارمة بالطريق. وبنهاية النهار، وبعد أن عاد بأمان إلى حانة «فجوة السور»، قرر أنه لن **يظهر** أبدًا لأي شخص بعد اليوم؛ فما فعله كان ضربًا من الجنون.

صعد ستانلي بخطوات صغيرة وسريعة أحد السلالم الخلفية العديدة للقصر، فعلى الرغم من أنه لم يسبق له أن صعد إلى الدور العلوي من القصر، فقد كان يعلم بصفته جرذًا رسولًا سابقًا التخطيط العكسي للخروج من القصر – وهو أمر كان لا بد أن يدرسه كجزء من منهج امتحانات الدراسات العليا. وبعد أن تجنب ستانلي الشبح القديم لفارس كان يقف في نوبة حراسة – وقد وجه له الحارس ضربة بسيفه ممسكًا به بذراع واحدة – تسلق بخطواتٍ سريعة صغيرة لوحة مطرزة معلقة لدى جانب باب مزدوج ضخم، وواصل طريقه بصعوبة مارًا بفتحة جرذان تعشش فيها بيوت العنكبوت عند الجزء الأعلى من بطانة الجدار، ثم نظر للأسفل، كان الارتفاع كبيرًا. انتظر ستانلي لوهلة يستجمع فيها شجاعته استعدادًا للقفز. وبعيدًا في الأسفل، كانت الأميرة چينا هيب، وريثة القلعة، تجلس بجانب نار، وكانت تقبع بجوارها رسالة متهالكة من كثرة قراءتها.

لم يتمكن ستانلي من قراءة الرسالة من بعيد، لكن چينا كانت تحفظها عن ظهر قلب. وكانت تُقرأ كالتالي:

تم تسليم الرسالة يدًا بيد، والرسالة مرسلة من برج السحرة عن طريق ب. كاتشبول

تسلَّمها القصر في الساعة 7:30 صباحًا.

من سبتيموس هيب، تلميذ مارشا أوفرستراند،

الساحرة العظمى

عزيزتي چين،

هل يمكنك أن تقابليني في مكان مارسيلوس في منتصف النهار اليوم؟

لقد وصلتني توًا رسالة منه! إنها تحمل أخبارًا مبشرة. أعتقد أنه تذكر أخيرًا بعض الأمور، ولديه بعض الأوراق الخاصة بنكو ويريدنا أن نطلع عليها، ويقول إنه قد تكون هناك طريقة تمكنه من العودة! أراك هناك.

مع خالص حبي وإخلاصي،

سبتيموس xxxx

كانت چينا من فرط حماسها لا تكاد تستطيع أن تجلس ساكنة، ناهيك عن الانتظار حتى منتصف النهار. وبعد أن تناولت إفطارها في نفس الجو الكئيب مع سارة هيب، فرت إلى غرفتها محاولةً أن تشغل نفسها بشيء مفيد حتى تنقضي هذه الساعات. ومن ثم، أخذت تقرأ بكل إصرار في كتاب كبير، غير مدركة أنها مراقبة من قِبل جُرذ يتأرجح في الأعلى.

وبعيدًا أعلى چينا، أخذ ستانلي نفسًا عميقًا وقفز في الفضاء فهبط على سرير چينا، ثم ارتد عاليًا في الهواء، وأخيرًا سقط مرتطمًا بالأرض

فوق السجادة المفروشة أمام النار فالتوى كاحله. «أف!» هكذا قال متذمرًا وهو يتدحرج للأمام ليصطدم برأسه في سطل الفحم.

انتفضت چينا وهبت واقفة على قدميها، ثم قالت وهي تشهق: «ستانلي ؟».

اعتدل ستانلي بقفزة، ثم أخذ يقفز متألمًا، وأخيرًا حيًا الأميرة وقال لها: «في خدمتك يا صاحبة الجلالة».

ردت چينا عليه قائلة: «لم أصبح بعد (صاحبة الجلالة)، ليس قبل أن يتم تتويجي»، ثم قطبت جبينها وهي تشير إلى تاج بسيط وجميل جدًا يقبع على وسادة من القطيفة الحمراء على الرف الذي يعلو المدفأة.

قال ستانلي بشيء من الخشوع: «ياه! إنه يبدو ثقيلًا جدًا. أنا عن نفسي لا أحب أن أضع هذا على رأسي طوال النهار».

ردت چينا قائلة: «ولا أنا. وأنا لا أنوي فعل ذلك في الوقت الراهن. أتعلم يا ستانلي؟ أنت دائمًا تظهر في أكثر الأوقات التي لا أتوقع ظهورك فيها. كيف حالك وحال داوني؟».

أجابها الجُرذ قائلًا: «أنا بخير. كما أني واثق من أن داوني هي أيضًا بخير. ففي نهاية الأمر، هذا هو ما تحرص عليه دائمًا».

قالت چينا: «أفهم من ذلك أن الأمور بينكما ليست على ما يُرام؟».

«نعم يا صاحبة الجلالة. لكننا افترقنا بشكل ودي. في الحقيقة، عندما كنت راحلًا رأيت أنها بدت ودودًا نوعًا ما. هذا مجرد احتمال. رغم أنها كانت تأكل حينها فطيرة، وهذا دائمًا يُحسن من مزاجها».

«ياه! أنا حزينة فعلًا يا ستانلي».

رد ستانلي باقتضاب: «وأنا لست حزينًا».

ثم سألته چينا: «وما... وما الذي تفعله في حياتك الآن؟».

«أحـاول أن أشغل نفسي. إنني راضٍ عن حالي. فأنا أزور بعض الأصدقاء القدامى، وأحاول تعويض ما فاتني، وأتواصل مع الآخرين، وما إلى ذلك من الأعمال كما تعلمين. ولقد قمت ببعض الأعمال المستقلة في واقع الأمر - مهمة إلى أرض الأشرار».

ارتجف جسم چينا وقالت: «إنه مكان بشع».

«أنتِ محقة يا صاحبة الجلالة. وأنا لن يروقني مقابلة هؤلاء الذين يعيشون هناك ليلًا. بل في واقع الأمر، أنا لا أود أن أقابلهم أبدًا. ولقد بدأت على أية حال أضع أساسًا لاستقراري هنا الآن.. فكما يقولون «ليس هناك مكان أفضل من مسقط رأسك»، وأنا لديَّ اقتراح صغير أحب أن أعرضه عليك إذا كنت لا تمانعين. هذا إذا كنت غير منشغلة الآن. لكن إذا كنت منشغلة فباستطاعتي أن أعود لاحقًا. فمما لا شك فيه أن أعباء المُلك والحياة الملكية تثقل كاهلك رغم أنك لاتزالين شابة صغيرة وأنا...».

«أنا كنت أقرأ فحسب يا ستانلي. وسوف أقابل شخصًا في وقت لاحق والأمر في غاية الأهمية؛ ولذلك أريد أن أفهم كل شيء عن الموضوع قبل أن أذهب إلى الموعد».

«هذا رأي سديد، أن تكوني دائمًا مستعدة. يا له من كتاب كبير هذا الكتاب! عن نفسي لن تستهويني قراءته».

تنهدت چينا وقالت: «إنه كبير بالفعل، ومعقد أيضًا.. إن الموضوع بشأن الزمن».

«نعم، هذا هو ما كنت أفكر فيه. من الواضح أن الزمن المسموح لي به معك قد انتهى، وحان الوقت إذن لكي أرحل و...».

«لا، انتظر. ما كنت أقصده أن موضوع الكتاب هو الزمن».

«فهمت. اعذريني، فأنا مبتعد منذ فترة طويلة. لكن كما قلت لك، لديَّ اقتراح أعرضه عليك قد يكون مفيدًا لكِ. هل أواصل الآن؟».

ابتسمت چينا وقالت وهي تغلق الكتاب وتضعه على السجادة: «في الحقيقة، هذا هو ما تفعله بوجه عام. اجلس. يمكنك الجلوس على الكتاب هنا».

«شكرًا يا صاحبة الجلالة، لكن أعتقد أني أفضل التحدث واقفًا. أما عن الاقتراح فهو لو أنك تكرمت وسمحت لي بأن أعيد تشغيل برج مراقبة البوابة الشرقية وأعيد تأسيس مكتب القلعة الرسمي لخدمة الجرذان الرسل المفتقد كثيرًا حاليًا، سوف يشرفني أن أقدم لك عرضًا بالاشتراك للعام الأول مخفضًا بنسب غير مسبوقة».

قالت چينا: «لكن القصر كان يحصل على هذه الخدمة مجانًا من قبل».

«حقًا؟ إذن فالاشتراك سوف يكون مجانًا لمدة عام، كما أني سوف أضع بالعقد بندًا يتضمن توفير جُرذ يكون حارسًا شخصيًا لكِ بالإضافة إلى إعطائك أولوية تقديم الخدمات في كل الأوقات».

ردت چينا قائلة: «عظيم، ليس لديَّ أي اعتراض».

جلس ستانلي على الكتاب وسألها: «أمتأكدة أنتِ؟».

«نعم. إننا بحاجة إلى مكتب خدمة الجرذان الرسل؛ إنها بالفعل خدمة نفتقدها. وإن كنت لا أعلم كيف ستوفر جرذانًا في الوقت الراهن. لقد اختفت جميعها. وأنت أول جُرذ أراه منذ وقت طويل».

هب ستانلي واقفًا على رجليه وحيًا چينا مرة أخرى - وهي عادة اكتسبها مؤخرًا من جُرذ يعيش في سفينة قديمة بالميناء - ثم رد قائلًا: «ليس هناك أية مشكلة في ذلك. فالجُرذ يجلب جرذانًا أخرى. سوف أوافيكِ بكل المستجدات يا صاحبة الجلالة. أما عن حارسك الشخصي فسوف يُرسل إليك في أقرب وقت ممكن»، ومع انبثاق قط برتقالي هزيل في تلك اللحظة، قال مفزوعًا: «يا للهول! لديكِ قط هنا». وعلى الرغم من أن القط لا يزيد حجمه كثيرًا على حجم ستانلي، فقد كانت عيناه الزرقاوان تنطلق منهما نظرة باردة لم تعجب الجُرذ. لم تعجبه على الإطلاق. وستانلي الذي لا ينسى القطط التي يراها أبدًا، كان واثقًا تمامًا من أنه رأى هذا القط من قبل.

قالت چينا وقد لاحظت أن القط استعد للانقضاض: «نعم، فأنا أرعاه إلى أن تأتي صاحبته. اهدأ يا أولر».

رد ستانلي عليها متراجعًا للوراء: «سوف أضطر إذن لأن ألغي عرض الحارس الشخصي. ليس في وجود قط في المكان. لا أستطيع أن أعرض فريق عملي للخطر».

رفعت چينا أولر واحتضنته، ثم قالت: «لا تُقلق نفسك بذلك، فأولر خير حارس يمكن أن أتمناه».

نظر ستانلي إلى القط، ثم قال: «أليس حجمه صغيرًا على أن يكون حارسًا؟» فأشهر أولر مخالبه، وحاول التملص من قبضة چينا. وعلى الفور تراجع ستانلي إلى الوراء وقال: «سوف أرحل الآن يا صاحبة الجلالة. وأشكرك كثيرًا. وداعًا».

قامت چينا وذهبت لتفتح الباب لستانلي، ثم قالت للشبح الذي كان على وشك أن يستهدف الجُرذ بضربة أخرى سريعة: «إنه صديق يا سير هيروارد».

فر ستانلي هاربًا على امتداد الطرقة، ثم قفز بخفة على درجات سلم القصر الفسيح، وبرأس مرفوع خرج من الباب الرئيسي مع تردد صدى كلمات چينا في أذنيه عندما قالت عنه إنه صديق.. إنه صديق لشخصية ملكية.

فلتأتِ داوني وتر وتسمع بنفسها.

7
المسئول



كان *هذا اليوم سيئًا بالنسبة لبيتل،* موظف مكتب الاستقبال وموظف تفتيش الأنفاق الجليدية في «دار المخطوطات **السحرية** وشركة مراجعة التعاويذ» الكائن في العقار رقم ثلاثة عشر في «طريق السحرة». كان اليوم يوافق الإثنين، وكانت الريح في صباحه تهب عاصفة تصاحبها الأمطار، ولقد تركت له چيلي دچين، رئيسة كتبة النصوص الهرمسية، مسئولية إدارة «الدار» أثناء غيابها. في بادئ الأمر، كان بيتل في قمة السعادة والانتشاء؛ فهذا شرف له، بما أن الآنسة چيلي دچين تختار نائبيها

بمنتهى الدقة، حتى لو كان ذلك لمدة ساعة واحدة فقط، كما أنها اعتادت أن تنيب عنها أكبر الكتبة، لكنها حملقت طويلًا في بيتل صباح هذا اليوم بنظرتها التي تثير الاضطراب - وهي نظرة تجعله دائمًا يتساءل ما الذي أخطأ فيه - وقالت له: «بيتل، أنت المسئول هنا إلى أن أعود. أي شخص يتقدم للوظيفة املأ له الاستمارة، وسوف أقابلهم ظهر اليوم. سوف أعود بعد ساعة بالتحديد»، ثم خرجت الآنسة چيلي دچين مندفعة من الباب تصاحبها خشخشة عباءتها الحرير ذات اللون الأزرق الداكن، وتوارت عن الأنظار.

أغلق بيتل الباب في وجه الريح، وأخذ يصفر مقطوعة طويلة بصوت خفيض. وبعد أن قاوم رغبة ملحة في أن يطلق لنفسه العنان ويصيح قائلًا: «أنا المسئول، أنا المسئول عن المكان *بأسره* هنا!» - اكتفى بأن يلقي نظرة على المكتب الداخلي ويتأكد من أن كل شيء يسير على ما يُرام. وكان كل شيء بالفعل يسير على ما يُرام؛ فكان هناك عشرون كاتبًا - مع نقصان العدد المعتاد بكاتب واحد - رابضون إلى مكاتبهم المرتفعة أسفل عشرين بؤرة ضوئية خافتة، يصاحبهم صوت خربشة أقلامهم بينما كانوا ينسخون مختلف التعاويذ والتركيبات والوصفات السحرية والرقى والوثائق الرسمية التي تحتاج لنسختين والخطب اللاذعة والرخص والتصاريح والتوكيلات وكل ما يحتاج إليه السحرة - أو أيٌّ من سكان القلعة عنده استعداد أن يستغني عن بعض البنسات الفضية الزائدة على حاجته.

احتفل بيتل بترقيته المؤقتة هذه بأن جلس على مقعده الدوار وأخذ يلف ويلف به – وهو أمر غير مسموح به – ثم راح يدرِّب نفسه على نظرة «أنا المسئول». وعلى مدار الدقائق الخمس الأولى، كان كل شيء على ما يُرام على نحو رائع – ثم فجأة انقلب الحال إلى النقيض تمامًا.

وما أذهل بيتل هو كيف أن هذا الكم من المشكلات تكدس بهذه الصورة في هذا الوقت القصير. ولقد بدأت المتاعب تدب عندما دخل مكتب الاستقبال فتى نحيل طويل القامة يرتدي رداء أسود رثًا مبقعًا بشكل يُفصح أنه كان على سفر.. ومع دخوله رن للمرة الثالثة جرس چيلي دچين الجديد المزعج غاية الإزعاج الذي يحصي عدد الزبائن يوميًا وطلب الفتى مقابلة رئيسة كتبة النصوص الهرمسية.

رد بيتل بنبرة حادة قائلًا: «إنها في مهمة. وأنا المسئول هنا»، وقد قرر بداخله أن منظر الفتى لا يروقه على الإطلاق.

نظر الفتى إلى بيتل يتفحصه من قمة رأسه إلى أخمص قدميه وهو يضحك ضحكة مكتومة ساخرة، وقال: «كيف؟ *لا أعتقد*».

«بل من الواضح أنها ليست هنا» هكذا رد بيتل، وقد أدهشه أن وجد نفسه يتحدث لوهلة مثل مارشا أوفرستراند. وبعد أن تذكر متأخرًا أن أعضاء «دار المخطوطات» لا بد أن يتعاملوا بشكل متحضر في كل الأوقات، أسرع يصحح خطأه فقال: «أنا في خدمتك، أهناك ما يمكنني أن أساعدك فيه؟».

هز الفتى كتفيه وقال: «أشك في ذلك».

أخذ بيتل نفسًا عميقًا وراح يعد إلى رقم 10، ثم قال: «وأنا متأكد أنني أستطيع إذا أخبرتني بما تريد».

رد الفتى قائلًا: «أريد التقدم لوظيفة الكاتب».

ذهل بيتل وقال: «وظيفة *الكاتب*؟!».

رد عليه الفتى وقال: «نعم»، ثم ابتسم ابتسامة عريضة، سعيدًا بالتأثير الذي أحدثه، وقال: «كما قلت لك، أريد التقدم لوظيفة الكاتب».

همهم بيتل قائلًا: «لكن... لكن هل لديك أية مؤهلات؟».

وردًا على كلام بيتل، انحنى الفتى للأمام، وطقطق بإبهامه وسبابته في وجه بيتل فظهرت شعلة سوداء خاطفة من طرف إبهامه، ثم قال الفتى: «*هذا* هو مؤهلي».

عاد بيتل يجلس على مقعده يصاحبه صوت ارتطام، وكان قد سمع من قبل عن حيل **السحر الأسود**، رغم أنه لم ير قطُّ أيًا منها. ولم يفته ملاحظة أن الفتى يرتدي ما رآه، بيتل، أنه نسخة رخيصة من الخاتم **الشيطاني** ذي الوجهين ذائع الصيت. وكما هو واضح إذن، فإن هذا الفتى هو أحد هؤلاء الفتيان غريبي الأطوار الذين يعتقدون أنهم إذا ما ارتدوا زيًا أسود واشتروا من المغارة القوطية في منطقة العشوائيات سلعًا تافهة تحيك أشكال **السحر الأسود** – فسوف يصبحون التلامذة التاليين لدومدانيال.

وألقى بيتل باللوم على چيلي دچين؛ إذ إنها وضعت إعلانًا على باب «دار المخطوطات» منذ عدة أسابيع سعيًا لتعيين كاتب جديد، وهو ما استنكره بيتل بشدة.. ولقد اعترض على ذلك مبررًا اعتراضه بأن الإعلان

سيشجع كل الأشكال غريبة الأطوار بأن تتقدم بطلب للالتحاق بالوظيفة، لكن الأنسة چيلي دچين كانت مُصرة.

ولسعادة بيتل، لم يتقدم أحد للالتحاق بالوظيفة طوال هذه الفترة، ولقد اجتهد في محاولة إقناع الأنسة دچين، المشهورة بالبخل الشديد، بأن تدفع مبلغًا مقابل الإعلان في جريدة *الكتبة*. ولقد ترك لها بالفعل صباح اليوم نسخة على مكتبها لعرض خاص تقدمه الجريدة بأسعار مخفضة، لكن يبدو الآن أن أسوأ ما كان يخشاه قد وقع.

ومتنهدًا، أخرج بيتل إحدى الاستمارات النموذجية الخاصة بالالتحاق بالوظائف في «دار المخطوطات»، وبلل طرف قلمه بلسانه، ثم سأل الفتى: «الاسم إذا سمحت».

رد الفتى قائلًا: «سبتيموس هيب».

فقال له بيتل: «لا تكن غبيًا».

فصاح الفتى قائلًا: «أنا لا أسمح لأحد بأن يطلق عليَّ الغبي. لا *أحد*. مفهوم؟».

رد بيتل قائلًا: «حسنًا حسنًا. لكنك *لست* سبتيموس هيب».

سأله الفتى بازدراء: «وما الذي *يجعلك* واثقًا من ذلك إذن؟».

«لأني *أعرف* سبتيموس هيب. وأنت لست سبتيموس *بأي حال من الأحوال*».

تطاير من عيني الفتى الداكنتين شرر غاضب، ثم قال: «أنت مخطئ في ذلك. فأنا أعرف من أنا، *وأنت* لا تعرف من أنا. ومن ثم، دوِّن في خانة تسجيل الاسم في استمارتكم الغبية هذه اسم (سبتيموس هيب)..».

«لا، لن أفعل».

وهنا، بدأ كل من بيتل والفتى يُحدقان إلى بعضهما، ثم كان الفتى هو أول من التفت بنظره بعيدًا، وقال: «حسنًا.. فهذا هو الاسم الذي كانوا يطلقونه عليَّ فيما مضى».

وقرر بيتل أن يخفف من حدة تعامله مع الفتى تحسبًا لأن يجد نفسه قد فقد أعصابه فجأة - لكن ليس لأنه خشي أن ينتهي الأمر بمشاجرة. فعلى الرغم من أن الفتى أطول منه قليلًا، فإن جسمه نحيل ويبدو واهنًا، أما بيتل فمفتول العضلات وقوي البنية لكنه لم يود تصعيد الأمر وتحطيم مكتب الاستقبال، لاسيما أثناء توليه هو مسئولية إدارة «الدار». ومن ثم، سأل الفتى بهدوء: «إذن، ما الاسم الذي يُطلق عليك الآن؟».

لم يرد الفتى مباشرة، كانت عيناه السوداوان اللتان كانتا - كما لاحظ بيتل - تعلوهما نقط خضراء، تتحركان بسرعة يمينًا ويسارًا كعيون السحالي، وبدا لبيتل وكأن الفتى يحاول بسرعة أن يبحث لنفسه عن اسم.

وكان بيتل محقًا في ذلك؛ فميرين كان يحتاج لاسم على وجه السرعة، وأراد أن يكون الاسم مميزًا؛ فهو لا يحب اسم ميرين مريديث؛ إنه اسم لا يعبر عنه، كما أنه اسم غبي؛ فميريديث اسم مؤنث، واسم ميرين في رأيه غبي تمامًا. إن ما يحتاجه الآن هو اسم مخيف يثير الرعب في النفوس. وعلى الفور، كان ميرين قد اختار أكثر شخصيتين مرعبتين عرفهما طوال حياته هما دومدانيال والصياد.

بدأ صبر بيتل ينفد، وقال له: «هه! ما اسمك؟».

«دوم، أ... دانيال».

هز بيتل رأسه وقال: «*دومدانيال* ؟!».

«لا تكن غبيًا. لقد قلت لك دانيال. أفهمت أم لم تفهم بعد؟».

ركز بيتل مع نفسه حتى يظل محتفظًا بهدوئه، وقال له: «دانيال ماذا؟».

«دانيال *الصياد*».

رد بيتل بنبرة صبور مبالغ فيها، وقال: «حسنًا، سأكتب اسمك دانيال الصياد، اتفقنا؟».

«حسنًا».

«هل أنت واثق من ذلك؟ ألن تغير رأيك مرة أخرى؟».

رد الفتى مزمجرًا: «اسمع، هذا هو اسمي، مفهوم؟ هيا اكتبه».

وبعد أن قرر بيتل في سره أن خيرًا له أن يتخلص من هذا الفتى في أسرع وقت ممكن، أخذ يملأ بقية بيانات الاستمارة على عجل. ولم يعلق عندما قال له الفتى إن لديه خبرة عشر سنوات على الأقل كتلميذ تدرب لدى اثنين من السحرة ولديه معرفة بأعمال السحر التي تمارسها الساحرات البيضاوات. لم يُصدق بيتل كلمة واحدة من كلام الفتى، لكنه ما كان سيمانع في أن يكتب أن الفتى طار إلى القمر وعاد إن كان ذلك سيعجل من رحيله.

وأخيرًا، انتهى بيتل من ملء الاستمارة. وبشيء من السعادة، رشق الاستمارة بضراوة مع الأوراق الأخرى المرشوقة في مسمار تنتظر عودة جيلي دجين.

لكن رغم ذلك، لم يبدِ الفتى أية أمارات تدل على أنه راحل.

فقال له بيتل: «لقد انتهينا هكذا، يمكنك الرحيل الآن».

«ومتى أعود لامتحان المقابلة؟».

«يا للإزعاج!» هكذا قال بيتل في سره، ثم أخذ ميرين يراقب بيتل عن قرب وهو يتفحص المواعيد اليومية المدونة في دفتر ضخم لا يغادر مكتب بيتل، وهو المنوط به مهمة تحديثه أولًا بأول، ثم قال له بيتل: «الساعة الثانية وثلاث وثلاثون دقيقة بالتحديد، لا قبل ولا بعد ذلك ولو بدقيقة واحدة».

قال الفتى وقد علت وجهه ابتسامة بلهاء: «أراك لاحقًا».

رد عليه بيتل ببرود: «إن هذا لمن دواعي سروري. دعني أوصلك إلى الباب»، ثم نهض بيتل وأمسك بالباب، وأخذ يحدق إلى ميرين حتى غادر المكان، ثم صفَقَ الباب بصوت مدوٍّ رج المكتب. وهنالك، سمع صوت جهاز الإنذار الخاص بهروب التعاويذ المارقة.

ولقد صُمم جهاز إنذار التعاويذ المارقة هذا على أن يكون في غاية الإزعاج، وهو يُطلق سلسلة من الصرخات تصاحبها رنات جرس صاخبة ومتواصلة. ولأن بيتل لم يكن واثقًا إذا ما كان هذا الإنذار حيلة أخرى من حيل **السحر الأسود** أم أن هناك *بالفعل* تعويذة مارقة تسعى للهروب، فقد أرسل أربعة كتبة توجهوا على مضض إلى القبو لاستكشاف الأمر. لكن على الرغم من تردد صدى الأصوات المكتومة لبعض الضربات الخطيرة في القبو، لم يكف جرس الإنذار عن الصياح، ووجد بيتل نفسه مواجهًا بحالة تمرد من بقية الكتبة الذين كانوا يحاولون مواصلة أعمالهم

اليومية. وبغضب، أرسل بيتل كاتبين آخرين من الكتبة الممتلئين إلى القبو لتدعيم زملائهم، واقترح على بقيتهم أن يبحثوا عن سدادات للآذان، ولكن لم يتلقَّ الكتبة هذا الكلام باستحسان.

وهنالك، هز مكتب الاستقبال صوت اصطدام مدوٍّ، وسُمعت أصوات تزمجر، وأخرى لضربات مكتومة، كانت كلها مرعبة واخترقت الباب المقوى الذي يفصل بين صالة المكاتب ومخزن الكتب الجامحة. أخذ بيتل نفسًا عميقًا، ونظر عبر فتحة التفتيش التي تعترض الباب؛ لقد كانت هناك معركة كبيرة مندلعة في المخزن، وامتلأت الأجواء بالفراء والريش المتطاير، وعلم أنه لا بد أن يدخل بسرعة المخزن قبل أن يتحطم المكان تمامًا.. وفي اللحظة التي كان بيتل يفتح فيها الباب بحذر، حاول تقويم عنكبوتي ضخم - مشعر للغاية - أن يخرج بالقوة.

ولسوء الحظ، طلب بيتل من فوكسي، وهو أحد أكثر الكتبة المصابين بالتوتر، أن يساعده ويمسك له الباب ولم يكن هذا الاختيار موفقًا. وفي التو كان فوكسي يصرخ ثم سقط مغشيًا عليه، مصطدمًا أثناء سقوطه بزجاجتي حبر لا يزول كبيرتي الحجم، انسكب محتواهما بالكامل على أوراق حسابات خاصة بجيلي دجين كانت قد استغرقت منها أسبوعين، وكان من المفترض أن بيتل يباشر بنسخ نسخة منها الآن.

أطل بيتل برأسه في صالة المكاتب من خلف الباب وصاح قائلًا: «تعويذة الإزالة! بسرعة!». وبعد أن أخذ نفسًا عميقًا آخر، دخل متوغلًا في أعماق مخزن الكتب الجامحة.

وبعد عشر دقائق، كان بيتل قد خرج من المخزن وهو مشعث ومتورم لكنه نجح في مهمته. كان فوكسي لا يزال طريحًا بجسد ممدد على الأرض مغشيًا عليه، ويطأ عليه الكتبة أثناء بحثهم المستميت عن تعويذة الإزالة قبل عودة جيلي دجين، وكان جرس إنذار التعاويذ المارقة لا يزال يرن. أما بيتل، والذي كان قد أخذ بالنصيحة التي اقترحها على الكتبة ووضع سدادتين من الفلين لأذنيه يتدلى منهما مساكة دائرية، فقد انشغل في علاج بعض الخدوش والجروح التي أصيب بها إثر فخٍّ نصبه له كتاب من كتب «دليل مجال لحيوانات الفوريكس»، ويقول في سره إن الأمور وصلت إلى منتهاها ولا يمكن أن تسوء أكثر من ذلك إلا أنها بالفعل ساءت إلى ما هو أكثر من ذلك؛ إذ رن فجأة عداد مكتب الاستقبال معلنًا عن الزبون الرابع، ودخلت مارشا أوفرستراند بخطوات واسعة وعباءتها الأرجوانية تطير مع الرياح، وشعرها الداكن الملفوف مبلل وفي حالة مزرية من أمطار الربيع الباردة التي كانت تهطل في الخارج. قطبت مارشا جبينها مستنكرة صراخ جرس الإنذار الذي خرق أذنيها ويبدو أنه وصل إلى مكان ما في الجزء الأوسط الرقيق والحساس من رأسها، وصاحت قائلة: «بيتل، ما الذي يحدث هنا؟».

8

الأقبية



تتميز مارشا *أوفرستراند بشيء ما* يبدو دائمًا أنه يسيطر على أجواء المكان الذي تكون فيه، ثم تمتد سيطرة هذا الشيء لتهيمن على بعض الموجودين في المكان. وبشكل تلقائي، تراجع بيتل للوراء ليفسح طريقًا أوسع للساحرة العظمى.

صاحت مارشا تقول: «*بحق السماء*، ما هذه *الضجة البشعة*؟».

ولأن بيتل ظن أنه سمعها تقول: «بحق السماء، أين چيلي دچين البشعة؟» رد عليها قائلًا: «إنها ليست هنا».

«ماذا تقول؟».

نظر بيتل إلى الساعة بيأس - هل من المعقول أن چيلي دچين لم تتغيب عن المكان إلا هذه الفترة القصيرة فقط؟ ثم صاح يقول لمارشا: «سوف تعود بعد نصف ساعة».

ويدأ يخالج مارشا إحساس بأنها دخلت إحدى المسرحيات ذات الطابع الحديث التي شهدت عرضها عندما اصطحبها سبتيموس إلى المسرح الصغير في منطقة العشوائيات، ثم سألت بيتل: «وما هذا الذي تربيه في أذنيك؟».

وتذكر بيتل فجأة السدادتين اللتين يضعهما بأذنيه، فشدهما لتصدرا صوتًا خافتًا، ثم قال بصوت أعلى من صوت الإنذار الذي اختار هذه اللحظة تحديدًا كي يكف عن الصياح: «أنا آسف».

ردت مارشا قائلة: «لا داعي لأن تصيح هكذا».

فغمغم بيتل قائلًا: «أنا... أنا آسف. أنا في خدمتك يا سيدة مارشا، ماذا تأمرين؟ فأنا.. إحم.. المسئول هنا إلى أن تعود الآنسة چيلي دچين».

«ياه! عظيم»، ثم ابتسمت مارشا وكأن ذلك أراحها، وهو ما أدهش بيتل.

قال بيتل: «إنه يوم غريب جدًا»، ثم حاول، بلا فائدة، أن يضبط شعره الأسود الثقيل الذي دائمًا ما ينفش بزوايا حادة عندما يضطرب.

فقالت له مارشا: «هذا واضح تمامًا. لكن لا بأس، فكلنا نمر بمثل هذه الأوقات».

رد بيتل مندهشًا: «حقًا؟».

تنهدت مارشا وقالت: «هذا يحدث طوال الوقت. والآن يا بيتل، أحتاج أن أنزل إلى الأقبية».

ومع شعور بيتل براحة غامرة من أن مارشا أخذت الأمور بكل هذا القدر من البساطة قاد الساحرة العظمى نحو المكتب الداخلي، وما إن عبرا الباب حتى انطلقت ومضة من الضوء الأخضر. وعلى الفور قفز حشد من الكتبة إلى الوراء وهم يصيحون، ثم مدوا أعناقهم للأمام ليروا نتيجة تعويذة **الإزالة**؛ فانطلقت صرخة مدوية من وسطهم، وقال صاحبها: «أوه! قدماي! انظروا إلى قدمي!».

وأطلق الحشد مجموعة من الشهقات.

«لقد قلت لك إن هذه التعويذة متعفنة ولم تصدقني».

«انظروا، إنه فطر كبير جدًا!».

«فعلًا، *إنه ضخم جدًا*».

«والآن باتت قدماك مثل رائحتهما يا بارتريدج».

وانطلقت قهقهة من المجموعة، ثم لاحظ أحد الكتبة وجود مارشا؛ فوكز الكاتب الذي يقف إلى جواره، وفي ثوانٍ كان قد خيم على الجميع صمت يشوبه الخجل.

ثم قالت مارشا: «صباح الخير أيها الكتبة».

وفي كورس جماعي كتلامذة المدارس المؤدبين، ردوا جميعًا يقولون: «صباح الخير يا سيدة أوفرستراند».

فسألتهم مارشا بابتسامة علت وجهها: «هل لديكم مشكلة؟».

وبخجل، أومأ لها الكتبة برءوسهم.

كان بيتل مندهشًا أن يرى مارشا بهذا القدر من المرح. لكن ما لا يُدركه أن مارشا تكنُّ له هو بالأخص حبًا عميقًا منذ أن ساعدها في الخروج من فترة عصيبة في حياتها لم يمض عليها وقت طويل، وكانت تتضمن مجموعة من العظام التي تتسم بسلوك عنيف. راقب بيتل بانبهار مارشا التي بمجرد أن طقطقت طقطقة واحدة بأصابعها وبومضة خاطفة من الضوء **السحري** الأرجواني - نجحت في إزالة الفطر المثير الذي ظهر على قدمي بارتريدج واخترق حذاءه الطويل في منظر مدهش يضم مجموعة متنوعة من الألوان الحمراء. تركت مارشا بارتريدج يُحدق إلى حذائه الطويل الذي تعلوه الآن مجموعة من الثقوب المتناثرة بشكل عشوائي، **وأزالت** الحبر المسكوب، ثم **أعادت ملء** المحابر، وأخيرًا **أصلحت** حسابات چيلي دچين.

وفي صحبة كورس جماعي من عبارات الشكر والامتنان انهال بها الكتبة عليها - خاصة من بارتريدج - مرت مارشا فوق هيئة فوكسي المطروحة أرضًا، ثم قادها بيتل عبر باب مخفيٍّ بين أرفف الكتب التي تصطف على حوائط المكتب الداخلي، وتابع مارشا بعد ذلك في ممر متعرج مضاء بالشموع، كان الممر طويلًا وينحدر بميل شديد إلى أن وصل بهما إلى سلم حجري. وعند نهاية السلم، كان هناك باب حديدي ضخم، وشبح الأقبية العدواني.

وكان شبح الأقبية من «القدماء» وهم الأشباح الذين تزيد أعمارهم على خمسمائة عام والذين يسكنون الأجزاء القديمة من القلعة. لكن خلافًا لسائر القدماء، لا يتسم هذا الشبح بالهيئة الباهتة، وصوته لايزال

قويًا، كما أنه يتميز بأسلوب فظ، ويُعد من أكثر أشباح القلعة إزعاجًا. ويرفض شبح الأقبية أن يُفصح عن اسمه، على الرغم من أن عباءة رئيس كتبة النصوص الهرمسية التي يرتديها، بصيحتها القديمة، تكشف بشكل أو بآخر عن شخصيته. ومارشا تعرف تمامًا من هو، وبيتل أيضًا اكتشف ذلك، فهذا الشبح كان أول من تولى منصب رئيس الكتبة، واسمه تيرتيوس فيوم. لكن على الرغم من أن بيتل بحث عن المزيد من المعلومات عنه، لم يسفر بحثه عن أي شيء، فيما عدا أنه عثر على جزء صغير متوارٍ في مجلد قديم تسللت إليه الرطوبة، واستطاع بيتل أن ينقذه بعد أن كان يستند إليه طرف رف متعفن في مخزن «دار المخطوطات». وكان الكتاب الذي تكهن بيتل بأنه جزء من سلسلة قديمة من كتب الأطفال عنوانه كالتالي:

مائة سؤال وسؤال

كنت تود دائمًا أن تسألها عن: حتب رع!

(الساحر الأعظم الأول لقلعتنا)

نسخة فاخرة مرفقة بالإجابات

ورغم أن الصفحات الأخيرة من الإجابات طالها العفن وأفسدها، فقد اكتشف بيتل العديد من الأمور التي لم يكن يعرفها من قبل. كان من بين هذه الأسئلة السؤال التالي: *هل كان لحتب رع صديق حميم؟*

ولقد أبهرت بيتل إجابة السؤال، والتي كانت كالتالي: *بالفعل، كان له صديق حميم!! (والكتاب يزخر بعلامات التعجب) لكن أيها الفتيان وأيتها الفتيات، لم يكن هذا الصديق مخلصًا. كان صديقًا قديمًا لحتب رع جاء للزيارة من بلاد بعيدة، وكان اسمه تيرتيوس فيوم. في بادئ الأمر، كان حتب رع سعيدًا برؤيته، وقضيا معًا أوقاتًا مرحة! ومنح حتب رع صديقه الحميم بيتًا يقطن فيه في «طريق السحرة». وكان تيرتيوس فيوم ذكيًا جدًا، وسرعان ما حول بيته إلى «دار المخطوطات»! لكن على الرغم من أن هذا الصديق الحميم لحتب رع كان ذكيًا، فإنه لم يكن شخصًا طيبًا! (تذكروا أيتها الفتيات وأيها الفتيان أنه من الأفضل أن تكون طيبًا عن أن تكون ذكيًا). وسرعان ما بدأ تيرتيوس فيوم يُقدِم على أفعال سيئة لم يكن حتب رع يعلم عنها شيئًا، وكانت نهايته بالتالي نهاية سيئة!*

وكان هذا هو المكان الوحيد الذي عثر فيه بيتل على اسم تيرتيوس فيوم مكتوبًا - فيما عدا ترؤسه القائمة التي تضم كل رؤساء كتبة النصوص الهرمسية والمدونة في لوحة الشرف المعلقة في مكتب الاستقبال، وكأن كل شيء عنه قد تم محوه من الوجود.

حدق تيرتيوس فيوم إلى مارشا وبيتل وهما ينزلان السلم. لم يكن تيرتيوس شبحًا يسر النظر؛ فعيناه السوداوان العميقتان تبدوان كما لو كانتا شقين طوليين رفيعين يعلوان وجهه الشاحب الذي تتدلى منه لحية طويلة مدببة كذقن التيس يكسوها الشيب، وتنسحب شفتا الشبح الرفيعتان الباهتتان نحو جانبي وجهه وترتسمان بتعبير ساخر، كما أنهما،

وكما لاحظ بيتل، تتحركان حتى عندما لا يتحدث، وتبدوان وكأنهما تمضغان طعامًا مجترًا.

قال تيرتيوس فيوم: «كلمة السر...». فتردد صدى صوته الأجوف العميق بين الجدران الحجرية الرطبة، فجعل شعر رأس بيتل يقف فالأخير يقشعر بدنه من هذا الشبح.

تنهدت مارشا كأنها تتوقع المتاعب، ثم قالت: «القبضة الحديدية».

«لا».

قالت مارشا: «هراء! هذه هي كلمة السر».

«لماذا؟»، ثم استند تيرتيوس بظهره إلى الباب وعقد ذراعيه، ثم أخذ ينظر إلى مارشا بتعالٍ، وشعر بيتل – وهو ليس من الفتيان الذين يتسمون بالعنف – بأنه يريد أن يركله بقوة.

ردت مارشا بنبرة يشوبها التوتر: «أنا لا أعلم بأي حال من الأحوال السبب. لكن هذا ليس موضوعنا. وليس ثمة ضرورة لأن يعرف المرء السبب؛ فكلمة السر هي كلمة السر. والآن دعنا نمر. القبضة الحديدية، ال– قب– ضة الح–دي–دية».

«لا، ليست هذه هي كلمة السر. لقد غيرتها».

«لا يمكنك أن تغير كلمة السر قبل أن تعلن ذلك للجنة المختصة بكلمات السر، والتي أترأسها أنا. كما أنك لم تغيرها. كلمة السر هي القبضة الحديدية وستظل القبضة الحديدية».

لكن الباب الحديدي الضخم الذي يفتح على الأقبية ظل مغلقًا بإحكام، ونظر تيرتيوس فيوم إلى مارشا وقد علا وجهه تعبير ينمُّ عن

الاستمتاع، وبدأ يتفحص أظافره الشبحية وكأن مارشا شيء لا أهمية له على الإطلاق، وبدأ بيتل يدرك أن القصة القديمة التي تقول إن تيرتيوس فيوم تم اغتياله على يد مجموعة من الكتبة الساخطين عليه تحمل شيئًا من الصحة.

وهنا قالت له مارشا: «حسنًا، إنك لم تترك لي أي خيار آخر سوى تخطي كلمة السر. ارجع إلى الوراء يا بيتل».

قال تيرتيوس بنبرة متعجلة بعض الشيء: «أخ! لقد كنت أختبركِ فحسب. ولقد نجحتِ. يمكنكما الدخول الآن. وتذكرا، لا تعبثا بالمكان في الداخل».

همست مارشا بصوت خفيض: «سخيف».

أخذ بيتل مصباحين من على حمالة المصابيح خارج الباب وأنارهما، ثم دفعت مارشا الباب بعنف فانفتح مصدرًا صريرًا، وفاحت في بئر السلم رائحة التربة المبللة والورق المتعفن. ومن الجانب الآخر، أغلقت مارشا الباب بالمفتاح وزودته **بجرس إنذار**؛ فمادام تيرتيوس سيتلاعب ويتنصت عليهما، ستحتاج إلى نوع من **الإنذار**.

كانت مارشا لا تزال تستشيط غضبًا، وقالت لبيتل: «إنه لا يحب النساء، هذه هي مشكلته، فهو لم يتصرف قطُّ بهذا الشكل مع ألثر، لكن منذ أن توليت أنا المنصب وهو يفعل ذلك معي في *كل* مرة. في كل مرة. إنه يفقدني عقلي».

رد بيتل قائلًا: «نحن نطلق عليه وجه الماعزة العجوز».

ضحكت مارشا وقالت: «حقًا؟ لا أظن أن ذلك سيروقه. والآن يا بيتل، أحتاج إلى كتاب *الخرائط الحية لما يقبع في الأسفل* إذا سمحت».

قال بيتل وقد بدا مندهشًا: «حسنًا.. دعيني أولًا أجلب لك مقعدًا»، ثم وضع المصباحين على مائدة مصنوعة من كتلة ضخمة تبدو وكأنها شُقت من الصخور، وبطرف كمه أزال الأتربة عن سطح مقعد قديم كان بجانب المائدة فعطست مارشا، ثم جلست وتلحفت بعباءتها الأرجوانية تحتمي من جو الأقبية الرطب، ثم قالت: «ياه! انتظر يا بيتل، هل لك أن تحضر لي أيضًا أحدث جرة خاصة بتلامذة السحرة الأعظمين؟».

«تحت أمرك. ثوانٍ وسأعود».

راقبت مارشا شعلة المصباح الذي يحمله بيتل وهي تخفت وتتراقص يمينًا ويسارًا وسط تيارات الهواء التي تهب عبر نظام التهوية القديم مع اختفاء بيتل متوجهًا إلى النواحي البعيدة من الأقبية. كان بيتل يعرف طريقه في أنحاء الأقبية حتى ولو كان مغمض العينين - ولقد كان ذلك من الموضوعات التي درسها كي يجتاز امتحان الإدارة المتوسطة لـ «دار المخطوطات» - وعاد على الفور بذراعين تحيطان بجرة ضخمة مصنوعة من حجر اللازوردي الأزرق ومن الذهب. كان المصباح يتدلى من أحد أصابعه، والجرة يعلوها أسطوانة طويلة ملفوفة بقماش، تتزن على سطحها بشكل يهددها بالسقوط.

وبغاية الحرص وضع بيتل الجرة والأسطوانة على المائدة ثم وضع مصباحه بجانبهما فتلألأ في ضوء الشعلة لون أزرق عميق جميل لأحجار

اللازوردي، يعترضه بريق دافئ ساطع تعكسه الخطوط الذهبية التي تتخلل اللازوردي ثم سأل بيتل مارشا: «هل تريدين أن تأخذيهما إلى الغرفة الهرمسية؟».

فردت مارشا قائلة: «لا، شكرًا يا بيتل. أنا لا أود أن أدخل الغرفة الهرمسية. بل في واقع الأمر، لقد أسعدني أن الآنسة دچين ليست موجودة. فأنا أود أن أتحدث معك على انفراد».

شهق بيتل وقال: «أنا؟».

«نعم. بصفتك موظف تفتيش تتمتع بقدرات عالية. ولأني أثق بكَ».

احمر وجه بيتل ورد قائلًا: «ياه! أشكركِ».

ثم قالت مارشا: «أنا بالطبع أثق برئيسة كتبة النصوص الهرمسية ضمنيًا. لكنها تميل لأن تعقّد الأمور، أتفهم قصدي؟».

فأومأ لها بيتل برأسه؛ فهو يفهم تمامًا ماذا تقصد مارشا بذلك.

«والآن، ألك أن تُخرج الخريطة إذا سمحت؟».

نزع بيتل القماش الباهت من حول الأسطوانة الفضية الطويلة، كان طرف الأسطوانة مختومًا بشمع أرجواني يعلوه ختم يحمل بصمة تميمة أخو. ولقد ظلت هذه التميمة، والتي تتدلى الآن من عنق مارشا، هي رمز ومصدر قوة السحرة الأعظمين منذ أيام حتب رع نفسه.

نزعت مارشا من حزامها الذهبي البلاتيني الخاص بالسحرة الأعظمين ما بدت أنها قطعة فضية معينة الشكل تميل إلى الاستطالة، ثم همهمت بهمس فانبثقت بصمت، كمخالب القط البارزة، شفرة فضية لامعة لها انحناء طفيف. وبانبهار، راقب بيتل مارشا وهي تُجري الشفرة

الحادة حول الشمع الذي يختم طرف الأسطوانة، بحيث انفلق الشمع كأنه قطعة زبد، ثم أخرجت لفافة سميكة من الورق وبسطتها. ومن على رف أسفل المائدة، جلب بيتل أربع ثقالات مزخرفة مصنوعة من الذهب لها مقابض من الفضة، ووضع كل ثقالة منها عند ركن من أركان الورقة.

أخرجت مارشا نظارتها الصغيرة التي تستخدمها في الأعمال التي تحتاج للتدقيق، ثم تفحصت الرسم البياني المعقد وهي تُجري أصبعها على مسار الأنفاق الجليدية، وتهمهم مخاطبة نفسها. تراجع بيتل بأدب للوراء، لكن مارشا أشارت له بالتقدم نحوها، ثم قالت له: «أنت تعلم شبحي الأنفاق؛ الأخوين اللذين حوصرا أثناء «التجمد الطارئ» ويبحثان من وقتها عن طريق للخروج؟».

«إيلدريد وألفريد ستون؟».

«تمامًا. يبدو أنهما عثرا بالفعل على طريق الخروج. وألثر.. أنت تعرف شبح ألثر ميلا؟ لا أظن ذلك، فأنت أصغر من أن تتذكره، لقد كان ساحرنا الأعظم السابق»، لكن بيتل أومأ لها برأسه؛ فقد قابل ألثر عدة مرات مؤخرًا عندما كان سبتيموس يتعلم كيف يستخدم **الوصفة السحرية للطيران**. واصلت مارشا حديثها وقالت: «لقد رآهما ألثر منذ ليلتين».

قال بيتل: «في واقع الأمر، على ذكر ذلك، أنا بالفعل لم أقابلهما في الأنفاق منذ فترة».

«حقًا؟ هذا خبر غير سار يا بيتل. غير سار على الإطلاق.. أخ! *ما هذا؟* تعالي وألقي نظرة. فهناك شيء يحدث هنا». وبحركة عنيفة،

حطت مارشا أصبعها على منطقة مشوشة بدت كمجموعة من الديدان المتشابكة، تتعرج وتنثني بحركات متداخلة وخارجة من بعضها البعض.

كانت هذه هي المرة الأولى التي يرى فيها بيتل خريطة حية. وبينما كان ينظر إليها كان واثقًا من أنه رأى شيئًا يتحرك عند طرفها.

قالت له مارشا وهي تشهق: «هل رأيت ذلك؟ لقد تحرك».

قال بيتل: «ها هو يتحرك مرة أخرى. أعتقد أنها الفتحة الموجودة أسفل بيت ويزل».

ردت مارشا قائلة: «لقد كنت أعلم أنك ستعرف ما الذي تراه على الخريطة. بيتل، أنا أحتاج منك أن تذهب وتستكشف هذا الأمر. هذا أمر عاجل. تفحص هذه الفتحة وهذا الجزء المشوش.. أيًا كان ذلك».

أطلق بيتل صفارة هامسة، وقال: «هذا المكان يقع أسفل (غرفة الكيمياء القديمة)..».

قطبت مارشا جبينها، وقالت: «أعتقد أنها ستكون فكرة صائبة لو أخذت سبتيموس معك. ففي الكثرة أمان. سوف أرسله إليك. أعتقد أنك تفهم تمامًا مدى سرية هذا الأمر، أليس كذلك؟».

فأومأ لها بيتل برأسه.

«وأنا لا أريد أن يعرف شبح الأقبية على وجه الخصوص شيئًا عن هذا الأمر، فهو لا يمكن الوثوق به، أعتقد أنك تعلم من هو، أليس كذلك؟».

«إنه تيرتيوس فيوم».

«تمامًا، كنت أعلم أنك ستعرف ذلك. سبتيموس أيضًا يعرف ذلك». وهنا ابتسمت مارشا ابتسامة تفيض بالحب والحنان، ثم واصلت قائلة:

«حسنًا، يمكنك أن تعيد الخريطة إلى مكانها. فمن المفترض ألا تتعرض الخريطة للضوء مدة طويلة».

بدأ بيتل يلف الخريطة، وسألها: «أمازلتِ تحتاجين جرة التلميذ؟».

طردت مارشا على الفور أفكارها التي كانت مستغرقة فيها، وقالت: «أخ! لقد نسيت ذلك. نعم، إذا سمحت يا بيتل».

أزالت مارشا ختم الجرة وغطست يدها في أعماقها، ثم أخرجت لفافة من ورق الرق مربوطة بشريط باللونين الأرجواني والأخضر ومختومة بالشمع الأرجواني، يحمل هو أيضًا ختم تميمة أخو. تفحصت مارشا التوقيع على امتداد اللفافة. كان الخط هو نفس الخط المذبذب الشبابي لسبتيموس الذي يتميز به ولا يمكن أن تُخطئه مارشا، لكن ما أدهشها هو كيف أن خطه تغير في هذا الوقت القصير. فتوقيعه الآن يبدو انسيابيًا وينمُّ عن الثقة بالنفس وإن كان قد أصبح معقدًا بعض الشيء. ومع إحساسها بالرضا أن الجرة كانت هي الجرة المطلوبة، أعادت لفافة عقد العمل، ثم أخرجت من حزام السحرة الأعظمين الذي ترتديه سهمًا صغيرًا وجميلًا من الذهب والفضة، وظلت ممسكة به في راحة يدها للحظات، وأخذت هي وبيتل يُحملقان فيه.

ثم قال بيتل وهو يزفر: «إنها **الوصفة السحرية للطيران** الخاصة بسبتيموس».

ردت عليه مارشا مصححة: «نصف كلامك صحيح، فهي إن كانت بالفعل **الوصفة السحرية للطيران**، إلا أنها ليست ملكا لسبتيموس. **إن الوصفة السحرية للطيران** إحدى **الوصفات السحرية** القديمة؛ وهي ليست

ملكًا لأحد». ومع هذه الكلمات، أسقطت مارشا **الوصفة السحرية** في أعماق الجرة.

قال بيتل: «ياه! أ... أقصدتِ أن تفعلي هذا؟».

ردت مارشا قائلة: «بكل تأكيد. إن سبتيموس يحتاج لأن يهدأ ويستقر حتى يستطيع مواصلة عمله. وفي الآونة الأخيرة بدا أنه لا يتحرك في أي مكان إلا وهو في عجلة من أمره - وهذا في رأيي أحد آثار أن يكون بحوزتك **الوصفة السحرية للطيران**. فأنت معها تصبح غير مستقر، وتريد دائمًا الانطلاق. صحيح أنه *يقول* إنه يذهب لزيارة والدته، لكن سارة قالت لي إنها لم تقابله منذ فترة طويلة، وأنا أصدقها. **والوصفة السحرية** ستقبع هنا إلى أن يصل إلى السن المناسبة التي يستطيع فيها أن يتعامل معها. إنها ليست لعبة. يمكنك أن تعيد ختم الجرة الآن يا بيتل».

ولقد تعلم بيتل - ضمن ما تعلم من مهارات في (دار المخطوطات) - متى يلتزم الصمت ولا يرد. وهو لا يساوره أدنى شك في أن هذا هو ما يتحتم عليه فعله في هذه اللحظة تحديدًا. فأخذ الشمعة من مصباحه وثبتها أسفل حامل ثلاثي تعلوه مقلاة نحاسية صغيرة، ثم أخرج سكينًا من أحد أدراج المائدة وكتلة ضخمة من شمع الأختام الأرجواني، وبدأ يبشر بعض الشمع في المقلاة، ثم راقبت مارشا وبيتل الشمع وهو يذوب ببطء ويتحول إلى بركة من السائل الأرجواني الداكن. وبحرص شديد، سكب بيتل نصف كمية الشمع المذاب على طرف الخريطة، وسكب النصف الآخر بحيث غطى الحافة بين فوهة الجرة وسدادتها الذهبية. وعندما أوشك الشمع أن يجف، أخرجت مارشا تميمة أخو وضغطتها

بقوة على الشمع، تاركةً على الختمين بصمة التنين التي لا يخطئها أحد.

راقبت مارشا بيتل وهو يتوارى عن الأنظار في أعماق الأقبية، ثم سمعت من مكان أبعد بكثير مما كانت تتوقع صوتَ احتكاكِ خافتًا لأحجار اللازوردي بأحجار أخرى بينما كان بيتل يعيد الجرة إلى مكانها وهو يدفعها على رف داكن لا تصل إليه العيون المتطفلة، تلاه صوت رنة القُفل بينما كان يعيد *«الخريطة الحية لما يقبع في الأسفل»* إلى صندوقها المصنوع من خشب الأبنوس.

قال تيرتيوس فيوم متذمرًا عندما كانت مارشا وبيتل في طريقهما لمغادرة الأقبية: «زيارة *تكللت بالنجاح*.. أتمنى ألا تكوني قد وجدتِ شيئًا **يُنذر بالخطر** الشديد».

همهمت مارشا بسخط وهي تتبع خطى بيتل عائدة إلى الممر المتعرج قائلة: «كنت أعلم أنه سيحاول أن يتنصت علينا. إنه يستحق ما ناله. لقد زودت **جهاز الإنذار بلسعة**».

قهقه بيتل؛ فكل شيء محسوب مع مارشا، هكذا قال في سره.

9

غرفة تطل على منظر رائع



أخذ شيء *أصابه الملل يقضم في أطراف أصابعه ببطء*، وهو يشد طويلًا أجزاء من الجلد المحيط بها بأسنانه المسودة. كان الشيء يحملق في سيده - الذي لا يزيد في رأيه على مساحة من الفراغ لا لزوم لها - ولعن حظه السيئ أن وُجد لخدمة مثل هذا الفتى الأحمق. وكان سيده هذا الذي لا يُدرك حتمًا موجات الكراهية التي تهب في طريقه، هو أيضًا يمضغ.

كان ميرين يستند إلى حائط برج الساعة القديم المقابل للقصر، يتناول حلوى ثعبان العرقسوس،

مستمتعًا بأول مذاق سكري يتذوقه في حياته. فبعد اشتباكه غير المتوقع مع بيتل في «دار المخطوطات»، جاب ميرين منطقة العشوائيات في طريق عودتـه، فاكتشف محل حلويات «ما كاستـرد، خدمة 24 ساعة»، في ركن بعيد عنـد الجانب القصي مـن القلعة في ممر «مخـروط السكر» بجانب رصيـف المراكـب القديم. وبينما كان **الشيء** وكيس العظام يتسكعان خـارج المحل، متسببيْن في خلق غشاوة كئيبة نفر منها الزبائن الآخرون، ظـل ميرين يُحملق طويلًا فـي شتى أصناف الحلويات. أمـا «ما كاسترد» التي اعتـادت زبائن يحتارون لساعات بين كتـل الليمون وأصناف الفوار الشرس – فقد تركت ميريـن يستغرق ما يحلو له مـن الوقت. وفي نهاية المطـاف، اختـار «ثعبان العرقسـوس»؛ لأنه ذكره بالأفعـى السوداء التي يحتفظ بها سايمون هيـب، وكان ميرين دائمًا ما يتساءل في سره ما مذاق الأفاعي.

أخذ ميرين يمضغ باستمتاع آخر جزء من العرقسوس اللزج الذي كان يملأ به فمه، ثم رفع بصره لأعلى وأخذ يحدق إلى النوافذ التي تمتد بطول واجهة القصر – وهو بناء مبهج بواجهة عريضة وارتفاع محدود – وبدأ يعدها. وهنالك، طرأت بذهنه فكرة؛ فلمَ تبديد المال في تأجير غرفة؟ فله أن يتخيل عدد ثعابين العرقسوس التي يمكن شراؤها بثمن تأجير غرفة لمدة أسبوع واحد. وهو على أية حال ينتمي للقلعة – ومن حقه إذن أن يعيش في أي مكان يريده. *وها هو المكان*.

فهل هناك مكان أفضل من القصر يمكن أن يقيم فيه؟ ازدرد ميرين آخر جزء من ذيل الثعبان بطريقة حاسمة؛ فقد تم حل المشكلة.

كان ميرين يتميز بأنه يُحسن العثور على طرق توصله إلى الأماكن التي يريد دخولها – لاسيما الأماكن التي لا ينبغي عليه أن يكون بها؛ ولذلك كان من السهل عليه أن يتسلل خلسة، دون أن يلحظه أحد، إلى الحارة المسورة بأسوار عالية التي ستؤدي به للسير حول المحيط الخارجي لحدود القصر حتى الباب الصغير الذي يعترض جدار حديقة مطابخ القصر، وكان الباب مفتوحًا كالمعتاد. فسارة هيب تحب تركه مفتوحًا؛ حتى تقوم صديقتها سالي مولن بزياراتها الخاطفة وتثرثران ثرثرة منتصف الصباح قبل أن تعود سالي إلى مقهاها وقت ذروة الغداء.

وعلى الرغم من أن ميرين يخطط لأن يكون القصر بأسره يومًا تحت تصرفه – تمامًا كما كان الحال مع الأمين الأعلى، نائب دومدانيال – فإن الوضع في الوقت الراهن للأسف مختلف بعض الشيء. وبينما كان **الشيء** يتتبع خطوات ميرين عن قرب، تسلل الأخير عبر الباب المفتوح فوجد نفسه في حديقة المطابخ.

ولقد راقت ميرين حديقة المطابخ؛ فهي تتوافق مع حبه للنظام؛ فقد كانت هذه الحديقة المكان الوحيد الذي تحافظ سارة على نظامه. كانت محاطة من كل الجوانب بسور مرتفع مبني بالطوب الأحمر، وتتخللها ممرات متقاربة من العشب، تمتد بين أحواض زرع معتنى بها تنوي سارة أن تزرعها مبكرًا بالخس والبازلاء، والفول، وكل أنواع الخضراوات التي لم يعرفها ميرين، ناهيك عن التفكير في تناولها أصلًا. وكانت جميع هذه الممرات تؤدي إلى بئر واسعة في مركز الحديقة، تستخرج منها سارة الماء الذي تروي به نباتاتها. وفي الطرف البعيد من الحديقة، كان هناك

مدخل مقنطر سقفه منخفض ومبني بالطوب، تبين منه ميرين أنه يؤدي إلى طريق مسقوف.

سار ميرين بحرص شديد في محاذاة السور على الممرات العشبية، مقاومًا رغبةً ملحةً في نفسه لأن يحصي عدد شتلات الخس حديثة الغرس. ومع اقترابه من المدخل المقنطر، لم يصدق أن الحظ حالفه إلى هذا الحد؛ إذ في نهاية الطريق المسقوف كان هناك باب موارب يفتح مباشرة على مبنى القصر؛ إن بيته الجديد يشير إليه الآن بالدخول.

وهنالك، شعر ميرين بشيء تضرب أنفاسه في مؤخرة عنقه، وهو منذ فترة يخالجه إحساس بأنه مراقب. لقد شعر بذلك خارج حانة «الترسة الممتنة»، ومرة أخرى بعد أن خرج من «دار المخطوطات»، وعلى وجه الخصوص خارج محل «ما كاسترد» - وفي مرة من هذه المرات كان يشعر بأن هناك شيئًا **ينتظره**، لكن كلما كان يلتفت إلى الخلف لم يكن يجد شيئًا. ولكن الآن، بات ميرين لا يساوره أدنى شك في أنه مراقَب، فالتفت حوله ولمح **الشيء** على حين غرة.

«رأيتك أخيرًا!» هكذا صاح ميرين، ثم أطبق على الفور بيده على فمه في فزع؛ فقد يسمعه أحد. وتجمد ميرين و**الشيء**، ثم أخذا يُحدقان ببعضهما ويُنصتان، خشية أن تكون هناك أصوات لخطوات أقدام، لكنهما لم يسمعا شيئًا.

همس ميرين قائلًا: «أيها **الشيء** *الغبي*، لقد قلت لك أن تبحث عن عباءتي. ما الذي تفعله هنا؟».

رد **الشيء** هامسًا بصوت خفيض ونبرة حزينة: «جئت لأساعدك يا سيدي».

فسأله ميرين بريبة: «أنت فقط؟».

رد **الشيء** بنبرة حزينة مرة أخرى: «نعم، أنا فقط يا سيدي».

شعر ميرين بالارتياح، وقال: «إذن، يمكنك أن تنتظر في الخارج. فأنا لن أسمح لك بأن تتبعني وتسير ورائي على أطراف أصابعك داخل القصر»، ثم لمح ميرين كيس العظام فقال له: «يا لك من **شيء** كريه! ما الذي جعلك تجلب هذا؟».

رد **الشيء** بنبرة خفيضة متملقة: «إنها للللللللللك يا سيدي».

حدق ميرين إلى **الشيء**.. إنه يكره فكرة أنه لا يستطيع أن يرى تعبيرات **الأشياء**؛ إذ يجعله ذلك يشعر وكأن **الشيء** يسخر منه. لكن ميرين يعلم أنه أيًا كان الذي يفكر فيه **الشيء** فلابد أن يطيع سيده، فقال له: «يمكنك أن...»، ثم نظر حوله يبحث عن مكان لهذه العظام، ثم أشرقت عيناه وقد لمح البئر فقال: «يمكنك أن تلقيها هنا في البئر».

بدا **الشيء** مذعورًا، لكن كل ما كان في وسع ميرين أن يراه هو وميض خافت من الضوء الأحمر ينطلق من عيني **الشيء** اللتين تشبهان عيني السحلية، ثم تسلل ميرين عبر الفتحة المقنطرة، تاركًا **الشيء** يُحدق إلى كيس العظام الثمين وهو لا يصدق نفسه، وواصل ميرين تسلله على امتداد الطريق المسقوف، وكان ينطلق جريًا من عمود إلى آخر في لمح البصر، حتى وصل إلى الباب الموارب. بدا له أن الباب سيصدر صريرًا مزعجًا إذا ما حركه، فحشر نفسه بحرص ومر عبر فتحته الموارية إلى

ظلال المبنى القديم البارد الذي تفوح منه رائحة عفونة. وهكذا، نجح ميرين في دخول *القصر*.

لم يمضِ وقت طويل بعد ذلك حتى دخلت سارة إلى الحديقة عبر البوابة الصغيرة القريبة من المطابخ القديمة. وكانت لا تزال تعتمر طاقية البحارة البالية الخاصة بجانيت. فقد راقتها الطاقية؛ إذ بثت في نفسها شيئًا من المرح والحيوية، وهو إحساس لم تشعر به منذ فترة. لكن مع مرورها بجانب البئر في طريقها إلى البيت الزجاجي لتجلب بعض الشتلات التي سوف تزرعها اليوم، خالجها إحساس بشع بالكآبة فتوقفت في منتصف الطريق – فهناك شيء ما يحمل **سحرًا أسود** بجانب البئر.

كانت سارة منذ سنوات طويلة قد فقدت اهتمامها بعالم **السحر**، لقد تدربت كي تكون معالجة، وظنت بذلك أنها ابتعدت تمامًا عن **السحر**. لكنها لاتزال تملك العينين الخضراوين الواشيتين **بالسحر**، وتعلم ما يكفيها من علوم **السحر** لكي *ترى*؛ ولذلك عندما رأت فزعة ذلك **الشيء** مستندًا إلى *بئرها* – بئرها الجميلة النظيفة الصافية النقية – ومعه كيس يحتوي على شيء يحمل **سحرًا أسود**، استعادت فجأة باستفاضة كل ما سبق لها أن تعلمته عن **السحر**. ونظرت **للشيء** في عينيه – بقدر ما كان في وسعها أن تفعل مع عينين هرابتين لا تكفان عن الحركة يمينًا ويسارًا– وأنشدت ببطء شديد قائلة:

«ستظل هذه البئر نقية ونظيفة ***محجوبًا*** *عنها* ***السحر الأسود*** *طوال عام ويوم واحد».*

نظر **الشيء** بغضب إلى سارة، لكنه عجز عن أن يفعل شيئًا، فرفع كيس العظام على كتفيه وانطلق بعيدًا. انتظرت سارة إلى أن غادر **الشيء** حديقة المطابخ، ثم قهرها فجأة هول ما رأته، فانطلقت جريًا وهي ترتعد، عائدة إلى الداخل لتجلس في صحبة إيثيل.

انتظر **الشيء** إلى أن اختفت سارة داخل القصر، ثم عاد إلى حديقة المطابخ. وبعد أن استحال عليه الآن أن يضع العظام حيث أُمر أن يضعها، اختار بدلًا من البئر سقيفة الحديقة، ووضع بحرص شديد الكيس بين أكوام أُصص الزهور والأدوات الخاصة بالحديقة، ثم انطلق ركضًا إلى الباب الموارب الذي يُفتح على مبنى القصر من الداخل، وطوى نفسه في أعماق شجيرة كثيفة الأوراق في انتظار أن يخرج سيده في نهاية المطاف.

لم يبدُ القصر لميرين كما كان يتوقعه، كانت تنتشر فيه رائحة غريبة؛ إذ انبعثت منه رطوبة ورائحة عفنة لطعام مطهو تربض في الأركان. ومع تعوُّد ميرين النظر في الضوء الخافت، رأى أن القصر لا يبدو أيضًا بهذه العظمة؛ فطلاء الحوائط كان مشققًا ومفتتًا، ومع احتكاك ميرين بها تركت آثارًا لأتربة بيضاء على عباءته السوداء. كانت تمتد أمامه طرقة أرضيتها حجرية تبدو وكأن لا نهاية لها، تُعرف باسم «الممشى الطويل»، وكان عرضها بعرض الشارع الصغير، وامتدت بطولها سجادة حمراء بالية تتوسط مسارها. وبحذر، انطلق ميرين يشق طريق «الممشى الطويل». كان يفتح في الحائطين الجانبيين للطرقة كل عدة ياردات بابٌ، وكان

ميرين في بادئ الأمر يقف لدى كل باب، شبه متوقع أن يرى شخصًا يخرج منه. لكن القصر حاليًا لا يقطنه إلا سارة وسايلاس وجينا هيب، وماكسي الكلب الذئبي. فلم يكن توظيف العاملين في القصر من الأمور التي تُقبل عليها سارة عادة؛ فهي تفضل أن تقوم بالأعمال بنفسها. وكان العدد القليل من خدم القصر الذين كانت سارة قد عينتهم يعملون في أماكن أخرى صباح اليوم - فالطاهية كانت في المطابخ تثرثر مع خادمة التنظيف، والفتى المسئول عن الغسيل كان يغفو في المخزن، وخادمة الغرف أصابتها نزلة برد شديدة ومكثت في بيتها.

وسرعان ما أدرك ميرين أن المكان مهجور، فتشجع أكثر وأخذ يجوب في المكان على امتداد الممشى الطويل، وهو يلكز مجموعة المعروضات الغريبة الموضوعة على امتداد الممشى الطويل. كانت هناك تماثيل، بكل الأشكال والأحجام، لحيوانات وأشخاص وكائنات غريبة من النوع الذي يراود ميرين في كوابيسه. كانت هناك أيضًا مزهريات قديمة طويلة ونمور محنطة ومحشوة، وعربة قديمة وأشجار مصبرة ورءوس بشرية، وتماثيل نصفية مأخوذة من سفن، وما إلى ذلك من المعروضات، كما كانت هناك بورتريهات معلقة على الحوائط لملكات وأميرات رحلن منذ زمن بعيد، وكان ميرين لا يساوره أدنى شك، بينما كان يرفع بصره وينظر إليها، في أن عيونهن تتبع خطاه، حتى إنه كان شبه متوقع أن إحداهن ستخرج من لوحتها وتربت على كتفه وتسأله ما الذي يفعله هنا.

لكنها لم تفعل ذلك، ولم تخرج واحدة منهن من لوحتها.

بعد فترة، كان ميرين قد وصل إلى ستار بالٍ من القطيفة الحمراء الباهتة من الجانب، رأى من خلفه سلمًا ضيقًا يصعد بميل حاد ويلتف لأعلى نحو الظلام وبدا له ذلك مناسبًا؛ فهو يريد غرفة من غرف سطح القصر - في مكان يستطيع أن يختبئ فيه ويضع الخطط وينظر منه إلى الأسفل لمراقبة حركة الذهاب والإياب. وبسرعة، مر ميرين متسللًا من خلال الستار، وسرعان ما كان يصعد على أطراف أصابعه درجات السلم الذي كان يصدر صريرًا، مع مروره بحوائط يكسوها ورق حائط رطب نُزعت أجزاء منه، وبيبوت عناكب ممتدة لمسافات طويلة في مسارات متعرجة، وتعرض مرة - لرعبه - أن زلت قدمه واختفت داخل رقعة من الخشب المتعفن، مخترقة الفراغ الخالي أسفله.

ولدى أعلى السلم، تمكن ميرين من التغلب على مجموعة مكدسة من صناديق الزينة القديمة الخالية، ثم صعد دورتين أخريين من السلالم، حتى وصل إلى متاهة الغرف الصغيرة المقامة في العلّية التي تمتد بطول واجهة القصر. كان هذا المكان - عندما كان القصر مملوءًا بالخدم والموظفين - مسكن الخدم المهمين، أما الآن وقد بات المكان خاليًا مهجورًا فما عاد يسكنه سوى عدد قليل من أشباح المربيات والوصيفات والخدم الخصوصيين الذين لا يحبذون الحياة الاجتماعية. أما معظم أشباح القصر فكانوا يفضلون الطوابق السفلية؛ حيث تكون فرصتهم أكبر لأن يقابلوا الأصدقاء، ويخوضوا في أحاديث عن الأيام الخوالي عندما كانت الدنيا غير الدنيا، كما قد يتسنى لهم أيضًا لو حالفهم الحظ أن يلمحوا الأميرة الحية.

اختار ميرين غرفة إحدى المربيات تقع في مقدمة مجموعة الغرف وكانت صغيرة، لكنها كانت مؤثثة بفراش ومائدة ودولاب صغير ومدفأة صغيرة لاتزال تحتوي على بقايا رماد آخر نيرانها. خيم على الغرفة جو حزين، ومما زاد من وطأة هذا الجو شكل ورق الحائط الوردي الباهت، لكنها راقت ميرين، بما أنه لم يلحظ أيًا من كل ذلك.

أما المربية شاغرة الغرفة، فلم يرقها ميرين، وما إن رأته المربية التي كانت ترتدي الثوب الرمادي الطويل ذا الشريط الأحمر الذي يحيط بالحواف – وهو الزي الذي اعتادت أن ترتديه مربيات الأميرات – حتى هبت واقفة على قدميها. وبنظرة علاها الفزع، راقبت ميرين وهو يسير في أنحاء مساحتها الخاصة العزيزة عليها، وكأنه مالك المكان. وكاد مرتين يخترق إحدى قدميها – وهو ما لم يكن مستغربًا مع ارتدائها الحذاء ذا المقدمة الطويلة والمدببة حيث كانت صيحة الأحذية في زمنها، وبعد أن جلس ميرين أخيرًا على سريرها، وأخذ يجرب «سوسته» بأن راح يقفز عليه كأنه طفل مشاغب في الثالثة من عمره، كانت المربية قد وصلت إلى حالة من الضيق والحزن الشديدين. وعلى الفور، فرت من الغرفة تصاحبها هبة من الهواء البارد كالثلج، جعلت ميرين يتساءل في سره لماذا صُفق الباب فجأة.

أنزل ميرين من على كتفيه حقيبة ظهره وبدأ يُفرغ منها أغراضه الثمينة قطعةً قطعةً على المائدة الصغيرة الموجودة أسفل النافذة البارزة في السقف المائل وفق الترتيب التنازلي لأحجامها، ثم غير رأيه ورصها حسب الحروف الأبجدية – وأخيرًا، رصها حسب أهميتها. ولقد استغرق

منه ذلك وقتًا، لكنها في نهاية المطاف كانت مرتبة كالتالي من اليسار إلى اليمين:

كتاب أركان صفحاته مطوية، وعنوانه: دليل **السحر الأسود** بقلم تي. إف. إف (الراحل)
علبة صغيرة من خشب الأبنوس مكتوب عليها سلوث
مخلب من مخالب كائنات المأجوج
زجاجة حشرات طائرة (على الأرجح ميتة)
وعاء صغير يحتوي على المادة اللزجة التي تفرزها الدودة الأرضية
بيجامة
فرشاة أسنان
صابونة

وبعد أن أصبح كل شيء في مكانه، مسح ميرين السخام الذي يكسو السطح الداخلي للنافذة المتناهية في الصغر بغرفته في العلية، ونظر إلى الخارج عبر الدائرة الملطخة. كان المنظر رائعًا على امتداد «الطريق الاحتفالي» القديم من أوله إلى آخره. كان الطريق الاحتفالي مهجورًا، كالمعتاد، لكن على يساره كان في وسعه أن يرى «طريق السحرة»، وكانت الرياح تطير عباءات وقبعات المارة الذين يهرعون بخطوات صغيرة وسريعة على امتداد الطريق، محاولين السير محتمين بالمباني الحجرية الصفراء ذات الارتفاعات المنخفضة، وتمكن ميرين من أن يرى في آخر

يسار الطريق على نحو التقريب باب «دار المخطوطات» الأرجواني. وكان يقف خارج الباب ذلك الفتى الذي يُدعى سبتيموس هيب؛ حيث أفصحت عنه عباءته ذات اللون الأخضر الساطع الخاصة بالتلامذة.

ولم يصدق ميرين نفسه أن لاحت له في الأفق فرصة مواصلة عملية *تسويد حياة شخص آخر* بهذه السرعة – وبهذه السهولة أيضًا. وعلى الفور، فتح كتاب دليل **السحر الأسود**، وتصفحه إلى أن عثر على الصفحة التي يحتاج إليها، وبدأ المرحلة الثانية من عملية *تسويد حياة شخص آخر*. فثبت نظره على سبتيموس وضبط وضع إبهامه بحيث يكون الجانب الأيسر من الخاتم في مواجهة النافذة، ثم بدأ ينشد هامسًا تعويذة طويلة وبطيئة. فرأى سبتيموس يتوقف ثم نظر للخلف، ونظر للأسفل إلى حذائه وكأن قدمه وطئت على شيء ما. أخذ ميرين يضحك في سره؛ فهذا الفتى سبتيموس هيب لا يدري على الإطلاق بما يحدث.. على الإطلاق. ولقد بدأ ميرين يُحسن الآن استخدام هذا النوع من **السحر الأسود**، وهو بالقطع سوف يتحسن أكثر فأكثر.

واجتاح ميرين فجأة إحساس بالقوة وراح يقهقه؛ فقد أصبح مالك الخاتم ذي الوجهين – وبات لا يُقهر الآن، ولأول مرة في حياته شعر بأنه شخص مهم. لكن أفضل ما في كل ذلك – في الواقع – أنه أصبح يمتلك مكانًا خاصًا به، ولا يستطيع *أحد* الآن أن يعرف أين يعثر عليه. لا يستطيع أحد أن يأتي ويسحبه من سريره ويطالبه بأن يستذكر دروسه أو أن يتناول «سندوتش» محشوًا بالكرنب، إنه يستطيع أن يمكث في السرير طوال اليوم إن أراد ذلك، بل إنه في واقع الأمر قد يستلقي الآن على السرير

لبعض الوقت، فهو لم ينل قسطًا كافيًا من النوم في حانة «الترسة الممتنة»؛ إذ كانت الحشية متكتلة وكان يسمع صوت شخص آخر يتنفس في الغرفة معه، كما أن الليلة السابقة لليلة أمس لم يكد يذوق فيها طعم النوم.. وهنا تثاءب ميرين. كانت هناك رسالة يخطط لأن يكتبها، لكنه أجلها الآن، ثم استلقى على سرير المربية الذي لم تختلف حشيته في تكتلها، وراح في سُبات عميق.

استيقظ ميرين من نومه يصاحبه شعور بالدوار والهلع، لا يدري كم الساعة الآن. فنظر من النافذة، كانت هناك ساعة ضخمة تعلو البرج المقام فوق محل تصليح الساعات في آخر طريق السحرة، وتنفس الصعداء. لا داعي للقلق، فلايزال أمامه نصف ساعة حتى موعد امتحان المقابلة. وبسرعة، دس كتاب *دليل **السحر الأسود*** في جيبه، وعبر الغرفة الصغيرة بخطوات واسعة، ثم جذب الباب ليفتحه إلا أنه لم ينفتح فجذبه مرة أخرى بقوة أكبر، لكنه ظل موصدًا بقوة.

وبعد خمس وعشرين دقيقة، وفي حالة من الهلع التام، حاول ميرين باستماتة أن يفتح الباب للمرة الأخيرة بكل قوته، فإذا به ينفتح فجأة ويرسله مدفوعًا للخلف عبر الغرفة. هب ميرين واقفًا على قدميه وهو مكدوم، ثم خرج مسرعًا.

ودون اكتراث أن يسمعه أحد أو يراه، نزل ميرين السلم بسرعة فائقة؛ فقد كان مُصرًا على ألا يضيع فرصته. ولسوف يصل في الموعد، مهما كلفه الأمر. وليحترس إذن من سيعترض طريقه أيًا كان هو!

IO

إدارة شئون التنين



ترك سبتيموس هيب *السلم الفضي الدوار* الذي أقله عند نزوله عبر برج السحرة، بدءًا من جناح الساحرة العظمى في أعلى البرج ووصولًا إلى بهو المدخل. ولم يُدهشه عندما كان يسلك طريقه مسرعًا عبر «البهو» رؤية رسالة متعددة الألوان تظهر على سطح الأرض، وتقول له **صباح الخير أيها التلميذ، لقد استيقظ تنينك من النوم،** بما أن أرض البهو دائمًا ما ترحب به ويبدو عليها أنها تعلم ما الذي يدور في الأنحاء قبله.

كانت التحية التالية التي تلقاها أقل ترحيبًا. فقد سمع صوتًا من دولاب التعاويذ

القديمة الذي يكتنف الباب المزدوج الهائل الذي يحرس مدخل برج السحرة، وهو يقول له: «صباح الخير أيها التلميذ» فقفز سبتيموس فزعًا وكما يفعل دائمًا. كان الصوت لبوريس كاتشبول الذي نزلت رتبته الآن من ساحر راسب إلى بواب ليلي بعد أن قامت مارشا بإنذاره للمرة الأخيرة.. كان صوت كاتشبول دائمًا ما يصيب سبتيموس بالفزع؛ فهو يعيد إليه ذكريات أيام جيش الشباب، عندما كان كاتشبول لفترة هو نائب «الصياد» المرعب.

رد عليه سبتيموس قائلًا: «ياه! صباح الخير يا كاتشبول! صباح الخير. هل سلمت رسالتي إلى القصر؟».

«نعم، بكل تأكيد أيها التلميذ. أنا دائمًا في خدمتك، ها ها. بماذا تأمر اليوم؟» هكذا قال له كاتشبول الذي كان يتحرك طواعيةً بدافع إظهار كفاءته، مصرًا على العودة مرة أخرى إلى منصبه كساحر عادي. كان كاتشبول طويل القامة نحيلًا، ولايزال يرتدي عباءته التي يعتز بها، وهي العباءة الزرقاء الخاصة بالسحرة العاديين التي يعلو أكمامها العلامات ذات الوميض، الدالة على رتبته السابقة كساحر عادي. ومن سوء حظ كاتشبول أن مجموعة العباءات التي مُنحت له لم تقتصر على أنها كانت من العباءات القصيرة فحسب، بل كانت أيضًا تنكمش مع تكرار الغسيل؛ مما يعني أن حافة العباءة التي يرتديها تنبثق منها ساقان بيضاوان نحيلتان.. قبل أن ينتهي بسلام عند حذائه الطويل.

ومثل طائر مالك حزين ضخم، اندفع كاتشبول أمام سبتيموس وهو يقول له: «اسمح لي أن أفتح لك الباب أيها التلميذ».

رد عليه سبتيموس قائلًا: «شكرًا، إن معي كلمة السر».

قفز كاتشبول للوراء وهو يقول: «نعم نعم، بالطبع. ما أحمقني. إذا كنت تريد مني أي شيء، *أي شيء*...» ثم توقف فجأة بعد أن تذكر أن هناك شيئًا واحدًا لا يريد بلا أدنى مجال للشك أن يقوم به، فهو لا يريد حتمًا أن يساعد سبتيموس في تجهيز وجبة إفطار لافظ اللهب.

لكن سبتيموس - لحسن حظ كاتشبول - لم يهتم بعرضه، واكتفى بأن همس بكلمة السر.. وبصمت، انفتح الباب الفضي العملاق على مصراعيه، مفصحًا عن يوم ربيع عاصف ملبد بالغيوم، ينضح بقطرات ضالة من المطر. تلحف سبتيموس بعباءته الصوفية الخضراء الخاصة بالتلامذة، وانطلق بخطوات سريعة نازلًا درجات السلم الرخام العريض الذي يتقدم مبنى برج السحرة وينزل إلى الفناء، ثم انعطف عند قاعدة البرج متوجهًا إلى سقيفة خشبية حديثة البناء، تلاصق بدقة إحدى الأكتاف الضخمة الداعمة للبرج. وبهدوء تام، على أمل ألا يسمعه لافظ اللهب فيغمره الحماس، فتح باب السقيفة ودخل متسللًا.

طقطق سبتيموس بأصابعه فاشتعلت على الفور شمعتان أضاءتا السقيفة من الداخل في جو هذا الصباح الملبد بالغيوم، وأنارتا داخلها الذي كان يحوي ثلاثة أحواض كبيرة مملوءة بالشوفان، وبرميلًا من اللبن منزوع الدسم تم إرسالها صباح اليوم، وحوضًا مليئًا بتفاح أسقطته الرياح، وتشكيلة موضوعة في كِيس قديم تتضمن فطائر ومقانق من بقايا عربة فطائر اللحم والمقانق تم إرسالها أيضًا مبكرًا صباح اليوم.

وبدأ سبتيموس يباشر عمله بمظهر المتمرس، بما أنه يباشر هذا العمل كل يوم - كل يوم من أيام الأسبوع، وأيام الإجازات الأسبوعية، والعطلات، وأيام الأعياد، سواء كان الطقس مطيرًا أو تسطع فيه الشمس..

جر سبتيموس حوضًا كبيرًا خاويًا مصنوعًا من الخشب خارج السقيفة مكتوبًا على أحد جوانبه بأحرف متعددة الألوان الكلمات التالية:

خاص بلافظ اللهب

برجاء عدم نقله

من يعثر عليه برجاء إعادته إلى فناء برج السحرة

بدأ سبتيموس يملأ الحوض، فأمسك بجاروف ذي مقبض طويل وبدأ يغترف به كميات هائلة من الشوفان ويلقيها في الحوض المتحرك على عجل. وعند امتلاء ثلث الحوض، أفرغ سبتيموس كيس فطائر اللحم والمقانق على الشوفان، ومزج الخليط جيدًا؛ ثم أضاف تفاحًا بملء جاروفين كبيرين، وأخيرًا رفع برميل اللبن منزوع الدسم ولف غطاءه، ثم صب محتواه فوق الخليط. كان اللبن ينسكب يصاحبه صوت بقبقة عالية، وعندما امتزج اللبن تمامًا وسط خليط الشوفان والمقانق، غطس سبتيموس الجاروف في الخليط الذي بات لزجًا وبدأ يقلب فيه بصعوبة، وبعد أن انتهى، كان الشوفان قد تشرّب كل اللبن ونفش، ووصل امتلاء الحوض تقريبًا إلى آخره. أخرج سبتيموس الجاروف، وهزه ليخلصه من بواقي اللحم والتفاح العالقة به، ثم نظر إلى الخليط بسعادة؛ لقد تحول

لونه الآن إلى بني أرمد مبطش بكسرات الفطير، والمقانق المهروسة والتفاح الذابل.. رائع!

جر سبتيموس الحوض على عجلاته وأخرجه إلى الفناء، ثم انطلق به وعجلاته تقعقع مع دورانها على الأرض الحجرية. وكما توقع، ما إن حط الحوض على الأرض مرتطمًا حتى سمع صوت اصطدام أجوف قوي يتردد صداه بين جدران الفناء، واهتزت الأرض تحت قدميه كأن قطيعًا من الفيلة فر فرارًا جماعيًا وفي طريقه نحوه. فلافظ اللهب، وهو تنين سبتيموس الذي أوشك حجمه الآن أن يصل إلى أقصى مداه، كان جائعًا.

وربما تكون مهمة السيطرة على قطيع من الفيلة التي فرت فرارًا جماعيًا أسهل من المهمة التالية التي سوف يقوم بها سبتيموس، والتي تتمثل في إخراج لافظ اللهب من وجاره – وهو بناء حجري بواجهة طويلة وصف من النوافذ الصغيرة تقع أسفل السقف مباشرة. وكان سبتيموس مؤخرًا قد جعل ورشة السحرة يصنعون له مجموعة من الأبواب الجديدة بقضبان حديدية داخلية ضخمة.. وفكرة هذه الأبواب تكمن في أنها تُفتح بدون تعريض سبتيموس أو أي ساحر يتصادف مروره من أمام الوجار لأن يُسحق. وكان سبتيموس قد لاحظ أنه لم يجرؤ أحد من السحرة منذ فترة على المرور من أمام الوجار أثناء تناول لافظ اللهب إفطاره، خاصة بعد الحادث الشهير الذي تعرض له كاتشبول عندما التبس الأمر على التنين واعتبره فطيرة لحم ضخمة (أو ربما قطعة مقانق

هائلة الحجم) فدفعه بذيله في حوض طعام الإفطار بضربة سددها بإحكام.

ترك سبتيموس حوض الإفطار لدى نهاية منحدر عريض ينتهي الجزء المرتفع منه عند أبواب الوجار الأشبه بأبواب الحظائر، ثم صعد المنحدر على أطراف أصابعه، أملًا ألا يلحظ لافظ اللهب قدومه، وهو ما لم يحدث بالطبع، وبينما أخذت الأبواب تترجرج إثر تلقيها ضربات قوية مكتومة بأنف لافظ اللهب، وضع سبتيموس يده بهدوء على الأبواب وقال: «**افتح المتاريس!**». ومن مكان ما من أعماق الأبواب السميكة، شعر سبتيموس بأزيز القضبان مع تحركها، وعلى الفور قفز جانبًا. وما إن ابتعد عن المنحدر حتى انفتحت الأبواب على الفور تحت قوة دفع التنين الذي يبلغ وزنه الآن ما يعادل وزن 1264 طائرًا من طيور النورس.

انزلق لافظ اللهب على المنحدر مرسلًا وابلًا من الشرر، أرسلته في الهواء مخالبه مع احتكاكها بالأحجار، إلى أن توقف أمام حوض الإفطار، وبدأ يشفط محتواه. وكان هذا الشفط يُذكّر سبتيموس بصوت تصريف مياه استحمامه بعد رفع السدادة، وإن كان صوت لافظ اللهب أقوى مائة مرة. ويقول كاتشبول الذي يدعي أنه رأى دوامات الغدير البارد التي لا قاع لها، إنه عندما يُغمض عينيه، يكون من الصعب عليه أن يُفرق بين صوت دوامات الغدير البارد وصوت لافظ اللهب أثناء تناوله الإفطار، وإن كان يظن أن صوت لافظ اللهب أقوى.

لم يستغرق التنين طويلًا حتى انتهى من تناول إفطاره، ثم مسح البرميل بلسانه الأخضر الخشن الطويل، ولعق شفتيه بعد ذلك مستحسنًا مذاقها.. وأخيرًا، شفط بقايا المقانق التي انحشرت في قشره.

قال سبتيموس للتنين، مع حرصه على أن يتقدم نحوه من الأمام بعد أن كاد ذيله القوي، عدة مرات سابقة، يطيح به: «صباح الخير يا لافظ اللهب» فرد عليه لافظ اللهب بنعرة مسموعة ترحيبًا به، ثم أنزل رأسه حتى بات مستوى عينيه الخضراوين الضخمتين، وهما الحدقتان المحاطتان بحلقة حمراء من النار، في مستوى عيني سبتيموس الخضراوين البراقتين، قرّبت سبتيموس على أنفه المخملي وقال له: «سوف أعود لاحقًا يا لافظ اللهب. كن لطيفًا».

هدأ التنين واستقر في مكانه خارج الوجار، ثم أغمض عينيه. وبدأت الآن كالمعتاد أصوات الكورس اليومي المصاحبة لفترة الضحى والتي تتألف من صفق النوافذ بعنف مع محاولة السحرة، واحدًا تلو الآخر، تجنب سماع صوت الزئير المصاحب لغطيط لافظ اللهب مع تردد صداه في أنحاء الفناء.

عبر سبتيموس قافزًا من فوق ذيل التنين، مع حرصه على ألا تزل قدمه على شوكة طرف الذيل، ثم عبر الفناء وخرج إلى الظلال الزرقاء التي تلقيها أحجار اللازوردي الجميلة التي تكسو القوس العظيم. وهنا توقف كما يفعل دائمًا الآن، ونظر إلى طريق السحرة؛ فهو لايزال يعشق إحساس السير في طريق السحرة في زمنه هو الذي ينتمي إليه. وتنفس في الجو الممطر الضبابي، وبينما كان يدقق النظر في الطريق العريض

لمحت عيناه شيئًا أرجوانيًا عند الطرف البعيد من الطريق. علم سبتيموس أنها مارشا أوفرستراند؛ ولقد طيرت هبة الرياح عباءة الساحرة العظمى فبدت كأنها تجر خلفها قِلعًا أرجوانيًا ضخمًا أثناء عبورها بخطى واسعة بوابات القصر.

دس سبتيموس يده في جيبه يطمئن على قصاصة الورق، وهو يتساءل في سره ما الذي جاء بمارشا إلى القصر، ثم انطلق يشق طريقه على امتداد طريق السحرة متوجهًا إلى دار المخطوطات. وبعد أن وصل توقف لوهلة خارج الباب الذي تم طلاؤه حديثًا باللون الجديد الذي اختارته چيلي دچين، والذي يجمع بين الأرجواني والوردي. وهنالك **أحس** بشخص يراقبه **بعينين شريرتين**. التف سبتيموس ببطء، وحتى لا يُدرك المراقب أن أمره **انكشف**، رفع قدمه كأنه يتفحص شيئًا وطئ عليه. وفي نفس الوقت، حاول بقدر المستطاع أن يقيم **ساترًا** في مواجهة **المراقب الشرير**. وبينما كان يفرك نعل حذائه بهمة ونشاط في حافة الرصيف، التفت في اتجاه هذا **المراقب الشرير**. ولدهشه، أخذته عيناه إلى القصر. وفي حيرة، كفَّ سبتيموس عن الفرك. لا بد أنه مخطئ. فليس هناك في القصر من سيُقدِم على عمل *كهذا!* وبدأ يضطرب، وعلم أن ما يحتاج إليه الآن هو قضاء نصف ساعة في صحبة بيتل وفنجان كبير من مشروب الفواكه الفوارة.

دفع سبتيموس باب دار المخطوطات، ورن عداد چيلي دچين الرنة السابعة.

قال بيتل وهو يقفز من على مقعده: «أهلًا أهلًا يا سب».

رد سبتيموس قائلًا: «أهلًا أهلًا يا بيتل».

«ما هذه السرعة؟ لم أتوقع حضورك هكذا على الفور».

رد سبتيموس في حيرة: «وأنا ما كنت أدري أنك تنتظر حضوري أصلًا»، ثم أخرج قصاصة ورق من جيبه. كانت الورقة تعلوها حروف مكتوبة بأفضل خط له ومنسوخة بدقة بألوان متعددة، ثم قال: «أريد مكانًا أنظر من خلاله من النافذة».

نظر بيتل إلى نافذة مكتب الاستقبال الأمامية - أو بالأحرى إلى ما يُمكن أن يُرى منها - وهي مساحة لا تزيد على بضع بوصات مربعة. أما بقية مساحة النافذة فكانت مكدسة بأكوام من الكتب والكتيبات والأوراق والمخطوطات وورق الرق والفواتير والإيصالات والعلاجات، والتي كان يتخللها جميعًا بطريقة عشوائية لزجة فطائر قديمة وجوارب وأشعار وأنابيب نفخ الحبوب كالبازلاء وحلوى المارشمالو؛ فبيتل مغرم بحلوى المارشمالو، والشماسي، وسندوتشات مقانق من عربة فطائر اللحم، ومعظم هذه الأشياء يتركها الكتبة سهوًا فيتيه على الفور وسط هذه الفوضى العارمة ولا يرى النور بعد ذلك أبدًا - على الرغم من الروائح الكريهة التي تفوح منها أحيانًا.

فسأله بيتل: «ألا تطلب مني طلبًا آخر أسهل من ذلك يا سب، كأن أحقق لك مثلًا كل أحلامك؟».

نظر سبتيموس إلى قصاصة الورق ورد قائلًا: «إنها ليست كبيرة *إلى هذا الحد*. أليس هناك *أي فراغ يسعها*؟ إن الموضوع مهم جدًا. فمارشا تهددني بأنها ستتخلص من التنين؛ لأنها تقول إني أمكث وقتًا أطول من

اللازم في رعايته ولا أنجز الأعمال التي يجب أن أقوم بها؛ ولذلك فكرت لو أن...».

وناول سبتيموس الورقة لبيتل، فقرأ بيتل بصوت مسموع الكلمات التالية: «مطلوب حارس لتنين. ساعات العمل غير منتظمة، لكن العمل مثير.. من المؤهلات المطلوبة: التمتع بروح الدعابة. يُقدم طلب الالتحاق بالعمل إلى سبتيموس هيب، برج السحرة». فأخذ بيتل يقهقه، ثم قال: «أنت تحتاج لبعض المؤهلات الأخرى أكثر من التمتع بروح الدعابة يا سب، أليس كذلك؟ ما رأيك في أن يكون من بين هذه المؤهلات مثلًا أن تكون ساقا المتقدم للعمل مصبوبتين من الحديد، وأن يكون فاقدًا حاسة الشم، ولديه القدرة على الجري لمسافة مائتي ياردة في ثانيتين - وهذا كبداية فحسب».

بدا الإحباط على سبتيموس، ثم رد قائلًا: «أعلم ذلك، لكن حرصت على ألا أنفر المتقدمين. لقد جاءني بعض المهتمين بالطلب، لكن ما إن أبدأ وأوضح لهم طريقة تنظيف الوجار من الأوساخ، حتى يطرأ شيء غريب من حيث لا تدري. فإما أنهم يتذكرون فجأة أنه.. يا خبر! لقد نسوا *تمامًا* أنهم وافقوا على رعاية عمات أو خالات أحد والديهم، أو أنهم في *غاية الأسف*، فقد نسوا أنهم سيرحلون في رحلة بحرية طويلة غدًا مباشرة، ثم تجدهم جميعًا قد بدوا محرجين ويعتذرون لك قائلين كم أنهم أحبطوا وكانوا يودون من كل قلوبهم لو أن يحصلوا على الوظيفة. لقد صدقت حينها أول اثنين، لكن بعد ذلك كنت أتوقع ما سوف يقولونه. هيا يا بيتل،

أرجوك الصق الإعلان. فأنتم يتقدم إليكم هنا كل الأنماط الغريبة من البشر؛ وقد يقبل أحدهم الوظيفة».

قال بيتل بنبرة متذمرة: «معك حق، تأتينا كل الأنماط الغريبة من البشر. غريبة *أكثر من اللازم* بالنسبة لي. اسمع، بما أن الإعلان لك أنت فسوف أفسح له مكانًا على الباب. إن هذا المكان المخصص للإعلان عن طلب كاتب جديد سوف يصلح. فالإعلان يجذب أنواعًا من البشر لا يصلحون على الإطلاق، تمامًا كما قلت للآنسة دجين. سوف ألصق إعلانك مكانه».

«ياه! أشكرك يا بيتل».

وبشيء من الحماس، نزع بيتل إعلان جيلي دجين، وكوره وألقاه في بسلة المهملات، ثم جلب إناء الصمغ، وبعد أن دهن به ظهر ورقة سبتيموس، ألصق الإعلان على نافذة الباب المتسخة وحاول سبتيموس ألا يلتفت إلى أن الحروف الملونة سال حبرها.

قال بيتل وهو يلعق الصمغ بأصبعه: «أنا في فترة راحة الآن. ما رأيك في تناول مشروب الفواكه الفوارة؟».

رد سبتيموس قائلًا: «وهل هذا سؤال؟»، ثم تابع خطى بيتل في الخروج مرورًا بالمكتب الداخلي وصولًا إلى الفناء حيث توجد غرفة مريحة ومنعزلة خاصة ببيتل.

جهز بيتل فنجانين كبيرين، وأسقط في كل منهما مكعبًا من الفوار، ثم أشعل موقدًا صغيرًا وبدأ الماء يغلي بالصوت الخشن المألوف الذي تصدره الغلاية كلما ارتفعت درجة حرارتها - وذلك منذ أن تركها بيتل

على النار إلى أن جف الماء فيها تمامًا، رفع بيتل الغلاية من فوق النار وصب الماء في الفنجانين. وعلى الفور، تكوّن فوار فاض من الفنجانين في صورة رغوة وردية باردة كالثلج، وناول بيتل فنجانًا إلى سبتيموس.

همهم سبتيموس، مع اختراق الفوار أنفه مباشرة، وقال: «أخ! إنه رائع!».

قال بيتل بعد أن تجرع عدة رشفات أعادت إليه النشاط والحيوية: «لقد حدث أمر غريب صباح اليوم. لقد حضر شخص ادعى أنه أنت».

أخذ سبتيموس رشفة أخرى من الفواكه الفوارة ثم عطس، وهو يقول: «أتشو! أنا؟».

«نعم، إنه فتى غريب الأطوار. كان يريد وظيفة الكاتب».

«وماذا قلت له؟».

«قلت له إن هذا ليس اسمه، ولم يتقبل ذلك بسهولة. لكن كان لا بد أن أحدد له موعدًا آخر. فليس من اختصاصي أن أحدد من يصلح لوظيفة كاتب ومن لا يصلح. أتمنى أن ترى الآنسة دجين أنه مختل عقليًا ولا يصلح بأي حال. وسوف أخبرها بأنه على علم ببعض حيل **السحر الأسود** أيضًا، فأنا لا أود أن أرى هذا الشيء هنا».

قال سبتيموس: «تقول حيل **السحر الأسود**؟».

«نعم، منها الشعلة التي تنطلق من الإبهام. كانت هذه الحركة قديمًا تُعتبر إهانة بالغة، لاتزال غير مقبولة حتى الآن».

«نعم. تُرى، من ذلك الشخص؟».

«همم.. سوف أخبرك عندما يأتي».

جلس سبتيموس وبيتل معًا بعض الوقت، يرتشفان مشروب الفواكه الفوارة، إلى أن تذكر بيتل أنه كان يأمل - قبل أن تأخذ الأمور مسارها المجنون صباح اليوم - أن يمر عليه سبتيموس. وقال وهو يهب واقفًا على قدميه، وقد عادت البسمة إلى وجهه من جديد: «اسمع يا سب، نحن نستطيع أن نضرب عصفورين بحجر واحد. فهناك شيء أريدك أن تراه».

«ما هو؟».

قال بيتل بابتسامة عريضة: «لن تعرف حتى تأتي وتراه بنفسك، ما رأيك؟».

11

حارس التنين



صاحت *مارشا* وهي تعبر بساتين القصر بخطى واسعة، وترى فريستها على مرمى البصر: «سيد بوت! سيد بوت!».

لم يرد بيلي بوت عليها؛ وكان بيلي يدفع عربة يدوية ضخمة مملوءة بروث التنين، وكان متعكر المزاج. لقد نسي بيلي تمامًا كم كانت سعادته عندما سمح له سبتيموس بأن يبدأ في جمع روث التنين. لكن هذا كان في عهد سابق يُطلق عليه بيلي حاليًا الأيام الخوالي، عندما كان عمله

المنتظم يتمثل في جز حشائش بساتين القصر بآلة قص الحشائش. وكان تشغيل آلة بيلي هذه يتم على أسس عضوية؛ مما كان يعني أن يضع بيلي عشريـن سحلية جائعـة من سحالي الحدائق في صنـدوق على عجل ثم يجـر الآلة عبـر الحشائش - ببطء شديد للغاية - وفـي تلك الأثناء، تقوم السحالي بمهمة التهام الحشائش.. أو أنها قد تعزف عن ذلك.

واحتفظ بيلي بالمئات من هذا النوع من السحالي في بيت للسحالي بجانب النهر، ومع تزايد أعدادها أصبح من الصعب عليه التحكم فيها. ولقد كان لروث التنين مفعول السحر وقام بمعجزات، هذا في بادئ الأمر فقط. وكان ذلك عندما أصبحت السحالي مطيعة، خشية أن يكون هذا الروث مصدره سحلية متوحشة غزت أرضها. لكن بعد أن مر الوقت بدون ظهور هذه السحلية المتوحشة، أدركت سحالي الحدائق، وهي ليست بالغبية، أن في الأمر خدعة. ولقد عادت إلى تمردها وبشكل غير مسبوق، كما أنها - مع عدم ظهور أي عدو عملاق في الساحة - باتت تتسم أيضًا بالغرور، واعتادت نهش كعبي بيلي الذي سرعان ما كان قد طفح به الكيل منها.

أما القشة التي قصمت ظهر البعير فقد حدثت عندما تحطمت الآلة تمامًا، بعد يوم طويل قضاه بيلي في قص الحشائش وتغيير السحالي عدة مرات في الآلة التي لم تعد كسابق عهدها بعد أن وطئ عليها حصان سايمون هيب ذات يوم. واغتنمت سارة هيب الفرصة. فلأنها كانت لا تحتمل أكوام الروث الشاهقة التي تملأ بساتين القصر وتنفر منها، أرسلت على الفور سايلاس إلى الميناء بتعليمات مشددة بعدم العودة

إلا ومعه أحدث نوع من آلات قص الحشائش. وأظهر سايلاس كفاءة غير معهودة، وعاد على متن مركب الميناء بآلة مدهشة.

ولقد كره بيلي هذه الآلة؛ إذ كانت تستخدم، بدلًا من السحالي، شفرات حادة رهيبة، وكان لا بد أن يجرها حصان. وبيلي شخص محب للسحالي لا تروقه الخيول، لكن رغم ذلك استمرت عملية إرسال روث التنين.

فقامت سارة بعد أن اعتادت مؤخرًا أن تملي على الآخرين ماذا يفعلون - بمنح بيلي حقلًا متسعًا بجانب بساتين القصر، وقالت له أن ينقل روث التنين في الحال إلى الحقل، ويبدأ في زراعته بالخضراوات وهذا أيضًا لم يرقه؛ فهو لا يحب الخضراوات.

ولقد قرر بيلي بوت حاليًا ألا يتحدث إلى أي شخص يبدو عليه أنه قد يثير المتاعب - وإذا بصياح الساحرة العظمى يأتي ليضربه على الوتر الحساس، لكن مارشا لا تيئس بسهولة، وطاردت بيلي الذي ما إن رآها قادمة حتى بذل كل ما في وسعه كي يسرع من خطاه، لكنه لم يُفلح تمامًا في تفاديها، بما أن حركته كانت تعرقلها عربته اليدوية الثقيلة التي كان يجرها.

«سيد بوت!» هكذا نادت عليه مارشا وهي تقفز أمام العربة اليدوية، فإذا بكعب حذائها المدبب المصنوع من جلد الأفعى الأرجوانية ينحشر في جحر أرنب قديم، وعلى الفور كانت قد طُرحت أرضًا. وما إن همَّ بيلي بأن ينظر من خلف كومة روث التنين التي تحملها العربة حتى كانت الساحرة العظمى قد اختفت، ولقد ناسبه ذلك تمامًا.

ولم ير بيلي أنه من الحكمة أن يكف عن دفع العربة إلا عندما هبت مارشا واقفةً على قدميها، وفي يدها كعب إحدى الأفعيين الذي تمزق، وقد بدت مشعثة وينطلق من عينيها الخضراوين شرور مزعج غاية في الإزعاج.

نظر بيلي من فوق قمة الكومة ورد عليها قائلًا: «نعم».

قالت مارشا: «سيد بوت.. أوه! إن لديَّ وظيفة لك».

«اسمعي أيتها الساحرة العظمى، لقد انتهيت من جمع آخر كمية، وما عاد لديَّ مكان حتى نهاية الأسبوع، هل هذا واضح؟».

«ياه!» هكذا ردت مارشا بشيء من الدهش.. فبعد عملها لاثني عشر عامًا ساحرة عظمى اعتادت أن تعامل على نحو أكثر احترامًا ولو قليلًا.

قال بيلي متذمرًا: «لا بد أن أواصل عملي الآن»، ثم رفع العربة وواصل السير بتثاقل نحو حديقة الخضراوات.

وبخطوات عرجاء سريعة، حاصرت مارشا العربة مرة أخرى، وقالت بإصرار شديد: «سيد بوت».

تنهد بيلي وحرر العربة من قبضته، ثم قال لها: «ماذا تريدين؟».

«كما قلت لك، لديَّ وظيفة.. إنها وظيفة شاغرة الآن.. حارس التنين. أعتقد أنك مؤهل بتفوق لنيل هذه الوظيفة».

فسألها بيلي بارتياب: «وماذا تقصدين بالضبط بحارس *للتنين*؟».

ردت مارشا وهي تناوله قصاصة ورق هشة: «لقد كتبت هنا مواصفات الوظيفة».. أخذ بيلي الورقة بتوجس ونظر فيها؛ فهو لا تستهويه الأوراق

أيضًا، لاسيما المزخرفة منها، بل إن ما لا يستهويه في واقع الأمر هو الكتابة؛ فهو لا يعرف من أين يبدأ في قراءتها.

ثم قالت له مارشا: «أنت تمسك الورقة بالمقلوب».

«ياه!» هكذا رد بيلي وقد بدا منزعجًا بعد أن هزمته مرة أخرى قصاصة من الورق. ثم لف الورقة وهمهم قائلًا: «اقرئيها أنتِ. فنظارتي ليست معي»، ثم ناولها لمارشا التي أمسكت بها بحرص بأصبعي الإبهام والسبابة، تحاول أن تتجنب بصمات الأصابع السميكة المتسخة التي باتت مطبوعة الآن على أطراف الورقة.

بدأت مارشا تقرأ: «المواصفات المطلوبة لوظيفة حارس التنين؛ البند الأول: التنين سيعيش خارج البرج، أي في محل إقامة الحارس أو في محل عمله».

قطب بيلي جبينه وقال في حيرة: «ماذا قلتِ؟».

ردت مارشا قائلة: «لافظ اللهب سيعيش هنا».

«*هنا*؟».

«نعم هنا. إن حقل الخضراوات هو المكان الأمثل له».

فسألها بيلي وقد اكتشف فجأة مدى اهتمامه بالخضراوات: «وماذا عن الخضراوات؟».

«إنه لا يدقق كثيرًا؛ فهو يأكل أي شيء».

فهمهم بيلي قائلًا: «وهذا هو ما يزعجني».

«البند الثاني: حارس التنين مسئول مسئولية كاملة عن التنين عندما يتولى رعايته. البند الثالث: ليس مسموحًا للتلميذ بأن يزور التنين إلا

ليلة بعد ليلة وفي عطلات نهاية الأسبوع فقط، وليس مسموحًا له بالطيران به إلا لمدة نصف ساعة في الأوقات التي سبق تحديدها. البند الرابع: المرتب يُحدَّد بالتفاوض، وإن كنت أقترح أن يكون ضعف مرتبك الحالي الذي تأخذه من القصر، ما رأيك؟».

قال بيلي وهو يشهق من فرط دهشه: «الضّعف؟».

«حسنًا، ثلاثة أضعاف. لكن هذا عرضي الأخير. هل ستقبل الوظيفة أم لا؟».

«نعم.. نعم أيتها الساحرة العظمى، هذا شرف لي».

«إن تلميذي سوف يُحضر لك التنين اليوم في وقت لاحق. وسوف يجيء البناءون هذا الصباح».

«البناءون؟».

«كي يبنوا بيتًا للتنين. وداعًا يا سيد بوت..

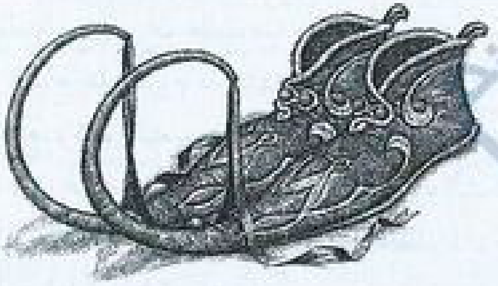
وسوف أرسل لك العقد كي توقع عليه لاحقًا».

«حسنًا. همم، وداعًا أيتها الساحرة العظمى».

ومع ابتعاد مارشا بقدم عرجاء، جلس بيلي بوت لدى ضفة النهر وهو يحك رأسه في دهش، ثم تمنى على الفور لو لم يفعل؛ إذ إن التخلص من روث التنين عند التصاقه بالشعر أمر في غاية الصعوبة.

I2

تيري تارسال



يحب *تيري تارسال – صانع الأحذية* – وحارس الأفعى الأرجوانية على مضض – أن يحيا حياة هادئة. وهذا ما يناله في معظم الأوقات.. وعندما تحيد حياته عن هذا المنحى الهادئ، يكون السبب في المعتاد متعلقًا بشكل أو بآخر بالأحذية المصنوعة من جلد الأفعى الأرجوانية.

كان تيري قصير القامة نحيلًا، له يدان عريضتان ماهرتان وجافتان إلى حد الخشونة بعد سنوات طويلة من التعامل مع الجلود، وكان يمتلك متجرًا طويلًا وضيقًا، في ممر «قاطع الطريق» المتفرع من طريق السحرة

الذي تنتشر فيه رائحة الأتربة والجلود والخيوط المكسوة بالشمع، بالإضافة إلى رائحة زيت بذر الكتان في أيام بعينها. كان تيري يستمتع بعمله، وإن كان لا يستمتع بالاحتفاظ بالأفعى الأرجوانية في الفناء الخلفي للمتجر. لكن مارشا أوفرستراند عُدت من أهم زبائنه، ولقد ظل على مدار السنوات العشر الماضية أو أكثر قليلًا، منذ أن أصبحت مارشا الساحرة العظمى، يقسو على نفسه ويتحامل عليها كي يعتني بالأفعى ويجمع جلدها المطروح إلى أن تطلب منه مارشا زوج الحذاء التالي.

وكان تيري صباح هذا اليوم قد انتهى لتوه من إطعام الأفعى وهو ما يزعجه على الدوام. وكان يستعيد عافيته باحتساء فنجان من عصير التفاح الساخن عندما رأى عبر زجاج النافذة الضبابية لمتجره الشكل الضبابي الأرجواني لعباءة مارشا أوفرستراند. وفي التو واللحظة، كان باب المتجر الذي أصابه الذعر لرؤية مارشا - قد انفتح.

لكن تيري تارسال كان أكثر صلابةً من الباب، وقال لها بدون حتى أن يكترث بالنهوض: «صباح الخير يا آنسة أوفرستراند»، ثم أخذ رشفة أخرى من عصير التفاح، وواصل كلامه قائلًا: «إن حذاءك الجديد لم يجهز بعد. فأنا لا أزال أنتظر تلك الأفعى البائسة حتى تطرح جلدها».

قالت مارشا وهي تعرج: «لم أحضر لهذا السبب، إنما جئت من أجل مسألة طارئة»، ثم انحنت للأسفل، وبعد أن خلعت فردة حذائها، ألقت بها على الطاولة مع الكعب المكسور، ثم قالت: «لقد انكسر الكعب، هكذا بلا سبب. وبدون سابق إنذار. وكان من الممكن أن تنكسر ساقي».

رفع تيري فردة الحذاء التي بدا منظرها مهينًا وأمسك بها على بُعد ذراع، وقال لمارشا بنبرة لائمة: «لقد وطئت بقدمك على شيء ما».

ردت مارشا قائلة: «حقًا؟ يبدو أني كنت أفهم خطأً أن هذا هو الغرض من الأحذية، أن نطأ بها على الأشياء».

«كي *تمشي بها لا تتعثري في أي* شيء. أعتقد أن هذا الكعب لن ينفع، هل ستنتظرين أم ستعودين فيما بعد لتسلُّمها؟».

«لا أنوي السير وأنا أعرج هكذا إلى برج السحرة يا سيد تارسال، شكرًا. بل سأنتظر».

«لا تزعجي نفسك، وليشرفني أن أقرضك خُفيْن ذوَي مقاس موحد».

ردت مارشا بنبرة باردة: «أنا لا ألبس الخف، ولا ألبس على وجه الخصوص ذوَي المقاس الموحد، شكرًا جزيلًا».

أخذ تيري تارسال الحذاء، ثم اختفى في الجزء الخلفي من المتجر. وجلست مارشا على الدكة الخشبية غير المريحة المجاورة للمائدة الطويلة - فتيري لا يحب أن يطيل زبائنه المكوث في متجره - وأخذت تحدق إلى أنحاء المتجر الصغير.

وكانت مارشا تستمتع بزياراتها لتيري؛ فهي تحب الجلوس في هدوء المتجر القديم الكائن في هذه الحارة المظلمة؛ حيث لا يستطيع أحد أن يعثر عليها هنا. وإذا تصادف وكان هناك من لمحها وهي جالسة في المتجر، فهي تستمتع بنظرات الذهول التي سببتها رؤية الساحرة العظمى

بنفسها وهي تجلس على دكة متقلقلة في متجر الأحذية، تنتظر حذاءها كسائر سكان القلعة.

وهكذا، بينما كان تيري تارسال ينظف الحذاء من روث التنين ويبدأ في صنع كعب جديد ويبحث عن قطعة من جلد الأفعى يكسو بها الكعب، جلست مارشا برضا وسعادة وهي تنظر إلى الأحذية التي تنتظر أصحابها لتسلُّمها. كانت هناك مجموعة متباينة من الأحذية، ومعظمها طويلة من النوع المألوف ومصنوعة من الجلد البني أو الأسود بأربطة سميكة ونعل جلدي سميك. وكانت هناك مجموعة من القباقيب الخاصة بالعمال، من النوع الذي يلبسه العديد منهم في غرف الصناعات اليدوية والمصانع الصغيرة بمنطقة العشوائيات لحماية أقدامهم، كما كانت هناك أيضًا فرقة من الأحذية الوردية الخاصة بالرقص لها شرائط مربوطة في شكل فستونات، وزوجان من الأحذية الطويلة الخاصة بالصيادين المصنوعة من الجلد المزيت – وهو ما جعل مارشا تُدرك من أين تأتي هذه الرائحة النفاذة لبذر الكتان – ثم كان هناك أغرب زوج من الأحذية لم تر مارشا رأي العين من قبل حذاء أطول منه وبمقدمة مدببة بهذا الشكل.

نهضت مارشا بانبهار وتوجهت نحو هذا الحذاء الغريب لتتفحصه عن قرب. كان من المستحيل أن تقاوم رفعه من مكانه، بدا جميلًا، وكان مصنوعًا من الجلد الأحمر اللين، ومزينًا بأشكال حلزونية من الذهب. وعلى الرغم من أنه يناسب المقاس المتوسط فقد كانت المقدمة الطويلة المستدقة الطرف تمتد لمسافة لا تقل عن قدمين، وحيك في طرفها

القصي شريط أسود طويل. أمسكت مارشا بالحذاء، متعجبة من خفة وزنه، ونوع الجلد الفاخر الذي استخدمه تيري تارسال في صنعه، ثم أجرت أصابعها على امتداد الأشكال الذهبية التي تزينه، وازداد يقينها كلما أمعنت أكثر النظر فيه بأن الأشكال الحلزونية التي تزين الجزء الذي يعلو أصابع القدم تبدو على شكل حرف (الميم).

تراجعت مارشا للوراء وهي لا تزال تحمل الحذاء الأحمر اللين، وجلست على الدكة يغمرها إحساس رائع بالحماس لم تشعر به منذ ليالي أعياد ميلادها عندما كانت صغيرة. كان عيد ميلاد مارشا بالفعل موعده الأسبوع المقبل، وبدأ يخالجها هاجس بأن سبتيموس يحاول أن يهديها هدية مبتكرة في عيد ميلادها – بدلًا من مجموعة الأزهار المعتادة التي كان يقطفها على عجل من حديقة القصر. وتذكرت الآن عندما كان سبتيموس يصف ذات مرة الأحذية التي كانوا يلبسونها في الزمن الذي اختطفه إليه مارسيلوس باي، وكانت قد علقت على كلامه حينها بأن قالت إن هذه الأحذية على ما يبدو هي الشيء الوحيد المحترم في ذلك الزمن. إن هذا الحذاء – وكما قالت مارشا في سرها – هو بالضبط نوع الهدية غير المألوفة التي يمكن أن يتوصل إليها سبتيموس لو ركز في مسألة عيد ميلادها.

ومع شعور مارشا الآن بشيء من تأنيب الضمير بعد أن رأت الهدية قبل موعد عيد ميلادها، أعادت الحذاء على الفور إلى الرف في اللحظة التي ظهر فيها تيري تارسال الذي علق قائلًا: «إنه أغرب حذاء صنعته في حياتي».

التفت مارشا للخلف كأن هناك من باغتها وهي تفعل شيئًا ما كان يجب أن تفعله. وكان من المستحيل عليها مقاومة طرح السؤال التالي على تيري: «من الذي طلب صنعه؟».

رد تيري قائلًا: «إنه تلميذك، حسب ما أتذكر».

قالت مارشا وهي تبتسم: «هذا هو ما فكرت فيه فعلًا»، ثم قالت في سرها: يا لها من لفتة لطيفة من سبتيموس! إنه أحيانًا يكون في غاية المراعاة لمشاعر الآخرين؛ ولا بد أن تحاول أن تكون أقل تذمرًا معه، ثم قررت لو أن سبتيموس استقر وهدأ وبذل مجهودًا في موضوع **الإسقاط** لعملت بنصيحة ألثر الذي كان قد قال لها إن سبتيموس وصل إلى السن التي يحتاج فيها لمزيد من الحرية والانطلاق - ولسوف تحاول ألا تدقق كثيرًا في مسألة خروجه دون أن يخبرها أين سيذهب بالتحديد.

قاطع صوت تيري القرارات الطيبة التي كانت مارشا مستغرقة في اتخاذها، وسألها: «هل ستدفعين ثمن الحذاء؟».

«بالطبع لا! كما أني لا أريد بأي حال من الأحوال أن يعلم سبتيموس أني رأيت الحذاء، مفهوم؟».

هز تيري كتفيه، ورد عليها قائلًا: «أنا لا أفهم شيئًا عما يدور حول هذا الحذاء، فهذا هو بالتحديد ما قاله لي تلميذك - لا تجعل مارشا تراه. وكان مصرًا تمامًا على ذلك».

قالت مارشا مستحسنة: «هذا هو ما كنت أتوقعه منه».

«على أية حال، لا بد أن أسلم الحذاء غدًا. رغم أني لا أفهم لماذا لا يأتي هو ويتسلمه.. فالمنزلق الثعباني ليس بعيدًا عن هنا».

فسألته مارشا: «*المنزلق الثعباني*؟ وما دخل المنزلق الثعباني بالأمر؟!».

رد تيري متحليًا بالصبر، كأن مارشا تتعمد التباطؤ في المغادرة: «هذا هو محل إقامته.. والآن، فيما يخص هذا الكعب».

«محل إقامة من؟».

«ذلك الشخص غريب الأطوار الذي جاء مع تلميذك - وهو الشخص الذي صنعت له الحذاء.. اسمعي، إن الصمغ الذي لصقت به الكعب يحتاج لساعة على الأقل حتى يجف و...».

«*الشخص الذي صنعت له الحذاء*؟».

«إذن، هل أنت متأكدة من أنك ...».

«سيد تارسال، إذا سمحت أجب عن سؤالي، من صاحب هذا الحذاء بالتحديد؟».

«لا أستطيع الإجابة، إنها معلومات سرية».

انفجرت مارشا قائلة وهي تستشيط غضبًا: «هذا هراء! بحق السماء! إنه ليس سوى زوج من الأحذية. والأمر لا يتطلب حتمًا أن يحيط به كل هذا القدر من السرية، أليس كذلك؟».

لكن تيري تارسال لا يريد أن يخضع فردّ قائلًا: «إنها أسرار الزبائن».

«سيد تارسال، إذا لم تقل لي الآن من هو صاحب الحذاء فسوف أضطر لأن... لأن...»، ثم فكرت مارشا في التهديد الأكثر إزعاجًا بالنسبة لتيري، وقالت له: «سأضطر لأن أحول كل هذه الأحذية التي تنتظر أصحابها إلى نصف أحجامها».

«*بالطبع لن تفعلي ذلك*».

«بل سأفعل ذلك. والآن، من صاحب الحذاء؟».

«مارسيلوس باي».

ارتج الباب من فرط الذعر، وقفز برطمان من الأزرار الخضراء المتناهية في الصغر من على المائدة الطويلة وتناثرت الأزرار على الأرض، حين صاحت مارشا بصوت مدوٍّ: «*مارسيلوس باي*؟».

قال تيري وهو يجثو على يديه وركبتيه يحاول أن يجمع الأزرار: «انظري ماذا فعلتِ. لن أستطيع أن أعثر عليها جميعًا الآن. لقد تناثرت في كل مكان».

حدقت مارشا إليه وهو يفتش عن الأزرار يصاحبه صوت خمش كأنه كائن من كوكب آخر، ووجدت نفسها لا تفهم أي شيء مما يدور حولها؛ ولا يدور في رأسها ويشغل كل تفكيرها سوى ثلاث كلمات فقط هي: «سبتيموس» و«مارسيلوس» و«باي».

واقتحم تيري بفظاظة أفكار مارشا التي كانت تدور كالدوامة في رأسها، وقال لها: «يمكنك أن تساعديني بدلًا من الوقوف هكذا وأنت تحملقين في الفراغ كأنك جَمل مصاب بالإمساك».

وإن كانت مارشا لم تعتد، بأي حال من الأحوال، أن يصفها أحد بالجَمل المصاب بالإمساك، إلا أن العبارة جاءت بالنتيجة المرجوة، وتقدمت مارشا ثم جثت على ركبتيها لتنضم إلى تيري، تساعده في عملية اصطياد الأزرار، لكن الأفكار ظلت تدور وتدور في رأسها كالدوامة، ثم سألت تيري: «أنت قلت *مارسيلوس باي*، أليس كذلك؟».

رد تيري بنبرة مزعجة: «بلى»، ثم التقط شيئًا أخضر صغيرًا من بين ألواح الأرض الخشبية بظفره ليكتشف أنه بذرة شربات خضراء، ثم واصل قائلًا: «اسمه مارسيلوس باي، وأتذكر أني كتبته بايي، فصححه تلميذك وقال إن الاسم يُكتب (ب - ا - ي)..».

«أواثق أنت *تمامًا* من كلامك هذا؟» هكذا سألته مارشا، بينما كانت كل التفاسير الممكنة تجول بخاطرها، لكن لم يبدُ أي منها معقولًا، وكانت جميعها تتضمن سبتيموس.

اعتدل تيري وهو يتأوه وأخذ يدلك ظهره، ثم قال: «قلت لكِ بلى. والآن كفاكِ كلامًا يا سيدة أوفرستراند. أريد أن أركز. إن هذه الأزرار هي أفضل ما أمتلكه من أحجار اليشم».

قالت مارشا: «أفضل ما تمتلكه من أحجار اليشم؟».

«نعم، ولن أجد مثلها بعد ذلك. يا له من حظ سيئ!».

وقفت مارشا ونظفت عباءتها من الأتربة التي علقت بها – فتيري يفضل صناعة الأحذية عن التنظيف – ثم طقطقت بأصابعها وهمهمت بتعويذة **استعادة**. ومن بين الشقوق والفجوات المخفية في الألواح الخشبية التي تكسو سطح الأرض، تجمعت الأزرار.. وبينما كان تيري يراقب هذا المشهد وقد فغر فاه، تدفق سيل أخضر من الأزرار وعاد إلى البرطمان.

هب تيري واقفًا على قدميه، وقد علا وجهه تعبير ينمُّ عن الارتياح والدهش؛ فهو في واقع الأمر لم ير قطُّ رأي العين **سحرًا** يُمارَس أمامه، وأن تستخدم مارشا بنفسها **السحر** لغرض بسيط ينحصر في العثور على

أزراره الثمينة أثر فيه كثيرًا، فهمهم قائلًا: «أشكرك. هذه... هذه لفتة طيبة جدًا منكِ».

ردت مارشا قائلة: «هذا أقل واجب. والآن، هل تسمح لي بأن أرى دفتر تسجيل الطلبات؟».

«دفتر تسجيل الطلبات؟!».

«نعم، إذا سمحت يا سيد تارسال».

هز تيري رأسه وذهب وقد تملكه الدهش ليجلب دفتر تسجيل الطلبات، وعاد بدفتر ثقيل مغلف بالجلد وألقى به فارتطم بصوت مكتوم على الطاولة.

قالت مارشا: «أريد أن أرى الطلب الخاص بهذا الحذاء».

لعق تيري أصبعه وبدأ يقلب الصفحات إلى أن عثر على التاريخ المطلوب، ثم قال وهو يشير إلى دخول الطلب منذ ثلاثة أسابيع: «ها هو الطلب».

أخرجت مارشا نظارتها ونظرت إلى خط تيري الذي يصعب قراءته، فقفز إليها اسم مارسيلوس باي وكأنه ضربها على رأسها، ثم همهمت قائلة: «لا أصدق نفسي».

«تمامًا. هذا هو الشخص».

سألته مارشا وهي تحاول أن تفهم شيئًا مما يدور: «هل كان الرجل طاعنًا في السن؟».

«لا، إنه شاب في الثلاثينيات من عمره. ويبدو وسيمًا فيما عدا قصة شعره الغريبة. تذكرت الآن، كان لا بد أن آخذ مقاس قدمه بعد أن وجدته

لا يعرف مقاسه. وأصر على إعطائي المقاسات القديمة - وقد توقفنا عن استخدام هذه المقاسات منذ مائة عام على الأقل. حتى والدي المسن ما كان سيتذكر هذا النوع من المقاسات، كما أن الرجل كان يتحدث بلهجة غريبة رغم أنه لم يتحدث كثيرًا. فتلميذك حسب ما أتذكر كان هو الذي يدير معظم الحوار».

قالت مارشا وهي تجلس فجأة على الدكة: «حقًا؟ في الحقيقة، أنا لا أدري ما...».

فقاطعها تيري يسألها: «هل أنتِ بخير يا آنسة أوفرستراند؟ تبدين شاحبة بعض الشيء، سوف أجلب لك كوب ماء».

لم تكن مارشا بخير، وشعرت بالانفصال عن محيطها على نحو غريب، وكأن عالمها فجأة ما عاد هو العالم الذي تعرفه وتعيش فيه، ثم جاء تيري ومعه كوب الماء.

قالت له مارشا: «أشكرك يا تيري». وجلست بقدميها المدسوستين في جورب أرجواني تتكئان بارتخاء على الأرض المتربة، ثم ارتشفت كوب الماء رشفة رشفة. كانت مارشا تعلم أن السبب الحقيقي وراء دهشها ليس وجود مارسيلوس باي في صورة شاب في زمنها الآن، رغم أن هذا في حد ذاته كان غريبًا جدًا، بل لإدراكها في واقع الأمر أن سبتيموس - عزيزها سبتيموس الذي تثق به ثقة عمياء - كان يخدعها.

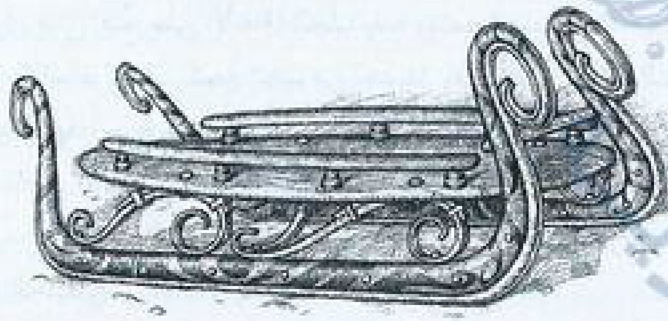
وبينما كان تيري يراقبها بقلق، ارتشفت هي ما تبقى من ماء في الكوب، وقد بدأت تشعر بتحسن.

ثم قالت: «تيري».

«نعم أيتها الساحرة العظمى».

«ضع هذه الأزرار المصنوعة من أحجار اليشم على حذائي بينما يجف الصمغ على الكعب، أتسمح؟».

13
زحلوقة السحرة



في *الوقت الذي كانت مارشا تنتظر فيه جفاف الصمغ*، كان سبتيموس منشغلًا بشيء أكثر إثارة؛ حيث كان يحشر نفسه للمرور من باب مسحور صغير يعترض سطح أرض كوخ بيتل.

قال سبتيموس، وقد تعثرت قدمه على درجة السلم المثبت في الحائط الثلجي أسفل منه: «لم أكن أدري أنه يمكنك النزول إلى الأنفاق الجليدية من هنا».

«إنها فتحة تجار الشمال» هكذا رد بيتل بابتسامة عريضة، وكانت أنفاسه تتكثف في صورة بخار وسط الجو قارس البرودة، وتلون وجهه بلون

غريب ومخيف في الضوء المتراقص الذي يلقيه المصباح الأزرق الذي أضاءه توًا، وقال: «إن الآنسة دجين تسمح لي باستخدامه. أغلق الفتحة إذا سمحت يا سب».

رد سبتيموس: «حالًا»، ثم جذب الباب الثقيل للفتحة، والذي كان مخفيًا أسفل الباب المسحور، **ومحكم الغلق بالأختام** - كسائر المنافذ الأخرى التي تفتح على الأنفاق الجليدية - وسمع الهسيس الناعم للباب مع عودة استقراره في **شمع الختم** من جديد. ومن أسفل عباءة التلامذة التي يرتديها، أخرج **مفتاح** الكيمياء الذي يضعه حول عنقه، وضغطه في جزء غاطس مستدير يتوسط الفتحة، ثم نزل السلم المعدني المكسو بالجليد إلى الأعماق أسفل كوخ بيتل، منضمًا إليه على الأرض الزلقة للنفق الجليدي.

صدر عن خاتم سبتيموس التنيني الذي يلبسه في سبابة يده اليمنى ضوء أصفر خافت، إلا أن مصباح بيتل الأزرق هو الذي التقط الوميض الجميل للجليد الأبيض المائل إلى الزرقة، والذي يكسو النفق مثلما تكسو الكريمة سطح التورتة، وألقى بظلالٍ غريبة لهيئتهما فوق السقف المقنطر المرتفع للنفق.

قال بيتل: «سوف أصعد بسرعة **وأحكم غلق** الفتحة، ثم سننطلق بعد ذلك فورًا».

قال سبتيموس: «المكان بات **محكم الغلق** الآن».

«لا يا سب، لا بد أن أستخدم هذا **الختم**.. انظر!»، ورفع بيتل قرصًا من الشمع – وهو نسخة طبق الأصل **من مفتاح** سبتيموس الذهبي. وبدوره،

أخرج سبتيموس **مفتاحه** ولوح به لبيتل بابتسامة عريضة علت وجهه. هز بيتل رأسه باندهاش، وقال: «*يا إلهي!* لن أسألك أصلًا كيف حصلت عليه يا سب».

قال له سبتيموس: «مارسيلوس هو الذي أعطاه لي. فعن طريق هذا المفتاح تمكنت أنا وجينا من العودة».

«فهمت» هكذا رد بيتل، متجنبًا بلباقة ذكر اسم نكو الذي لايزال حبيسًا في زمن آخر؛ فذكر اسم نكو يحبط سبتيموس ويزعجه، وبيتل لا يحب أن يرى سبتيموس في هذه الحالة. أخذ بيتل زحلوقة خشبية بسيطة كانت معلقة على خطاف مثبت في الحائط الجليدي، ثم قال لسبتيموس: «ألا تريد أن تقفز عليها؟».

أمسك بيتل بحبل الزحلوقة، بينما كان سبتيموس يصعد عليها ثم جلس أمام سبتيموس، وثبت المصباح بحيث ينير أمامه الطريق.. وبعد أن تذكر سبتيموس كيف هو حال التزحلق بزحلوقة بيتل، أمسك ببيتل بقوة – وإذا به يؤخذ على حين غرة. فقبل حتى أن يلتقط أنفاسه كانت الزحلوقة قد انطلقت كالصاروخ وانعطفت وهي تميل على مجرى واحد عند المنعطف الأول الذي كان حادًا ينعطف بزاوية قائمة.

صاح سبتيموس: «أخخخخخخ.. ياااااه!»، وانتقل صياحه بعيدًا في الجو البارد للنفق، وقطع أميالًا لينضم إلى أصوات النواح التي تخلفها الأشباح وراءها وتظل عالقة وسط رياح النفق الباردة.

ولقد بات بيتل، بعد نحو سنتين من العمل كموظف تفتيش، خبيرًا في قيادة الزحلوقة، إلا أنه غير معتاد اصطحاب ركاب معه. لقد دار مع

المنعطفات متزحلقًا على الجدران الجليدية إلى منتصف ارتفاعاتها، والتف عند الأركان مستخدمًا لفات سريعة وعنيفة، وإذا اضطر لأن يتوقف كان يقوم بما يُطلق عليه لفة مزدوجة عكسية على الطائر يصاحبها أزيز وتنتهي اللفة بالتفاف الزحلوقة في الاتجاه العكسي. وبعد بضع دقائق، كان سبتيموس بلا جدال يبدو في غاية الذعر، ثم استقطع لنفسه استراحة خاطفة مع صعود الزحلوقة ببطء على منحدر طويل، لكن مع وصولهما إلى القمة وهما يتأرجحان على الزحلوقة، أدرك سبتيموس أن الأسوأ لم يأتِ بعد؛ إذ كان في وسعه أن يرى أمامه في الضوء الأزرق الذي يلقي به مصباح بيتل نفقًا طويلًا يبرق باللون الأبيض وينحدر نحو ظلام حالك، بينما بدا أن السقف فوقهما قد تحول إلى قبة مجوفة.

وصاح بيتل هنا قائلًا: «هذا هو الجزء المفضل لديَّ! أمسك جيدًا يا سب!».

وكان سبتيموس يتشبث بالزحلوقة بقوة حتى إنه شعر بأن أصابعه التصقت بها، فأخذ نفسًا عميقًا واستعد.. ترنحت الزحلوقة كأنها هي أيضًا تأخذ نفسًا عميقًا. وفجأة، انطلقت بسرعة خطيرة، إلى أن خالج سبتيموس إحساس غريب كأن الأرض أسفله لم يعد لها وجود. فنظر، في فزع، واتضح له أنهما بالفعل لا يتزحلقان على الأرض، كانت الأرض تبعد عنهما بنحو عشرين قدمًا.. وقد باتا يطيران في الجو.

صـاح سبتيموس بصـوت جرفتـه الريـاح بعيـدًا: «توقـف يـاااااا بيييييتي..... تتتتتل!».

تجاهل بيتل صياح سبتيموس؛ فهذا الجزء من الرحلة هو الأحب إلى قلبه من بين سائر الأعمال التي يقوم به طوال الأسبوع، إنه شيء ود منذ أن أتقن القفز بالزحلوقة أن يشاركه فيه سبتيموس، وما تبادر إلى ذهنه يومًا أن شعور سبتيموس سيختلف عن شعوره.

وعلى نحو يثير الدهش هبطت الزحلوقة بهما بانسياب وهي تئز في فراغ جليدي عريض منبسط، ثم انطلقت كالصاروخ مباشرة إلى نفق من فرط ما كان ضيقًا وجد سبتيموس نفسه مجبرًا على أن يرفع يديه عن جانبي الزحلوقة بعد أن كان ممسكًا بها، خشية أن تحتك مفاصل أصابعه بالجدار الجليدي. وكان الطريق يتعرج ويلتف، وأبطأ بيتل من سرعته حتى يتجنب انحشار الزحلوقة، لكن مع مواصلة الزحلوقة سيرها ببطء على امتداد الطريق بين جدارين هائلين من الجليد، بدأ ينتاب سبتيموس الإحساس بالاختناق من هذا المكان المغلق. وأخيرًا اتسع عرض النفق وتحول إلى فراغ مستدير يرتفع سقفه عاليًا، وتوقف بيتل بالزحلوقة فجأة على نحو غير متوقع، ثم قال بصوت خفيض: «ها قد وصلنا».

فسأله سبتيموس، وهو ينظر حوله في الغرفة الشاسعة، يحدثه هاجس بأن المكان يبدو مألوفًا له، لكن دون أن يدري تحديدًا السبب في ذلك: «وصلنا إلى أين؟».

قال بيتل بهمس مسموع: «أنت تعرفه، إنه المكان الذي طلبت منا مارشا أن تتفحصه».

رد سبتيموس في حيرة: «مارشا؟».

فسأله بيتل: «ألم تخبرك؟».

رد سبتيموس بنبرة كئيبة: «إن مارشا لا تخبرني بأي شيء».

قام بيتل من على الزحلوقة، وقال: «على أية حال، هناك أمر لا بد أن نتفحصه الآن يا سب. فهناك بعض الأمور تحدث هنا في الأسفل. هيا بنا».

قام سبتيموس بحذر من فوق الزحلوقة ووقف على الجليد، ثم تابع بيتل مع انطلاقه في المضي قدمًا، وضوءه الأزرق الساطع يضيء الجدران الجليدية الملساء للغرفة، وفجأة أدرك سبتيموس أين هو. فشهق وقال: «إنها (غرفة الكيمياء)!»، ثم قال بنبرة اشتياق: «لقد... لقد كنت أحضر إلى هذا المكان كل يوم. كان مارسيلوس يعلمني كمًا هائلًا من الأمور، ولم يكن يتذمر مني طوال الوقت».

رد بيتل قائلًا: «وأراهن أيضًا أن المكان كان أدفأ حينها.. إذن، ها نحن قد وصلنا إلى هدفنا. انظر! لقد ذابت ثم تجمدت من جديد». كان الضوء الأزرق الصادر عن مصباح بيتل قد ألقي على البلاطة الجليدية التي تغطي باب المدخل القديم للغرفة. وخلافًا للبلاطات الجليدية الأخرى، كانت هذه البلاطة صافية وتضم مئات الفقاقيع الصغيرة الحبيسة بداخلها، ذكرت سبتيموس بأحد أنواع مكعبات الفواكه الفوارة التي يقدمها له بيتل، وهو النوع المميز بنكهة الليمون التي لا يحبها كثيرًا.

همس سبتيموس قائلًا: «هذا جليد تكوّن حديثًا».

هز بيتل كتفيه وقال: «أعلم، لكنه على الأقل تجمد من جديد.. سأتفحص الآن **ختم الغلق المحكم**»، وضغط بيتل على **مفتاح** الشمع الخاص به في القرص المعدني الذي يكتنف البلاطة الجليدية، وقال:

«ما أغرب ذلك! لقد أعيد **ختمها وإحكام غلقها**. هيا بنا يا سب، فلدينا شيء واحد آخر لا بد أن نتفحصه، لكنّ هناك شيئًا أريد أن أريه لك».

بعد خمس دقائق كان بيتل قد قام بلفة مزدوجة عكسية بزحلوقته وتوقف وسط وابل من الثلوج، فسقط سبتيموس من فوق الزحلوقة ووجد نفسه طريحًا ممدد الجسد على الجليد، يُحدق إلى سقف نفق أزرق مائل إلى البياض.

قال له بيتل: «هيا يا سب»، ثم أمسك بيدي سبتيموس وجذبه حتى وقف على قدميه، ثم واصل قائلًا: «لقد عثرت عليه الأسبوع الماضي. كنت قد اكتشفت طريقًا مختصرًا عند أحد الاختناقات ورأيته»، وأشار إلى حبل أرجواني قصير ينبثق من وسط الجليد.

جثا سبتيموس على يديه وركبتيه ليتفحص الحبل عن قرب.

قال بيتل وهو يشرح له: «ليس هناك ألوان هنا في الأسفل؛ ولذلك يمكنك رؤية الحبل وهو يمتد لميل. ولقد حاولت أن أحفر لاستخراجه لكني فشلت؛ لقد سحبه الجليد. فالجليد يفعل ذلك. لقد سقطت مني ذات مرة كوفيتي التي أتفاءل بها، ثم عثرت عليها الأسبوع التالي حبيسةً أسفل سطح الجليد على عمق بوصتين. ولفترة كنت أراها عندما أمر بها، ثم بدأت تغوص أكثر فأكثر إلى أن اختفت تمامًا، ومن الغريب والأمر هكذا أننا لانزال نستطيع رؤية الحبل». كشط بيتل بمطواته في الجليد حول الحبل وبدأ يحرر منه جزءًا صغيرًا آخر حتى ظهرت منه عدة بوصات، ثم قال: «هيا يا سب».

فسأله سبتيموس في حيرة: «هيا ماذا؟».

«هيا أمسك بالحبل بقوة واجذبه. إنها لن تخرج معي، لكن أعتقد أنها ستخرج معك».

«ولماذا أنا؟».

«لأنها ملكك».

«*ما هذا الذي* هو ملكي؟».

علا وجه بيتل ابتسامة غامضة، ورد عليه قائلًا: «عليك أن تجذب الحبل بقوة حتى تعرف».

هز سبتيموس رأسه وقد علت وجهه ابتسامة حائرة، ومداعبًا بيتل أمسك بطرف الحبل البالي وجذبه. لم يتمكن من الحصول على شيء يُذكر، لكنه، ولدهشه، حرر جزءًا من الحبل الأرجواني السميك نفسه من بين الجليد بسهولة كأنه جُذب من وسط ثلوج هشة حديثة السقوط.

قال بيتل بحماس: «إنها تخرج، كنت أعلم ذلك. واصل الجذب يا سب!».

لم يكن سبتيموس في حاجة للتشجيع، وأخذ يواصل الجذب بثبات إلى أن شق السطح مجران من العجلات مصنوعان من الذهب. تملك سبتيموس الدهش وجذب بقوة، انبثق على إثر ذلك من أعماق الجليد أجمل زحلوقة رآها في حياته. وقال وهو يشهق: «إنها زحلوقة برج السحرة. بيتل، أنت عثرت على زحلوقة *برج السحرة*».

قال بيتل وقد علت وجهه أعرض ابتسامة رآها سبتيموس منذ فترة طويلة: «نعم. ما رأيك إذن؟ أليست جميلة؟».

«جميلة؟ إنها في غاية الروعة». وبدأ سبتيموس ينظف الزحلوقة من بلورات الجليد العالقة بها، ثم وضعها على مجريها الذهبيين. انتظرت الزحلوقة بصبر على الجليد، وقد بدت بمنظرها الانسيابي وارتفاعها الشاهق ونعومتها مقارنة بزحلوقة بيتل - كأنها خيل سباق يقف إلى جوار قرد. بدا لسبتيموس ملمس سطحها الخشبي المحفور بشكل معقد، والمعشق بشرائح من أحجار اللازوردي - دافئًا، وتلألأ طلاؤها الأرجواني والأزرق والذهبي في ضوء مصباح بيتل. كان مرفقًا بها صفارة فضية معلقة من القضيب الذهبي الممتد بين مجريها المقوسين، وكانت الصفارة مربوطة بشريط أخضر.

قال بيتل: «لا عجب إذن أنها ضاعت. لقد ترك الساحر الذي كان يستخدمها الصفارة مربوطة فيها. يا له من تصرف أحمق! لا بد أن تحتفظ بالصفارة دائمًا معك يا سب. خذ». وفك بيتل الشريط ثم ناول سبتيموس الصفارة، وقال له: «سوف تحضر إليك متى صفرت لها. وقد تجد أنك تحتاج إلى أن تفعل ذلك؛ حيث إن هذا النوع الهوائي جدًا من الزحاليق مشهور بالشرود».

دس سبتيموس الصفارة في جيب ردائه وقال: «أشكرك يا بيتل. أنت بالفعل تعرف الكثير؛ أشياء ربما حتى مارشا لا تعرفها».

«لست معك في ذلك يا سب. إن مارشا تعرف أكثر مما تظن أنت بكثير. الفكرة أنها لا تريد *أن تتحدث فيما تعرف*، هذا هو كل ما في الأمر».

رد سبتيموس قائلًا: «إنها لا تتحدث معي أنا على الأقل».

قال بيتل مغيرًا الموضوع، مدركًا أن مارشا كانت قد تحدثت معه هو في الكثير صباح اليوم: «إذن، ألن تصعد على الزحلوقة؟ يمكنني أن أعلمك كيف تقوم باللفة المزدوجة العكسية التي تطلق أزيزًا، والثلاثية أيضًا إن شئت».

رد سبتيموس قائلًا: «ربما فيما بعد، عندما أعتادها»، ثم جلس عليها بحذرٍ شبه متوقع أنها ستنطلق به كالصاروخ كما تفعل زحلوقة بيتل، إلا أنها قبعت صابرة أسفله تنتظر التعليمات. فسأل بيتل، مدركًا أنه ما خطر بباله من قبل أن يسأله كيف تقوم زحلوقته بصعود ونزول المنحدرات وتفعل تمامًا ما يريده منها: «كيف تقوم بتشغيل هذه الزحاليق؟».

«ما عليك إلا أن تفكر فيما تريده منها أن تفعله وسوف تتولى هي الأمر – هذا فقط في حال إن كنت أنت الشخص المناسب لركوبها، فإذا حاولت أن تركب زحلوقتي فكل ما سوف تفعله معك أنها ستتجاهلك».

قال سبتيموس وهو يُحدث الزحلوقة في سره: تحركي ببطء «حسنًا، سوف أقوم بمحاولة». وهنالك، انطلقت زحلوقة برج السحرة ببطء شديد للغاية وسط قهقهة بيتل.

فصاح بيتل وهو يقول: «يا إلهي! ماذا قلت لها يا سب؟ تحركي كما تتحرك القواقع الأرضية!».

رد سبتيموس مدافعًا عن نفسه: «كنت أجربها فحسب».

فاقترح عليه بيتل قائلًا: «جرب إذن مدى سرعتها. أراهن أنها ستكون مدهشة، ربما ستكون أسرع بكثير من هذه الزحلوقة القديمة»، ثم ركل زحلوقته بحب.

رد سبتيموس قائلًا: «ربما في وقت لاحق».

قال بيتل، وهو يصعد على زحلوقته: «حسنًا يا سب، لكنَّ هناك شيئًا آخر وأخيرًا طلبته منا مارشا أن تتفحصه».

ابتسم سبتيموس – فما أهمية مارشا الآن بعد أن بات معه زحلوقة بهذه الروعة، ثم قال: «حسنًا يا بيتل. يمكنني أن أساعدك في عمليات التفتيش الآن، كما كانوا يفعلون قديمًا».

رد بيتل بابتسامة عريضة: «عظيم».

14
البيت الكائن في المنزلق الثعباني



أضاء بيتل بمصباحه فتحة في سقف *النفق الجليدي*. كانت الفتحة لا تعلو رأسيهما إلا ببضعة أقدام فقط، حتى إنهما لو قفزا لأعلى لاستطاعا أن يلمساها. وكانت الفتحة عبارة عن جزء بيضاوي غاطس في الجليد وبجانبها **الختم** المعدني المعتاد، وكان يحيط بها من كل الجهات خط رفيع من الجليد الصافي.

قال بيتل: «انظر! لقد تكرر نفس الموضوع هنا أيضًا. لقد ذاب الجليد

وتجمد مرة أخرى. فلتر الآن ماذا حل **بختم** الفتحة.. بالفعل، لقد أعيد **ختمها**، هذا غريب جدًّا».

قال سبتيموس الذي لم يُدهشه ذلك كثيرًا: «أمم..»؛ فهو يعلم من هو صاحب هذه الفتحة.

نظر بيتل عاليًا إلى الفتحة وقال: «بالطبع قد يكون هذا **الختم** معيبًا على الجانب الآخر من الفتحة؛ فالفتحات المنزلية أحيانًا يطرأ عليها ذلك. ليتنا كنا نستطيع الدخول وتفحص الأمر، لكن البيت سكنه منذ وقت قريب رجل غريب الأطوار جدًّا. إنه يعيش على ما يبدو في عزلة، حتى إنه لا يفتح الباب لأحد».

رد عليه سب قائلًا: «أعلم ذلك. ليته يخرج من عزلته هذه. لكنه غير معتاد العالم من حوله».

فسأله بيتل وقد علاه الدهش: «هل تعرف ذلك الشخص يا سب؟».

اتخذ سبتيموس القرار، فسوف يثق ببيتل ويبوح له بالأمر. فقد سئم التكتم على هذه الزيارات التي يقوم بها لمارسيلوس. ومن ثم، رد عليه قائلًا: «في الحقيقة نعم. لكن... لكن مارشا لا تعلم أني أقوم بزيارته. دائمًا ما كنت أنوي أن أخبرها، لكنها باتت متذمرة للغاية هذه الأيام و...»، ثم تذكر سبتيموس شيئًا فجأة، وقال: «ياه! سحقًا! بيتل، هل تحمل معك ساعة؟».

«بالطبع» هكذا رد عليه بيتل بكل فخر وقد علت وجهه ابتسامة عريضة؛ فبيتل يمتلك ساعة تُعد من أحدث أنواع الساعات، كان قد عثر عليها محطمة وملقاة في أعماق دولاب بدار المخطوطات، فانتشلها. وعلى

مدار عدة شهور، وبمساعدة الكاتب المختص بالصيانة، قاما بتجميعها بعد عناء وأعادا تشغيلها؛ وهي قطعة جميلة مصنوعة يدويًا بمهارة، ولا تُصدر أي صوت بفضل الحذاقة التي تديرها بآلية معقدة، والأهم من كل هذا أنها دقيقة غاية الدقة.

وبفخر، أخرج بيتل من جيبه الساعة، وكانت مصنوعة من الذهب والفضة ومربوطة بحبل جلدي سميك، وعند رأسها مقبض عريض يتوسطه لفاف. قبعت الساعة في راحة يد بيتل وهي تغطيها كأنها سلحفاة سمينة صغيرة.

نظر سبتيموس إلى الساعة بانبهار، وسأل بيتل: «كيف صنعوها بهذا الحجم الصغير».

رد بيتل قائلًا: «لا أعلم. لكنك لن تستطيع أن تحصل على شيء كهذا اليوم».

كانت عقارب الساعة تقترب من منتصف النهار، فقال سبتيموس: «يا للإزعاج! سوف أتأخر هكذا. إن جينا سوف تستشيط غضبًا».

رد بيتل بنبرة علاها فجأة صرير: «*جينا*؟».

«نعم. فسوف أقابلها هنا ثم ...».

«ماذا قلت.. ستقابلها *هنا* يا سب؟».

رد سبتيموس وهو يشير إلى الفتحة: «لا، ليس هنا في الأسفل. أقصد في المنزل الذي يعلونا».

«حقًا؟».

ثم طرأت فكرة في رأس سبتيموس، وقال: «أتحب أن تأتي معنا أنت أيضًا؟ وسوف أسأل مارسيلوس إذا ما كان من الممكن أن تفحص الفتحة من الداخل!».

«مارسيلوس.. أهو ذلك الشخص غريب الأطوار الذي يقطن في البيت بالأعلى؟».

رد سبتيموس قائلًا: «إنه ليس غريب الأطوار، إنه... إنه غير معتاد فحسب الأمور هنا».

قال بيتل: «إن الاسم يبدو لي مألوفًا. انتظر، أليس هو ذلك الشخص الذي اختطفك عبر اللـــوح الزجـاجـي؛ ذلك الكيميائي المسـن المجنون؟».

قال سبتيموس مقرًا: «في الحقيقة نعم. لكنه ليس مجنونًا، كما أنه ما عاد يبدو مسنًا الآن».

قال بيتل: «لكنه لايزال أحد الكيميائيين. لا عجب إذن أن هذه الفتحة تثير المتاعب. يا للإزعاج! وأنا يُدهشني والأمر هكذا أننا لم نواجه ذوبانًا كاملًا».

بدأ سبتيموس يتساءل في سره إذا ما كان قد أصاب عندما باح بالأمر لبيتل، لكن فات الأوان الآن، ثم قال له: «سوف أفتح الفتحة إذن، حسنًا.. بضع دقائق لن تضر في شيء. فأنا أستطيع أن أعيد **ختمها وغلقها المحكم** من الجانب الآخر من داخل البيت».

بدا الذهول على بيتل وقال: «تريد فتح فتحة **مختومة**؟».

«نعم. حتى نستطيع أن نذهب من هذا الطريق وتقابل جينا».

فسأله بيتل: «هل فعلا ستقابل الأميرة چينا في البيت الذي يعلونا؟».

فأومأ له سبتيموس برأسه، وهو يواصل القفز على قدميه بحثًا عن الدفء. فقد بدأ يشعر بأن قدميه تتحولان إلى كتلتين من الثلج.

كان إغراء فكرة أنه سيرى چينا أكبر بكثير من قدرة بيتل على المقاومة، ورد قائلًا: «حسنًا، رغم أنه لا ينبغي عليَّ أن أفعل ذلك؛ فالآنسة دچين سوف تستشيط غضبًا لو علمت». ومن أسفل زحلوقته، أخرج بيتل ما بدا لسبتيموس أنه سلم قابل للمد، ثم فتحه وأسنده إلى الحائط وقال: «سوف أمسك بالسلم يا سب، و*أنت* سوف **تبطل مفعول الغلق المحكم** للفتحة. أعتقد أن هذا هو أفضل حل».

بعد عشر دقائق، كان بيتل وسبتيموس يسلكان طريقهما على امتداد ممر طويل تنبعث منه رائحة عفنة، يصل المسافة الممتدة بين الفتحة والبيت الكائن في المنزلق الثعباني. كان سبتيموس يعلم الطريق جيدًا، كانت أول مرة سار فيها في هذا الممر عندما كان البيت ملكًا للبروفيسور ويزل فان كلامف، يوم أن قادته خادمته البشعة، أونا براكيت، على امتداد الممر إلى معمل ويزل. كان الممر حينها مظلمًا ومتربًا، لكنه الآن ينال قدرًا لا بأس به من العناية، وتنيره شموع الأسل من الطراز القديم، والتي تحملها قوائم على مسافات متساوية على امتداد الجدران. فبدا الممر هكذا الآن تمامًا كما كان عندما عاش سبتيموس في هذا البيت لمدة ستة أشهر غريبة في زمن آخر غير زمنه، عمل فيها حينها تلميذًا كيميائيًا لدى

مارسيلوس باي. تابع بيتل خطى سبتيموس وهو ينطلق مسرعًا على امتداد الممر، متجاوزًا المنعطف الذي يؤدي إلى المعمل القديم، ومتبعًا المسار المتعرج للممر الممتد أسفل البيوت التي تطل على الخندق المائي.

ولم يمض وقت طويل حتى كان سبتيموس وبيتل قد وصلا إلى نهاية الممر وانبثقا في السراديب المتسعة ذات الأسقف المقنطرة التي تقع أسفل المنزل. سلك سبتيموس طريقه عبر هذه السراديب بخطوات واسعة، وبقلق، لعلمه أنه تأخر بالفعل على چينا، صعد درجات السرداب، ودفع بابه الذي يقع أسفل السلم، ثم صاح مناديًا: «مارسيلوس؟ مارسيلوس؟» لكنه لم يتلق إجابة.

تسلل سبتيموس داخل البيت بهدوء يتبعه بيتل عن قرب بحذر.. بدت لبيتل رائحة البيت غريبة؛ كانت رائحة احتراق الشموع تمتزج بالعبير الحلو المر الذي يميز البرتقال والقرنفل وشيء آخر لم يتعرفه، وكان من المستحيل عليه أن يطرد من ذهنه إحساسه بأنه عبر الزمن لينتقل به إلى مكان ما في الماضي.. لم يختلف تأثير هذه الروائح على سبتيموس، ولقد اعتادها الآن، لكن عندما زار مارسيلوس أول مرة بعد أن انتقل الكيميائي المسن للعيش هنا، كان مقتنعًا بأنه لايزال حبيسًا في الماضي في زمن مارسيلوس وأن عودته إلى زمنه لم تكن إلا حلمًا. وفي حالة من الهلع الرهيب داهمته حينها، خرج من البيت جريًا. ولفرحته، رأى چيلي دچين تمر من أمامه بخطوات مسرعة. ولم تكتشف چيلي قطُّ بعد ذلك السبب الذي جعل تلميذ مارشا يلقي بذراعيه حولها ويعانقها

وهو يقول لها كم أنه سعيد لرؤيتها، لكنها عادت في ذلك اليوم إلى دار المخطوطات بخطوات تملؤها الحيوية والنشاط، فلا أحد يقابل چيلي دچين بالأحضان.

خيم على سبتيموس وبيتل سكون البيت الذي بدا كأنه عزلهما عن العالم، وسار الفتيان على امتداد بهو المدخل الضيق الذي كان مضاء بكمٍّ من الشموع لم يرَ بيتل مثله من قبل، ولدى وصولهما إلى أعتاب سلم شديد الانحدار قُطعت درجاته من خشب البلوط الداكن، اندهش بيتل وهو يرى لدى كل درجة شمعة مضاءة.

فهمس قائلًا وقد تملكه بعض الخوف: «ما كل هذه الشموع؟ يا له من منظر غريب!».

رد سبتيموس هامسًا: «إنه لا يحب الظلام. صه! أسمع وقع خطوات أقدام في الدور العلوي»، ثم نادى: «مارسيلوس؟ *مار.. سيلوس، لقد...*».
وجاء صوت يشوبه الحذر من الطابق العلوي يقاطعه قائلًا: «التلميذ؟ أهو أنت أيها التلميذ؟».

رد سبتيموس قائلًا: «نعم».

ثم سمعا وقع أقدام ثقيلة فوقهما، وهنالك رأى بيتل منظرًا من فرط غرابته لن ينساه أبدًا طوال حياته؛ رأى هيئة تنزل درجات السلم ببطء، بينما كانت تنيرها من الأسفل شمعة تلو أخرى. وكانت الهيئة لرجل شاب، له شعر داكن ومحلوق بقصة تتبع إحدى الصيحات القديمة، ويرتدي زيًّا، عرف بيتل - من نقوش قديمة رآها سابقًا محفورة على الجدران - أنه العباءة السوداء والذهبية الخاصة بالكيميائيين. كانت

أكمام الرداء تنسدل طويلًا إلى الحد الذي اعتبره بيتل أنه بدا في غاية البلاهة، وكان الرجل يجرها خلفه على السلم. وبالتناسق مع هذا الزي، كان مارسيلوس يرتدي أغرب حذاء رآه بيتل في حياته؛ فمقدمته المدببة كانت تمتد لقدمين على نحو التقريب وكانت مربوطة في رباط جورب يرتديه أسفل الركبة، ثم أدرك بيتل فجأة أنه يقف بفم فاغر، فأغلقه على الفور.

وما إن وصل الرجل الشاب إلى أعتاب السلم حتى قال له سبتيموس: «مارسيلوس، أقدم لك صديقي بيتل. إنه يعمل في دار المخطوطات. بيتل، أقدم لك مارسيلوس باي».

وتسلل إلى بيتل خلسة إحساس بأنه في حلم؛ فمارسيلوس باي يبلغ من العمر خمسمائة عام، وهو آخر الكيميائيين، وكتاباته ممنوعة - حتى في دار المخطوطات - وها هو الآن يقف أمامه ويتعرف إليه. هذا ضرب من الخيال!

مد مارسيلوس باي يده وقال بلهجة بدت بشكل أو بآخر غريبة: «مرحبًا. إنه عمل رائع ذلك الذي تقومون به أيها الكتبة، رائع».

ومثل الحمل الحائر، حملق بيتل بنظرة يعلوها الارتباك وجاء رده في صورة صوت أشبه برغاء الغنم.

ثم عاد الحمل الحائر إلى وعيه بوكزة خاطفة من سبتيموس، ورد بيتل مصافحًا اليد الممدودة إليه، والتي كانت حمدًا لله يدًا دافئة - وليست باردة كالثلج كما كان يتوقع - وقال: «ياه! أشكرك. لكنني لست كاتبًا. أنا موظف تفتيش، فأنا أفحص **الأختام** في الأنفاق الجليدية».

قال مارسيلوس: «ياه! إنها شر لا بد منه أتمنى أن يتم التخلص منها يومًا».

رد بيتل وقد عاد يتحدث بنبرة الخبير في مهنته: «في الحقيقة أنا لا أعرف شيئًا عن ذلك، لكن ما أعرفه أن فتحة هذا البيت تعرضت لإبطال مفعول غلقها المحكم مؤخرًا».

«ربما. لكن هذا لم يدم طويلًا، فقد أعدت ختمها من جديد، لا داعي للقلق».

«لكن...» وقاطعت بيتل رنة جرس قادمة من على مسافة بعيدة فوقه.

انتفض مارسيلوس على إثرها، وقد بدا عليه الهلع فجأة، ثم قال وهو ينظر إلى الباب: «إنه جرس الباب».

فعرض عليه سبتيموس قائلًا: «أتحب أن أفتحه؟».

«هل لا بد من ذلك؟».

قال سبتيموس يحثه: «لا بد أن تنخرط مع الناس أكثر من ذلك يا مارسيلوس، ليس من مصلحتك أن تظل مختبئًا هكذا».

«لكن أيها التلميذ، الشمس في الخارج ساطعة جدًا والضوضاء صاخبة»، ثم رن جرس الباب ثانيةً، وبإلحاح هذه المرة.

قال سبتيموس وهو لا يصبر على الانتظار هكذا بدون أن يفتح الباب: «أعتقد أنها چينا. لقد قلت لي إني أستطيع أن أدعوها للحضور إلى هنا، أتتذكر؟ لقد قلت لي إنك مستعد الآن لأن تخبرنا بما حدث.. أقصد بما حدث لنكو».

بدا مارسيلوس حائرًا، ورد قائلًا: «نكو من؟».

وهنا خفق قلب سبتيموس؛ فقد ظل على مدار الأشهر الستة الماضية يحاول أن يدفع مارسيلوس بأن يخبره بما يعرفه من معلومات حول موضوع نكو، وأخيرًا منذ بضعة أيام فقط، وافق مارسيلوس. وفيما يبدو الآن أنه نسي مرة أخرى. فحتى الآن، لا يزال سبتيموس يجد صعوبة في التأقلم مع واقع أن مارسيلوس، على الرغم من أنه عاد من جديد يبدو شابًا، لايزال يتصرف في كثير من الأحيان كما يتصرف المُسنون. فمارسيلوس يحمل عادات عمرها قرونًا، ومن الصعب عليه أن يتخلص منها – وقد تمر عليه تجده يمشي مشية الرجل المسن، مع تبنيه سلوكًا سريع الغضب. لكن أكثر ما كان يُزعج سبتيموس هو ذاكرة مارسيلوس الضعيفة، ولقد سبق له أن قال لمارسيلوس يتذمر إن هذا ليس إلا نتيجة كسل منه، لكن مارسيلوس دافع عن نفسه قائلًا إنه يحمل في رأسه ذكريات عمرها خمسمائة عام، فكيف يتخيل سبتيموس أنه بعد كل هذا سيجد مكانًا لكل الذكريات الحديثة!

تنهد سبتيموس، ثم ترك مارسيلوس وهو يرتجف من فرط الخوف في المدخل وذهب هو ليفتح الباب.

قالت چينا بارتياح: «سب!»، كانت چينا تقف لدى عتبة الباب، وقد بدت في حالة مزرية من إثر الريح والأمطار في الخارج، وتشعر بالبرد. كان شعرها الداكن مبللًا، يتدلى على وجهها في خصلات منفصلة، وكانت ملتحفة بإحكام بعباءتها الحمراء الشتوية الثقيلة، ثم قالت وهي تضرب بقدمها الأرض بقوة من شدة البرد: «لقد استغرقت وقتًا طويلًا

حتى تفتح الباب. إن الطقس في الخارج بشع. ألن تدعوني للدخول الآن؟».

قال سبتيموس بنبرة جادة غلفت صوته فجأة: «كلمة السر إذا سمحت».

قطبت چينا جبينها وقالت: «أي كلمة سر؟».

«ألا تعرفينها؟».

«لا. يا لك من مزعج! المهم، ألن تدعوني للدخول؟».

«هممم.. لا أعلم يا چين».

«سب، أنا أتجمد من البرد، أرجوك دعني أدخل».

«حسنًا، يمكنك الدخول بما أنه أنت».

تراجع سبتيموس للوراء وهرعت چينا بالدخول هربًا من الأمطار، ووقفت تهز عباءتها لتخلصها من قطرات الماء العالقة بها، ثم توقفت فجأة ونظرت إلى سبتيموس بريبة وقالت له: «ليس هناك كلمة سر أصلًا، أليس كذلك؟».

قال سبتيموس بابتسامة عريضة: «بالطبع نعم».

«يا لك من فتى بشع!» ثم ضحكت ووكزته، ثم قالت: «ياه! مرحبًا يا بيتل. أنا سعيدة برؤيتك».

احمر وجه بيتل، ووجد نفسه مرة أخرى قد نسي الكلام، لكن لم يبدُ على چينا أنها لاحظت ذلك؛ فقد كانت منشغلة بإخراج قط برتقالي صغير من أسفل عباءتها وحشره أسفل ذراعها، وهو ما أدهش بيتل - فما كان يظن أن چينا ممن يهوون تربية القطط.

ثم، ولسبب لم يفهمه بيتل، قال مارسيلوس: «مرحبًا بك هنا يا إيزميرالدا».

ردت چينا قائلة: «أشكرك يا مارسيلوس» ثم ابتسمت؛ لقد كادت تنسى أنها عندما انتقلت يومًا إلى زمن مارسيلوس باي كان قد التبس الأمر على كل من حولها وتعاملوا معها باعتبارها الأميرة إيزميرالدا.

ثم قال مارسيلوس وهو ينحني نصف انحناءة بالطريقة القديمة: «أيتها الأميرة، أيها التلميذ، أيها الكاتب، لو تكرمتم اتبعوني».

وبعد ذلك بلحظات، كان بيتل يصعد السلم خلف چينا وسبتيموس ومارسيلوس باي، وهو يتعرج يمينًا ويسارًا بين شموع تتساقط منها قطراتها الذائبة، ويتساءل في سره ما الذي أقحمه في كل ذلك. والأهم، كيف سيفسر ذلك للآنسة دچين عنما تكتشف الأمر.. وهي دائمًا ما تكتشف كل شيء.

15
في العلية



وهكذا، تابعوا جميعًا مارسيلوس وهو يصعد السلم حتى وصلوا إلى غرفة صغيرة في أعلى البيت - كانت عبارة عن فراغ مظلم، محشور أسفل الإفريز المائل للبيت، وجدرانها مبطنة ببطانة خشبية. وكانت الغرفة مفروشة بأقل الأثاث الذي شمل مائدة قديمة منصوبة على حامل ثلاثي، ودكتين على جانبيها وعددًا من المقاعد المتراصة بطول الحوائط، وكل هذا الأثاث كان قد تركه ويزل فان كلامف؛

المالك السابق للبيت. كان يتوسط المائدة مجموعة من الشموع، أضاءتها الخادمة مبكرًا صباح اليوم، وذاب نصفها حتى الآن.

ومع دخول مارسيلوس بهم إلى الغرفة، شعر سبتيموس على الفور بوخزة ألم مع تعرُّفه الغرفة؛ فهذه الغرفة كانت غرفته منذ وقت ليس ببعيد، ورغم ذلك كان بعيدًا إلى حد بدا مستحيلًا. هذه هي الغرفة التي أثناء الليالي الأولى التي قضاها سبتيموس في زمن مارسيلوس كان ينام على بابها أحد الكتبة الكيميائيين حتى يمنعه لو حاول الهرب؛ هذه هي الغرفة التي كان يقضي فيها وقته يفكر باستماتة في كل ما يخطر على البال من الخطط المجنونة بحثًا عن وسيلة تعيده إلى زمنه؛ إنها الغرفة التي كان يستغرق أمام نافذتها ساعات وساعات ينظر منها، متلهفًا لأن يرى وجهًا مألوفًا يمر في الطريق بعيدًا في الأسفل. وهي بناء على ذلك، ليست من أحب الأماكن إلى قلبه - لكن ها هو الآن قد عاد إليها مع بيتل وجينا، وهذا في حد ذاته *واقع* ما كان سيجرؤ حينها على مجرد التفكير فيه، فوجد سبتيموس نفسه فجأة يخالجه إحساس غريب جدًا، وجلس مرتطمًا على إحدى الدكتين أمام المائدة.

جلس بيتل وجينا إلى جواره، وسرعان ما كانت هناك ثلاثة وجوه مترقبة تنظر لأعلى إلى مارسيلوس باي. وبدوره، نظر هو إليهم في حيرة، ثم قال متسائلًا: «والآن، ما الذي جاء بنا إلى هنا؟».

قال سبتيموس آملًا أن يتذكر مارسيلوس السبب الذي جعله يصعد بهم إلى هذه الغرفة بالتحديد، رغم أنه هو نفسه لا يعرف السبب: «إنه الموضوع المتعلق بنكو، ألا تتذكر؟».

فسأله مارسيلوس ببساطة: «نكو؟».

رد سبتيموس وقد غلفت صوته نبرة يشوبها اليأس: «نكو، أخي نكو. إنه حبيس في زمنك. لا بد أن تتذكر الآن يا مارسيلوس». لقد استغرق سبتيموس شهورًا طويلة حتى يرتب هذا اللقاء، وها هو الآن، بسبب ذاكرة مارسيلوس التي تخونه دائمًا، بدا له أن كل الآمال التي كان يتعلق بها تسربت من بين يديه مرة أخرى.

قال مارسيلوس: «أخ! لقد تذكرت الآن» فارتفعت معنويات سبتيموس، وواصل مارسيلوس قائلًا: «لقد صعدت بحثًا عن نظارتي، فأنا لا أزال أحتاج لاستخدامها؛ هذا أمر مزعج للغاية. تُرى، أين يمكن أن تكون؟».

قال سبتيموس بنبرة مرهقة: «إن النظارة على رأسك يا مارسيلوس».

رد مارسيلوس قائلًا وهو يمد يده إليها: «فعلًا، ها هي. عظيم، فسوف أحتاج إليها لقراءة أوراق نكو».

تحمس سبتيموس؛ فالموضوع بدأ يتحرك الآن، ثم ابتسم إلى چينا التي بدت عيناها تسطعان بشكل غريب، كما تفعلان دائمًا كلما ذُكر اسم نكو، ثم توجه مارسيلوس إلى المدفأة، معاودًا مرة أخرى المشي بطريقة المسنين – وهو ما أرجعه بيتل إلى حذائه الغريب – ثم ضغط على لوح

صغير جانبي يرتفع عن الأرض فانفتح اللوح مصدرًا صريرًا كأنه الاعتذار. راقب الجميع مارسيلوس وهو يُخرج رزمة بالية من الأوراق الجعدة والمصفرة. وبحرص، جاء بها إلى المائدة ووضعها برفق عليها.

وعلى الفور شهقت چينا؛ فالأوراق كانت مدونة بخط نكو السيئ.

قال مارسيلوس: «لقد ترك نكو وسنوري هذه الأوراق. ولقد احتفظت بها في المدفأة للحفاظ عليها حتى لا يأتي أحد ويتخلص منها؛ إذ تبدو وكأنها لا تعدو أكثر من بعض الملاحظات والإشارات السريعة، مدونة بيد غير متمرسة على الكتابة. لكن مع مرور السنين – ولقد كانت سنوات طويلة، طويلة جدًا – نسيت موضوع هذا المخبأ، ولم أتذكره إلا بعد أن سألتني عن أخيك بعدة شهور».

رد سبتيموس قائلًا: «عندما قلت لي إنك لا تتذكر».

«هذا صحيح، فأنا لم أتذكر حينها، ثم بدأت بعد ذلك أتذكر أشياء عن حياتي القديمة. وذات يوم، عندما صعدت هذه الغرفة، تذكرت، لكن لفترة وجيزة فقط، ثم مكثت أيامًا عديدة أصعد فيها كل هذه السلالم وأنا أتساءل في سري ما الذي أريده من هذا المكان. لكن عندما تحدثت أنت آخر مرة عن نكو، دونت ملحوظة بذلك، ودأبت على حمل الورقة معي في كل مكان، وعندما صعدت مرة أخرى إلى هنا تذكرت مكان المخبأ.. ووجدته – لدهشتي – كما هو.

وهذا هو السبب الذي جعلني أرسل إليك الرسالة التي طلبت منك فيها أن تحضر اليوم».

قال سبتيموس: «أشكرك يا مارسيلوس».

«أنا مدين لك أيها التلميذ. وإن كنت أُقر بأني لم أتمكن من قراءة معظم خط نكو، لكن ربما سوف تستطيع أنت أن تقرأ خط أخيك أفضل مني. فربما أن الملاحظات ستفصح لكم عن الموضوع، وأنا من جهتي سوف أشرح لكم بقدر المستطاع ما يفسر ما ستقرءونه».

نظرت چينا بحذر في الأوراق، كان الحبر قد بهت وصار بنيًا داكنًا، وكان سُمك الورق رقيقًا جدًا ويكاد لونه البني يكون بلون الكتابة. ورغم ذلك، علمت چينا أن الأوراق أوراق نكو؛ فقد كانت تضم رسومًا لمراكب، ورسومًا تخطيطية لمعدات إبحار، ورسومًا عديدة للعبة إكس-أو، ولعبة الحرب، ولعبة اشنق الرجل، بالإضافة إلى ألعاب أخرى لم تتعرفها چينا، والعديد من القوائم. لكن بشكل أو بآخر، لم يقربها كل ذلك من نكو، بل شعرت أنها باتت في واقع الأمر أكثر بعدًا عنه الآن وهي ترى خطه مكتوبًا على ورق قديم ورقيق بهذا الشكل، ووجدت چينا نفسها تحدق إلى ورقة طويلة ورقيقة مع شعورها بالدموع تتكون أسفل جفونها.

ثم سألها سبتيموس: «ماذا وجدت في الأوراق يا چين؟».

«لقد... لقد كتب قائمة».

قال سبتيموس: «هذا هو نكو كالمعتاد. هيا يا چين، اقرئيها لنا».

«حسنًا، القائمة مكتوب فيها التالي:

- حقيبتا ظهر.
- حشيتان من الحشيات المحمولة (إن وُجدت) أو فرو ذئبي من السوق.
- طعام يكفي لأسبوعين على الأقل. البحث في السوق عن أطعمة مملحة.
- بسكويت جاف، فاكهة.
- كبريت.
- شمع.
- زجاجتا مياه أو شيء أشبه بالإبريق.
- تصريح للسفر.. سوف أطلبه من م.
- عباءتان ثقيلتان.
- أحذية طويلة مبطنة بالفراء إن أمكن.
- جوارب الخالة إيلس التي تجلب الحظ - مهم جدًا.
- 2 حلي ذهبية رخيصة لمحصل رسوم العبور.
- علبة لبوصلة سنوري».

ومع انتهاء چينا من قراءة الورقة، بدأت تتجعد بين أصابعها، فوضعتها بسرعة على المائدة وقالت: «تُرى، ما المكان الذي كان يخطط للذهاب إليه؟».

رد بيتل الذي يُعد هو أيضًا من هواة كتابة القوائم: «إلى مكان ما طقسه بارد؛ فالقوائم تفصح عن الكثير».

كرهت چينا التفكير في أن نكو - والذي يبعد عنها الآن بخمسمائة عام - يُعد للانطلاق إلى مكان ما طقسه بارد، وجعلها ذلك تشعر بالكآبة والخواء على نحو رهيب.. فأخذت وهي جالسة تربت ببطء على ظهر أولر لتهدئ نفسها، والذي كان متقوقعًا حول نفسه على «حِجرها»، وبدا عليه أنه نائم، لكن چينا كانت تعلم أنه ليس كذلك؛ إذ كان في وسعها أن تستشعر بشيء من الحذر يسيطر عليه من الطريقة التي قبع بها في غاية السكون، وكان متوترًا وكأنه مستعد للانقضاض.

نظر سبتيموس إلى مارسيلوس باي. ولمعرفته بسيده القديم، علم أن الرجل لديه كلام يريد أن يقوله وهو كلام مهم. فقال: «أنت تعلم شيئًا، أليس كذلك؟ أرجوك أخبرنا به يا مارسيلوس».

أومأ له مارسيلوس برأسه لكنه لم ينطق بكلمة، وجلس عند طرف المائدة كأنه شرد في حلم من أحلام اليقظة، وأخذ يُحدق إلى مجموعة الشموع المتراصة أمامه يراقب شعلاتها وهي تتراقص مع تسرب تيارات الهواء من خلال ثغرات النوافذ سيئة التركيب، ثم نظر مارسيلوس لأعلى وهو يهز رأسه ليخلصها من أحلام اليقظة التي شرد فيها، وقال: «أولًا، نريد بعض الدفء»، ثم هب واقفًا وضرب حجرًا صوانًا بالطريقة القديمة، وأشعل به نارًا في أخشاب المدفأة.

وبينما كان لهيب نار المدفأة يهب ويقفز لأعلى مكتنفًا الكتل الخشبية، توكأ الكيميائي على المائدة وبدأ يتحدث ببطء - وهي عادة يتذكرها سبتيموس منذ أن كان تلميذًا كيميائيًا، وكان مارسيلوس يلجأ إليها عندما يريد الاستحواذ على انتباهه بالكامل. لكن ظهر هذا اليوم، لم يكن مارسيلوس ينقصه انتباه أحد من مشاهديه - فكل العيون كانت منصبة حوله. وفي صحبة هزيم رعد يدوّي بعيدًا في السماء، وقرقرة قريبة صدرت عن بطن بيتل وأحرجته كثيرًا - بدأ مارسيلوس يتحدث.

16

خريطة سنوري



تحدث *الكيميائي بصوت خفيض متزن* فقال: «بعدما نفذتما عبر الباب العظيم العابر للزمن، سرعان ما سال اللوح الزجاجي. ومهما حاولت وصف تلك اللحظة، فلن أستطيع أن أصف لكم مدى بشاعتها. فعملي الذي حققت به *انتصارًا علميًا عظيمًا* تحول في لحظة إلى مجرد بركة من مادة سوداء سالت على الأرض». وهز رأسه وكأنه مازال لا يصدق ما حدث، ثم واصل كلامه قائلًا: «بالطبع ما كنت أعلم في بادئ الأمر أن نكو أخوك، ولم يعنني كثيرًا - نظرًا إلى أنه كاد يختنقني - أن أعرف من هو.

لكنه عاد بعد عدة ساعات مع تلك الفتاة - سنوري - وحكى لي كيف أنهما جاءا إلى هنا بعد أن نفذا عبر لوح زجاجي آخر لإنقاذك أيها التلميذ. ولقد بهرتني شجاعته، لكن عندما طلب مني أن ينفذ هو وسنوري عبر اللوح الزجاجي العابر للزمن، ما كان هناك شيء في وسعي أن أفعله غير أني جعلته يرى تلك البركة السوداء البائسة. وتلاشت تمامًا أية ضغينة كنت قد حملتها ضده في قلبي في تلك اللحظة؛ إذ بدا الفتى وكأنه فقد كل شيء في حياته - وكان هذا هو بالفعل حقيقة الموقف بالنسبة له. وكذلك بالنسبة لسنوري أيضًا، لكنها لم تُبدِ أي رد فعل؛ فهي ممن يكتمون مشاعرهم داخلهم، أما نكو فكالكتاب المفتوح».

أخذت چينا تلف خصلات شعرها وهي جالسة؛ إذ كان من الصعب عليها أن تسمع كلامًا عن نكو دون أن تمنع نفسها من أن تتخيل ما كان يشعر به حينها.

ثم واصل مارسيلوس قائلًا: «وهكذا، ما كان في وسعي شيء إلا أن أقدم لهما مكانًا يقيمان فيه وأن أساعدهما بأي وسيلة أخرى ممكنة. ومن ثم، أقاما معي لعدة شهور، وإن كنت لا أتذكر عددها بالتحديد. في بادئ الأمر، كان يبدو عليهما القلق والتوتر كما كان حالك أيها التلميذ. لكن بعد عدة أسابيع لاحظت أن حالهما تبدل وبدا عليهما التفاؤل؛ فأشرقت الابتسامة على وجهيهما، حتى إنهما كانا يضحكان أحيانًا. خُيل إليَّ في أول الأمر أنهما تأقلما مع زمننا، وربما أيضًا أنهما فضلاه على زمنكم؛ إذ إن زماننا كان فيه خير كثير، لكنهما ذات ليلة جاءاني وأخبراني بموضوع

الخالة إيلس ففهمت بعد ذلك الموقف بشكل أوضح، وأنهما سرعان ما سوف يرحلان».

قالت چينا وهي مستغرقة في التفكير: «الخالة إيلس.. الخالة إيلس.. أنا متأكدة أني سمعت هذا الاسم من قبل».

رد مارسيلوس قائلًا: «هذا أمر وارد أيتها الأميرة؛ لأنها خالة والدة سنوري. لقد قابلاها في السوق في طريق السحرة؛ كانت تبيع سمك الرنجة المخلل».

قال سبتيموس: «قابلا خالة والدة سنوري في زمنك أنت؟».

«بالفعل، كان نكو يشتري بعض سمك الرنجة المخلل لسنوري واكتشفا أن البائعة هي خالة والدة سنوري، وعلمت بعد ذلك مباشرة أنهما يخططان للسفر إلى الغابات العميقة في البلاد المنخفضة. يبدو أن الخالة إيلس قالت لهما إنه كان هناك - أو لايزال هناك على ما أظن - مكان تتلاقى فيه كل الأزمان، والمكان يُطلق عليه (بيت الفوريكس)..».

خيم الصمت على المائدة مع هذه المعلومات، ثم دوى في السماء هزيم رعد مرة أخرى، وهبت ريح فأخذت مصاريع النوافذ تتخبط ببعضها البعض، ثم قال سبتيموس: «إن حيوانات الفوريكس ليست موجودة إلا في القصص؛ فهي في حقيقة الأمر لا وجود لها».

رد مارسيلوس قائلًا: «ومن أدراك بذلك؟ لطالما اعتبرت أشياء عديدة لسنوات طويلة لا وجود لها، لكني الآن غير متأكد من صحة ذلك، فمن يدريني؟».

قالت چينا بنبرة اشتياق: «كان نكو دائمًا يتظاهر أنه فوريكس عندما كنا صغارًا، وكان يرفع رداءه على رأسه وهو يزمجر ويزأر بأصوات مرعبة. وكان دائمًا يخيفني بأن كان يقص عليَّ قصصًا حول مجموعات من حيوانات الفوريكس وكيف أنها تواصل الجري دون توقف، وكيف أنها تلتهم كل شيء يعترض طريقها حتى الفتيات الصغيرات. وعندما كنا نعبر الشارع، كان يجعلني دائمًا أنظر حولي كي أتأكد أن الطريق خالٍ من أية خيول أو عربات أو حيوانات الفوريكس قبل العبور»، ثم بدأت تضحك وقالت: «ألم يكن ذلك بشعًا؟».

شعر سبتيموس هو أيضًا باشتياق؛ فكلما كانت چينا تتحدث عما كانت تطلق عليه (أيام زمان) عندما كان كل أفراد أسرة هيب يعيشون معًا بمنطقة العشوائيات كأسرة واحدة - ذكره ذلك بكل الأوقات التي فاتته معهم، وهو إحساس لا يمر عليه دائمًا بدون إزعاج. فغيَّر موضوع الحديث وقال: «لكن ما موضوع الخالة إيلس؟ كيف حدث أنها انتقلت إلى زمانك يا مارسيلوس؟».

قالت چينا: «لقد تذكرت الآن ما ذكرته سنوري، لقد سقطت خالة والدتها إيلس في لوح زجاجي ونفذت من خلاله عندما كانت شابة، ولم يرها أحد قط بعد ذلك».

قال مارسيلوس: «أعتقد أن هذا هو بالفعل ما حدث. لقد قالت إنها سقطت في لوح زجاجي فنفذت منه ووصلت إلى بيت حيوانات الفوريكس. إنه على ما يبدو مكان أشبه بالحلم؛ معظم الناس فيه يفقدون الرغبة في أن يتركوه، لكن الخالة إيلس كانت طفلة حازمة وقررت أن

تخرج من المكان عند أول فرصة ممكنة وتعود إلى بيتها. صحيح أنها تمكنت من الخروج، لكنها لسوء حظها خرجت من هناك إلى زمن ليس زمنها. ولقد قال لي نكو إنه واثق من أنه لو تمكن من الوصول إلى بيت حيوانات الفوريكس لاستطاع هو وسنوري أن يعودا إلى زمنهما، لكن الخالة إيلس كانت تشك في ذلك».

فسأله سبتيموس: «إذن، هل سمعت عنهما أية أخبار بعد أن رحلا؟».

هز مارسيلوس رأسه وقال: «لقد كانت الظروف صعبة حينها؛ فقد كان من المفترض أن يتم تتويج إيزميرالدا، لكنها كانت متوترة الأعصاب للغاية حتى إنها رفضت العودة إلى القصر وأقامت في مستنقعات مرام مع زوجتي العزيزة برودا لبضع سنوات، فوجدت نفسي في منصب الوصي وكنت أدير القصر، وفي نفس الوقت أواصل العمل في تجاربي الكيميائية. وسرعان ما أدركت أن عامًا ولّى بسرعة بدون أن يصلني من نكو وسنوري أية أخبار. فانشغلت عليهما؛ إذ كنت قد أكدت عليهما أن يُرسلا لي برسالة أطمئن بها أنهما وصلا بسلام؛ فغابات البلاد المنخفضة كانت حينها مكانًا موحشًا وشريرًا. لا أعلم كيف حال الغابات الآن، لكن في زمني كانت موبوءة بالوحوش والحيوانات مشوهة الخلقة وغير ذلك من الأشكال البشعة. صحيح أنني أخبرت نكو وسنوري بكل هذا، إلا أنهما رفضا أن يسمعا كلامي؛ لقد كانا مُصرين على الرحيل، وشعرت بالأسف الشديد عليهما. وسبب أسفي حينها هو أني اعتقدت أنهما لقيا حتفهما وهما في هذه السن الصغيرة. لكن الآن.. من يدرينا ما الذي ألَمَّ بهما في حقيقة الأمر؟».

اعتدلت چينا بعينين تبرقان بالأمل وقالت: «أي إنك الآن تعلم شيئًا جديدًا؟».

هز مارسيلوس رأسه بابتسامة يعلوها الرثاء، ثم قال: «أنا حاليًا أعلم بعض الأمور لم أكن أعرفها حينها، لكن ما أدراني بمعناها؟ دعوني أولًا أحكي لكم عن ديميلزا هيب».

قال سبتيموس: «ديميلزا هيب؟! لا علم لي بأن هناك ديميلزا هيب في الأسرة».

رد مارسيلوس قائلًا: «ربما ليس في هذا الزمن، لكنها كانت موجودة ذات يوم.. ولقد قالت لي ديميلزا إنها رأت نكو وسنوري بعد أن تركاني بمائتي عام».

خيم الصمت على الغرفة، ثم همست چينا قائلة: «مائتا عام؟!».

شعر بيتل ببرد ينخر عظامه؛ فهذه الأمور تثير الرعب، وقال في سره إن چيلي دچين ربما كانت محقة في رأيها عن الكيميائيين.

لاحظ مارسيلوس تعبيرات وجه بيتل فقال له: «الموضوع أيها الكاتب المتعطش لمعرفة ما يدور أني منحت نفسي لعنة الحياة الأبدية بدون الشباب الدائم». اتسعت عينا بيتل في ذهول، ثم واصل مارسيلوس مكشرًا: «وهو أمر لا أوصي به أحدًا، وعندما وصلت إلى سن 250 عامًا كنت قد أصبحت عنيفًا جدًا لدرجة ما عدت أتحمل معها الضوء الساطع للعالم في الخارج ووتيرة ثرثرته السريعة في ذلك الوقت، كما أن الأمور تغيرت كثيرًا حتى إني ما عدت تقريبًا أشعر بالانتماء لأي شيء، فاشتقت للانسحاب والانعزال في مكان مظلم يعمه السكون والهدوء. ومن ثم،

وضعت خطتي كي أقيم في الطريق القديم الذي يمتد من القصر إلى غرفة الكيمياء القديمة الخاصة بي.. إنه مكان سري أسفل سطح الأرض وليس **محكم الغلق** بالجليد. يبدو عليك الاندهاش أيها الكاتب، لكن بالفعل لاتزال هناك بعض الأماكن التي لم تمتد إليها يد **الصقيع** القارسة. *

المهم، لقد قررت أن أبيع بيتي وأنا لا أزال قادرًا - وكان ذلك عندما قابلت ديميلزا هيب. أنا لا أزال أتذكر ذلك - فما إن فتحت لها الباب حتى تعرفت إليها في التو - لقد كانت سيدة باهرة، طويلة القامة، لها عينان خضراوان وشعر مثل شعرك أيها التلميذ - وإن كان يبدو عليه أنه يعرف طريق المشط أكثر من شعرك أنت في الآونة الأخيرة. كانت ديميلزا تمتلك متجرًا تبيع فيه المعدات المصنوعة من الزجاج الفاخر التي كنت أستخدمها في تجاربي، وكان ذلك في زمني عندما كنت في ريعان شبابي، وتوطدت معرفتي بها على مدار السنين إلا أنها اختفت بعد ذلك أثناء رحلة قامت بها إلى سيد نافخي الزجاج في البلاد المنخفضة، كانت قد سافرت لتجلب لي بعض القوارير المخصوصة، وشعرت بوخز الضمير.

«وهكذا، وجدت نفسي ألتقي ديميلزا هيب لدى عتبة باب بيتي، بعد أن رحلت إلى البلاد المنخفضة بأكثر من مائتي عام، وبدت في ريعان شبابها كما كانت دائمًا، لكنها لم تتعرف إليَّ بالطبع؛ إذ كنت حينها مُسنًّا. وعندما أخبرتها بأني مارسيلوس لم تصدقني في بادئ الأمر، وسخرت من الرجل المسن، وجلسنا معًا نتحدث طويلًا ونحتسي كأسًا من مشروب الميد. أعتقد أنها استمتعت بحديثها مع شخص لم يتهمها

بالجنون وهي تحكي لي ما ألم بها، ولقد أخبرتني بأنها ضلت الطريق في غابة ساكنة، وكي تفر من مجموعة مغيرة من حيوانات الفوريكس - هذا هو ما قالته لي - عثرت على ملجأ في مكان ما، كما قالت لي إن هذا المكان تتلاقى فيه كل الأزمان - وهو مكان كانت تطلق عليه هي أيضًا بيت حيوانات الفوريكس».

فسألته جينا السؤال التالي وهي لا تكاد تجرؤ أن تسأله: «وهل... وهل سألتَ ديميلزا إذا ما كانت قد رأت نكو؟».

«نعم، سألتها».

وتبادلت جينا وسبتيموس نظرات ملؤها الإثارة والحماس.

وبادر سبتيموس بالسؤال: «وماذا قالت؟».

ابتسم مارسيلوس وقال: «إنها لم تره فحسب، بل تحدثت معه في واقع الأمر. لقد أدركت أنها عمة والدة والدة والدة والدة والده.. وهكذا علمت أخيرًا ماذا حدث لهما».

قالت جينا بحماس: «أي أن نكو تمكن من الوصول إلى بيت حيوانات الفوريكس».

قال مارسيلوس: «هكذا يبدو الأمر».

«أي أنه يستطيع العودة!».

قال سبتيموس بنبرة مكتئبة: «ربما بعد مائة عام، أي أننا لن نستطيع أن نراه. أو ربما أنه عاد منذ مائة عام وما...».

قاطعته جينا قائلة: «كف يا سب! أرجوك.. لا تبدأ في أحاديثك المحبطة».

ثم قال مارسيلوس معاتبًا سبتيموس برفق: «كفاك أيها التلميذ.. إن أفكارك أحيانًا تميل لأخذ منحى كئيب وحزين. لا بد أن يكون لدينا أمل في أنهما سرعان ما فهما القانون الذي يسود بيت حيوانات الفوريكس، وهو أمر لم تفهمه المسكينة ديميلزا إلا بعد فوات الأوان!».

فسألته چينا: «أي قانون؟».

«لم تُدرك ديميلزا أنك إذا أردت العودة إلى زمنك فلا بد أن تخرج من المكان عندما يصل شخص من زمنك، ولا بد لهذا الشخص الذي وصل أن ينتظر خارج البيت، ولا يجوز له أن يدخل. فأنت ما إن تطأ قدمك عتبة البيت حتى تجد نفسك منتميًا لعالم يخلو من عامل الزمن».

قالت چينا وهي تهب واقفة بحماس: «إذن، هذا ما سنفعله؛ سنذهب إلى بيت حيوانات الفوريكس وبذلك سيكون في وسع نكو أن يعود معنا».

قال سبتيموس: «وسنوري، لا تنسي سنوري».

بدا على چينا عدم الاكتراث وقالت: «لولا سنوري لعاد نكو حينها معنا».

«ياه! ما هذا الكلام يا چين؟».

قالت چينا: «هذه هي الحقيقة»، ثم أضافت بتفضل: «بالطبع يمكننا أيضًا أن نُحرر سنوري أثناء وجودنا هناك».

تنهد سبتيموس وقال: «أنت تتحدثين وكأن الأمر في غاية البساطة، وكأن كل ما سنفعله هو أننا سنركب عربة مارة يجرها حمار لتقلنا إلى بيت

حيوانات الفوريكس، ثم سنطرق الباب ونسأل عن نكو. ليت الأمر كان بهذه السهولة».

«هذا على أية حال هو ما سأفعله أنا يا سب، أيًا كان ما ستقوله.. أنت لست ملزمًا بأن تأتي معي».

رد عليها سبتيموس بهدوء قائلًا: «بل سأذهب بالطبع».

وقف مارسيلوس يصاحبه أنين قصير، ثم تحرك نحو الدولاب الموجود في المدفأة وأخرج منه ورقة كبيرة مطوية وجلبها إلى المائدة، ثم قال وهو يبسط بحرص شديد الورقة البنية الهشة مفصحًا عن خريطة سنوري: «ما كنت سأُريكم هذه الورقة إلا بعد أن أتأكد من أن لا شيء سيمنعكم من الذهاب إلى بيت حيوانات الفوريكس».

كانت الخريطة مرسومة بدقة، ومدونة عليها بطول حافتها السفلية الكلمات التالية: **مع خالص الشكر والعرفان إلى مارسيلوس.. من سنوري ونكو**، ثم قال مارسيلوس: «إنها نسخة رسمتها لي سنوري، ولقد رأيت أنه إذا حدث ووصلتني منهما رسالة تفيد بأنهما في مأزق فسوف يكون أمامي على الأقل فرصة لأن أعثر عليهما».

ومع الإحساس بالهيبة أمام هذه الورقة الهشة، نظروا إلى الخطوط الباهتة التي رسمتها سنوري بالقلم بغاية الدقة منذ زمن بعيد جدًا، وقالت چينا وهي تتنهد: «إذن، هذا هو الطريق إلى نكو».

قال مارسيلوس بإلحاح، خشية أن يكون قد بُعث فيهم أمل بعيد المنال: «لا بد أن تتعاملوا مع الأمر بحرص شديد. فلا تنسوا أن إيلس رسمت الخريطة الأصلية من ذاكرتها وفقًا لأحداث مرت بها عندما كانت

في التاسعة من عمرها؛ أي أنه كان قد مر على خروجها من بيت حيوانات الفوريكس - رغم أني لن أجرؤ على ذكر هذا في وجهها - خمسون عامًا على الأقل ولن تستطيع أن تتذكر كل التفاصيل، فقد تكون هذه الخريطة إذن غير دقيقة».

وبينما كان الجميع ينظرون إلى الخريطة، محاولين أن يتوصلوا لأي شيء منطقي في خضم هذه الخطوط الباهتة المرسومة على الورقة التي تلاشى لونها، سمعوا فجأة هزيم رعد يدوّي في السماء عاليًا. انتفض مارسيلوس وقد باغتته الصوت، فلمس كُمّاه الطويلان المتدليان كتلة الشموع التي تتوسط المائدة، والتقط الحرير الفاخر الذي يحيط بالكمين نارًا، وانبعثت رائحة رهيبة لصوف يحترق ملأت أرجاء الغرفة. أخذ مارسيلوس يصيح في هلع، مرفرفًا بيديه كأنه طائر يحاول الإقلاع بصعوبة. ولم يفلح بذلك إلا في أنه أجج اشتعال النيران في الكُمين، ثم اصطدم بقرص المائدة وسقط على الشموع التي أشعلت إحداها النار في طرف الخريطة.

صاحت چينا: «لا!»، ثم خطفت الخريطة وأخذت تطفئ النار بيدها، غير آبهة بلسع لهيبها.

وصاح مارسيلوس وهو يقفز على قدميه في أنحاء الغرفة كأنه يرقص، بينما كانت النيران تمتد لأعلى كميه: «النجدة! النجدة أيها التلميذ!».

وصاح بيتل قائلًا: «الدلو!».

سأله سبتيموس: «أية دلو؟».

«الدلو!» وخطف بيتل دلو الماء التي لاحظ وجودها بجانب المدفأة - فمارسيلوس الذي لديه ذعر من النيران يضع في كل غرفة دلوًا - ثم ألقى بالماء على مارسيلوس.

وملأ أرجاء الغرفة أزيز عالٍ وكثير من الدخان، ثم سقط مارسيلوس منهارًا على المقعد.

جلس مارسيلوس يتفحص، بحزن، كُميه التالفيْن، بينما كانت چينا تطوي الخريطة الثمينة مرة أخرى، وسبتيموس وبيتل يجمعان أوراق نكو من على الأرض.

ثم قال سبتيموس لمارسيلوس الذي بات الآن مبللًا وينبعث منه بعض الدخان: «هل أنت بخير يا مارسيلوس؟».

فأومأ له برأسه، ثم هب واقفًا على قدميه وقال: «إن النيران شيء بشع. أشكرك أيها الكاتب لسرعة تحركك».

رد بيتل قائلًا: «لا شكر على واجب، أنا في خدمتك في أي وقت».

قال مارسيلوس: «أتمنى ألا يكون هناك أوقات أخرى كهذه».

جمعت چينا أوراق نكو في رزمة مرتبة على المائدة، وتوجه مارسيلوس إليها ليأخذ الأوراق، فوضعت چينا يدها عليها وقالت: «أود أن أحتفظ بها إذا سمحت».

«حسنًا أيتها الأميرة، إنها ملكك الآن»، ثم فتح مارسيلوس درجًا في المائدة وأخرج بعض الورق النشاف. وبحرص شديد، لف رزمة الورق المهلهلة وربطها بشريط، ثم ناولها لچينا التي دستها أسفل عباءتها، ثم رفعت أولر.

قال سبتيموس: «لمَ لا تتركين معي الأوراق يا چين؟ لن تستطيعي أن تحتفظي بها وأولر معكِ».

ردت چينا بإصرار: «بل أستطيع»، ثم انطلقت تشق طريقها بخطوات هادئة كأنها في طريقها بالفعل الآن إلى بيت حيوانات الفوريكس.

وبينما كانوا ينزلون السلم المضاء بالشموع تصاحبهم قعقعة أحذيتهم، قال سبتيموس: «مارسيلوس؟».

«نعم أيها التلميذ»..

«احترس! أبعد عباءتك عن هذه الشمعة».

«أخ! همم.. أتعتقد أن نكو وسنوري لا يزالان في بيت حيوانات الفوريكس بعد كل هذا الوقت؟».

«احتمال» هكذا رد مارسيلوس ببطء مع وصولهم إلى منبسط الطابق الثالث. أسرعت چينا بنزول قلبة السلم التالية، وحذاؤها الطويل يدق على ألواح الدرجات الخشبية، بينما توقف مارسيلوس وهو يفكر بعمق في كلام سبتيموس، ثم قال: «احتمال ذلك أشبه بأن أقول لك مثلًا الآن إن هناك احتمال أن أتناول الشاي مع الساحرة العظمى في قمة برج السحرة. فإن كان ذلك مستبعدًا جدًّا، إلا أنه ليس مستحيلًا بشكل مطلق».

تمنى سبتيموس في سره لو أن مارسيلوس اختار مثلًا غير هذا.. فلعلمه برأي مارشا في مارسيلوس باي، وتجاهلها التام لواقع وجوده في الزمن الحالي - يبدو المستحيل بالنسبة لذلك أكثر احتمالًا.

كانت چينا تنتظر بفارغ الصبر في بهو المدخل. وما إن انضم إليها سبتيموس وبيتل ومارسيلوس حتى سمعوا طرقًا ودقًّا عنيفًا على الباب، فانتفض الجميع.

قال مارسيلوس بانزعاج وقد عاد للتحدث بلهجته القديمة: «ألك أن تتكرم وتفتح الباب أيها التلميذ؟».

رد سبتيموس الذي خالجه إحساس رهيب يحدثه بأن هناك شخصًا واحدًا في القلعة هو الذي سيتجاهل جرسًا متاحًا للاستخدام ويطرق الباب بهذا الشكل: «ليس هذا ضروريًّا، إذا كنت لا تريد ذلك».

بذل مارسيلوس جهدًا كي يهدأ، ثم قال: «لا لا، فأنت مُحقٌّ، لا بد أن أخرج من عزلتي عن هذا الزمان. افتح الباب، وسوف انخرط مع الناس كما قلت».

حرك سبتيموس مقبض الباب حركة خفيفة، ثم قال: «إنه لا يريد أن يتحرك».

فقال بيتل وهو يحرك مقبض الباب بقوة: «دعني أجرب». وانفتح الباب فجأة مفصحًا عن مارشا أوفرستراند التي كانت تقف لدى عتبة الباب في حالة مزرية بسبب الريح والأمطار في الخارج - متذمرة ومبتلة.

قال سبتيموس: «ياه! مرحبًا يا مارشا».

17
مشكلات



قالت مارشا بنبرة باردة كالثلج: «إذن، ألن تدعوني للدخول؟». نظر سبتيموس حوله في هلع، وتلاقت نظراته مع نظرات مارسيلوس. فقال مارسيلوس، وهو ينحني إحدى انحناءاته المنتمية لصيحة قديمة: «بكل سرور يا سيدة مارشا. أرجوك تفضلي»، ثم تنحى جانبًا في التوقيت المناسب متجنبًا أن تطأ مارشا على حذائه المبلل مع اجتياحها البيت.

«انغلق»، هكذا أمرت مارشا الباب الذي صفق نفسه بصوت مدوٍّ هز أرجاء البيت القديم بجدرانه

الهشة – لكن لم يهز ذلك شعرة من رأس مارسيلوس؛ فمارسيلوس في زمانه كان له تعاملات عديدة مع سحرة أعظمين يتسمون بالعدوانية؛ ويعلم أن خير أسلوب للتعامل مع مثل هؤلاء السحرة هو الاحتفاظ بهدوء أعصابه والتصرف بأدب واحترام أيًا كان الأمر، ومهما كان شكل الاستفزاز. وأدرك مارسيلوس في هذه اللحظة، من منظر مارشا وهي تستشيط غضبًا في البهو، والأمطار تتساقط من عباءتها الأرجوانية، وعينيها الخضراوين اللتين ينطلق منهما شرر غاضب – أنه يواجه قدرًا لا بأس به من الاستفزاز.

وتلاشت فجأة كل هواجس مارسيلوس التي كانت تجعله يفقد ثقته بنفسه في قدرته على العيش في زمن غير زمنه، فهناك أمور في الحياة لا تختلف من زمن إلى آخر، ويأتي السحرة الأعظمون من بين هذه الأمور. فتحدث مارسيلوس بنبرة غير متكلفة وقال: «يا لها من لفتة لطيفة منك أن فكرت في المجيء إلى هنا. أتسمحين لي بأن أقدم لك مشروبًا منعشًا؟».

ردت مارشا بنبرة حادة: «لا، لا أسمح».

«أخ!» هكذا همس مارسيلوس وهو يقول في سره إن هذا الموقف سيكون من أصعب المواقف التي يمكن أن يواجهها.

ثبتت مارشا نظراتها على سبتيموس بطريقة لن تختلف كثيرًا عن تحديق الأفعى إلى جُرذ حقل تخطط لأن تتناوله في وجبة العشاء، وقالت بنبرة باردة كالثلج: «سبتيموس، ألن تقدم لي صديقك؟».

تمنى سبتيموس من أعماق قلبه لو كان في وسعه أن يكون في هذه اللحظة في *أي مكان* – أيًا كان هذا المكان – بعيدًا عن هنا، حتى إنه لن يمانع أن يجد نفسه في أعماق حفرة من حفر حيوانات الولڤرين في الغابة، وقال: «أمم..».

«ثم؟» وأخذت مارشا تدق على الأرض بقدمها اليمنى المدسوسة في حذاء مدبب مصنوع من جلد الأفعى الأرجوانية بات مزودًا الآن بأزرار خضراء جديدة.

أخذ سبتيموس نفسًا عميقًا، ثم قال: «أقدم لك يا مارشا مارسيلوس باي، وأقدم لك يا مارسيلوس مارشا أوڤرستراند؛ الساحرة العظمى».

قالت مارشا: «أشكرك يا سبتيموس. هذا هو ما كنت أتوقعه بالتحديد. إذن يا سيد باي، إن *تلميذي* لن يُزعجك أكثر من ذلك، كما أنه لن يعود إليك مرة أخرى، وأعتذر لك على الإزعاج الذي سببه لك طوال الشهور الماضية. هيا يا سبتيموس». وبهذه الكلمات، توجهت مارشا إلى الباب، لكن مارسيلوس وصل قبلها وسد عليها الطريق.

ثم قال لها: «إن تلميذي القديم الذي *أقدره تقديرًا عظيمًا* لم يُزعجني على الإطلاق. لقد كان كرمًا منك أن كنتِ تسمحين لي بأن أستعيره من حين إلى آخر. وأنا ممتن جدًا لكِ».

انفجرت مارشا وهي تستشيط غضبًا وقالت: «تستعيره! إن سبتيموس ليس كتابًا في مكتبة كي تستعيره. وأنا لم أنس أنك استعرته – كما تقول – لمدة ستة أشهر كاملة وحولت حياته إلى جحيم، كما أني لا أفهم لماذا يريد حتى الآن أن يقابلك، لكنني لن أسمح لك بأن تواصل

إفساده أكثر من ذلك بهذا الكلام الفارغ عن الكيمياء. وداعًا.. انفتح!». وكانت الكلمة الأخيرة موجهة إلى الباب الذي انفتح على الفور، وكاد يُلصق مارسيلوس في الحائط. وعلى مضض، تابعها سبتيموس وچينا وبيتل وخرجوا جميعًا إلى الطقس الممطر العاصف.

جازف سبتيموس ولوح إلى مارسيلوس يحييه بينما كانت مارشا تصيح في الباب: «انغلق!» فانغلق بشدة رجت معها نوافذ البيت القديم، ثم دوى هزيم رعد ممتد بعيدًا عبر السماء بينما كانت مارشا توبخ ثلاثتهم قائلة: «أنا مندهشة لما فعلته يا بيتل. دعنا نأمل، لمصلحتك، ألا يصل إلى الآنسة دچين شيء عن صداقتك مع أحد الكيميائيين – لاسيما هذا الكيميائي. وأنت يا چينا، كنت أظن أنك تعلمت الدرس الآن وابتعدت عن هذا الرجل. بحق السماء! إنه في نهاية المطاف *ابن* إيثلدريدا. هيا بنا يا سبتيموس، فهناك بعض الأمور التي أريد أن أتناقش فيها معك».

رمقت چينا وبيتل سبتيموس بنظرة تعاطف، بينما كانت مارشا تسحبه بعيدًا بخطوات سريعة على امتداد «حارة الثعبان» التي تؤدي إلى طريق السحرة. أما بيتل فكاد يسأل چينا ما إذا كانت تسمح له بأن يوصلها إلى بوابة القصر لكنه لم يجرؤ، وهو ما أزعجه. ثم لوحت له چينا تودعه على عجل، وانطلقت بعد ذلك تشق طريقها مسرعة على امتداد المنزلق الثعباني متوجهة إلى القصر. وانطلق بيتل يشق طريقه هو أيضًا بسرعة القواقع الأرضية طوال الطريق إلى دار المخطوطات – واضعًا في الاعتبار

احتمال أن يجد نفسه هناك في مواجهة مع جيلي دجين، وهو ما لا يتوق إليه حتمًا.

انعطفت مارشا وسبتيموس إلى طريق السحرة، ثم هطلت فجأة أمطار عاصفة هبت من جهة النهر، كما هبت رياح على امتداد الطريق. فتلحف كل منهما بعباءته بإحكام إلى أن باتا ملفوفيْن تمامًا وبدا منظرهما كأنهما زوجان من الشرانق الغاضبة، ولم ينطق أيٌّ منهما بكلمة واحدة.

وفي منتصف طريق السحرة، تحدثت أخيرًا الشرنقة الخضراء وقالت: «أعتقد أنك كنت فظة جدًا».

ردت مارشا وهي لا تكاد تصدق أذنيها: «*ماذا قلت*؟».

كرر سبتيموس كلامه وقال: «أعتقد أنك كنت فظة جدًا مع مارسيلوس!».

همهمت مارشا وهي لا تكاد تجد ما تقوله: «ليس من حق هذا الرجل أن يتوقع غير ذلك».

«لقد كان في غاية الأدب والاحترام *معكِ*».

«هه! الأدب والاحترام يُترجمان إلى أفعال. لا أظن أنه من الأدب والاحترام أن يقوم باختطاف تلميذي ويعرضه إلى أقصى درجات الخطر. ناهيك عما يُخطط له الآن – معرضًا تلميذي إلى كل ما يخطر على البال من أفكار غريبة وخطيرة من *وراء ظهري*».

رد سبتيموس معترضًا: «إنه لا يُخطط لأي شيء غريب أو خطير، كما أنه لا يعرف أني لم أخبرك بأمره».

فسألته مارشا: «ولماذا إذن لم تخبرني؟ جعلتني شهورًا أعتقد أنك تزور والدتك المسكينة. لا عجب أنها بدت حائرة إلى هذا الحد عندما سألتها ما إذا كانت تستمتع بزياراتك المتكررة لها حاليًا – وظننت حينها أن رد فعلها كان يشوبه شيء من الحدة. ولولا أني ذهبت إلى تيري تارسال صباح اليوم لما كنت سأكتشف الأمر أبدًا. وبالمناسبة يا سبتيموس، أود أن أعرف بالتحديد ما الذي حدث حتى يبدو مارسيلوس باي شابًا من جديد، ويقطن في بيت العزيز ويزل المسكين».

قال سبتيموس متجاهلًا السؤال الأول: «لقد كان بيته قبل أن يكون بيت ويزل، وأنا أيضًا كنت أقيم هناك عندما كنت في زمنه، لقد سبق أن *قلت لك* ذلك، كما أنك لم تكوني تتحدثين عن ويزل السنة الماضية وتصفينه بالعزيز المسكين، وقلت إنه محظوظ لأنه لم يُرسل إلى المعتقل مع خادمته».

ردت مارشا قائلة: «وهو بالفعل كان محظوظًا».

رد سبتيموس بسرعة؛ بُغية منع مارشا من ملاحقته بسؤالها عن مظهر مارسيلوس الشاب، وقال: «وعندما ترك ويزل البيت وذهب ليعيش في الميناء، اشترى مارسيلوس البيت مقابل عدد من الحصى الذهبية كان قد خبأها في وحل المنزلق الثعباني».

«*حقًا*؟ يبدو أن مارسيلوس رتب لكل شيء، أليس كذلك؟ لكن الفكرة يا سبتيموس أنه ليس من المفترض أن أنطلق في الأنحاء هنا وهناك بحثًا عن تلميذي بهذا الشكل لأكتشف للأسف حقيقة ما يفعله. ليس من المفترض *على الإطلاق*».

همهم سبتيموس قائلًا: «أعلم ذلك، أنا آسف. لقد... لقد أردت أن أخبرك، وكنت طوال الوقت أنوي ذلك، لكنني كنت أعلم أنك ستنزعجين، فبدا لي الوضع بهذا الشكل أسهل كثيرًا».

قالت مارشا: «أنا لا أنزعج إلا لأني أريد أن أحميك من أي أذى. فكيف يمكنني ذلك إذا كنت غير صريح معي؟».

رد سبتيموس بتجهم قائلًا: «إن مارسيلوس ليس مؤذيًا».

قالت مارشا: «*هذا* هو ما نختلف عليه أنا وأنت».

«لكن لو منحتِ نفسك فرصة وتحدثتِ معه قليلًا، أنا متأكد من أنكِ...».

«*أنا* أريد الآن ردًا على سؤالي».

تلكأ سبتيموس لوهلة في الرد عليها، ثم قال: «أي سؤال؟».

«كما قلت لك، أريد أن أعرف كيف تسنى لمارسيلوس باي أن يبدو شابًا هكذا. إن الرجل يزيد عمره على 500 عام. ولا تقل لي إنه كان يتجنب التعرض للشمس، كما أنه ليس هناك أي نوع من مرطبات البشرة يمكن أن تمنحه هذا المظهر».

رد سبتيموس بهدوء: «كان ذلك هو الجزء المطلوب مني أن أنفذه من الصفقة».

سألته مارشا بريبة: «أية صفقة؟».

«الصفقة التي اتفقنا عليها كي أعود إلى زمني. لقد وافقت على أن أصنع له الجرعة الصحيحة التي تمنح الشباب الدائم إذ كان هناك اقتران للكواكب...».

همهمت مارشا قائلة: «ما هذه الخزعبلات؟! أنت لا تعتقد في مثل هذه الأمور يا سبتيموس، أليس كذلك؟».

رد سبتيموس بهدوء قائلًا: «بل أصدقها. ومن ثم، صنعت له الجرعة في اليوم التالي من وصولي إلى زمني».

أحست مارشا بأن كلام سبتيموس جرح مشاعرها، وتذكرت مدى دهشتها وحماسها مع عودته إليها مرة أخرى، وكيف أنها بكل حب وحنان تركته ينام طوال اليوم التالي في غرفته؛ ظنًا منها أنه كان منهكًا - ليتضح لها الآن أنه كان طوال ذلك اليوم يصنع الجرعة في صمت تام لهذا الكيميائي المريع الذي اختطفه. إنها لا تصدق نفسها، ثم سألته: «ولماذا لم تخبرني؟».

«لأنك كنت ستقولين لي إن ما أفعله لا جدوى منه - كما تقولين الآن - وربما أيضًا كنت ستحاولين منعي. وكان من المستحيل أن أترك مارسيلوس في تلك الحالة البائسة التي كان عليها. لقد كانت حالته بشعة. وكان لا بد أن أساعده».

فسألته مارشا في حيرة: «فصنعت له جرعة الشباب الدائم هكذا بمنتهى البساطة؟».

«لم يكن الأمر صعبًا إلى هذا الحد، فالكواكب كانت مقترنة...»، وكظمت مارشا غيظها ورغبتها في الرد عليه، وواصل سبتيموس كلامه قائلًا: «لقد تابعت فحسب التعليمات التي تركها لي مارسيلوس في الصندوق الطبي، ثم وضعت الجرعة في الصندوق الذهبي الذي كان قد تركه لي ثم أسقطه في الخندق المائي عند المنزلق الثعباني؛ حتى يستطيع أن يأخذه بعد ذلك؛ فقد كان دائمًا يحب أن يتجول ليلًا في الخندق المائي».

«في *الخندق المائي*؟!».

«تحت سطح الماء في واقع الأمر، فقد اعتاد السير في قاع الخندق؛ إذ كان هذا يساعده على التخلص من أوجاعه وآلامه، لقد رأيته مرة واحدة وكان منظره بشعًا».

«كان يقوم بجولات *أسفل* سطح الخندق المائي؟!» وبدت مارشا في هذه اللحظة كأنها سمكة تم سحبها توًا من الخندق المائي. لقد بدأت تسيل على وجهها قطرات من المطر الخفيف المتساقط، وقد فغرت فاها كأنها تلهث بحثًا عن هواء تتنفسه.

واصل سبتيموس كلامه قائلًا: «ثم رفع مارسيلوس الصندوق، وعلمت أنه أخذ الصبغة لأنه وضع مكانها **الوصفة السحرية للطيران**. ولقد استخرجت الصندوق، رغم أن ذلك استغرق مني أسابيع؛ فالخندق المائي مليء بالقمامة».

وتذكرت مارشا اهتمام سبتيموس المفاجئ بالصيد. إن كل شيء يبدو الآن منطقيًا، بل ليس كل شيء. فسألته: «وماذا كان يفعل **بالوصفة السحرية للطيران**؟».

«لقد أخذها مني، لكنه وعدني فيما بعد بأنه سيعيدها إليَّ، رغم أنه لم يكن يعلم أنه أخذها على أية حال».

«*ماذا قلت*؟».

«إن الأمر معقد بعض الشيء.. مارشا..».

ردت مارشا بنبرة يشوبها شيء من الضعف: «نعم».

«هل يمكن أن تعيدي لي **الوصفة السحرية للطيران**؟ أرجوك، لن ألهو بها بعد ذلك أبدًا، أعدك بذلك».

وجاء رد مارشا كما توقعه سبتيموس؛ إذ قالت له: «لا، لا يمكن».

وسارت الساحرة والتلميذ ما تبقى من طريق السحرة في صمت، ولكن أثناء عبورهما فناء برج السحرة انزلق حذاء مارشا المصنوع من جلد الأفعى الأرجوانية بأزراره الخضراء الجديدة على شيء تنيني، وكان ذلك هو القشة التي قصمت ظهر البعير. قالت مارشا بنبرة حادة: «سبتيموس، إن هذا التنين سيرحل من هنا فورًا. لن أتركه يلوث الفناء دقيقة واحدة بعد الآن».

«لكن...».

«ليس هناك لكن. لقد سويت الأمر مع السيد بوت، وسيعتني به في الحقل الكبير المجاور للقصر».

«بيلي بوت؟ لكن...».

«لقد قلت لك ليس هناك لكن؛ فالسيد بوت لديه خبرة طويلة مع السحالي، وأنا واثقة من أنه سيقوم بالمهمة على أكمل وجه مع هذا التنين الذي لا يزيد في نهاية الأمر على كونه مجرد سحلية ضخمة لديها ميل لإثارة المتاعب. إن المطر بدأ يتساقط؛ يمكنك أن تأخذه إليه في الحال قبل أن يشتد هطوله».

رد سبتيموس معترضًا: «لكن لافظ اللهب نائم الآن، وأنت تعلمين عواقب إيقاظه».

كانت مارشا تعلم تمامًا عواقب ذلك – فقد انتهوا توًّا من إعادة صقل جميع نوافذ الطابق الأرضي لبرج السحرة – لكن هذا لا يعنيها الآن، وقالت: «لن أقبل أية أعذار يا سبتيموس. ستأخذه في الحال إلى السيد بوت، ثم تعود مباشرة كي تبدأ تطبيق أول عملية إسقاط لك. لقد حان الوقت لكي تنشط ذهنك بممارسة بعض الأعمال **السحرية** وتتخلص نهائيًا من موضوعات الكيمياء هذه. بل في واقع الأمر، إن **السحر** سيكون شغلك الشاغل من الآن فصاعدًا بما أنك لن تذهب إلى أي مكان خارج برج السحرة لمدة أسبوعين».

رد سبتيموس معترضًا: «أسبوعان!».

قالت مارشا: «وربما أربعة، فهذا يتوقف على تقييمي لك. سوف أنتظر عودتك في خلال ساعة». وبهذه الكلمات عبرت الفناء بخطوات واسعة،

وصعدت جريًا السلم الرخامي، ثم انفتح الباب الفضي على مصراعيه، واختفت مارشا خلاله.

أخيرًا ولمرة واحدة، استيقظ لافظ اللهب وسمح لسبتيموس بأن يصعد فوق ظهره ويجلس في مكانه المعتاد؛ في الجزء الغاطس خلف عنقه، كما أنه لم ينخر نخرة واحدة من نخيره المعتاد، ولم يضرب بذيله كما اعتاد أن يفعل مؤخرًا كلما صعد سبتيموس على ظهره. بل كاد أن يكون اليوم في غاية الانصياع – فيما عدا دفقة خاطفة من الهواء الساخن التي أطلقها نحو عباءة كاتشبول أثناء مروره من أمامه؛ مما أسفر عن انبعاث رائحة كريهة هي خليط من رائحة صوف محترق وخبز غير طازج.

وبما أن هذه كانت الفرصة الأخيرة المتاحة للسحرة لرؤية انطلاق التنين محلقًا من مكان عن قرب، قرر سبتيموس أن يقدم لهم عرضًا ممتعًا. وما إن أمر التنين قائلًا: «ارتفع لأعلى يا لافظ اللهب» حتى راح يضرب بجناحيه ببطء وبقوة، مرسلًا تيارًا هوائيًا قويًا للأسفل أخذ يضرب في أنحاء الفناء. وتمت عملية الإقلاع بغاية الإتقان، ثم ارتفع سبتيموس بلافظ اللهب مارًّا بكل طابق، ومقتربًا من البرج إلى أقصى حد يجرؤ أن يُقدِم عليه. فانفتحت النوافذ على الفور، واتكأت العباءات الزرقاء على أفاريز النوافذ بحماس، وانطلقت أصوات التصفيق في صورة موجات من البرج. ولدى وصول التنين إلى الطابق العشرين، انفتحت نافذة باندفاع وقوبل سبتيموس برد فعل أقل تقديرًا.

وصاحت مارشا من النافذة تقول له: «أمامك الآن خمسون دقيقة!»، ثم صفقت النافذة بعنف. تراجع لافظ اللهب الذي تملكه الدهش بعيدًا عن البرج لكن سبتيموس وجهه نحو البرج مرة أخرى، ثم لف به حول الهرم الذهبي لفة كاملة من باب التفاؤل، وانطلقا بعد ذلك يشقان طريقهما. كانت العاصفة قد انقشعت، وبدأت السماء تصفو أكثر فأكثر في اتجاه الميناء. وظهرت الشمس من بين السحب، وفي الأسفل بعيدًا تلألأت أسطح البيوت وسط الأمطار المتساقطة، وعكست أسطح برك المياه التي كونتها الأمطار في الشوارع ومضات من الضوء الساطع هنا وهناك. ولأن سبتيموس، بعد ستة أشهر من التحليق المنتظم بالتنين، وثلاثة أشهر من التدريب مع ألثر ميلا أصبح طيارًا واثقًا من نفسه، وقرر أن يستغل رحلته هذه، والتي تُعد الأخيرة في الوقت الراهن، أقصى استغلال فسلك الطريق الطويل للوصول إلى القصر.

وهكذا، حلق سبتيموس بلافظ اللهب فوق البوابة الشمالية، ثم لف وعاد إلى القلعة محلقًا فوق أحب منطقة إليه؛ منطقة العشوائيات. نظر سبتيموس إلى الأسفل، مفتونًا بمنظر كل هؤلاء الناس وهم يواصلون حياتهم، وترك لافظ اللهب يختار طريقه بحرية كاملة. ورأى في الطريق سكانًا يخرجون بعد انقشاع العاصفة، منهم من كانوا ينشرون غسيلهم، ومنهم من كانوا يرعون حدائقهم على أسطح بيوتهم، ومنهم من كانوا يشاهدون قوس قزح الذي لوّن السماء بألوانه توًا فوق أراضي الحقول. ومع صوت ضربات أجنحة التنين المحلق عاليًا في السماء كان كل

هؤلاء يتوقفون ويلوحون له، أو يُحدقون فقط في دهش. كان الأطفال، وقد خرجوا من الغرف المكتومة إلى الهواء الطلق، يلعبون في ضوء الشمس، وينطلقون جريًا على امتداد الممرات المكشوفة لمنطقة العشوائيات، وسمع سبتيموس أصواتهم وهم يصيحون بحماس: «تنين، تنين!» لكن مع كلمات مارشا التي لاتزال ترن في أذنيه، علم سبتيموس أنه لا يستطيع التلكؤ. وعلى مضض وجه لافظ اللهب في اتجاه القصر، ولم يمض وقت حتى بدأ يقترب من حقل الخضراوات الجديد الخاص ببيلي بوت.

رأى سبتيموس أنه هبط هبوطًا موفقًا، لكن بيلي بوت رأى غير ذلك، وصاح بينما كان لافظ اللهب يطوي جناحيه ويحط ذيله بصوت مكتوم على بعض شتلات الخس: «احترس! ابتعد عن الخس!».

انزلق سبتيموس من فوق عنق لافظ اللهب ونزل، ثم قال موضحًا ما هو واضح للعيان: «لقد أحضرت لافظ اللهب».

قال بيلي: «هذا واضح».

انتظر بيلي بينما كان سبتيموس يربت على عنق التنين، ويفرك بيده على قشره الناعم الذي كان لايزال باردًا بعد رحلة الطيران التي قام بها. وبعد دقيقة أو دقيقتين، قال بيلي: «حسنًا، ألن تقدمنا لبعضنا البعض؟».

رد سبتيموس وهو يترك التنين على مضض: «بلى».

«إن حيوانات التنين تتمسك بأصول الإتيكيت. إنها تحب أن يتم تقديمها بشكل لائق».

رد سبتيموس مندهشًا: «حقًا؟ حسنًا، هل تسمح لي يا لافظ اللهب بأن أقدم لك بيلي بوت؟ وهذا يا بيلي بوت أفضل تنين في العالم، أليس كذلك يا لافظ اللهب؟» وبرفق، أخذ سبتيموس يربت على أنف التنين ذي الملمس المخملي.

انحنى لافظ اللهب برأسه، ونخر نخرة مصحوبة بنافورة من الهواء، أحرقت أطراف بعض ثمار الجزر القريبة. اقترب بيلي بوت، وتلاقت عيناه بعيني لافظ اللهب ذواتي الحلقتين الحمراوين وقال: «إنه لشرف لي أن أتعرف إليك يا سيد لافظ اللهب».

أمال لافظ اللهب رأسه على جانب وهو يفكر في كلام بيلي بوت، ثم أحنى رأسه مرة أخرى ودس أنفه في المعطف الصوفي الخشن الذي يرتديه بيلي. فترنح بيلي إلى الخلف على إثر الدفعة وسقط في حوض مزروع بالمقدونس. لكنه هب واقفًا على قدميه على الفور، وبعد أن نظف يديه من الوحل في ردائه المصنوع من قماش قطني متين، بدأ يربت على عنق لافظ اللهب، ثم قال له: «رائع، يمكنني الآن أن أقول إننا أصبحنا أصدقاء».

18

اربًا اربًا



كانت چينا تشق طريقها عائدة إلى القصر. لقد تعرضت هي أيضًا إلى الأمطار العاصفة التي هبت على مارشا وسبتيموس في طريق السحرة، وحاصرتها. ولسعت الأمطار العنيفة عينيها، وطيرت الريح عباءتها وجعلتها تضرب في كاحليها وكأنها تحاول أن تُسقطها. أطرقت چينا برأسها للأمام وانطلقت جريًا، وهي تمسك أولر وعباءتها بيد، ويدها الأخرى تقبض بقوة على أوراق نكو وخريطة سنوري الثمينة. توجهت چينا مباشرة إلى بوابات القصر ومرت بها، ثم انطلقت جريًا

قاصدة المأوى النسبي الذي يوفره الممر الممتد على جانب سور القصر، وهو ممر سوف يقودها إلى حديقة المطابخ. ومع وصولها إلى الممر وانطلاقها مسرعة فيه، كانت تركض بسرعة فائقة حتى إنها ما كانت ستتمكن، ولو كانت تنظر أمامها، من التوقف في التوقيت المناسب – عندما انعطف بسرعة صاروخية شخص ذو شعر داكن وهيئة نحيلة عند الركن واندفع في اتجاهها وأدى الاصطدام إلى أن ميرين طير چينا إلى الوراء فارتطمت في الحائط بصوت مكتوم، ووجدت نفسها هي وأولر مقطوعي الأنفاس لوهلة. أما ميرين فسقط زاحفًا للخلف على الأرض، لكنه كالعنكبوت الطويلة والنحيلة، هب واقفًا مرة أخرى على قدميه. حدق ميرين بغضب إلى چينا ثم انطلق مسرعًا، مُصرًّا على ألا يتأخر عن موعده.

ومع شعور چينا فجأة بدوار في رأسها، سمحت لأولر بأن يخرج من أسفل عباءتها، ثم وقفت على قدميها ودلكت المنطقة أسفل رأسها التي بدأت تتورم بشكل ملحوظ. ولوهلة، شعرت چينا بالحيرة والارتباك.. ومع وقوع بصرها على الأرض، تساءلت في سرها ما هذه القصاصات الورقية البنية التي تطفو على سطح بركة المياه حول قدميها، ثم أدركت الأمر. فشعرت فجأة بالغثيان، وجثت على الفور على ركبتيها وهي تحدق إلى الأرض غير مصدقة نفسها؛ فأوراق نكو – والأهم من ذلك للأسف خريطة سنوري – سُحقت على إثر هذا الاصطدام وتمزقت إربًا إربًا إلى مئات القطع المبللة المتناثرة على الأرض، وذهبت أدراج الرياح آخر فرصة لهم للعثور على نكو.

كان بيتل يتجول بخطوات بطيئة عند الأسوار الأمامية للقصر، متجاهلًا الأمطار التي غمرت سترته الصوفية ووجدت طريقها إلى حذائه الطويل. وذهبت أدراج الرياح كل مشاعر الحماس والإثارة التي غمرته خلال هذه الساعة الأخيرة الغريبة التي قضاها مع سبتيموس وچينا مع هطول الأمطار الغزيرة، وبدأ يشعر بالقلق مما ينتظره في دار المخطوطات، ثم تساءل بيتل في سره ما إذا كانت مارشا قد مرت في طريقها بچيلي دچين لتنبئها بأنه كان في صحبة الكيميائي. وما كان يُقلق بيتل أيضًا هو كيف سيستعيد زحلوقته. فهذه الزحلوقة، خلافًا لزحلوقة برج السحرة، لا تستجيب للصفارات، وليس لها *أصلا* صفارة. والأسوأ من ذلك أنها لديها ميل للتجول، وبيتل لا يتذكر ما إذا كان قد ربطها أم لا؛ ففي غمرة حماسه بأنه سيقابل چينا نسي تمامًا عمله. فكيف سيفسر الأمر؟ شعر بيتل بالغضب الشديد من نفسه، وأقسم في سره بأنه لن يسمح *أبدًا* لتفكيره في چينا بعد ذلك بأن يعترض طريق عمله – وفي هذه اللحظة، لمح چينا لدى الممر الجانبي داخل القصر تجثو على ركبتيها وسط الوحل.

اقتحم صوت بيتل الذي علته نبرة قلق حالة اليأس التي كانت عليها چينا حين قال لها: «أميرة چينا، هل أنت بخير؟».

هزت چينا رأسها نافية دون أن ترفع بصرها وتنظر إليه.

فجثا بيتل على ركبتيه، رغم إحساسه بأنه ما كان ينبغي عليه أن يفعل ذلك؛ فهو تصرف لا يقدِم عليه سوى شخص ذي صلة وطيدة بها، ثم سألها: «كيف يمكنني مساعدتك؟».

نظرت إليه چينا، لم يكن بيتل واثقًا ما إذا كانت القطرات التي يراها تسيل على وجهها الآن مطرًا أم دموعًا، وخالجه إحساس بأنها تجمع بين الاثنين. أشارت چينا إلى قصاصات الورق الكثيرة التي تطفو على سطح بركة من مياه الأمطار، وقالت بنبرة غاضبة: «لقد أفسدت كل شيء. *أنا السبب*. لن تستطيع أن تعثر عليهما أبدًا».

وخالج بيتل شعور بشع يحدثه بماهية هذه الأوراق، وهمس قائلًا: «يا للهول! أليست هذه الأوراق هي...».

أومأت له چينا برأسها بكل أسى وحزن.

وبحرص شديد، رفع بيتل إحدى القصاصات التي كانت مغمورة بالماء وبسطها في راحة يده، ثم قال ببطء وهو يفكر بعمق: «ربما لو...».

«لو ماذا؟».

«ربما لو أننا جمعنا كل القصاصات قد نستطيع أن ننقذها».

قالت چينا بنبرة تسللت إليها لمحة خاطفة من الأمل: «حقًّا؟».

«أنا لا أود أن أعدكِ بذلك، لكن دار المخطوطات تحسن التصرف في مثل هذه الحالات. والأمر يستحق المحاولة»، ثم أخرج بيتل من جيبه لفافة صغيرة بسطها إلى قطعة مربعة ضخمة من الحرير الفاخر تستند باتزان إلى ركبته، ثم لعق إبهامه وسبابته وفرك بهما أطراف قطعة الحرير حتى تنفصل طبقتاها عن بعضهما؛ فأفصح المربع الحريري عن نفسه، ككيس له عدد من الجيوب. قال بيتل: «أنا دائمًا أحمل معي كيسًا من هذه الأكياس؛ فالمرء منا لا يدري متى ستقع يده فجأة على شيء قد يحتاج إلى وضعه في كيس».

ردت چينا التي لا يبدو أنها تحمل معها أبدًا أي شيء له نفع: «ياه!».

ومع تساقط الأمطار، ومواء بائس من قط برتقالي يغمره الماء مكث بيتل وچينا الدقائق العشر التالية يجمعان القصاصات الورقية الرقيقة التي يبلغ عمرها خمسمائة عام، ويبسطانها داخل كيس بيتل الحريري. وبعد أن اطمأنا إلى أنهما عثرا على كل القطع، لف بيتل الكيس الحريري بحرص وقال: «أتودين أيتها الأميرة چينا أن تحملي الكيس أسفل عباءتك؟ أعتقد أن ذلك سيجففه بسرعة».

ردت چينا وهي تبتسم: «چينا فحسب يا بيتل، إذا سمحت»، ثم دست اللفافة الحريرية داخل عباءتها.

«أتودين أن...؟» وأشار إلى أولر المرتجف الذي كان ينتظر بكل إخلاص بجانب بركة الماء التي كونتها الأمطار.

قالت چينا: «ياه! أجل من فضلك».

رفع بيتل القط المبلل من على الأرض ودسه داخل سترته، ثم انطلق هو وچينا إلى دار المخطوطات، وبينما كانا يسيران معًا في طريق السحرة، جال بخاطره أنه لولا خوفه من احتمال أن تعجز دار المخطوطات عن ترميم أوراق تكو وسنوري، لكان في هذه اللحظة في قمة سعادته.

ثم تبدلت فرحته عندما دفع الباب داخلًا إلى دار المخطوطات؛ إذ وجد نفسه وجهًا لوجه مع چيلي دچين وميرين ميريديث اللذين كانا على وشك الدخول إلى المكاتب الداخلية، ثم توقفا مع رنة العداد وصوت الباب وهو يُفتح، ونظرا للوراء.

قالت له الآنسة دچين مستفسرة: «أين كنتَ طوال ذلك الوقت؟».

«كنت... كنت أقوم بعملية تفتيش للفتحات. فمارشا... أقصد السيدة أوفرستراند قالت لي...».

«إن السيدة أوفرستراند ليست هي التي عينتك هنا يا سيد بيتل. فالذي عينك هنا هو أنا. ولقد اضطررت أثناء غيابك لأن أستعين بأحد الكتبة ليأخذ مكانك هنا؛ أي أن عدد الكتبة الذين كانوا يقومون بعمل اليوم انخفض إلى تسعة عشر، وهذا رقم غير كافٍ. لكن لحسن حظك أمامي مرشح لوظيفة الكاتب يبدو أنه يبشر بالخير».

شهق بيتل.

وابتسم ميرين ابتسامة ملؤها الغرور.

ثم واصلت چيلي دچين قائلة: «وماذا كنت تقصد يا بيتل عندما نزعت إعلاني وكورته ثم ألقيته في سلة المهملات؟ أنت تتجاوز حدودك، بل في واقع الأمر سوف أفكر في أن أستبدل هذا الشاب بك إذا واصلت التصرف على هذا النحو».

علا الشحوب وجه بيتل.

وهنا قالت چينا التي انبثقت من خلف رزمة عالية متأرجحة من الكتب بجانب الباب: «بعد إذنك يا آنسة دچين».

بدا الاندهاش على چيلي دچين؛ فمن فرط غضبها من بيتل لم تلحظ چينا. بل إن چيلي، في واقع الأمر، يصعب عليها بوجه عام التعامل مع شخصين في وقت واحد، وتجد في ذلك أمرًا مربكًا. انحنت رئيسة الكتبة انحناءة سريعة تحيي چينا، وقالت لها على نحو أخرق: «أنا في خدمتك أيتها الأميرة چينا، ماذا تأمرين؟».

استخدمت چينا أفضل نبرة صوت لها تبدو عليها علامات الإمارة؛ فهي وإن كانت هذه النبرة في رأيها تحمل تفخيمًا مبالغًا فيه، إلا أنها لاحظت أنها تجعلها عمومًا تحصل على ما تريده. وقالت: «إن السيد بيتل كان منشغلًا في مأمورية في غاية الأهمية للقصر. ولقد حضرنا بأنفسنا لنقدم لك الشكر شخصيًا لأنك سمحتِ لنا بأن نستفيد من خبرته. ونحن نعتذر لك إن كنا قد عطلناه لفترة طويلة. إن الخطأ يقع كليةً علينا».

بدا الارتباك على چيلي دچين وقالت: «لم يكن لديَّ علم بأن هناك أية مأموريات مطلوب تنفيذها هذا الصباح للقصر؛ هذا لم يكن مسجلًا في جدول أعمالنا اليومي».

ردت چينا قائلة: «إنها مأمورية تتطلب السرية التامة. ونحن واثقون من أنك تدركين ذلك».

لكن چيلي دچين ما كانت مدركة أي شيء من هذا القبيل، إلا أنها لم تود أن تكشف ذلك أمام موظفها المحتمل تعيينه، وقالت: «نعم نعم، السرية *التامة* بالطبع. يسرني أننا تمكنا من القيام بالمأمورية أيتها الأميرة چينا. والآن إذا سمحتِ، لقد تأخرنا ثلاث دقائق إلا ربعًا عن موعد الاختبار». وبهذه الكلمات، أشارت الآنسة چيلي لميرين بالتوجه نحو ظلام المكتب الداخلي، وانحنت انحناءة سريعة أخرى في اتجاه چينا تحييها، ثم توارت عن الأنظار.

أخرج بيتل القط من أسفل سترته ووضعه برفق على المكتب، ثم قال: «ياه! أنا لا أعرف كيف أشكرك أيتها الأميرة.. أقصد جينا، فعلًا لا أعرف كيف أشكرك».

ابتسمت جينا وقالت: «بل تعرف»، ثم ناولته الكيس الحريري الملفوف.

قال بيتل وهو ينظر إلى الكيس: «فعلًا. أعتقد ذلك».

19
السيد إيفانيا جريب



قال بيتل بصوت هامس أجش: «فوكسي؟».

وعلى الفور، كان تسعة عشر كاتبًا قد كفوا عن العمل ورفعوا أبصارهم نحو بيتل، سكت معهم صوت خربشة تسعة عشر قلمًا. ثم قال فوكسي: «نعم، ماذا تريد؟».

«هل أستطيع أن أطلب منك أن تتولى أمر المكتب الخارجي بالنيابة عني؟ فهناك أمر أريد القيام به الآن».

كان فوكسي مترددًا، وهمس قائلًا وهو يشير بإبهامه في اتجاه باب مغلق بإحكام لغرفة تتفرع من المكتب الداخلي: «وماذا عنها؟».

رد بيتل قائلًا، وهو يقول في سره إن هوس الآنسة دچين بالالتزام بالمواعيد له أيضًا بعض الفوائد: «إنها لن تخرج قبل اثنتين وعشرين دقيقة ونصف الدقيقة».

«أمتأكد أنت؟».

فأومأ له بيتل برأسه.

ومع ابتهاج فوكسي بأن وجد عذرًا لأن يتوقف عن مهمة نقل حسابات چيلي دچين الخاصة بالأسعار المتوقعة لسمك الحادوق على مدار السنوات الثلاث ونصف السنة التالية، نزل متسللًا من على مقعده الخشبي المرتفع وسار بصمت تام إلى المكتب الخارجي. وعندما رأى منظر چينا وهي مبللة وبشعر أشعث رفع حاجبيه ولم ينطق بكلمة.

أشار بيتل بإبهامه لأعلى يطمئن فوكسي، وقال لچينا: «خير لي أن أذهب الآن والفرصة لا تزال مواتية».

ولدهش بيتل، سألته چينا قائلة: «هل يمكن أن أذهب معك؟».

«ماذا قلت.. معي *أنا*؟».

«نعم. أود أن أرى ما الذي سيئول إليه مصير الخريطة»؛ إذ كرهت چينا أن تغرب عن عينيها ولو للحظة واحدة فرصتها الوحيدة للعثور على نكو.

«فعلًا. معك حق. تفضلي.. همم.. تفضلي من هنا».. وشاعرًا بنظرات فوكسي المحدقة بهما، أمسك بيتل بالباب الذي يفصل بين المكتب

الخارجي والمكتب الداخلي، ومرت چينا عبره. وهنالك، سكت على الفور صوت ثمانية عشر قلمًا، وأخذت ثمانية عشر زوجًا من العيون تحدق إلى بيتل والأميرة وهما يمران بين صفوف المكاتب متوجهيْن إلى سلم القبو.

كان القبو في واقع الأمر عبارة عن مجموعة من السراديب. فعلى مدار مئات السنين، ضمت دار المخطوطات إلى مساحتها سراديب الجيران، وكان ذلك يتم عادة دون أن يلحظه أحد، وأصبحت الدار الآن تمتلك شبكة ممتدة من الغرف تحت الأرضية التي تمنى بيتل أن يجد في إحداها السيد إيفانيا جريب؛ وهو الكاتب المختص بأعمال الصيانة والحفظ والحماية.

لم يكن إيفانيا جريب يعمل في القبو فحسب، بل كان يقيم فيه أيضًا. ولا يتذكر أيٌّ من الكتبة الحاليين أنه رأى يومًا إيفانيا في الطابق الأرضي، على الرغم من أن هناك شائعات تقول بأنه يخرج إلى المكاتب عندما يحل الظلام بعد أن ينصرف جميع الموظفين. حتى چيلي دچين لم تره سوى مرة واحدة وكان ذلك في اليوم الذي تم تعيينها فيه رئيسة كتبة النصوص الهرمسية – لكن بيتل يعرفه معرفة جيدة.

وفي المعتاد، تُترك الأعمال التي تحتاج إلى صيانة أو حفظ أو حماية في سلة لدى أعلى سلم القبو كل ليلة. وفي صباح اليوم التالي، يكون هذا العمل قد اختفى من السلة وحلت محله الأعمال السابقة التي كانت قد تركت على مدار الأسبوع السابق أو ما هو نحو ذلك، والتي كانت تحتاج إلى أعمال صيانة أو حفظ أو حماية. ولأن بيتل ما كان

يمكن، بأي حال، أن يجازف بترك قصاصات الورق الثمينة هذه في سلة معرضة لكل من هب ودب، فقد انطلق هو وچينا في مهمة البحث عن إيفانيا أثناء مباشرة فوكسي مهمة غير سهلة تتمثل في مراقبة چيلي دچين وبدون دخول زبائن، حيث قام بغلق الباب بالمفتاح تحسبًا لأية عواقب خطيرة تأتيه من الخارج.

كانت هناك طرقة مظلمة لدى أعتاب السلم تنتهي بباب مغطى بالجوخ الأخضر له مسامير نحاسية. دفع بيتل الباب دفعة قوية فانفتح بسهولة بفضل مفصلاته المزيتة. لم يبدُ القبو لچينا كما كانت تتوقعه؛ فقد كانت الأجواء فيه مرحة وجيدة التهوية، وتنبعث منها رائحة نضرة ونظيفة. وكانت جدرانه مطلية باللون الأبيض، كما كانت أرضه الحجرية نظيفة، تدلت من سقفه المقنطر مصابيح تشتعل بضوء أبيض ساطع يصدر عنها هسيس متواصل؛ هو الصوت الوحيد الذي كان في وسع بيتل وچينا أن يسمعاه.

كان السرداب الأول هو الذي يألفه بيتل؛ فهو المكان الذي ساعده فيه إيفانيا على إعادة تجميع ساعته، وهو المكان الذي يُطلق عليه إيفانيا سردابه الميكانيكي، وهو مليء بآلات ميكانيكية تتحرك بشكل تلقائي، منها ما حجمه متناهٍ في الصغر ومنها ما هو أكبر من ذلك بقليل. إحدى هذه الآلات – والتي كانت عبارة عن مجداف مثبت على متن مركب يتبعها طائر من طيور النورس يلف في مسار دائري – دارت فجأة مع مرور چينا بجوارها، وكان كل ما في وسعها أن تفعله في تلك اللحظة هو أن تكتم صرختها، أما إيفانيا فلم يكن له أثر هنا.

كان السرداب الثاني تحيط بجدرانه أرفف مكدسة بمجموعات ضخمة من الزجاجات الملونة، كل منها معنون بدقة. ووجدت على مائدة أسفل قبة زجاجية ضخمة تعويذة **تذكرني**، يتذكر بيتل أن سيدة محطمة القلب كانت قد جلبتها منذ بضعة أيام. هذا السرداب أيضًا لم يجدا فيه أثرًا لإيفانيا.

واصل بيتل وچينا توغلهما في السراديب المترابطة مع شعورهما كما لو كانا يتطفلان على المكان، بينما كان وقع خطواتهما الصغيرة يتردد بين الجدران المبنية بالطوب، واندهش بيتل وهو يرى تقدم سير العمل في مجموعة من الأعمال المتباينة. ففي أحد السراديب، كان هناك كتاب صغير جدًا، صفحاته مفككة ممتدة على المائدة، كل منها كانت مشبوكة بدبوس طويل ورفيع في ورقة سميكة. وعلى أحد جوانب الكتاب، كان هناك ملقاط، وبرطمان يحتوي على يرقات الخنافس الآكلة للورق. وفي سرداب آخر، كانت هناك أفعى صغيرة، ترتفع بجسمها لأعلى كأنها على وشك الهجوم. فقفز بيتل إلى الوراء من الذهول، ثم أدرك بعد أن شعر بالإحراج أن الأفعى لم تكن إلا محنطة، وعلم من الصندوق الذي كان يحتوي على مجموعة من أنياب الأفاعي أن أنيابها تم استبدالها.

لكن حتى الآن مازال إيفانيا جريب لا أثر له. ومع قلق بيتل بأن يمر الوقت دون نتيجة، أسرع من خطاه. وانطلق مع چينا في عجالة من سرداب إلى آخر، كان كل منها يضم مشروعًا يجري العمل فيه ومفروشًا بدقة على مائدة، وكان كل منها أيضًا يخلو من أي أثر لإيفانيا، إلى أن

وصلا أخيرًا إلى الفتحة المقنطرة التي تفتح على أكبر السراديب وآخرها، ومن أسفل عباءة چينا أخرج أولر فجأة مخالبه.

في بادئ الأمر، بدا هذا السرداب أيضًا خاليًا، إلا من مائدة مستديرة تتوسطه ويصدر عن السقف فوقها ضوء أبيض ساطع يهسهس مع اشتعاله. لكن لفت انتباههما مع وقوفهما أسفل المدخل المقنطر حركة طفيفة لهيئة تجلس منحنية على مقعد خشبي مرتفع أمام دكة في الركن البعيد وفي يدها عمل لم يتمكنا من رؤيته. كانت الهيئة ملتحفة بعباءة بيضاء، وتمتزج تمامًا مع الجدار الأبيض خلفها.

«إحم» هكذا تنحنح بيتل بهدوء، لكن لم تلتفت إليه الهيئة، ثم قال: «لو سمحت». ظلت الهيئة الجالسة لا ترد عليه، وواصلت عملها المضني الذي كانت منهمكة فيه. ومع ازدياد قلق بيتل بأن المدة التي تستغرقها الآنسة دچين في الاختبار سرعان ما ستنتهي، تقدم نحو الهيئة مسرعًا وربت على كتفها، فانتفضت من فرط الدهش والتفتت نحوهما.

قال بيتل: «إيفانيا، آسف لإزعاجك، لكن...».

قاطعته چينا وهي تصرخ قائلة: «يا للهول!»، وجاءت محاولة چينا – لكن بعد فوات الأوان– أن تكتم صرختها مطبقة بيدها في حركة سريعة على فمها وهي في حالة من الذهول؛ إذ كان نصف وجه الرجل وجه جُرذ، فأنفه كان أنف جُرذ، وشواربه كانت شوارب جُرذ، وكان له نابان قارضان طويلان أصفران، ثم فغر الجُرذ فاه من الذهول، فانكشف لسانه الوردي المدبب. وبحركة خاطفة، غطى الرجل النصف السفلي من وجهه بقطعة قماش حريرية كانت قد تراخت وانسدلت حول عنقه، ثم

عدلها بأن أخذ يلفها مرات حول وجهه إلى أن غطت البروز المدبب من أنفه الجرذاني.

قال بيتل وهو يشهق، مدركًا أنه كان ينبغي عليه أن يحذر چينا مسبقًا: «ياه! أنا في غاية الأسف يا إيفانيا. فأنا لم أقصد إزعاجك بهذا الشكل».

أومأ له إيفانيا برأسه وقال شيئًا بصوت أشبه بالصرير، ثم دفع نظارته السميكة إلى أعلى رأسه، فرأت چينا أسفل النظارة زوجًا من العيون الخضراء البراقة هي عيون بشرية بلا ريب، وشعرت بالارتياح. اعتذر بيتل مرة أخرى للرجل، لكن إيفانيا جريب رفع يده ملوحًا لبيتل بأن يكف عن الاعتذار، ثم قام من على مقعده الخشبي وهو يتلوى، ثم انحنى بكل إتقان لچينا. وأخيرًا، أخرج من جيبه صندوقًا فضيًا طويلًا.

كان الصندوق يحوي مئات البطاقات البيضاء، الصغيرة منها والمفهرسة. تصفحها إيفانيا سريعًا، ثم اختار منها بطاقة وضعها على المائدة. وهنا، أشار لچينا وبيتل كي يتقدما، ثم أشار إلى بطاقة متهالكة مدون عليها الكلمات التالية: **لا تخف، فأنا بشر.**

فسألته چينا: «ياه! لكن ما... ما الذي حدث لك؟».

استبدل بالبطاقة السابقة بطاقة أخرى كانت هي أيضًا متهالكة ومدونًا عليها الكلمات التالية: **أصبت بلعنة سحرية دائمة حولتني إلى جُرذ. ولقد نُصب لي الكمين وأنا في الرابعة عشرة من عمري عن طريق كتاب يوميات لعنات السحر الأسود وكتاب ألغاز السحر الأسود الخاص بالجرذان في مخزن الكتب الجامحة.**

ازدرد بيتل لعابه؛ إذ لم يسبق له من قبل أن سأل إيفانيا عما حدث له، لكنه لم يندهش من الإجابة؛ فهو كثيرًا ما كان يتساءل في سره ما الذي يمكن أن يحدث له لو أن كتابين من كتب **السحر الأسود** تحالفا معًا وتآمرا عليه.

ثم جاءت بطاقة أخرى تقول: **الساحرة الأم مورووينا هي التي أنقذتني. وأنا الآن ملعون جزئيًا بالتعويذة**، ثم أبرز يديه اللتين كانتا بشريتين - على الرغم من أن چينا خُيل إليها أن أظافره تبدو على نحو غريب طويلة ورفيعة، وقريبة الشبه إلى حد ما بمخالب الجرذان.

ثم أدرك بيتل أنه لم يقدم له چينا، فقال: «إيفانيا، أقدم لك الأميرة چينا».

انحنى إيفانيا جريب، وبعد لحظات أخذ يتصفح البطاقات بهلع، ووضع بطاقة بيضاء كانت خلافًا للبطاقات الأخرى غير متهالكة، ومدونًا عليها الكلمات التالية: **مرحبًا بصاحبة الجلالة**.

وتلتها بطاقة أخرى مستهلكة مدون عليها الكلمات التالية: **أنا تحت أمرك، ماذا تطلبين؟**

وردًا على البطاقة، وضع بيتل كيسه الحريري الملفوف على المائدة وبسطه.. وإذا به فجأة يتأوه مذعورًا من منظر كتلة الورق الغارقة في المياه التي باتت الآن مهروسة بين طيات الكيس الحريري. وأدرك أنه في ظل انشغاله بطمأنة چينا لم يفكر في الأضرار البالغة التي لم يُحدثها الاصطدام فحسب، بل المياه أيضًا؛ فقد سال الحبر، ومُحيت معظم العلامات المشار إليها بالقلم الرصاص، وبات العديد من القصاصات

الرقيقة ملتصقًا ببعضه البعض، وذكره هذا المنظر بخلطة معجون الورق التي كان يلعب بها في الحضانة.

أصدر إيفانيا *تأوهًا* ممتدًا يشير إلى القلق، وبدا لبيتل أنه أقرب إلى تأوه حَمل وليس جُرذًا، علته نبرة قلق. أنزل كاتب الصيانة نظارته السميكة على عينيه وأسندها إلى أنفه الطويل، ثم نظر إلى المنظر الكارثي الذي يقبع أمامه. وسرعان ما كانت هناك بطاقة أخرى قد ظهرت ووضعت على المائدة تقول: **ما هذا؟**

وهكذا، بدأ بيتل يشرح للرجل بقدر المستطاع أصل هذه الكتلة المهروسة، وكيف أنها وصلت إلى هذه الحالة المزرية. وبينما كان بيتل يتحدث زاد توتر چينا أكثر فأكثر إلى أن انفجرت قائلة: «أرجوك يا سيد جريب، قل إنك ستستطيع أن تعيد قصاصات الورق إلى حالتها السابقة، أرجوك».

فظهرت بطاقة أخرى على المائدة عليها الكلمات التالية: **هذا صعب جدًا.**

ونظرًا لما بدا من ذعر على وجه چينا، ظهرت بطاقة أخرى مدون عليها الكلمات التالية: **لكنه ليس مستحيلًا.**

فقالت له چينا ببساطة: «إن هذه القصاصات فرصتي الوحيدة لرؤية أخي مرة أخرى».

ارتفع حاجبا إيفانيا من الدهش، وأمال رأسه على جانب بطريقة ذكرت چينا بستانلي - على نحو بعث في نفسها قدرًا من الاطمئنان، ثم مد

إيفانيا يده وجلب قصاصة ورق وقلمًا، وكتب: **سأبذل قصارى جهدي، هذا وعد مني.**

قالت چينا: «أشكرك يا سيد جريب، *أشكرك جزيل الشكر*!».

وهمّ بيتل وچينا بالرحيل تاركيْن إيفانيا يقلب في الكتلة الغارقة في المياه بملقاط. وقبل أن يتركا هذا السرداب، التفت چينا لتلقي نظرة أخيرة على القصاصات الثمينة؛ وكادت تصرخ مرة ثانية؛ إذ رأت ذيلًا جرذانيًا وردي اللون وطويلًا وملتفًا ينبثق من أسفل عباءة إيفانيا البيضاء الضخمة.

انطلق بيتل بخطوات سريعة بين السراديب في طريقه للخروج، وقال بعد أن لحقت به چينا: «لا بد أن ننطلق جريًا؛ فالآنسة دچين سوف تخرج من الغرفة في أي لحظة من الآن» فأومأت له چينا برأسها، وانطلقا كأنهما في سباق فخرجا من السراديب، ثم صعدا السلم بسرعة صاروخية ووصلا في اللحظة التي خرجت فيها چيلي دچين من غرفة الاختبارات، يتبعها ميرين ميريديث الذي كانت تعلو وجهه ابتسامة عريضة.

وهنالك، تلاشت ابتسامة رئيسة الكتبة وهي ترى بيتل ينبثق من الجزء الخلفي للمكتب الداخلي، وسألته مستفسرة: «ما الذي تفعله بعيدًا عن مكان عملك مرة أخرى؟» وبعد أن لاحظت چينا، قالت بنبرة يشوبها التوتر: «مساء الخير أيتها الأميرة. يشرفنا أن نراكِ بشكل متكرر كثيرًا اليوم. *أي خدمة*؟».

ردت چينا بنبرة الأميرات: «أشكرك يا آنسة دچين. إن موظف التفتيش بيتل قام بالواجب وأكثر. ونحن نعتذر لك إذ أخرناه عن عمله.

ولقد أكد لي بيتل بالطبع أنه لم يترك مكانه بدون مراقبة، وسنرحل الآن حيث إن لدينا أعمالًا مهمة نباشرها».

«ياه!» هكذا ردت چيلي دچين، وقد خالجها إحساس ما بأنها أُخذت على حين غرة مرة ثانية، وإن كانت لا تعلم تمامًا السبب، ثم حيت الأميرة بنصف انحناءة قصيرة وراقبت أقرب كاتب إلى باب المكتب الداخلي وهو ينتفض من على مقعده الخشبي ثم يفتح الباب ويمسكه لچينا التي مرت منه بطريقة مارشا أوفرستراند. وهنالك التفت چيلي دچين نحو بيتل وقالت له: «والآن يا بيتل، حيث إن الأميرة ما عادت تحتاج إلى خدماتك الآن، يمكنك أن تقضي ما تبقى من فترة العصر في شرح تفاصيل العمل لمتدربنا الجديد».

قال بيتل وهو يشهق: «ماذا *قلت*؟».

ومن أسفل العباءة الحريرية الزرقاء الضخمة التي كان يرتديها رئيس بيتل الجديد، لوح ميرين ميريديث لبيتل بإشارة مستفزة. وكاد بيتل يرد عليه بإشارة أخرى، إلا أنه كبح جماح غضبه في الوقت المناسب.

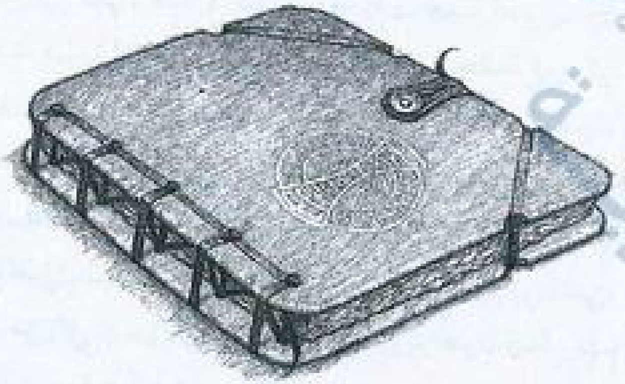
وقال بيتل الذي لم يكن في وسعه أن يكتم اعتراضه: «لكنه لم يمتحن بعد».

ردت چيلي دچين بنبرة باردة: «ليس من شأنك يا سيد بيتل أن تقترح عليّ المعايير التي أستخدمها عندما أعين الكتبة الذين يعملون تحت رئاستي. ربما أن مستواك كان يتطلب منك أن تخوض امتحانات دار المخطوطات، لكن دانيال أظهر أنه يتمتع بقدر كافٍ من العلم أقنعني بأن الامتحان لن يُضيف شيئًا لعملية الاختيار، والآن سأكون ممتنة لك

لو أنك نفذت ما طلبته منك وأخذت كاتبنا الجديد في جولة بمناسبة تعيينه.. أمامك ساعة وثلاث وثلاثون دقيقة.. وأقترح عليك أن تبدأ في الحال، وسأترك لك أن تقرر من أين تبدأ».

وهنالك، علت ابتسامة عريضة وجه بيتل؛ فهو يعلم تمامًا من أين سيبدأ؛ من مخزن الكتب الجامحة بالطبع.

20
إعادة التجميع



هبت *هذه الليلة زوبعة أخرى من جهة الميناء*، وأخذت تعوي عند النهر، فرجت ألواح الإردواز التي تسقف البيوت، وجعلت الجميع في حالة من التوتر الشديد.

وكان سبتيموس في ذلك الوقت معزولًا في برج السحرة تراقبه بعيني الصقر مارشا أوفرستراند، وكان قد بدأ التحضيرات المعقدة الخاصة بأول عملية **إسقاط** له، والتي تُعد حدثًا محوريًا ومنعطفًا مهمًا في حياة التلميذ الدراسية. وتقليديًا، تتضمن أول **عملية إسقاط** يقوم بها التلميذ أن يختار

عنصرًا صغيرًا من بيئته، ثم يحاول أن **يُسقط** صورة حقيقية لهذا الشيء في حدود المساحات التي يعيش فيها مجتمع السحرة في البرج، على أمل أن يظهر **الإسقاط** بشكل يصدق من يراه أنه الشيء الأصلي. وكل عمليات **الإسقاط** صور معكوسة في المرآة للأشياء التي يتم إسقاطها، لكن مع حرص التلميذ على ألا يختار شيئًا مدونًا عليه حروف، فإن مسألة الانعكاس في المرآة هذه لا تُعد عمومًا ذات أهمية قصوى. وقد يتخذ ذلك أحيانًا صورة لـ«مكنسة» بريشة مستندة إلى حائط في ركن مظلم، أو «حلية» صغيرة تزين إفريز نافذة مرتفعة لا يمكن الوصول إليها، أو «عباءة» جديدة معلقة في دولاب. وطوال الفترة التي تُستغرق في **عملية الإسقاط** الأولى تعم برج السحرة أجواء من الحماس والإثارة؛ حيث يواصل السحرة المتظاهرون بالانشغال تمامًا في شيء آخر، التفتيش عن كل صغيرة وكبيرة تثير الريبة، ويتراهنون فيما بينهم حول الشيء الذي سيقوم التلميذ **بإسقاطه**.

ولقد قامت مارشا - مع وجود سبتيموس حبيسًا بعيدًا في غرفة **الإسقاط** - بإزالة كل آثار لافظ اللهب من الفناء، أو بالأحرى جعلت كاتشبول يقوم بهذه المهمة بالنيابة عنها. إلا أن كاتشبول بحلول مساء ذلك اليوم كان قد حبس نفسه في دولاب التعاويذ القديمة ورفض الخروج منه. وبانزعاج شديد، أرسلت مارشا رسالة إلى هيلدا جارد؛ الساحرة الثانوية التي كانت في نوبة حراسة لباب مدخل القصر، كي تحضر على الفور إلى برج السحرة.

وصلت هيلدا جارد لاهثة في حالة مزرية، بعد أن قطعت طريق السحرة بأكمله جريًا، وهي في حالة انتشاء أن تم استدعاؤها أخيرًا إلى برج السحرة، بعد طول انتظار. فإذا بها تُفاجأ، خلافًا لتوقعاتها بأن يُعرض عليها وظيفة كساحرة عادية، أن يتم إعطاؤها مكنسة كبيرة، ودلوًا أكبر. وبإصرار كعادتها، شمرت عن ساعديها وبدأت تؤدي العمل المطلوب منها، وهي تقول في سرها بنبرة حازمة إن أي عمل في برج السحرة يقربها خطوة من أحلامها. وفي صباح اليوم التالي، كانت هيلدا جارد أول زبائن تيري تارسال؛ حيث اشترت زوجًا من الأحذية الطويلة الواقية من الماء.

ومع رحيل هيلدا جارد ذات عيني الصقر بعيدًا عن القصر بدأ الغرور يتملك ميرين، فكفَّ عن التسلل في الطرقات، وأخذ يسير متبخترًا، وكاد مرتين يصطدم بجينا وهي تنعطف عند أحد الأركان. ولقد أغرته المرة الثانية أن يمر بجوارها ليرى ما إذا كانت ستلاحظه، لكنه فكر في اللحظة الأخيرة أنه خير له ألا يفعل، فاختبأ خلف ستار.

ربما أن جينا بالفعل ما كانت ستلاحظ ميرين حتى لو كان قد مر بجوارها، بما أن ذهنها كان مستغرقًا في التفكير في نكو والخريطة. ولأنها كانت لا تحتمل البعد عن دار المخطوطات، ظلت تتردد على الدار لتقابل بيتل مرتين على الأقل يوميًا، وكان بيتل يتعامل مع هذا الموقف بمشاعر يشوبها الارتباك؛ فهو يحب رؤية جينا، لكن كلما كان الباب ينفتح برنته *الطويلة*، أو بالأحرى *الطويلة جدًا* على نحو خاص أقنع بيتل بأن الباب لا يرن هكذا إلا عندما تدفعه جينا، كان يتأهب استعدادًا لأن

يخبر چينا بأنه ليس هناك جديد حتى الآن من إيفانيا. لكن في اليوم الثالث الذي مرت فيه چينا ببيتل أخبرها بالأنباء - ولم تكن سارة.

كان الوقت عصرًا، لكن السحب الكثيفة جعلت الوقت يبدو متأخرًا.. وكان بيتل قد أشعل لتوه شمعة ووضعها على مكتبه، وما لبث أن استعد للقيام بالجولة الأخيرة لهذا اليوم - وهي جولة **الغلق**- حتى سمع رنة الباب *الطويلة جدًا*، لينفتح فجأة ويجد چينا تدلف مسرعة. أغلقت چينا الباب خلفها، ورفعت شعرها المشعث من الرياح في الخارج بعيدًا عن عينيها، ثم أحكمت وضع الطوق الذهبي على رأسها، وبنظرة يملؤها القلق سألته: «أهناك أية أخبار؟».

كان بيتل يخشى هذه اللحظة، وقال لها: «في الحقيقة نعم.. لكنها ليست أخبارًا سارة. لقد وجدت هذه الرسالة صباح اليوم على مكتبي»، ثم ناولها الورقة البيضاء الكبيرة التي كان مدونًا عليها الكلمات التالية:

فيما يخص قصاصات الورق القديمة، هناك قصاصة رئيسية مفقودة. برجاء الرجوع إلينا.

قال بيتل وهو يتنهد: «أعتقد أن هذا ليس مستغربًا».

قالت چينا معترضة: «لكننا بحثنا في كل مكان. كما أني بحثت مرة ثانية بعد أن عدت. وبحثت في اليوم التالي من باب التأكد. لا يمكن أن...»، وبدأ صوتها يخفت تدريجيًا، لكن بعد أن فكرت مليًا أدركت أن الأمر كان سيحتاج إلى معجزة حتى لا تكون القصاصات ناقصة.

قال بيتل: «لقد ذهبت لأسأل سبتيموس ماذا نفعل، لكنهم رفضوا أن أقابله، حتى إنهم رفضوا أن أترك له رسالة. وقالوا إنه غير مسموح بإزعاجه..

لقد وصل الأمر بمارشا إلى أنها حبسته في أعلى البرج. وأنا واثق من أنه كان سيستطيع أن يعثر على القصاصة الناقصة. فلا بد أن هناك تعويذة أو ما شابه ذلك يمكن استخدامها في مثل هذه الحالات».

قالت چينا: «يمكننا أن نسأل إيفانيا. فربما يعرف تعويذة لذلك. وربما نستطيع أن نستعين بأحد السحرة العاديين ليقوم باستخدام التعويذة».

بدا ذلك لبيتل طريقًا طويلًا، لكنه لا يرى سبيلًا آخر يمكن أن يقترحه على چينا، فرد عليها قائلًا: «حسنًا».

كانت دار المخطوطات خالية من الموظفين، وكان كل الكتبة قد عادوا إلى بيوتهم بعد أن سُمح لهم بالانصراف مبكرًا قبل أن تشتد الرياح مع هبوط الليل. حتى چيلي دچين انحبست في الطابق العلوي في جناح النصوص الهرمسية. وبينما كانت الرياح ترج الباب الذي يفصل المكتب الخارجي عن المكاتب الداخلية، تسللت چينا وبيتل من بين صفوف المكاتب التي كانت ترتفع عاليًا حولهما كأنها هياكل عظمية لحراس، وجعلت چينا تقشعر من الخوف. وعند أعلى سلم القبو، كانت هناك سلة تحتوي على أعمال اليوم - وهي عدد من التعاويذ تحتاج **لإعادة إعدادها**، ومعاهدة قديمة تحتاج إلى إعادة تجليدها، فأخذ بيتل السلة معه مع توجههما إلى القبو.

دفع بيتل وچينا الباب المكسو بالجوخ الأخضر، وانطلقا بين السراديب التي يكاد سطوع الضوء فيها يعمي الأبصار مقارنة بالضوء الخافت في المكتب الداخلي لدار المخطوطات. وكالمرة السابقة، كانت السراديب خالية لا أثر لإيفانيا فيها، لكنهما هذه المرة سارا بخطوات

سريعة متوجهيْن للسرداب الأخير، وهناك وجدا إيفانيا جريب ينظر عبر عدسة مكبرة ضخمة ويجلس منحنيًا إلى المائدة التي كانت مفترشة بمئات القصاصات الورقية المتناهية في الصغر كأنها لعبة عصية من ألعاب تجميع الصور.

قال بيتل وهو يضع السلة على الأرض: «لقد جلبت لك سلتك».

التف إيفانيا ليحييهما. وكان كل من بيتل وچينا قد استعدا لرؤية وجه الجُرذ، لكن هذه المرة كان الرجل يغطي وجهه بوشاحه، وكل ما كان يُرى منه هو عيناه الخضراوان اللتان بدتا ضخمتين أسفل نظارته السميكة. أصدر كاتب الصيانة صريرًا خفيضًا وأشار إليهما بالتقدم، ثم ناولهما قصاصة ورق مكتوبًا عليها: **لقد نجحت في تجميع كل الأجزاء فيما عدا جزءًا واحدًا ناقصًا**، ثم أشار إيفانيا بيده نحو رزمة من الأوراق مجمعة بدقة على الرف خلفه.

قال بيتل محاولًا أن يبعث البهجة في قلب چينا: «انظري إليها، لقد تم تجميعها، ولا ينقصها سوى قطعة واحدة.. وهذا إنجاز لا بأس به، أليس كذلك؟ وأراهن أن القطعة الناقصة كانت لأحد هذه المراكب المرسومة، فالورقة كانت مليئة بها. والأرجح أن هذه القطعة ليست مهمة، ولن تعدو عن كونها مجرد «شخبطة».

كانت چينا على وشك أن تقول إن كل ما هو موجود في الورقة من «شخبطة» مهم، حين وضع إيفانيا ورقة على المائدة يقول لهما فيها: **لقد دعمت كل الأوراق، ومن أجل حمايتها في المستقبل كنت أود أن أغلفها. فهل تسمحين لي بذلك؟**

فأومأت له چينا برأسها.

أشرقت عينا إيفانيا بابتسامة، بما أنه يُحب عملية التغليف. ومن ثم، أخرج من درج في المائدة قطعتين سميكتين من الورق المقوى، مغلفتين بقماش دار المخطوطات الجديد الذي بات الآن باللون الأرجواني المائل إلى الاحمرار بعد التغييرات التي قامت بها چيلي دچين. وبعد أن أخرج مثقاب ورق، ثقب خمسة ثقوب على جانب كل ورقة، ثم أخذ رزمة الأوراق التي **أعاد تجميعها**، ووضعها بين الورقتين، ثم أخذ شريطًا أزرق طويلًا. وببراعة، مرره في ثقوب الورقتين السميكتين بحيث باتت أوراق نكو مجمعة الآن بشكل آمن بين قطعتي الورق المقوى الأحمر، ثم ربط الأركان بمزيد من الشرائط.. وكلمسة تجميلية أخيرة، صنع خاتمًا طويلًا وختم به القماش، وعندما رفعه كانت الكلمات التالية مطبوعة بالذهب على الغلاف الأحمر: **تمت عملية الصيانة والفحص على يد إيفانيا جريب، وعلى ضمانته.**

وبكل فخر، ناول إيفانيا چينا الأوراق التي باتت الآن مغلفة بشكل جميل، وقد أخذ وشاحه الأبيض الذي يغطي به وجهه يتجعد كأن شواربه الجرذانية تتذبذب على إثر ابتسامة علت وجهه، وقالت له چينا وهي تتنفس الصُعداء: «ياه! أشكرك». فأخيرًا، استعادت مرة أخرى أوراق نكو وباتت بين يديها، وخالجها إحساس عميق بالارتياح؛ فكل شيء سيكون على ما يُرام، ستذهب لتقابل سب، وسيتفحصان معًا الخريطة ويتوصلان إلى طريقة للوصول إلى بيت حيوانات الفوريكس، ثم سينطلقان بعد ذلك ليعودا بنكو. وبينما كانت أفكارها تحلق إلى آفاق

بعيدة، وجدت نفسها تتساءل في سرها ماذا لو استطاعت أن تقنع چيلي دچين بأن تسمح لبيتل بعطلة؛ فسوف يُسعدها كثيرًا أن يكون بيتل في صحبتهما. وفي اللحظة التي كانت تخطط فيها چينا الجمل والعبارات التي يمكن أن تُقنع بها الآنسة دچين بعد رفضها منح بيتل عطلة، اقتحم صوت بيتل أفكارها، وسألها بقلق: «هل تبينتِ ما القطعة المفقودة؟».

عادت چينا إلى أرض الواقع بصدمة وقالت: «القطعة المفقودة؟».

«نعم، القطعة التي تمنع من استكمال عملية **إعادة التجميع**. ما هذه الورقة؟».

«ياه!» وفتحت چينا كتاب إيفانيا المغلف بشكل جميل، وبدأت تتصفح أوراقه التي باتت الآن نظيفة ومتينة، والكتابة غير ملطخة، وتخلو من أية آثار لوصلات؛ لقد قام كاتب الصيانة بعمل رائع.

كانت الأوراق تشمل تفاصيل عديدة لم تلحظها چينا من قبل؛ إذ كانت هناك قوائم لمؤن غذائية، ولملابس، واستمارة غير مرتبة لتصريح سفر لشخصين، والعديد من القوائم لأعمال مطلوب تنفيذها، وأخرى لأعمال مطلوب تنفيذها بشكل عاجل، كما شملت الأوراق الأشياء التي تتذكر چينا أنها رأتها من قبل في علّية مارسيلوس - وهي رسوم المراكب، والقائمة الشتوية المطلوب شراؤها من السوق، والألعاب التي لعبها نكو وسنوري معًا. كان كل ذلك موجودًا، لا ينقصه سوى شيء واحد؛ هو الخريطة.

نظرت چينا بيأس إلى القطع المبعثرة التي تفترش المائدة، فالتمعت عيناها بالدموع مع استيعابها واقع أن مفتاح العثور على نكو يفترش المائدة

ممزقًا في صورة آلاف القصاصات الصغيرة، وبجانبه كلمة من إيفانيا مكتوبة بخط دقيق تقول: **ناقص.**

وما إن رأى إيفانيا التعبير الذي علا وجه چينا حتى كتب على الفور بخط سريع: **بعض الأجزاء فقط هي المفقودة. ربما يمكن القيام بعملية بحث للعثور على الجزء المفقود. اسألا س. ع.**

سألته چينا: «من هو س.ع؟».

أمسك إيفانيا بقلمه، لكن بيتل قال: «إنه اختصار للساحرة العظمى، ونحن نستخدمه هنا، كاستخدامنا مثلًا ر.ن. ه.، وهو اختصار لرئيسة النصوص الهرمسية، ومثل م.ع.م.ا.م.ت - هذا أنا - لكن لا أحد يستخدمه لأن اسمي أسهل».

«م.ع.م.ا.م.ت؟».

«موظف عام بمكتب الاستقبال وموظف التفتيش».

قالت چينا: «حسنًا، هل لك إذن يا م.ع.م.ا.م.ت أن تأتي معي لنبحث عن مارشا إذا سمحت؟ فربما أنها قد تنصت باهتمام أكبر لو كنا صوتين»، ثم التفت إلى إيفانيا وقالت له: «أشكرك يا سيد جريب، أشكرك لأنك أعدت لي أغراض نكو»، ثم احتضنت الكتاب المغلف بشكل جميل بين ذراعيها.

أومأ لها إيفانيا برأسه، ثم كتب بطاقة بشكل دقيق ومنظم، وقدمها لچينا بابتهاج: **لقد استمتعت بزيارتك كثيرًا أيتها الأميرة. وسوف يشرفني أن ألقاك مرة ثانية، وأتمنى في المستقبل أن أكون دائمًا في خدمتك.**

ابتسمت جينا وردت بنبرة الواثقة من نفسها أكثر بكثير مما كانت تشعر به حقيقة: «أشكرك يا سيد جريب. سأعود في القريب العاجل مع س.ع، وحينها سيمكنك أن تقوم بعملية **إعادة التجميع النهائية**».

21

تيرتيوس فيوم



تركت جينا وبيتل مملكة *إيغانيا بضوئها الساطع*، وبدأ يسيران متعثرين في ظلام قبو دار المخطوطات.

قال بيتل: «لا بد أن أتأكد من أن جميع الأقبية في أمان ولا بد أيضًا أن أقوم بعملية **إعادة الغلق**، لكن هذا لن يدوم طويلًا».

وكانت چينا متشوقة لأن تنطلق بسرعة إلى مارشا وتعود بها، لكنها أدركت أن بيتل لديه عمل لا بد أن ينهيه أولًا، فعرضت عليه مساعدتها قائلة: «يمكنني أن آتي وأساعدك في تفقد الأقبية إذ لم يكن لديك مانع».

بيتل بالطبع لم يكن لديه أي مانع - بل إنه يتمنى ذلك في واقع الأمر. وقال وهو يحاول جاهدًا ألا يُظهر سعادته الغامرة، لكنه تمادى في المحاولة: «حسنًا، لا بأس».

«لكني لا أريد أن أعطلك».

«فعلًا! أقصد أنك فعلًا لن تعطليني».

وتابعت چينا خطى بيتل على امتداد ممر تنبعث منه رائحة عفنة ويلتف نزولًا في مساره إلى حيث الأقبية التي شُقت في الأعماق أسفل السراديب في الكتلة الصخرية للقلعة. ومع وصولهما إلى المنعطف الأخير للممر، سمعا صوتين - أحدهما كان الصوت الرنان المنخفض والأجوف الذي يعرفه بيتل، وهو صوت تيرتيوس فيوم. لكن ما أدهش بيتل هو الصوت الآخر. فوضع أصبعه على شفتيه يشير إلى چينا بالصمت وبدأ يتحرك بلا صوت، فرمقته چينا بنظرة متسائلة.

رد بيتل وهو يحرك شفتيه بدون صوت: «مشكلة»، ثم تسلل إلى مكان غاطس عند أعلى السلم شديد الانحدار الذي يؤدي إلى الأقبية وانضمت چينا إليه. لم يتمكن بيتل في بادئ الأمر لشدة خفقان قلبه من أن يسمع الحديث الدائر بيت صاحبي الصوتين، فأخذ بضعة أنفاس عميقة وهدأ من روعه.

قالت چينا وهي تحرك شفتيها بلا صوت: «من هما؟».

جازف بيتل وألقى نظرة خاطفة. لقد كان هذا الشخص الآخر كما توقع بالضبط. ورأى لدى أعتاب السلم الموظف الجديد الذي عينته چيلي دچين جالسًا على الدرجة السفلية، شبه مختبئ وسط الظلال المتراقصة التي يلقيها زوج شموع الأسل المعلقة خارج الأقبية، ويُحدق بانبهار إلى شبح الأقبية. انجرف صوت الحديث عبر السلم لأعلى، وعلت الأصوات نبرة جوفاء مع وصولها إلى الممر الخالي المبني بالطوب.

كان كلام تيرتيوس فيوم يصل صداه إلى المتنصتين المختبئين في الجزء الغاطس بالطابق الأعلى: «*بالطبع* إنه صعب أيها الفتى». وقد بدا على الشبح سرعة الغضب، ثم واصل قائلًا: «وهذا هو السبب في أن هذا الجزء جاء في آخر الكتاب؛ إذ إنه مطلوب منك أن تكون قد نفذت الأجزاء السابقة».

«لكنني لم أود أن أنفذ هذه الأجزاء، لقد أردت فقط أن أنفذ الجزء الأخير».

رد تيرتيوس قائلًا: «إن الممارسة تقود إلى العمل الدقيق، والغبي من يختصر الطريق».

«لكنني التزمت بكل الإرشادات المذكورة - ولقد نجح ذلك. حتى إنني تمكنت من الحصول على شيء، بل في واقع الأمر لقد حصلت على (شلة) من الأشياء».

«شلة! ما معنى شلة؟».

«أي العديد منها.. الكثير».

«الكثير منها؟ كم عددها؟».

«لا أعلم، نحو عشرين، أو ربما أكثر».

«عشرون شيئًا؟ إنك أكثر حمقًا مما كنت أظن. لسوف تظل تلاحقك وتلاحقك طوال حياتك».

«لا، إنها لن تفعل ذلك. لقد حبستها، ولن تستطيع أن تصل إليّ الآن».

«حبستها فعلًا؟ ولكم ستكون هذه الأشياء غاضبة ما إن تقع عيونها عليك مرة ثانية».

«هل دائمًا تتحدث بكلام ذي قافية؟».

«نعم، والآن ماذا تريد أيها الفتى؟ لقد أُرهقت من هذه الثرثرة».

«أُريد أن أسألك عن موضوع **تسويد المصير** هذا».

«ماذا؟».

«أقصد لعنة **السحر الأسود**. لقد جربت ذلك على شخص لكن لا يبدو أني نجحت. فما من شيء حدث له، وأنا لا يساورني أدنى شك في أني كنت سأعلم لو كنت نجحت».

بدا تيرتيوس فيوم مستمتعًا وساخرًا بعض الشيء، وقال: «إذن، لقد حاولت أن **تسود** مصير شخص، أليس كذلك؟ ولماذا يريد ثعبان شاب مثلك أن ينطلق في رحلة من **السحر الأسود** كهذه، لماذا؟ عندما كنت في مثل سنك كنت سأجرب حظي أولًا بشفرة حادة. إنها أكثر إمتاعًا». وأخذ الشبح يقهقه وكأنه يعيش من جديد ذكريات عزيزة عليه.

بدا الاندهاش على الكاتب الجديد، وهمهم قائلًا: «ياه! في الحقيقة أنا لا أحب السكاكين والخناجر».

«إذن، أنت تفضل أن ينفذ لك الآخرون ما تريد، أليس كذلك؟ توظيف بعض الحيل، بعض الخدع، أليس كذلك؟ لقد رأيت أمثالك من قبل؛ فأنت تفضل أن تكون السيد الذي يلعب بالدمى المتحركة بالحبال. لكن احذر! فإذا لعبت **بالسحر الأسود** فقد تجد في النهاية أنك أنت الذي تحول إلى دمية».

«ياه!» وبدا التردد على صوت الفتى، ولو كان بيتل قد تجرأ في تلك اللحظة وألقى نظرة أخرى على الفتى لرآه وهو يحرك، بتوتر، الخاتم ذا الوجهين في أصبعه. قال الفتى: «لكني كنت أظن أن... في الحقيقة، حيث إنك أنت الذي كتبت هذا الكتاب، وأنا أعتقد أنه بالفعل كتاب *رائع، رائع جدًا*، بل إنه في واقع الأمر أفضل ما قرأت في حياتي...».

قال تيرتيوس فيوم بنبرة حادة: «لا تهدر وقتك في محاولة تملقي أيها الفتى. أنا لا يعنيني على الإطلاق إن كان الكتاب قد راقك أم لا. أخبرني فحسب بما تريده مني، هيا أرني ما في جعبتك».

«أُريدك أن تساعدني في **عملية التسويد** حتى أنجح».

«وما الذي يجعلني أساعدك أيها الفتى؟ ما النفع الذي سيعود عليّ من ذلك؟».

«أنا أيضًا أستطيع أن أساعدك، يمكننا أن نعمل معًا».

نعر تيرتيوس فيوم بصوت عالٍ وقال: «أنا... أنا أعمل معك *أنت*؟ أنا أول كتبة النصوص الهرمسية، أنا أعمل مع فتى معتوه مثلك.. قل لي سببًا واحدًا بحق السماء يجعلني أقدِم على ذلك؟».

تلا ذلك صمت، ثم سمعت چينا وبيتل الكلمات التالية بكل وضوح: «لأني حي وأنت ميت».

نظر بيتل إلى چينا ورفع حاجبيه من فرط دهشه؛ إن دانيال الصياد هذا في غاية الجراءة.

رد تيرتيوس بصوت متذمر قائلًا: «احترس أيها الفتى! فهذا الوضع يمكن علاجه بسهولة».

قال الفتى بصوت رفيع بدا عليه الخوف: «ياه! أنا لم أقصد أن...».

تجاهل تيرتيوس فيوم كلامه وواصل قائلًا: «ومع ذلك، أنا لا أنكر أني أفتقد بعض نفوذ الأحياء.. وعلى الرغم من أني لا أثق أن شخصًا تافهًا وملتويًا مثلك سوف ينفذ أوامري، فأني أثق في صاحبك *المشير للاهتمام* الموجود معك».

نظر بيتل لچينا مرة ثانية ورفع حاجبيه وكأنه يسألها ماذا يقصد بصاحبه *المشير للاهتمام*.. ثم غامر بإلقاء نظرة سريعة، لكنه لم ير سوى الشبح والفتى ذي الشعر الداكن يجلسان في الظلال.. ولم يكن هناك أي شخص آخر.

بدا الارتياح على الفتى وقال: «يمكنك أن تأخذه. إنه يفزعني، وهو لا يكف عن ملاحقتي أينما أذهب».

«عظيم، **حول** إذن ولاءه إليَّ، وسوف أقوم أنا بعملية **التسويد**».

«وحينها، سوف تساعدني؟».

رد تيرتيوس فيوم قائلًا: «أنا رجل أفي بوعودي، أيًا كان ما يُقال عني. إن الشخص الذي تريد أن **تسود حياته** سوف يجد نفسه ملقًى في غياهب النسيان. ما رأيك في ذلك؟».

قال الكاتب الجديد: «عظيم. فعلًا عظيم. وهذا كفيل بأن *يلقنه* الدرس، وسوف يتمنى ذلك المغرور سبتيموس هيب الذي لا يُخطئ أبدًا لو أنه ما فكر يومًا في أن يسرق اسمي».

نظرت چينا وبيتل إلى بعضهما، شهق كلاهما في نفس واحد قائلين: «سب!»، ثم أطبق كل منهما بيده على فمه، لكن بعد فوات الأوان.

وانجرف صوت تيرتيوس المتذمر أعلى السلم وهو يقول: «ما هذا؟».

«ماذا تقصد؟».

«خُيل إليَّ أني سمعت صوتًا؛ صوت جُرذ، أو *جرذان* رابضة لدى أعلى السلم. اذهب واستكشف الأمر أيها الفتى، هيا، الآن».

وبفزع، أمسك بيتل بيد چينا وانطلقا جريًا.

قال ميرين، وهو يعود إلى مكانه عند قدمي تيرتيوس فيوم: «لم أجد أحدًا».

رد الشبح قائلًا: «عظيم. لدينا الآن **عقد** نريد استكمال بنوده، أليس كذلك؟».

وبحذر، أومأ له ميرين برأسه، ثم شعر فجأة برعب يتملكه.

ثبت تيرتيوس فيوم عينيه الداكنتين على ميرين وقال له: «انظر إليّ أيها الفتى. انظر إليّ».

لم يتمكن ميرين من المقاومة، وتلاقت نظراته بنظرات الشبح المحدقة، ثم قال له تيرتيوس فيوم: «إن **العقد** يشمل البنود التالية: سوف تنقل أنت ولاء **الشيء** خادمك إليّ، وفي المقابل سأجعلك تنجح في محاولتك المثيرة للشفقة في **تسويد** حياة الشخص الذي يحمل اسم سبتيموس هيب. هل توافق؟».

تمكن ميرين بشكل أو بآخر من أن يرد بنعيق هزيل قائلًا: «كيف؟».

قال تيرتيوس فيوم بنبرة حادة: «ما عليك إلا أن توافق وتقول نعم أيها الفتى. إن الأمر ليس معقدًا».

«لكن، همم، كيف **ستسود** مصيره؟».

«أتجرؤ أن تسألني؟» فهز ميرين رأسه بعينين متسعتين على آخرهما، ثم قال له تيرتيوس فيوم: «لكن مادمت قد سألت المتعاقد معك فلا بد أن يجيبك، مهما بلغت درجة غباء السؤال». وتململ ميرين من أن يُنعت مرة أخرى بالغبي، ثم واصل الشبح كلامه قائلًا: «**سوف أسوّد** مصير الفتى هيب بأني سوف أرسله في **رحلة استكشافية**، فلا أحد يعود من **الرحلات الاستكشافية**.. لا أحد. لا تنظر إليّ بهذه النظرة البلهاء أيها الفتى»، ثم تنهد الشبح؛ فالفتى كان يبدو مبشرًا في بادئ الأمر، ولكن تبين أنه عكس ذلك تمامًا. ورغبة منه في أن يطمئن على أن **العقد** لا يزال ساريًا، واصل شرحه قائلًا: «ولكي ينجح **السحر الأسود** تمامًا لا بد ألا يشك فيه أحد. لا بد ألا نتيح الفرصة لمن يتمنون إبطال مفعوله في أن

يرتابوا في الأمر». ومتجاهلًا نظرات ميرين الحائرة، واصل قائلًا: «لن يشك أحد في أن **الرحلة الاستكشافية** ملعونة **بسحر أسود**.. فعلى مدار القرون، كان هناك ما يقرب من عشرين تلميذًا تم إرسالهم في هذه **الرحلات**. هل هذا الرد أجاب عن استفساراتك التي تسبق إبرام **العقد**؟».

همهم ميرين قائلًا: «همممم..».

«ياه! *اللهم الهمني الصبر*. أتريد أن **تسود** مصير الفتى هيب أم لا؟ نعم أم لا؟».

«نعم».

«عظيم»، ثم بدأ الشبح يفرك يديه مترقبًا بأمل وقال: «والآن، حتى تظل ملتزمًا **بالعقد**، تحتاج إلى أن تقدم إلى **الشيء** خادمك شيئًا ثمينًا لتشكره على خدماته التي قدمها إليك؛ شيئًا سيرتديه كرمز **للعقد**. إن هذا الخاتم الذي تضعه في إبهامك، رغم أنه نسخة رديئة من الأصل، فإنه يفي بالغرض».

«لكن هذا الخاتم...». ثم توقف ميرين وفكر في رد أفضل من الرد الذي كان على وشك أن ينطق به، فجاء بحجة غير مقنعة وقال: «لكنه ضيق ولا أستطيع أن أخلعه».

ابتسم تيرتيوس بخبث وقال: «لو كنت لا أزال أستطيع أن أستخدم السكين بشكل جيد لتمكنت من أخذه».

وعلى الفور، علا الشحوب وجه ميرين.

«جرب شيئًا آخر إذن أيها الفتى قبل أن تغريني المحاولة».

وبهلع، أخذ ميرين يعبث في جيوبه، وكان على وشك أن يعطيه سلوث عندما عثر على آخر ثعبان من ثعابين العرقسوس التي بقيت معه، وقال وهو يُخرج الثعبان من جيبه وقد علته فرحة الانتصار: «خذ هذا!».

* * *

وما إن كاد بيتل وچينا يصلان إلى نهاية الممر الطويل المتعرج عائدَيْن إلى مكتب دار المخطوطات الداخلي- حتى أدركت چينا أن هناك شيئًا مفقودًا، وقالت وهي تشهق وترفع يدها فجأة إلى عباءتها: «دبوس نكو! لقد اختفى!».

توقف بيتل، ورأى في ضوء الشمعة دموع چينا وهي تنهال من عينيها، فسألها: «ما شكل الدبوس؟».

«إنه من الذهب ومحفور عليه حرف (ج).. لقد جلبه نكو من الميناء، وأنا دائمًا أشبك به عباءتي.. دائمًا، لكنه ليس موجودًا الآن».

«لقد كان معك حين كنا عند الأقبية، أنا أتذكر ذلك».

«حقًا؟».

«لا يساورني أدنى شك في ذلك».. فقد لاحظ بيتل كيف أن چينا ظلت كل حين تطمئن على الدبوس، وتساءل في سره حينها من الذي أهداها به يا تُرى، ثم قال لها: «انتظري هنا، سوف أذهب وأجلبه لك».

«لكن هذا الشبح...».

«سأذهب في هدوء تام ولن يلحظني. ثوانٍ وسأعود».

استندت چينا إلى الطوب البارد الذي يكسو جدران الممر، وراقبت وقْع خطوات بيتل وهو يتسلل في صمت عائدًا إلى الأقبية. وبدون صحبة بيتل، كان الممر الذي تضيئه شموع تلقي بظلال متراقصة يمينًا ويسارًا يخيف چينا، فاحتضنت أولر بقوة لتهدئ من روعها. أخذ القط يموء بتوتر، وأحست چينا برعشة تجتاحه. وفجأة، التف أولر وحرر نفسه من قبضتها، وهبط أمامها بجسم متثاقل. وللحظة قصيرة، خالج چينا إحساس مرعب بأن أولر على وشك الانطلاق وراء بيتل مما سيكشف أمرهم - ثم أدركت ما الذي ألمَّ به؛ إذ إن الشمس كانت تغرب الآن، وأولر بدأ يتحول.

وعلى الرغم من أن چينا رأت عدة مرات من قبل أولر وهو يتحول فلا يزال هذا المنظر حتى الآن يُبهرها، وأخذت تراقب بشيء من الرهبة انتشار اللون الأسود على ذيل القط البرتقالي الصغير، ورأت فروته تتجعد مع ازدياد سُمك وقوة العضلات أسفل جلده. بدأ القط الآن يزداد حجمه بسرعة، وبدأ سواد الذيل يزحف عبر جسمه، كما يزحف ظل كسوف الشمس فوق الأرض، محولًا فروته العجفاء المبقعة إلى سوداء ملساء ناعمة. وأخيرًا، تحولت زرقة عينيه إلى خضراء براقة. وخلال تسع وأربعين ثانية، تحول أولر النهاري إلى أولر الليلي، وأصبح في رفقة چينا في الممر الآن نمر أسود ذو ذيل برتقالي الطرف.

عثر بيتل على دبوس چينا لدى تجويف الحائط الذي كانا يختبئان عنده، فرفعه من على الأرض بسعادة غامرة. وبينما كان على وشك الانطلاق

عائدًا إليها، تردد صدى ضحكة تيرتيوس فيوم التي كانت تملؤها نبرة مهددة أثناء صعود الشبح فوق السلم، وتجمد الدم في عروق بيتل.

ثم سمع الشبح يقول: «كما هو واضح، هناك قاسم مشترك بيننا، فأنا أيضًا كنت يومًا أحب مذاق العرقسوس».

تُرى، ماذا يقصد الشبح بكلامه هذا؟ ومن باب الفضول، تباطأ بيتل للحظة.

ثم قال تيرتيوس باحتقار: «لكن ما هذا *الشيء*؟».

رد الفتى وقد بدا على نبرة صوته الأسف: «إنه *ثعبان*. وهذه هي آخر قطعة كانت معي».

لم يكن هناك سبيل للمقاومة أمام بيتل من إلقاء نظرة.. كان الكاتب الجديد يحاول بيدين مرتبكتين أن يربط الثعبان في شكل حلقة، وقال بنبرة بدا عليها الهلع: «انظر! أنا أستطيع أن أصغره.. فعلًا. كما يُمكن تحويله أيضًا إلى خاتم، خاتم لطيف فعلًا». ورأى بيتل الفتى وهو يُغمض عينيه، وتكهن بأنه يستخدم تعويذة **انكماش**. ولدهش بيتل، بدا له أن التعويذة نجحت، واختفى الثعبان وسط نفخة من الدخان الأسود، ثم مد الفتى يده أمام تيرتيوس ليريه شيئًا.

قال الشبح: «إذن، كما اتفقنا، أعط **الشيء** خاتمه، وسنواصل نحن عملنا».

لم يجرؤ بيتل أن يتلكأ أكثر من ذلك فقد ترك چينا وقتًا طويلًا، وسلك طريق الممر المتعرج مسرعًا عائدًا إليها. ومع اقترابه من نهاية الممر، انتفض قلبه من فرط الفزع؛ إذ كانت هناك عينان خضراوان متلألئتان

تحدقان وسط الظلام إلى نفس المكان الذي كان واثقًا من أنه ترك چينا فيه.

همس بيتل، لا يكاد يجرؤ أن يتخيل ما الذي يمكن أن يكون قد حدث لها: «چينا؟ چينا؟».

فخرجت چينا من بين الظلال المتاخمة للجدران، وسألته بقلق: «هل عثرت على الدبوس؟».

قال بيتل: «صه! لا تتحركي».

«ماذا؟ باه! لم تعثر عليه هناك يا بيتل؟».

«أرجوكِ.. لا تتحركي حركة واحدة. مفهوم؟!».

تجمد الدم في عروق چينا؛ حتمًا هناك خطر داهم.. وراقبت بيتل وهو يزحف متسللًا بجانب الحائط، دون أن يخرج من بين الظلال، وهنا أطلق أولر زمجرة خفيضة. فهمست چينا قائلة: «اسكت يا أولر».

وانقض بيتل.

وأطلق أولر زمجرة عنيفة.

«لا! توقف! بيتل، إنه أولر. أولر، *اتركه*!» تلا ذلك صوت قماش يتمزق مع انتشال بيتل كُمه من بين فكي أولر، فسحبت چينا أولر بعيدًا، وهي تقول له: «لا يا أولر، *اتركه*». حدق أولر إلى بيتل بغضب، فهو لا يحب أن ينقض أحد عليه، إنه هو الذي ينقض على الآخرين، ثم كررت چينا أمرها بحزم قائلة: «*اتركه*».

قال بيتل وهو يشهق: «أولر؟».

«نعم. ألا تعرف أنه كان قط سنوري؟ فهو **يتحول**».

قال بيتل بوهن: «حقًّا؟ يا إلهي!».

«بيتل، همم، هل عثرت...؟».

وطرد بيتل من ذهنه خوفه الرهيب خشية أن تكون چينا قد أصابها مكروه، ثم مد يده وأظهر *لها* دبوسًا ذهبيًّا صغيرًا على حرف (ج) كان قابعًا في راحة يده.

«ياه يا بيتل!» وأخذت چينا الدبوس، ثم شبكته من جديد في عباءتها وقالت: «ياه يا بيتل، *أشكرك*»، ثم وضعت ذراعيها حول عنقه. ابتسم بيتل ابتسامة عريضة؛ لقد استحق ذلك أن يصارع من أجله مائة نمر أسود وليس واحدًا فقط.

وفي تلك الأثناء، كان ميرين في الأسفل عند الأقبية لا يلقى تجاوبًا من **الشيء** بشكل متحمس. لقد نظر **الشيء** إلى خاتم العرقسوس مستنكفًا، وقال في سره: يا له من فتى *بخيل*! ثم تنهد **الشيء** تنهيدة جوفاء؛ فهذا للأسف لم يزد عما كان يتوقعه منه. إن **الأشياء** ليست مخلوقات سيئة إلى هذا الحد؛ وسيده الجديد يبدو مبشرًا إلى أبعد الحدود، ثم أخذ **الشيء** الحلقة السوداء اللزجة وكأنه أمسك بحشرة منفرة غاية النفور، ووضعها في إبهامه اليسرى.. وهكذا اكتملت عملية **التعاقد**.

22
مفصولًا



خرج بيتل وچينا *وأولر الليلي* من الباب المخفي بين أرفف الكتب إلى المكتب الداخلي الغارق في الظلال، لا يضيئه سوى مصابيح طريق السحرة التي كانت تهب عليها الرياح، وتلقي بضوء أحمر متراقص فوق زجاج الحاجز المقام بين المكتب الخارجي والمكتب الداخلي.

قالت چينا وهي تتبع خطى بيتل بين صفوف المكاتب المظلمة والخالية: «أعتقد أنني أعرف من يكون هذا الفتى».

رد بيتل بنبرة كئيبة: «نعم، إنه الكاتب الجديد. من المؤكد

أن الآنسة دچين في حاجة لاختبار صحة قواها العقلية بعد أن وظفت شخصًا كهذا. أتعتقدين أنها ستتمكن من أن ترى...؟».

وهنالك، جاء صوت چيلي دچين من وسط الظلام يقول: «ما هذا الذي تريدني أن أراه بالتحديد يا بيتل؟».

صاح بيتل الذي لا يزال يشعر بهزة بعد حادث أولر: «يا للهول! ما... أين؟».

ردت چيلي دچين من مكان ما عاليًا: «أنا هنا». نظر بيتل لأعلى ليرى للأسف الشديد چيلي دچين جالسة على مقعد بارتريدج تنظر في رزمة من الأوراق بعدستها المكبرة المضيئة والمتناهية الصغر. التفت چيلي دچين إلى بيتل وچينا، دون أن تلحظ أولر الليلي وسط الظلال. ونظرت للأسفل وهي تحملق فيهما، وقد بدت علامات الغضب على وجهها، ثم قالت: «لقد كنت منشغلة في مراجعة عمل السيد بارتريدج، إن عمله طوال الأيام الثلاثة الماضية لم يرق إلى المستوى المطلوب. وكنت أتفحص حساباته حول زيادة معدل الهالك في الأوراق الذي يتسبب فيه كتبة لا تزيد خبرتهم على عام، وهو معدل محسوب بالنسبة لمتوسط الهالك على مدار السنوات الثلاث والأشهر التسعة الماضية.. وما إن توصلت إلى الاستنتاج بأن الكتبة هنا لا يملكون معيار الدقة الذي أتوقعه منهم - حتى سمعت نقاشًا لا يدور فحسب حول صحة قواي العقلية بكل هذه الفظاظة مع شخص غريب تماما، بل...».

«إن چينا ليست...».

«لا تقاطعني. أيًا كانت أهمية الأميرة چينا؛ فهي ليست عضوًا في دار المخطوطات، أي أنها شخص غريب. وأنت يا سيد بيتل أخذت توًا شخصًا غريبًا ودخلت به مكانًا غير مصرح له بالدخول فيه».

«لكن أنا...».

قاطعته چيلي دچين وواصلت خطبتها اللاذعة قائلة: «وليس هذا فحسب يا سيد بيتل، بل إنك رحت تناقش أيضًا أعمالاً حساسة تخص دار المخطوطات مع الشخص الغريب السالف ذكره، كما أنك أهنت رئيسة كتبة النصوص الهرمسية التي حلفتَ اليمين على أن تعاملها بكل احترام بشكل دائم. لقد حنثت بثلاثة مبادئ من مبادئ دار المخطوطات التي أقسمت على الالتزام بها».

«لكن...».

«لا تقاطعني، فأنا لم أنته بعد. بالإضافة إلى كل هذا يا سيد بيتل لم يفتني ملاحظة أنك أهملت في واجب الاعتناء بزحلوقة التفتيش».

فأفلت من بين شفتي بيتل تأوه قصير.

«لقد أخبرني كاتبي الجديد دانيال الصياد عن حوار سمعه يدور بينك وبين السيد فوكس. وأفهم من ذلك أنك منذ يومين اصطحبت السيد فوكس في جولة غير مصرح بها في الأنفاق الجليدية كي تستعيد زحلوقة التفتيش التي أهملت في تأمينها بالأسلوب المتفق عليه، كما أفهم من ذلك أيضًا أن السيد فوكس مكث بقية ساعات اليوم في غرفة التمريض بعد أن رأى وجهًا لوجه الشبح الجليدي؛ أي أن العمل ظُهر ذلك اليوم كان ينقصه كاتب مرة أخرى. أليس ذلك صحيحًا؟».

بحزن وأسى، أومأ لها بيتل برأسه.

«أجب عن سؤالي!».

غمغم بيتل قائلًا: «بلى، هذا صحيح». نظرت چينا إلى بيتل نظرة متعاطفة، لكنه لم يلحظها؛ لأنه كان يُحدق إلى حذائه الطويل وهو مُحطَّم تمامًا.

وللأسف، لم تكن چيلي دچين قد انتهت بعد، وواصلت كلامها قائلة: «في المعتاد، عندما يصلني اعتذار مكتوب وتعهد بالالتزام بقواعد دار المخطوطات على الدوام، أكون مستعدة للتغاضي عن مثل هذا السلوك المشين».

رفع بيتل بصره ونظر إلى چيلي دچين، لكن چيلي كانت تنظر في عينيه مباشرة. وبدا بيتل - حتى في ظل الضوء الأحمر للمصابيح الذي كان ينفذ عبر النافذة- شاحبًا؛ إذ كان يعلم أن هناك «لكن» أخرى قادمة في الطريق، لكنها هذه المرة ستكون «لكن» من العيار الثقيل.

وهذا ما حدث بالفعل؛ إذ قالت له چيلي دچين: «لكن الأمر الوحيد الذي لستُ مستعدة لأن أتغاضى عنه هو تواطؤ موظف التفتيش هنا في محاولة ناجحة **لإبطال مفعول الغلق المحكم** لإحدى الفتحات، ثم يدخل بعد ذلك، كما فهمت، إلى منطقة محظورة».

شعر بيتل بالغثيان؛ فقد اكتشفت چيلي دچين الأمر.. تمامًا كما توقع.

نظرت چيلي للأسفل من فوق مقعدها المرتفع، لم يبدُ عليها أنها تريد النزول من مكانها - ربما، وكما قالت چينا في سرها، لأن بيتل بالفعل أطول منها بست بوصات. إلا أن بيتل في هذه اللحظة كان يشعر بضآلة

حجمه إلى أقصى حد، وتمنى لو يستطيع أن يتكور حول نفسه ويختفي في أي مكان بعيد لزمن مديد.

اعتدلت چيلي في جلستها، كأنها القاضي الذي يوشك على النطق بحكم شديد القسوة على الجاني، وقالت معلنة: «يا سيد بيتل، أنا أبلغك بأني بموجب كل ذلك قد أنهيت حالًا عملك بدار المخطوطات. وسوف يتم حرق عقد عملك وستترك المكان هنا، وتأخذ معك أغراضك الشخصية».

وفي نفس واحد، شهقت چينا وبيتل وقالا: «ماذا قلتِ؟».

وبنبرة حادة، ردت چيلي التي تستطيع أن تختصر كل الكلام في كلمة واحدة أو كلمتين عندما تود ذلك، وقالت: «أنت مفصول».

قالت چينا معترضة: «لا يمكنك أن تفعلي ذلك! إن بيتل متفوق في عمله هنا، وهذا المكان لا يستطيع أن يعمل بكفاءة بدونه. إن قرار طردك له قرار مجنون؛ إنه أفضل شخص هنا»، ثم توقفت چينا مع إدراكها - لكن بعد فوات الأوان - هول ما قالته.

فردّت عليها چيلي ببرود قائلة: «ليس هذا من شأنك أيتها الأميرة. أنا أدير دار المخطوطات بالطريقة التي أراها مناسبة، ولن أسمح لأحد بأن يُملي عليّ ما أفعله، حتى وإن كان أنتِ».

كان بيتل عاجزًا عن الكلام، وبدت الأشكال الضخمة والمتعرجة للمكاتب تتراقص حوله استهزاءً به بينما كان يحاول جاهدًا أن يستوعب ما حدث توًا. أمسكت چينا بيتل من ذراعه وأخذته إلى المكتب

الأمامي، ثم همست له قائلة: «لا تقلق. إنها لم تقصد ذلك. لا يمكن أن تكون قد قصدت ذلك».

لكن بيتل كان يعلم أكثر من چينا. إنه يعلم أن چيلي دچين ما إن يستقر بها الرأي وتتخذ قرارها، فقد قُضي الأمر ولا شيء بعد ذلك سيجعلها تغير رأيها.

وبينما كانت چينا تفتح الباب ليخرجا إلى المكتب الخارجي، تردد صدى صوت چيلي بين جدران المكتب الداخلي الخالي وهي تقول: «أمامك خمس دقائق كي تخلي المكتب من أغراضك يا سيد بيتل».

بعد هذه الكلمات لم تنبس رئيسة كتبة النصوص الهرمسية ببنت شفة؛ إذ لمحت أولر الليلي توًا وهو يسير بخفة بين الظلال وراء چينا. ولأن چيلي تخاف من الحيوانات البرية تسمرت في مكانها، وظلت معزولة عاليًا على المقعد أمام مكتب بارتريدج إلى ما بعد منتصف الليل بفترة، عندما تمكنت أخيرًا من أن تستجمع شجاعتها لتنطلق جريًا بعد ذلك إلى الطابق العلوي في أمان غرفتها.

قادت چينا بيتل الذي كان يسير كالمصاب بداء المشي أثناء النوم- إلى أن خرجت به إلى مكتب الاستقبال. وبغضب، صفقت الباب وراءها. ومن نظرة واحدة لبيتل، علمت أنه لن يتمكن من إخلاء مكتبه؛ فقد ظل واقفًا لا يفعل شيئًا سوى النظر حوله في غرفة المكتب، يستوعب منظر كل الأشياء التي أحبها هنا؛ لقد أحب منظر رزم الأوراق الشاهقة والكتب المكدسة في أكوام عالية أمام النافذة، وأحب مكتبه ومقعده الدوار، وسندوتش المقانق الذي جلبه له فوكسي صباح اليوم ونسي أن

يُكمله - حتى الباب المؤدي إلى مخزن الكتب الجامحة أحبه. أخذ بيتل يُحدق إلى كل هذه الأشياء، وهو يعلم أنه لن يراها كما كان يراها من قبل.. وحتى لو جازف مرة ودخل دار المخطوطات - وهو أمر لا يعتقد أنه سيقدِم عليه - فلن يبدو له كل ذلك كما كان من قبل؛ فكل ذلك سيكون ملكًا لموظف آخر سيكون جالسًا إلى ما كان مكتبه هو، ويتناول سندوتش مقانق فوكسي.

سألته چينا: «هل هناك أي شيء تريد أن تأخذه معك؟».

هز بيتل رأسه.

نظرت چينا إلى مكتب بيتل الذي كان قد رتبه وجهزه لبقية ساعات عمل اليوم؛ كان قلمه الخاص بدار المخطوطات في حاويته مع أقلام أخرى، فقالت له: «سوف أجلب لك قلمك. لن نتركه لهم هنا».

لكن بيتل لا يريد أن يأخذ أي شيء معه يذكره بالمكان، وقال وهو ينعق: «أعطيه لفوكسي».

«حسنًا».

وبسرعة، كتبت چينا رسالة مختصرة لفوكسي، ثم عثرت على بعض الحبال التي تُربط بها التعاويذ فربطت بأحدها الرسالة في قلم بيتل الخاص بدار المخطوطات - وهو قلم جميل أسود اللون مصنوع من حجر الأونيكس ومرصع بحجر اليشم الأخضر، بحيث لو نظرتَ إليه عن قرب لأمكنك رؤية الأشكال الحلزونية المعقدة تكوّن حروف كلمة بيتل بطول القلم. تركت چينا القلم على المكتب على أمل أن يلحظ فوكسي اسمه

الذي كتبته على ظهر الرسالة بخطها الكبير الملتوي، والذي يشتكي منه مدرسها بأنه يزيد حجمه يومًا بعد يوم.

وبرفق، أمسكت چينا بيتل من مرفقه وتوجهت به إلى الباب، ثم حركت المقبض بقوة فانفتح الباب على الفور مصدرًا رنة *طويلة جدًا*. كانت الريح في الخارج تعوي، وكانت قطرات من المطر البارد تدق على زجاج النافذة. وكان الظلام هذا المساء مطبقًا، لا يكاد تؤثر فيه شعلات مصابيح الإنارة التي أطفأت بعضها الريح. ثم انجرفت دوامات من القمامة وأوراق الشجر إلى دار المخطوطات وراحت تلتف حول أقدامهما.. ظل بيتل واقفًا على عتبة الباب دون أن يتحرك إلى أن وضعت چينا ذراعها في ذراعه وخرجت وهي تصحبه معها.

وصُفق الباب خلفهما بصوت مدوٍّ.

++ 23 ++
الإسقاط



كان *آخر مصباحين يقعان في نهاية طريق السحرة* يصارعان وهما معلقان عاليًا على عموديهما الفضيين حتى يظلا مشتعلين وسط الرياح، وقد أخذت شعلتاهما تتراقصان وتترنحان وسط العاصفة كأنهما خرقتان مبللتان.

صاحت چينا بصوت أعلى من عويل الزوبعة مع اقترابهما من «القوس العظيم»: «هيا يا بيتل، لا بد أن تقاوم! لا تتركها تحبطك بهذا الشكل. وسوف ترى.. عندما تسمع مارشا بما حدث، لن تستطيع چيلي دچين أن تقف في مواجهتها».

كان بيتل خائر القوى لا يقوى على الرد. وبينما كانت چينا تقوده ليعبرا القوس العظيم ويدخلا الفناء، كان كل ما يشغل باله هو كيف سينقل خبر فصله من العمل إلى والدته التي كثيرًا ما تكرر لكل من يمكن أن يصغي إليها أن اليوم الذي تفتخر به في حياتها هو يوم نجاح بيتل في امتحان دار المخطوطات والتحاقه بالعمل فيه. لكن ما لم تكن والدته تذكره قط هو أن المبلغ الأسبوعي الذي يعطيه لها بيتل في واقع الأمر - وهو نصف كورونا فضية - هو الذي يُسدد قيمة إيجار غرفهم الصغيرة جدًا التي يقيمون فيها بمنطقة العشوائيات ويوفر لهما مؤنة ثابتة من البطاطس والسمك.

كان فناء برج السحرة محميًا من الرياح، وكانت المصابيح المحمولة على حواملها على امتداد الجدران تلقي بضوء ثابت وساطع. وخُيل إلى چينا أن الفناء بدا على غير عادته نظيفًا؛ إذ اختفت منه المفاجآت المزعجة، حتى الإحساس أثناء السير بأن الأرض زلقة بشكل خطير أسفل الأقدام تلاشى. ومع اقترابها هي وبيتل من السلم الرخام الأبيض العريض الذي يصعد إلى برج السحرة، ظهرت لهما من كانت وراء حملة النظافة والصحة العامة المفاجئة هذه وهي تحمل جاروفًا ودلوًا كبيرة جدًا.

قالت چينا في دهش: «هيلدا جارد! ما الذي تفعلينه هنا؟ لقد ظننت أنك في عطلة».

جففت هيلدا جارد يدها المتسخة في جبينها، ثم توقفت وتوكأت على الجاروف وهي تقول: «كم كنت أتمنى ذلك».

لاحظت چينا أن عباءة الساحرة الثانوية الزرقاء كانت مغمورة بالماء ومبقعة بالوحل - أو ما هو أسوأ من ذلك - وشعرها البني القصير ثائر على نحو بدا أشبه بأعشاش الطيور. وقالت چينا لها بنبرة متعاطفة: «لا أعتقد أن هذه الوظيفة هي ما كنت تسعين إليه في البرج».

ردت هيلدا قائلة: «نعم، ليس هذا هو ما أسعى إليه»، وبعد أن أدركت أنها كانت موجزة بشكل حاد، واصلت قائلة: «لكن بالطبع أنا يُسعدني أن أشارك في المساعدة بما أن التلميذ لا يمكنه أن يرعى تنينه و...».

قاطعتها چينا، وقد داهمها فجأة إحساس يُنذر بالخطر: «لماذا؟ ما الذي حدث؟ هل سب مريض؟ هل تعرض لحادث؟».

«لا لا، ليس هناك ما يُقلق أيتها الأميرة، إنه يقوم بأول **عملية إسقاط** له وهي عملية صعبة، ولا ينبغي إزعاجه حتى تنتهي. وسرعان ما سينتهي ثم سنكتشف نحن بعد ذلك أي شيء قام **بإسقاطه**. ومن الواضح أنه يُحسن ذلك تمامًا، بما أنه لم يستطع أحد حتى الآن أن يتكهن بماهية هذا الشيء الذي قام **بإسقاطه**، على الرغم من أن...» - وتبدلت هنا نبرة هيلدا إلى استياء - بعض السحرة الأكبر سنًا يقومون بالمراهنات».

تنهدت چينا وقالت: «ياه! أشكرك يا رب، لقد ظننت للحظة أننا تأخرنا».

«تأخرتما؟ لا، أعتقد أنه لا يزال أمامه عشر دقائق حتى النهاية».

«*النهاية*؟».

«نهاية **الإسقاط**. أنا أقترح عليك أن تجربي البحث في البهو العظيم؛ حيث يخالجني إحساس بأن هناك شيئًا غامضًا في دولاب التعاويذ

القديمة»، ثم غمزت هيلدا غمزة تآمرية، وواصلت كلامها: «لكن بعد إذنكما، الآن لا بد أن أعيد هذه الأغراض إلى مكانها وسوف ألحق بكما فيما بعد هناك»، ثم انطلقت مسرعة وهي تقعقع.

صعدت جينا وبيتل السلم إلى الباب الفضي الضخم؛ إلى مدخل برج السحرة، ثم همهمت بكلمة السر فانفتح الباب بلا صوت. ومع دخولهما البهو العظيم، جرت على سطح الأرض كلمات: **مرحبًا أيتها الأميرة** بحروف متعاقبة متعددة الألوان. ولم يفت بيتل ملاحظة عدم ظهور جملة **مرحبًا بموظف التفتيش** لتحييه هو – كما كانت تظهر في السابق. ثم تساءل في سره كيف تسنى لبرج السحرة معرفة أنباء فصله، فازداد شعوره بسوء حالته، إن كان ذلك ممكنًا. فبشكل أو بآخر، كان معنى ذلك أن موضوع الفصل أصبح رسميًا.

كانت أجواء البهو العظيم يملؤها طنين مترقب؛ كان هناك جمهور من السحرة يلفون في الأنحاء، بعضهم كانت أياديهم متشبثة بقصاصات صغيرة من الورق وردية اللون، وبعضهم كانوا يثرثرون أو يتسكعون في الأنحاء محاولين التظاهر بأن وجودهم في البهو العظيم جاء بمحض المصادفة لتأدية بعض الأعمال المهمة. وبالنسبة لجينا فكانت هذه هي أول مرة ترى فيها كل هذا الحشد من السحرة متجمعين في مكان واحد؛ كان المشهد متعدد الألـوان، يظهر فيه اللون الأزرق الخاص بالسحرة العاديين قبالة خلفية من الجدران تتحرك عليها صور ساطعة ومتعاقبة، في عرض يسرد لحظات أسطورية عن تاريخ برج السحرة.

وكالمعتاد، شعرت جينا بشيء من الرهبة داخل برج السحرة. وعلى الرغم من أنها شخص مُرحَّب به دائمًا في البرج باعتبارها الأميرة – حتى إنها مُنحت كلمة السر – فلا يزال المكان بالنسبة لها غريبًا ومخيفًا وبدا لها وكأنه كائن حي. كانت الصور التي يتعاقب ظهورها على الجدران تسطع حينًا وتتلاشى حينًا وكأن البرج نفسه يتنفس شهيقًا وزفيرًا.. فيضيء وينطفئ.. يُضيء وينطفئ. وامتزج عبير البخور الذي يدير الرءوس مع الرائحة الغريبة **للسحر** التي تنبعث من التعاويذ القديمة والجديدة – في خلطة جعلت جينا تشعر بالتوتر وعدم الاستقرار. كانت جينا تريد أن تكون على دراية بكل شيء يدور في القلعة، ولا يروقها واقع أنها لا تستطيع أن تتكهن بما يفعله السحرة. ولقد سألت مارشا ذات يوم عن الأعمال التي تقوم بها طوال اليوم، ورغم أن رد مارشا بدا لها منطقيًا تمامًا حينها، فلم تتمكن بعد ذلك من أن تتذكر كلمة واحدة مما ذكرته مارشا لها، حتى إنه تبادر إلى ذهنها أن مارشا استخدمت معها وقتها تعويذة **النسيان**، لكن بعد أن ذكرت ذلك لسبتيموس، ضحك وقال لها إنه هو أيضًا لا يتذكر أبدًا أيًا من كلام مارشا معه. ومع ذلك، بدأت جينا تفهم معنى المقولة القديمة للقلعة التي مفادها أن **الملكة والساحر لا يتفقان أبدًا.. فما يراه أحدهما اثنين يراه الآخر ثلاثة**.

قاطع أفكار جينا صمت مفاجئ عم الأجواء، ولدى الجانب القصي من البهو العظيم، في المكان الذي ينبثق من خلال سقفه المقنطر المرتفع السلم الحلزوني الفضي، رأت جينا حذاء مارشا أوفرستراند المميز ذا اللون الأرجواني والمقدمة المدببة والمصنوع من جلد الأفعى.

وحتى تجعل مارشا ظهورها أكثر إثارة، جعلت السلم ينزل بوتيرته الليلية البطيئة. فقد تعلمت مارشا بعد تجربة مريرة تعرضت لها من قبل أن نزولها وهي تدور بالوتيرة الصباحية السريعة نسبيًا ربما قد يؤدي إلى تصاعد حدة المرح والابتهاج عندما يكون هناك جمهور محتشد من السحرة في البهو.. وهكذا. وكأنها تنزل من السماء، نزلت مارشا بكل رشاقة وهي تلف مع السلم عبر الارتفاع الكبير لـ «البهو العظيم»، إلى أن وصلت لسطح الأرض، وهنا قفزت من على السلم ثم صفقت بيديها حتى يصمت الجميع وقالت: «يبدو أن نبأ اقتراب تلميذي سبتيموس هيب من الانتهاء من أول **عملية إسقاط** له قد انتشر». فبدأ يعم البهو همس يملؤه الحماس بين السحرة، ثم واصلت مارشا قائلة: «أنا لا أوافق كلية على هذا العبث. وبصراحة، كنت أتمنى أن تكونوا جميعًا منشغلين الآن بما هو أجدى من ذلك. لكن للأسف بات هذا الأمر جزءًا من التقاليد - بل في واقع الأمر، أنا أتذكر أن هذا هو ما حدث معي منذ زمن ليس ببعيد. ومن المفترض، بما أنكم جميعًا تجمعتم هنا، أنكم تعتقدون أن هذا هو المكان الذي ستجدون فيه الشيء الذي تم **إسقاطه**».

ترتب على هذا الكلام همهمة جماعية، ثم صاح أحد السحرة الشجعان قائلًا: «ساعدينا بتلميح واحد أيتها الساحرة العظمى».

ردت مارشا قائلة: «أنا لا أعرف أكثر مما تعرفونه أنتم. لقد اختار تلميذي بنفسه الشيء الذي **سيُسقطه**. ولم يخبرني بقراره».

وانتشر في الأجواء همس متحمس مع استعراض السحرة نظرياتهم العظيمة التي تقترح كل منها الشيء الذي قام التلميذ **بإسقاطه**، ثم قالت

مارشا بصوت عالٍ: «ومع ذلك.. إذا سمحتم، هل لكم أن تهدءوا قليلًا الآن؟ شكرًا. هناك بعض الأمور التي لا بد أن أؤكدها؛ الأول: إذا سمحتم إلى أن تنتهي **عملية الإسقاط**، لا تتحركوا في الأنحاء أكثر من اللازم، والثاني: بعد انتهاء **عملية الإسقاط**، في حال أن الشيء الذي تم **إسقاطه** لم يتضح لكم فور سقوطه، لا أريد أن تتشتتوا بشكل مهين في أنحاء البرج بحثًا عنه. فإذا كنتم لم تتمكنوا حتى الآن من أن تحددوا **مكان الإسقاط**، فمن الصعب بعد ذلك أن تلاحظوا الشيء الذي تم **إسقاطه** ما إن يختفي، أليس كذلك؟».

فانتشرت إيماءات مطيعة بالرءوس.

«والأمر الثالث: لا أريد بأي حال من الأحوال أية مراهنات».

فانطلقت من السحرة آهات مكتومة، ودُست على الفور في الجيوب العميقة قصاصات الورق الصغيرة وردية اللون التي كانت چينا قد لاحظتها من قبل.

«والآن سوف أعد العد التنازلي للإعلان عن انتهاء **عملية الإسقاط**. خمسة.. أربعة.. ثلاثة..»، وهنا سُمع اصطدام مدوٍّ قادم من دولاب التعاويذ القديمة. وفي اللحظة التالية، كان كاتشبول يخرج من الدولاب مترنحًا، يلاحقه صندوق قمامة ضخم يقعقع وراءه، وواصل ملاحقته لكاتشبول سيئ الحظ في أنحاء البهو العظيم، وسط استمتاع الجمهور المتفرج. نظرت مارشا إلى ما يحدث غير مصدقة نفسها - فإذا كان ما تراه الآن **إسقاطًا**، فهي حتمًا لم تر شيئًا مثله من قبل؛ فقد كان **الإسقاط** ملموسًا ومسموعًا، وهو أمر كان يُعتبر مستحيلًا. ولقد تمكنت مارشا ذات

مرة عندما كانت تلميذة شابة – من أن تُنشئ صوت مأمأة قصيرة من قطيع غنم راقص قامت **بإسقاطه** من باب الدعابة بمناسبة عيد ميلاد ألثر، لكن المأمأة لم تدم طويلًا وكانت خافتة، حتى إن ألثر الذي كان قد بدأ حينها يعاني ضعفًا في السمع، لم يسمعها.

صاحت چينا لبيتل بصوت أعلى من الضجيج: «ما الذي يجعله يخشى إلى هذا الحد من صندوق قمامة قديم؟».

رد بيتل: «أعتقد أن سِب قام بخدعة مزدوجة».

«ماذا قلت؟ لم أفهم!».

«أي أن ما نراه نحن أنه صندوق قمامة يراه كاتشبول شيئًا آخر».

«مثل ماذا؟».

«على الأرجح سيكون الشيء الذي يخشاه كاتشبول أكثر من أي شيء آخر، وهي عملية تنجح في العادة. وهذا يعني أن سِب لم يكن مضطرًا لأن يقرر ما الذي سيراه كاتشبول؛ فكاتشبول فعل ذلك نيابةً عنه». نظرت چينا على الفور إلى بيتل نظرة إعجاب خاطفة؛ فكيف تسنى له معرفة كل هذه الأمور؟ لمح بيتل نظرتها فاحمر وجهه خجلًا.

ثم عاد كاتشبول، والذي يلاحقه الآن – أو هكذا يظن – رئيسه القديم، وهو الصياد، منطلقًا كالصاروخ إلى دولاب التعاويذ القديمة وصفق بابه وراءه، تاركًا صندوق القمامة في الخارج. قام صندوق القمامة، أو الصياد، بسحب قدميه، ثم جذب غطاء فتحته، وعقد ذراعيه ذواتي الشعر الكثيف، واستقر بعد ذلك خارج الباب، إلى أن بدا صندوقًا

كسائر صناديق القمامة بذراعين يعلوهما شعر خفيف، ينتظر في الخارج أن يتم جمع قمامته.

ووسط هذا الجو الذي يملؤه الحماس، لم يلحظ أحد تغير وتيرة السلم فجأة إلى وتيرة الطوارئ التي تتسم بالسرعة، ونزول ومضة خضراء وهي تئز. بعد عدة لحظات، وفي التوقيت المناسب تمامًا، قفز سبتيموس من السلم، ثم انطلق منزلقًا إلى أن وقف بجوار مارشا، بينما ظهرت الكلمات التالية وهي تلف حول قدميه: **نهنئك أيها التلميذ على نجاحك في أول عملية إسقاط تقوم بها.**

وقوبل سبتيموس بموجة من التصفيق تحييه لدى وصوله ووقوفه بجوار مارشا. وبسعادة، ابتسم ابتسامة عريضة، ثم أشار بيده نحو صندوق القمامة، وطقطق بأصابعه، ووسط كورس من الصيحات المبتهجة، اختفى الصندوق بصوت مدوٍ وومضة من الدخان الأخضر.

لم يرق ذلك مارشا، وقالت له: «ليس هناك داعٍ لكل هذا يا سبتيموس. فنحن لا نقوم هنا بعرض من عروض السحر الرخيص. إن هذا العمل جاد جدًّا».

وما كانت مارشا تدري حينها كم أن جملتها الأخيرة هذه كانت صحيحة تمامًا. ففي هذه اللحظة تحديدًا، انفتح باب البرج على مصراعيه، كاشفًا عن هيئة تيرتيوس فيوم، ترسمها صاعقة برق تعمي الأبصار خلفه.

24
التجمع



وتبدل الضجيج الذي كانت تملؤه الإثارة إلى صمت مخيف، ثم صدرت صيحة فردية من الساحر الذي كان يدير عملية المراهنات، والذي استشعر – مع تغير مجرى الأحداث على هذا النحو غير المتوقع – بأن هناك كارثة: «ما الذي يحدث هنا يا مارشا؟ هل هذا أيضًا جزء من عملية **الإسقاط**؟».

ردت مارشا بنبرة حادة:

«لا تكن أحمق. بالطبع لا». وبعد أن خالجها هاجس خاطف، همهمت إلى سبتيموس تسأله: «هذا ليس جزءًا من عملية **الإسقاط**، أليس كذلك؟».

رد سبتيموس، والذي كان يود أن يكون الأمر كذلك، فهو لا يكنُّ شعورًا طيبًا تجاه تيرتيوس فيوم: «بلى، إنه ليس كذلك».

ولدى عتبة برج السحرة نظر تيرتيوس فيوم إلى مارشا نظرة ساخرة، ثم قال: «إذن، ألن تسمحي لنا بالدخول؟ فهكذا جرى العُرف كما تعلمين، بل إنه كما أعلم إجراء *إلزامي*».

ردت مارشا وهي تنظر وسط الظلام خلف الشبح، وتتساءل في سرها: لماذا تحدث بصيغة الجمع، وقالت: «تقول إلزامي؟» وهنالك رأت السبب؛ فكان خلف تيرتيوس فيوم بحر أرجواني اللون، كان هذا اللون يغطي طلاء درجات السلم الرخام ويمتد إلى الفناء في الضوء الخافت، ويتحرك متدفقًا كما تتدفق المياه، مع طفو أشباح مئات من السحرة الأعظمين فوق سطح الأرض فعلا الشحوب وجه مارشا وهمست قائلة: «ياه!».

قال تيرتيوس فيوم بابتسامة ماكرة: «*بالفعل الأمر يستحق الاندهاش*».

وبذهول، أدركت مارشا ما الذي يحدث في الخارج؛ إنه تجمع الأشباح. وهو أمر لم تكن تتوقع أن تراه إلا في اليوم الأخير من فترة تلمذة سبتيموس – وهو اليوم الذي يحضر فيه **التجمع**، وعلى التلميذ حينها أن يسحب قطعة من الأحجار الموجودة في جرة **الرحلة**

الاستكشافية، وهي لحظة رهيبة؛ فالكل يعلم أن التلميذ، أو التلميذة، إذا سحب أحد **أحجار الرحلة الاستكشافية** فسوف يُرسل على الفور في هذه **الرحلة** التي لم يعد منها أحد على الإطلاق. وكسائر السحرة الأعظمين السابقين - فيما عدا دومدانيال الذي كان يسعى لأن ينال تلميذه ما يستحق - تفزع مارشا من هذا اليوم؛ بل إنها ظلت لسنوات طويلة تتردد في تعيين تلميذ لها لهذا السبب.

كانت مارشا تعلم أن **التجمع** - الذي يتكون من أشباح جميع السحرة الأعظمين السابقين- لا بد أن يُسمح له بدخول برج السحرة في أي وقت، كما أنها تعلم أيضًا أن **ظهور التجمع** على نحو غير متوقع لا يحدث إلا في أوقات الخطر؛ كي يمنح الساحر الأعظم الحي فرصة الاستفادة من الحكمة الجماعية لجميع السحرة الأعظمين الذين سبقوه. وبينما كانت مارشا تنظر إلى صف أشباح السحرة الأعظمين الممتد طويلًا وهو يتدفق مارًا بدرجات السلم، شعرت بالغثيان من فرط القلق.. وكان تيرتيوس فيوم سعيدًا بهذه النتيجة،كان يحوم بمسافة لا بأس بها فوق درجة السلم الرخام البيضاء - فهو أثناء حياته كان قصير القامة؛ ولذلك يحب التحليق بعد أن أصبح شبحًا على ارتفاع نحو 8 بوصات فوق سطح الأرض كي يعطي انطباعًا بأنه طويل القامة. وعلى الفور، انتهز تيرتيوس الفرصة، وقال لمارشا مع تردد صوته المدوي في البهو العظيم داخل برج السحرة: «من أصول الأدب والذوق أن يقوم الساحر الأعظم الحي بدعوة **التجمع** المحتشد لدى أعتاب برج السحرة للدخول، لكن هذا ليس إجراءً ضروريًا، فنحن من حقنا الدخول. ولقد كان هناك بالفعل

بعض السحرة الأعظمين المضللين الذين لم يدعونا للدخول فيما مضى وكانوا دائمًا يندمون بعد ذلك.. دائمًا! وسأسألك للمرة الأخيرة: هل ستقومين بدعوتنا للدخول؟».

ردت مارشا معقبة على كلامه: «أنت يا تيرتيوس فيوم لست ساحرًا أعظم، وأنا غير ملزمة بأن أدعوك للدخول».

بدا الابتهاج على وجه الشبح، وقال معلنًا: «أخشى يا آنسة أوفرستراند أن تكوني مخطئة في ذلك؛ فقد عُينت لمدة سبعة أيام في منصب القائم مقام الساحر الأعظم وتشريفًا لي بذلك أعطيت شرائط أرجوانية لوضعها على *الأكمام. ها هي*»، ثم أشار إلى الشرائط التي تعلو طرفي كميه. نظرت مارشا على مضض، ورأت بين الشريطين الذهبيين الممتدين على الكمين الأزرقين لونًا ربما كان في الأصل، حسب ظنها، أرجوانيًا. ثم واصل الشبح قائلًا: «بالإضافة إلى ذلك يا آنسة أوفرستراند، لقد كنت *أنا* من دعا **التجمع** لعقد الاجتماع، وبصفتي داعيًا للاجتماع أطالبك بالسماح لنا بالدخول».

«أنت من دعا لعقد اجتماع **التجمع**؟ لكن لماذا؟ ما الذي حدث حتى يستدعي ذلك؟».

ابتسم تيرتيوس فيوم، وقد أسعده أن مارشا هي التي بدأت تطرح عليه الأسئلة الآن: «أنتِ تنسين الإجراءات يا آنسة أوفرستراند. فلا بد أولًا أن يُسمح **للتجمع** بالدخول، وبعد ذلك من المحتمل أننا قد نجيب عن أسئلتك».

علمت مارشا أنه ليس هناك خيار آخر أمامها فقالت: «حسنًا».

ابتسم تيرتيوس ابتسامة ارتسمت على شفتيه دون أن تمتد إلى عينيه، ثم قال: «ما المقصود بـ(حسنًا) يا آنسة أوفرستراند؟».

كانت مارشا تعلم ما الذي ينبغي عليها أن تقوله في مثل هذه المواقف؛ فهذا أمر يُعد أحد عدة موضوعات متعلقة بالسلوكيات التي كان لا بد أن تحفظها عن ظهر قلب في الأيام القليلة المضطربة عقب تنصيبها المفاجئ ساحرة عظمى. لكنها لا تود أن تنطق به، وتيرتيوس فيوم يعلم ذلك، وهي تعلم أنه يعلم. ولقد علمت ذلك من ابتسامته الساخرة التي علت وجهه ومن الطريقة التي عقد بها ذراعيه، تمامًا كما فعل في ذلك الصباح يوم أن قامت مارشا بزيارة الأقبية.

أخذت مارشا نفسًا عميقًا، وبدأت تتحدث، وقد ملأ صوتها المتحدي والواثق بنفسه أجواء البهو العظيم، فقالت: «بصفتي ساحرة عظمى، أدعو **التجمع** إلى دخول برج السحرة. ومع دخولكم، أعلن أني أنحي جانبًا سلطتي كساحرة عظمى وأني أصبحت صوتًا واحدًا من بين العديد من الأصوات. نحن جميعًا سواسية في هذا المكان».

قال تيرتيوس فيوم: «هذا يبدو قريبًا من المطلوب». وهنا، تخطى عتبة البرج، ثم قال لمارشا وهو يهز سبابته نحوها: «تذكري، أنتِ صوت واحد من بين العديد من الأصوات.. هذا هو ما يقتصر عليه وضعُكِ الآن».

ودخل الشبح بخطوات واسعة، ثم نظر في أنحاء البهو العظيم كما لو كان البهو ملكًا له.

وفي تلك الأثناء، انتهز سبتيموس فرصة أن انتباه الجميع كان منصبًا على تيرتيوس وتسلل بعيدًا عن مارشا، متوجهًا نحو الظلال عند أطراف

البهو العظيم، ثم سلك طريقه منعطفًا نحو الباب؛ حيث لاحظ توًا چينا وبيتل هناك.

همس سبتيموس قائلًا: «مرحبًا چينا، مرحبًا بيتل».

ردت چينا قائلة: «ياه! ها أنت يا سب. حمدًا لله أنك بخير. إن تيرتيوس فيوم...».

قاطعها سبتيموس وهو يضع أصبعه على فمه قائلًا: «صه!».

«لكنه...».

«صه! لا بد أن أركز الآن يا چين»، وبدا سبتيموس متنمرًا لدرجة أن چينا لم تجرؤ على مواصلة كلامها.

كان سبتيموس يستدعي بسرعة من ذاكرته كتاب القوانين الضخم الذي ينظم جميع الأوجه المتعلقة بمنصب الساحر الأعظم، وكانت مارشا تجعل سبتيموس يقرأ قسمًا من هذا الكتاب كل يوم، ولقد وصل إلى: *التعليمات الصحية والأمنية، الجزء الثاني*. وبينما كان سبتيموس يراقب نهر الأشباح الأرجوانية وقد بدأ يتدفق داخل برج السحرة، عاد بذاكرته إلى بعض الصفحات في *قسم التجمع: قوانين الدعوة إلى عقد الاجتماع*، مع تركيزه الشديد على كل ساحر أعظم يعبر عتبة البرج.

ومع امتلاء البهو العظيم رويدًا رويدًا، تقهقر السحرة العاديون باحترام للوراء؛ ليفسحوا مكانًا للأشباح - فلم يرد أحد منهم أن **يخترق** أحدًا من السحرة الأعظمين القدماء. ظل السحرة الأعظمون يتوافدون إلى البهو العظيم، إلى أن بات السحرة العاديون يستندون وهم مضغوطون إلى الجدران، فتكونت حلقة زرقاء رفيعة تحيط بمساحة مستديرة شاسعة

أرجوانية، كما تكدست أعداد غفيرة من السحرة العاديين في مختلف الدواليب والفجوات التي تؤدي إلى خارج البهو، بل إن الرقم القياسي الذي سجله العدد الأكبر من السحرة العاديين الذين استوعبهم دولاب المكانس – والذي وصل إلى ثمانية عشر ساحرًا بنهاية إحدى الولائم الخالدة التي أقيمت منذ عدة سنوات سابقة – تحطم هذا المساء.

ومع عبور كل ساحر أعظم أو ساحرة عظمى عتبة البرج، كان من باب التحية يظهر للجميع داخل البرج، وكان سبتيموس يراقب كلًا منهم بغاية الدقة. بعض هذه الأشباح كان متلاشيًا وقديمًا جدًا؛ وبعضها الآخر كان أقل قدمًا ويبدو أقرب للهيئات الحقيقية، كما كان بعضها طاعنًا في السن، وبعضها الآخر كان في ريعان الشباب، لكنهم جميعًا كان يجمع بينهم تعبير الشوق مع عبور كل منهم عتبة برج السحرة مرة أخرى.

كان بيتل منبهرًا، وأخذ هو أيضًا يراقب المشهد.. ومع رؤية هذا العدد الغفير من الأشباح، لم يكن هناك بد من أن يسترجع في ذهنه بعض الحسابات التي قامت بها ذات مرة چيلي دچين. فعلى الرغم من أن الشبح الواحد يظل دائمًا بشكل أو بآخر شفافًا، فإن الكثافة الكلية لمجموعة من الأشباح سرعان ما تزداد إلى أن تحجب رؤية ما خلفها. ويتوقف عدد الأشباح المطلوب للوصول إلى هذه النتيجة على أعمارها؛ لأن الأشباح تزداد شفافيتها بمرور السنين. ولقد وضعت چيلي دچين معادلة تتنبأ بذلك، لكنها واجهت متاعب مع هذه المعادلة؛ حيث إن الحالة العاطفية للشبح قد تؤثر هي أيضًا على مدى شفافيته. وهذه الحالة العاطفية – كسائر الحالات العاطفية بوجه عام– تصيب الآنسة دچين

بالتوتر؛ لكن ما توصلت إليه حساباتها هو أن العدد المطلوب من الأشباح التي تحتل مرتبة متوسطة من حيث القدم والعمر – وتتسم بحالة عاطفية مستقرة حتى يقوم بالتعتيم على كائن حي – هو خمسة أشباح وربع شبح؛ ولهذا السبب سرعان ما كان سبتيموس– مع تواصل توافد الأشباح– قد فقد أثر مارشا التي كانت تقف لدى الجانب البعيد من البهو، لكنه حرص على ألا تفوته رؤية كل الأشباح مع توافدها تباعًا واحدًا تلو الآخر. كان هناك شبحان يبحث عنهما سبتيموس على وجه الخصوص – أحدهما يريد أن يراه، والآخر لا يريد أن يراه.

ومما سهل عليه هذه المهمة؛ ذلك الاختناق الذي بدأ يتكون لدى الباب مع تراكم الأشباح؛ حيث كان كل شبح، عمليًا، يقف عند دخوله لوهلة ويحملق في المكان الذي تركه منذ أمد بعيد. وهكذا تكوّن صف طويل ينتظر بصبر على درجات السلم، وكان كل شبح في نهاية المطاف يدخل عبر الباب محلقًا. آخر هذه الأشباح كان الذي أراد سبتيموس أن يراه؛ وهو ألثر ميلا. كان شبح ألثر، وهو طويل القامة نسبيًا وحديث، يقف في الخارج. لا يزال ألثر يحتفظ برونق عباءته، وبطريقة هادفة في تحركاته. ولقد بدا أنيقًا ومهندمًا، أكثر مما كان عليه حاله عندما كان حيًا، وسبب ذلك يرجع إلى أن الحفاظ على مظهره – وكما يقول كثيرًا مداعبًا – بات أسهل بشكل ملحوظ؛ فشعره يظل دائمًا مربوطًا للخلف بشكل أنيق في تسريحة ذيل حصان طويل، ولحيته تظل بالطول الذي يمكن التعامل معه وما عادت تلتصق بها بقايا الطعام. تقدم ألثر ودخل برج السحرة شبه

متردد، تاركًا درجات السلم الرخام تتلألأ وسط الأمطار بعد أن باتت خالية.

وهنا همس سبتيموس قائلًا: «ألثر!».

أشرق وجه ألثر، ورد قائلًا: «سبتيموس!»، ثم تبدل هذا الإشراق وعلا وجهه تعبير كئيب، ثم قال: «هل تعلم ما هذا الذي يحدث هنا؟».

فأومأ له سبتيموس برأسه.

كان الصمت قد خيم على البهو العظيم، وبدأ مصراعا الباب ينغلقان ببطء.. صعدت مارشا الدرجات القليلة الأولى من السلم الحلزوني **المتوقف** عن الحركة؛ حتى يكون في وسعها أن تنظر إلى **التجمع** بأسره في البهو. كانت تشعر بجفاف شفتيها وكانت يداها ترتجفان؛ فدستهما في أعماق جيبين وهي مصرة على ألا تُظهر أي لمحة من الخوف.

سيطر على البرج أجواء ملأتها الجلالة والترقب، وكانت كل العيون منصبة على الساحرة العظمى. تفحصت مارشا البحر الأرجواني بحثًا عن سبتيموس.. تُرى، أين ذهب هذا الفتى؟ ولم تجد له أثرًا، وهو ما أزعجها. ففي حالة كهذه، كان ينبغي على تلميذها أن يكون إلى جوارها، ولسوف توبخه - هكذا قالت في سرها - على هذا الموقف المستهتر عندما ينتهي كل هذا، كما أنها لم تتمكن أيضًا من أن تجد أي أثر لألثر. فشعرت بالإحباط وبشيء من الجرح في مشاعرها؛ فقد كانت تتوقع أن ألثر سيبحث عنها ويؤازرها، لكن من الواضح أنه لم يكترث. وها هي الآن تقف وحدها في مواجهة كل هذا.

إلا أن مارشا لم تكن واقفة وحدها تمامًا، فتيرتيوس فيوم كان يقف إلى جوارها.. إلى جوارها أكثر من اللازم.. حتى إنه كان يخترق حيزها الشخصي. ولقد اتخذ لنفسه موضعًا على السلم الحلزوني حائمًا على ارتفاع عشر بوصات بأكملها فوق درجة السلم حتى يبدو أطول قامة من مارشا التي تُعد طويلة القامة. كانت مارشا تنظر للأسفل، ولاحظت أن البحر الأرجواني بدأ ينشق ليفسح الطريق أمام شيء أخضر صغير. وبشيء من الارتياح، راقبت سبتيموس وهو يتقدم نحوها.. فعلى الأقل، عرفت الآن أين هو.

راقب تيرتيوس فيوم المشهد بمظهر يملؤه الرضا والسعادة، وقال: «إذن، هأنذا أرى الآن اقتراب السبب الأول والأخير الذي كان وراء هذا **التجمع**».

قطبت مارشا جبينها. تُرى، ما الذي يقصده فيوم بقوله *السبب الأول والأخير*؟!

وصل سبتيموس إلى أعتاب السلم الحلزوني الفضي ونظرت مارشا إليه وقد انتابها القلق، ثم سألته: «أين كنت؟».

لم يود سبتيموس أن يخبرها بما لا بد أن يخبرها به أمام تيرتيوس فيوم، فسألها: «هل تسمحين بالنزول لحظة من فضلك؟».

ثمة شيء في نبرة تلميذها سبتيموس جعل مارشا **تخترق** عباءة تيرتيوس فيوم بلا أي تردد لتنزل إليه لدى أعتاب السلم. وفجأة، قال تيرتيوس بصوت مدوٍّ بينما كان سبتيموس يهمس في أذن مارشا: «غير مسموح بإجراء حوارات بدون تصريح».

كان هذا الحوار - بتصريح أو بدون تصريح - هو ما تريد مارشا بالتحديد أن تسمعه، ثم همست بدورها لسبتيموس قائلة: «هل أنت متأكد تمامًا من كلامك هذا؟».

«تمامًا».

«حمدًا لله، لقد كنت في غاية القلق. إنه خاتمه الذي فعل ذلك.. الخاتم ذو الوجهين. فأنا لم استخرجه من الوحل بعد أن قمت **بعملية التعرف**. ولقد بحثت عنه بعد أن قمت **بعملية تنظيف شاملة** ولم أعثر عليه، ورأيت حينها أن الأمر غير ذي أهمية. لكنني كنت أتساءل في سري أحيانًا ما إذا كان سبب اختفاء الخاتم أنه قام بتجميع الرجل مرة أخرى، وأنه في واقع الأمر تمكن من الفرار بعيدًا».

رد سبتيموس قائلًا: «لكن الرجل لم يكن حينها أكثر من بركة وحل، وكان مبعثرًا في أنحاء المكان. فكيف تسنى له أن يتجمع بعد كل *هذا*؟».

«في حقيقة الأمر.. من يدرينا؟ إن هذا الخاتم ذو نفوذ قوي، ولا بد أنه جمَّع الرجل بعد أن التهمته الجنيات الصغيرة السمراء التي تعيش في المستنقع.

على أية حال، لقد كنت منتظرة دخوله، لكن لم يكن في وسعي أن أتحقق من ذلك من مكاني هذا، فجميعهم متشابهون».

«*إلا هو!*».

«فعلًا، معك حق. فتلك القبعة البشعة لا بد أنه كان سيظهر بها، أليس كذلك؟».

ابتسم سبتيموس ابتسامة عريضة وقال: «أعتقد ذلك».

عادت مارشا إلى تيرتيوس فيوم بخطوات تملؤها الهمة والنشاط، ثم قالت للشبح: «إنني لا أحتاج إلى أي تصريح حتى أتحدث مع تلميذي».

ابتسم تيرتيوس فيوم وقال: «هذا يا آنسة أوفرستراند هو ما تخطئين فيه أيضًا. فأنت ما عدت سيدة على موقع نفوذك هنا».

«فعلًا؟» هكذا ردت مارشا وهي ترفع حاجبيها، كأن ما قاله الشبح أمر مُسَلٍّ.

«فعلًا يا آنسة أوفرستراند؛ هذه هي القوانين. فما إن يتم **التجمع** في برج السحرة، نحن جميعًا- وكما ذكرت أنت منذ لحظات وقد أصبت تمامًا في قولك - نصبح سواسية في هذا المكان».

«أنا أعرف القوانين تمامًا يا سيد فيوم، يبدو أنك أنت الذي لا تعرفها. فليس هناك **تجمع** في برج السحرة. وبما أنك متمسك إلى هذا الحد بالإجراءات يا سيد فيوم، فمن المؤكد أنك تدرك أن **التجمع** لكي يتحقق لا بد أن يكون مكتملًا، وهذا **التجمع** ليس مكتملًا».

«بل إنه مكتمل بالطبع».

«لا، ليس مكتملًا».

«إذن، عليكِ إثبات ذلك!».

«هناك من يُدعى دومدانيال وهو ليس موجودًا».

وسُمع هتاف خافت من الشريط الأزرق الرفيع المكون من السحرة العاديين، وبدا على تيرتيوس فيوم أنه يستشيط غضبًا.

«كما أنه يا سيد فيوم لن يستطيع التواجد مع هذا **التجمع** هنا أبدًا، فقد أجريت **عملية تنظيف شاملة** له العام الماضي. **والتجمع** ليس مكتملًا، بل إنه بالفعل لن يستطيع أبدًا أن يُحقق شرط الاكتمال. ومن ثم، أقترح عليك يا سيد فيوم أنت وكل هؤلاء السحرة الأعظمين المبهجين - والذين سررتُ برؤيتهم تمامًا، وأنا أشكركم جميعًا لتكبدكم عناء الخروج في مثل هذا الطقس السيئ - العودة إلى حيث تقيمون وتقضون ما تبقى من الأمسية فيما هو أكثر إثارة.. تصبحون على خير».

وخارج برج السحرة، كانت هناك هيئة نحيلة لفتى يرتدي زيًا جديدًا خاصًا بالكتبة يقف في ظلال وجار قديم لتنين محتمية من الأمطار، يحمل جرة جميلة مصنوعة من حجر اللازوردي ومحاطة بالذهب، وكانت الجرة يكاد يصل ارتفاعها إلى ارتفاع قامة الفتى، وكانت ثقيلة للغاية، فشعر ميرين بألم في عضلات ذراعيه كأن النار مندلعة فيهما، لكنه لم يجرؤ على إنزالها على الأرض؛ خشية أنه إذا فعل ذلك فربما لن يتمكن من رفعها ثانية. وشعر بالبؤس وبإحساس تجاوز الانزعاج قليلًا - فما كان ذلك هو ما فكر فيه عندما وعده تيرتيوس فيوم بأنه سيقوم بما أطلق عليه دورًا استراتيجيًا في **تسويد** مصير سبتيموس هيب.

ومع تساقط قطرات من مياه المطر من شعر ميرين وجريانها على أنفه، علم أنه ما عاد في وسعه أن يتحمل الوقوف أكثر من ذلك بالجرة - وقرر أن يضعها على الأرض ويرحل. وبينما كان يترنح في أنحاء الفناء حاملًا الجرة، إذا بصوت مألوف بشكل رهيب جعله يكف عن مواصلة الطريق،

وهو يقول له: «ابتعد عن طريقي أيها التلميذ، كم مرة يجب أن أقول لك ذلك أيها *الفتى*؟».

ومن فرط ذعره، أسقط ميرين الجرة من بين يديه فحطت على قدميه فصاح متألمًا: «آ آ آه»، ثم أمسك بقدمه ونظر حوله في هلع، يبحث عن مصدر الصوت المرعب الصادر عن الماضي. لكن أين هو؟ ثم بدأ صاحب الصوت المجسم، وببطء شديد، **يظهر** أمامه. فإذا بميرين يصرخ فجأة، إنه لا يصدق نفسه.. القبعة الأسطوانية.. العينان السوداوان اللتان تشبهان عيني الخنزير. وفي الحال شعر أنه قد يتقيأ إذ كان أسوأ ما يراوده من كوابيس يتحقق الآن؛ *لقد عاد دومدانيال كي يسكنه*.

وبسرعة، دس ميرين يديه في جيوبه، لا يريد أن يرى سيده القديم الخاتم ذا الوجهين.

قال الشبح متذمرًا: «أخرج يديك من جيوبك وقِفْ معتدلًا. إنك لَغَار».. ومع هذه الكلمات، ولسعادة ميرين، مضى شبح دومدانيال في طريقه قدمًا في مسار غير منتظم، محلقًا بشكل عشوائي عبر الفناء، وصعد السلم إلى برج السحرة وهو يترنح. ومع وصول دومدانيال إلى أعلى السلم، رأى ميرين الباب الفضي ينفتح وتدفق ضوء ساطع من البهو العظيم أنار السلم الرخام الأبيض. وعلى الرغم من أن دومدانيال كان يقف بعيدًا عن ميرين، تمكن الأخير من سماع شهيق جماعي يملؤه الاندهاش قادم من الداخل، وراقب ميرين الباب وهو يتغلق ببطء، وابتسم - فهو لا يرغب في هذه اللحظة أن يكون في الداخل مكان سبتيموس هيب.. *مُحال*.

أحكم ميرين قبضته على كيس عملات صغير في جيبه، وهو مرتبه المدفوع مقدمًا عن الأسبوع الأول لعمله في دار المخطوطات. فأشرق وجهه بعض الشيء؛ إذ كان هذا المبلغ كافيًا لشراء تسعة وثلاثين ثعبانًا من ثعابين العرقسوس من متجر «ما كاسترد».. وشعر ميرين فجأة بالسعادة وهو يفكر في متجر الحلويات المرحب، متذكرًا ابتسامة ما كاسترد الرقيقة عندما كانت تراقبه وهو يختار أول قطعة حلوى سيتناولها في حياته.. فما الداعي إذن لأن يمكث في هذا المكان غير المرحِّب به؟

لكن ميرين ليس لديه القدر الكافي من الشجاعة الذي يجعله يرفض بشكل قاطع طاعة تيرتيوس فيوم. ومن ثم، وبعد مجهود خارق، رفع الجرة وصعد بها السلم الرخام. وبينما كان يقف على الدرجة العليا مترنحًا، متسائلًا في سره كيف يضع الجرة على الأرض دون أن يُسقطها على أصابع قدميه، خرج من بين الظلال هيئتان **سحريتان** ترتديان ملابس حربية مصنوعة من السلاسل، ووقفت كل منهما على جانب من الباب.

وبشكل متناغم، أخرجا خنجريهما، وبعد أن تقدما خطوة أخرى، رفعا الخنجرين إلى عنق ميرين، وأخذت شفرتاهما الحادتان تتلألآن في الضوء الأرجواني الذي يلقي به برج السحرة. ومن فرط ذعر ميرين، نسي قلقه على أصابع قدميه وترك الجرة تسقط بصوت مدوٍّ، ثم انطلق هاربًا.

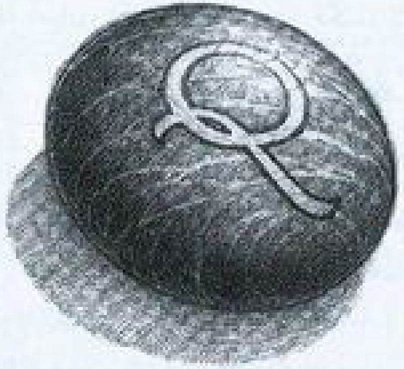
تراجع **حارسا المهمة الاستكشافية** للوراء وغرقا في الظلال مرة أخرى..

لم ينظر ميرين وراءه وانطلق جريًا، وهو ينزل درجات السلم قفزًا، ثم عبر الفناء مسرعًا. وهنا توقف ميرين وأخرج من جيبه ما بدا أنه كرة تنس.

خاطب ميرين الكرة قائلًا: «سلوث، خذني إلى أسرع طريق يؤدي إلى متجر ما كاسترد». فأخذت الكرة المتعقبة تقفز في مكانها ببطء لأعلى وأسفل كأنها تفكر، ثم انطلقت فجأة كالصاروخ وهي تنعطف يسارًا انعطافًا حادًّا متوجهة إلى طريق (النشالين) ذي النهاية المسدودة، ثم يمينًا إلى حانة «أنفاس الكلب المتداعي» رديئة السمعة. وكان متجر «ما كاسترد» يبعد حوالي ثلاثة أميال، لكنه لم يكترث؛ فكلما كان أكثر بعدًا عن رئيسه القديم كان ذلك أفضل. وتابع ميرين الكرة مارًّا بأنفاق مضاءة بشموع الأسل، وجسور مرتفعة مبنية بالطوب، وحدائق خلفية لا تُعد ولا تحصى، وبعد أن أصابه الإرهاق أخيرًا، كانت الكرة قد توارت عن أنظاره في ممر ضيق مظلم شُقَّ ليكون طريقًا. لكنه كان محظوظًا؛ إذ إن الممر أخذه مباشرة إلى متجر الحلويات، ومع وصوله لاهثًا رأى سلوث يقفز هناك، وينتظره بفارغ الصبر.

التقط ميرين الكرة ودسها في جيبه، ثم اقتحم متجر الحلويات. إنه سيحتاج الآن لملء شاحنة محملة بالكامل بثعابين العرقسوس حتى تساعده على تجاوز صدمة رؤية سيده القديم، وربما سيحتاج أيضًا إلى شربات الديدان المثلج، وبعض خيوط العنكبوت – بل *الكثير* منها.

25
الحصار



كان شبح دومدانيال *مستمتعًا بوقته*؛ فقد مضى وقت طويل منذ آخر مرة خرج فيها إلى مكان مثير للاهتمام. وكان قد ترتب على فقدانه خاتمه ذا الوجهين خروجه من عالم أشبه بعالم النسيان؛ عالم بين الأموات والأحياء، مكث فيه هو وشبحه بعد أن قامت مارشا **بعملية التعرف**. وكان نداء **التجمع** قويًا بالدرجة التي جعلت شبحه يتحرر من جسده.. وبما أنه بات شبحًا مهزوزًا بعض الشيء، لكنه أخيرًا خرج إلى العالم.

ولقد استمتع دومدانيال، على وجه الخصوص، بتأثيره الدراماتيكي الذي صاحب دخوله برج السحرة. وكانت النظرة التي علت وجه تلك

المرأة البشعة.. ترى، ماذا كان اسمها، أهو مخيفة أوفرلاند، أم شريرة أندرهاند؟ أيًا كان ذلك، لقد كانت تلك النظرة تستحق كل هذا الانتظار، كما أسعده أيضًا أن يقابل العزيز فيوم مرة أخرى. وكان هناك أشخاص آخرون استطاع أن يتعرف إليهم، منهم ذلك الفتى رث الثياب الذي يلبس خاتمًا تنينيًا، وهو تلميذ كما يشير إليه مظهره، لقد رأى الفتى من قبل.. في مكان ما.. ماذا كان *اسمه*؟ يا للهول! إن ذاكرته تكاد تكون قد محاها ذلك تمامًا؛ ذلك الشيء. لقد كان ذلك في غاية الظلم. لكن ما هذا الذي يسمعه؟ ما هذا؟ هل هناك من ينادي باسمه؟

كانت مارشا أوفرستراند بالفعل قد نطقت اسم دومدانيال وهي تقول: «دومدانيال.. لا يمكن! أنا لا أصدق ذلك. هذا من رابع المستحيلات».

بدت نشوة الانتصار على تيرتيوس فيوم، وقال: «من الواضح يا آنسة أوفرستراند أنه ليس مستحيلًا على الإطلاق. إن **التجمع** الآن أصبح مكتملًا».

وسعيدًا بتوجه كل الأنظار إليه، انحنى شبح دومدانيال بشكل مبالغ فيه لجمهوره ناسيًا في تلك اللحظة أنه بات شبحًا، حاول أن يلوح بقبعته الأسطوانية يحييهم، لكن يده الشبحية مرت مخترقة القبعة. وبشيء من الارتباك، وقف معتدلًا، ثم تحرك متجهًا إلى بؤرة الأحداث؛ نحو سبتيموس ومارشا التي كانت تستند في حيرة إلى السلم الحلزوني تراقب الحشد المتكدس وهو يفترق مفسحًا الطريق للشبح البدين وهو يتقدم نحوهما. حيا دومدانيال الشخصيات الثلاث الواقفة على السلم

بانحناءة أخرى، متذكرًا هذه المرة أن يترك قبعته لحالها، وردت مارشا على ابتسامته الزائفة بنظرة متنمرة.

يبدأ تيرتيوس فيوم يتحدث قائلًا: «لقد تم استدعاء **التجمع** لحضور المناسبة المصيرية لعملية السحب على **الرحلة الاستكشافية** رقم واحد وعشرين الخاصة بالتلامذة».

وانطلقت شهقة جماعية من حشد الأشباح المتجمع، كانت على وجه الخصوص مسموعة بوضوح من السحرة الأعظمين التسعة عشر الذين فقدوا تلامذتهم في **الرحلات الاستكشافية**.

قالت مارشا بنبرة حادة: «كفى سخفًا».

«ما كنت سأطلق على **التجمع** سخفًا لو كنت مكانك يا آنسة أوفرستراند». تلا ذلك همس بالموافقة من البهو، وأدركت مارشا أنها لا بد أن تتعامل مع الموقف بحرص.

«أنت عن عمد تغالط وتحمّل كلامي ما لم أنطق به يا سيد فيوم. إن ما قصدته بالتحديد بكلمة «سخفًا» هو فكرة أن سبتيموس ينبغي عليه أن يقوم بعملية السحب على **الرحلة الاستكشافية**. فهذا يتم - وأنت تعلم ذلك يا سيد فيوم - أثناء الساعة الأخيرة من فترة التلمذة. وتلميذي سبتيموس هيب لم يبدأ بعد السنة الثالثة - وهو بالتالي غير مؤهل لأن يقوم بعملية السحب على **الرحلة الاستكشافية**».

ضحك تيرتيوس فيوم وقال: «إن هذا ليس إلا من باب العادات والتقاليد أن يقوم التلميذ بعملية السحب في نهاية مدة تلمذته، فالسحب يمكن أن يتم في أي وقت»، ثم رفع الشبح صوته صائحًا بكلمة السر

للأبواب فانطلقت شهقة فزع من السحرة العاديين. فما من أحدٍ صاح قطُّ بكلمة السر لبرج السحرة - وهذا يُعد فألًا سيئًا للغاية وتصرفًا فظًّا إلى أقصى حد. لكن باب مدخل برج السحرة لم يكن بحساسية السحرة العاديين، وانفتح منصاعًا للأمر، ليكشف - ولدهش تيرتيوس فيوم - عن جرة **الرحلة الاستكشافية** تقف وحيدة لدى أعلى السلم؛ كأنها الضيف الأخير الذي وصل لتوه إلى الحفل، وانطلقت قهقهات من بعض السحرة العاديين الأصغر سنًّا.

تُرى، لماذا تقف الجرة هكذا بمفردها؟ أين ذلك الكاتب الغبي؟ هكذا تساءل شبح الأقبية في سره.

ثم نزل تيرتيوس فيوم من على السلم بقفزة رشيقة ما كان سيجرؤ على القيام بها وهو حي، وسار بخطى واسعة بين **التجمع**، ثم وقف في مركز البهو العظيم تمامًا وصاح مناديًا هيلدا جارد التي كانت الأقرب من الباب وقال لها: «أنتِ، أحضري **جرة الرحلة الاستكشافية** هنا!».

قالت مارشا: «لا تكن في عجلة من أمرك هكذا يا فيوم، لقد غاب عنك شيء - فأنت صوت من بين مجموعة من الأصوات. ربما أن لصوتك نبرة مرتفعة للغاية، لكنه يظل صوتًا واحدًا.. تُرى، ماذا سيكون رأي *الأغلبية*؟ ما الكلمة التي سيُجمع عليها **التجمع** حول هذا الأمر؟».

تنهد تيرتيوس فيوم بصوت مسموع.. وعلى مضض، خاطب الحشد المتجمع في البهو قائلًا: «أنتم أيها الأشباح **المتجمعون**.. هل توافقون على إحضار **جرة الرحلة الاستكشافية** إلى البهو هنا؟».

ولأن أكثر من سبعمائة وخمسين شبحًا لم تترك هباء أماكن إقامتها المريحة والدافئة في ليلة من الليالي العاصفة - يُعد طقسها هو ذلك النوع بالتحديد الذي يصعب على أي شبح تحمله - جاءت النتيجة بالموافقة على السحب مع اعتراض واحد وعشرين شبحًا فقط - هم التسعة عشر شبحًا التي فقدت تلامذتها في **الرحلات الاستكشافية**، بالإضافة إلى ألثر ميلا ومارشا؛ وبذلك أسفرت نتيجة التصويت عن إحضار **الجرة**.

وهنالك، بدأت دائرة زرقاء متسعة، في مركزها حرفا (ر.ا)، تظهر على سطح الأرض المضيء، مباشرة أسفل قدمي تيرتيوس فيوم الذي تراجع للوراء على الفور. ووضعت هيلدا جارد **الجرة** فوق الدائرة وهي تنظر لمارشا نظرة اعتذار.

كانت **جرة الرحلة الاستكشافية** جميلة وطويلة وأنيقة، وتلألأت أحجار اللازوردي التي ترصعها في ضوء الشموع الساطع، وأشعَّت الشرائط الذهبية المصقولة التي تلتف حولها بريقًا عميقًا، وكذلك كان بريق السدادة الذهبية الضخمة التي تسد فوهتها. وبرجفة سرت في جسم مارشا، تذكرت صباح اليوم الأخير من فترة تلمذتها على يد ألثر ميلا عندما رفعت نفس هذه السدادة، وتعلق فجأة مستقبلها كله حينها بين كفتين، كما تذكرت مدى سعادتها وابتهاجها وهي تسحب قطعة حجر لازوردي خالٍ من أي أثر للحرفين الذهبيين (ر.ا) اللذين كانا سيرسلانها بعيدًا عن القلعة إلى الأبد.

قال تيرتيوس فيوم وهو يحملق طويلًا في سبتيموس: «والآن أيها الفتى، لقد حان الوقت كي تقوم بالسحب. تقدم إلى هنا».

صاحت مارشا قائلة: «لا!»، ثم لفت ذراعها حول كتف سبتيموس تحميه وأردفت قائلة: «لن أسمح لسبتيموس بأن يقوم بعملية السحب».

رد عليها تيرتيوس فيوم قائلًا: «شئتِ أم أبيتِ، هذا لن يغير من الأمر شيئًا.. فكل منا - كما أشرت أنت، وكنت مُصيبةً تمامًا في ذلك - ليس إلا صوتًا واحدًا بين مجموعة من الأصوات. ومع ذلك، بصفتي الداعي إلى عقد هذا التجمع، مطلوب مني أن أعرض ذلك على الجمع إذا كنتِ ترغبين في ذلك».

كانت مارشا ترغب في ذلك، وإن كان أملها ضعيفًا في النجاح.

خاطب تيرتيوس الحشد في البهو قائلًا: «أيها الأشباح **المجتمعون** هنا في هذا البهو - هل تريدون أن يقوم التلميذ بعملية السحب؟».

مرة أخرى، جاءت نتيجة التصويت ساحقة في صالح عملية السحب، مع اعتراض الواحد وعشرين صوتًا السابقة مرة ثانية.. وكان لا مفر إذًا أمام سبتيموس من القيام بعملية السحب.

قال سبتيموس لمارشا: «سوف أقوم **بعملية السحب**. وعلى أية حال، أغلب الظن أني لن أسحب **الحجر الخاص بالرحلة الاستكشافية**، وسوف يعفيني ذلك على الأقل من القيام بهذه العملية في نهاية فترة التلمذة كما قمتِ أنتِ بها».

قالت مارشا: «لا يا سبتيموس. لا. هناك شيء غير مفهوم في الأمر.

ابتسم سبتيموس لمارشا وقال لها: «لا تقلقي عليَّ. وعلى أية حال، لن نستطيع أن نتخلص من هذا الحشد إلا إذا قمت بالسحب». وبدون أن ينتظر رد مارشا، دخل وسط حشد الأشباح التي شقت له طريقًا بينها باحترام. ومع اقترابه من **جرة الرحلة الاستكشافية**، قام شبح – تلطخ جانب وجهه بغزارة ببقع من الدم – بمد ذراعه في طريق سبتيموس؛ فتوقف غير راغب في **اختراق** هذا الشبح.

همس له الشبح قائلًا: «اسمع أيها التلميذ، أخشى أنك لن تتمكن من الفرار من هذه **الرحلة الاستكشافية**، لكن انتبه لما سأقوله لك: عندما تمسك **بالحجر**، اهرب من حراس **الرحلة الاستكشافية**؛ وبذلك ستكون قد فررت من أسوأ الأخطار»، ثم أنزل الشبح ذراعه حتى يسمح لسبتيموس بالمرور.

«ياه! همم.. أشكرك»، هكذا همس له سبتيموس، وقد بدأت مخاطر الوضع تتبدى أمامه.

وما إن بدأ سبتيموس يواصل السير – بمزيد من التردد الآن – متوجهًا نحو **جرة الرحلة الاستكشافية** حتى سمع شبحًا يقف إلى جوار الشبح الذي حدثه توًّا يقول لهذا الشبح: «ما كان ينبغي عليك أن تخبره بذلك يا موريس».

ارتجف موريس ماكموهان – وهو ساحر أعظم سابق منذ نحو ثلاثمائة عام، وكان قد فقد تلميذه الذي كان يكنُّ له حبًّا كبيرًا في **رحلة استكشافية** – ورد قائلًا: «وما المانع في ذلك؟ إن هناك أسرارًا عديدة في المكان هنا. وكنت سأنبه تلميذي لو كان تسنى لي معرفة ذلك حينها. فلنمنح الفتى فرصة القتال».

رد زميله قائلًا: «إن مسئولية ذلك سوف تقع على رأسك. أخ! أنا آسف يا موريس، لم أقصد ما قلته»؛ إذ إن موريس ماكموهان قُتل على إثر سقوط شمعدان من نافذة بالطابق الثامن عشر من برج السحرة، وتعلو رأسه ندبة مزعجة على شكل الشمعدان.

وبينما كان سبتيموس يمر وسط الأشباح التي بات يخيم عليها الصمت، ظهر ألثر إلى جواره وأخبره بما يعرفه عن **الرحلات الاستكشافية** – فألثر يعرف تمامًا ما الذي سيحدث لو أن سبتيموس تصادف وسحب **حجر الرحلة الاستكشافية**، وحينها لن يكون هناك وقت للكلام.

ومع تحرك سبتيموس وألثر نحو **جرة الرحلة الاستكشافية**، كانت جدران برج السحرة التي في المعتاد تُعرض صورًا يملؤها المرح لأحداث مهمة مرت على برج السحرة – قد بدأت تعرض صورًا لتلامذة سابقين يستعدون للانطلاق في **الرحلات الاستكشافية**، وكانت هذه الصور أبعد ما تكون عن المرح؛ إذ كانت هناك لحظات وداع يملؤها الحزن مع خروج التلميذ إلى **الرحلة الاستكشافية** في حراسة تيرتيوس فيوم وسبعة حراس أشداء من **حراس هذه الرحلة**. بعض التلامذة رحلوا بشجاعة، وبعضهم رحلوا والدموع تذرف من عيونهم، وحاولت إحدى الفتيات – وقد غاب عنها حينها أن تيرتيوس فيوم شبح – أن تلكمه في أنفه؛ مما ترتب عليه سماع بعض القهقهات في البهو العظيم، ولكن بدأ كثير من الأشباح تتذكر الآن، مع رؤية الصور، الأبعاد الحقيقية لعملية شحن التلميذ على متن مركب في **الرحلة الاستكشافية**، وبدأت تندم على مساندتها لعملية **السحب**، لكن الأوان قد فات لكي تغير رأيها.

تراجع ألثر للوراء ووقف بين حشد الأشباح، ووسط همس يملؤه الحماس وصل سبتيموس إلى **جرة الرحلة الاستكشافية**، وكانت الأجواء في برج السحرة مشحونة، ونظر إلى **الجرة** التي يكاد يكون ارتفاعها بارتفاع قامته، وبدا له أنها بدورها تنظر إليه. تردد للحظات، متذكرًا كلمات مارشا؛ إذ إن هناك بالفعل شيئًا مريبًا في الأمر؛ شيئًا يحمل **سحرًا أسود** في الأنحاء. لا - إنه ليس في الأنحاء، بل داخل **الجرة** نفسها.

كان تيرتيوس فيوم قد بدأ ينفد صبره، وقال آمرًا: «اسحب».

لكن سبتيموس لم يتحرك.

قال له تيرتيوس: «هل أنت أصم يا فتى؟ قلت لك *اسحب!*».

مد سبتيموس يده كأنه سيرفع السدادة من فوهة **جرة الرحلة الاستكشافية**، إلا أنه بدلًا من ذلك رفع يده اليمنى ورسم دائرة بسبابته وإبهامه - وهي الرمز الكلاسيكي المستخدم في تعويذة **الرؤية** - وهي تعويذة من النوع المتطور تستطيع أن تنفذ بالرؤية عبر المعادن والأحجار النفيسة.

صاح تيرتيوس فيوم قائلًا: «غشاش! أنت تحاول أن **ترى** ما بداخل **الجرة**. *غشاش!*».

قال سبتيموس مع انتقال صوته بوضوح وسط الصمت الذاهل الذي خيم على الجميع: «لست أنا الغشاش. فلست أنا الذي وضع **شيئًا** داخل **الجرة** ينتظر لأن يضع **حجر الرحلة الاستكشافية** في يدي».

ومن فرط غضب تيرتيوس فيوم وقف شبه عاجز عن الكلام، ثم قال: «كيف تجرؤ على هذا؟ سأعطيك فرصة أخيرة كي تكفّر عن الذنب الذي اقترفته. ارفع السدادة واسحب **الحجر!**».

«لا، لن أسحبه».

قال تيرتيوس وقد بدا أنه على وشك الانفجار: «بل ستسحب **الحجر!**».

وجاء صوت مارشا من وراء تلميذها: «لا، *لن يفعل*».

قال تيرتيوس فيوم بارتياب: «هل معنى ذلك أنكِ أنتِ وتلميذك ترفضان حكم **التجمع**؟».

ردت مارشا قائلة: «أنا أقول لك إن تلميذي لن يقوم بعملية السحب. وإن كان هذا يعني أننا نرفض أيضًا حكم **التجمع** فليكن».

وانتشرت في أنحاء البهو العظيم همهمة عالية - تُرى، هل حدث ذلك من قبل؟ لا أحد يظن ذلك. وتعاطف الكثيرون مع مارشا، لكن كانت هناك كتلة مركزية من الأشباح المتمسكة بالقوانين تستشيط غضبًا، وتطورت الهمهمة إلى صخب مع اندلاع المناقشات الحامية.

صاح تيرتيوس فيوم قائلًا: «صمتًا!»، ثم حدق إلى سبتيموس وقال: «سأعطيك فرصة واحدة أخيرة كي تقبل حكم **التجمع** وإلا ستكون العواقب وخيمة. اسحب *الحجر.. فورًا!*».

تردد سبتيموس؛ إذ ربما أنه من الأفضل أن يقوم بعملية السحب.. هل يتسبب في تعريض الجميع للخطر؟ ضغطت مارشا على كتفه، وسمعها تهمس له قائلة: «لا، لا تسحب».

رد سبتيموس قائلًا: «لا، لن أسحب».

وتبدلت نظرة الاندهاش العابرة التي علت وجه تيرتيوس فيوم إلى نظرة ساخطة، ثم صاح بصوت مجلجل: «إذن، ليس أمامي خيار آخر سوى وضع برج السحرة تحت **الحصار** حتى تقبل حكم **التجمع**».

وتطاير من عيني مارشا الخضراوين شرر غاضب، وقالت لتيرتيوس بصوت يرتجف من فرط الغضب: «لن تجرؤ على هذا».

التبس الأمر على تيرتيوس فيوم وظن أن الرجفة التي علت صوت مارشا مصدرها الخوف، فضحك قائلًا: «بل *تأكدي تمامًا* أني أجرؤ على هذا»، وبدأ ينشد سيلًا من الكلمات السريعة والغاضبة، فانطلقت صيحة يملؤها الذعر من السحرة العاديين.

همست مارشا لسبتيموس قائلة: «أسرع يا سبتيموس. لا بد أن تخرج من هنا فورًا.. اخرج عبر الأنفاق الجليدية .. أنت تعرف الطريق. غادر القلعة.. اذهب إلى العمة زيلدا.. أو إلى إخوتك في الغابة. وعندما يستتب الأمن هنا سأخرج أبحث عنك **وساعثر** عليك أينما كنت.. *أعدك بذلك*».

«لكن...».

«سبتيموس، إن الأمر لن يستغرق سوى دقيقتين وتسع وأربعين ثانية وسوف نكون بعد ذلك في حالة **حصار**. هيا انطلق!».

وفجأة قال ألثر لسبتيموس من خلفه: «لا بد أن ترحل، في الحال!».

أطفأت مارشا كل الشموع، وبدأ بعض السحرة الأكثر توترًا يصرخون وغرق البهو في الظلام، وكان الضوء الوحيد الموجود هو ذلك الصادر

عن الصور الكئيبة المتعاقبة التي كانت تظهر على الجدران، لكن تيرتيوس فيوم لم يلحظ أيًا من ذلك. ومع وصوله إلى منتصف الرقية التي كان يرتلها لفرض **الحصار**، كان صوته يرتل بإيقاع متواصل لا ينقطع بينما كانت الأجواء في برج السحرة قد امتلأت بالكلمات **السحرية** القديمة للرقية، جعلت الأحياء يرتجفون من أعماقهم من فرط الرعب وأرسلت الخوف إلى الأموات.

«سِب!» هكذا همست جينا، ثم أمسكته من يده وسحبته من وسط حشد الأشباح التي تراجع بعضها حتى تسمح لهما بالمرور، لكن العديد منها لم يتراجع وكان يتم **اختراقه**، وكان تذمرها يضيع وسط صدى صوت تيرتيوس فيوم الذي استمر يعلو أكثر فأكثر. أخذ سبتيموس يجري، بينما كان يسمع وراءه وقع أقدام أولر الثقيلة، وعلم أن بيتل خلف أولر، هذا بكل تأكيد؛ فهو يشتم رائحة الليمون المميزة لزيت الشعر الذي بدأ بيتل في الأونة الأخيرة، ولأسباب مجهولة، يستخدمه.

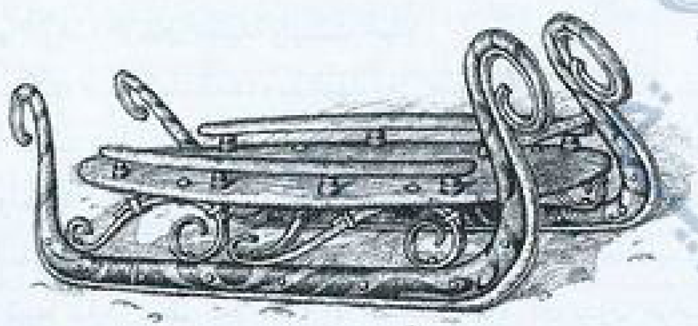
وما إن وصلوا إلى صف السحرة العاديين من الأحياء حتى دلتهم عشرات الأيادي المؤازرة إلى دولاب المكانس، والذي كان مكدسًا إلى حد الانفجار، لكن كان قد شُقَّ لهم وبسرعة ممر يمرون منه.. وبسرعة أكبر بكثير لمرور أولر، وبمساعدة بريق الخاتم التنيني، عثر سبتيموس في التوّ على المزلاج الذي يفتح الباب المخفي المؤدي إلى الأنفاق الجليدية، وما إن دفعه وفتحه حتى وجد لدهشه هيلدا جارد في انتظارهم. وهنا، دست هيلدا شيئًا بقوة في يده وهي تقول له: «خذ معك **الوصفة السحرية للسلامة** الخاصة بي».

همهم سبتيموس قائلًا: «أشكرك»، ثم دسها في جيبه وانطلق من الباب، تتبعه عن قرب چينا وبيتل وأولر. وفي اللحظة التي تلقوا فيها صدمة الهواء البارد للأنفاق الجليدية، كان تيرتيوس فيوم يصيح بنبرة تعلوها نشوة الانتصار قائلًا: «**فُرض الحصار**!».

وعلى الفور، صُفق الباب الذي يُفتح على الأنفاق الجليدية، وسمع سبتيموس ورفقاؤه *أزيزًا معدنيًا* مكتومًا مع **غلق** الباب بالمتاريس- وفي هذه اللحظة تحديدًا، كان شاغلو البهو العظيم المكدس بهم يسمعون القضبان الحديدية الضخمة لباب مدخل برج السحرة وهي تنزلق بعرض الباب وتحولهم إلى سجناء، ثم سمعوا - وقد **خمدت** كل الأنوار والأصوات **السحرية** في برج السحرة - صرخة مختنقة يملؤها الهلع والفزع.

لقد بدأ **الحصار**.

26
الهروب



وهكذا *عاد بيتل مرة أخرى إلى منطقته الخاصة به*، وعلم كيف سيتصرف، فأخرج الكبريت من جيبه وأشعل به مصباح الأنفاق الخاص به، فأظهر الضوء الأزرق للمصباح قلبة سلم شديد الانحدار محفور في الجليد ويختفي نزولًا وسط الظلام. بدأ بيتل وسبتيموس - وهما يألفان هذا السلم - ينزلان، بينما توقفت چينا وأولر في الخلف.

ثم سألتهما قائلة: «لكن، إلى أين سيأخذنا هذا السلم؟».

وكان سبتيموس، من كثرة الحكايات التي كان يحكيها لجينا عن الأنفاق الجليدية، قد غاب عنه أنها في واقع الأمر لم تنزل إلى هنا من قبل، بل إنه في الواقع عانى كثيرًا في بادئ الأمر حتى يقنعها بأن هذه الأنفاق موجودة فعلًا، وكان كلما ذكر لها شيئًا عنها خالجه إحساس بأنها لا تصدقه. ولقد رأى الآن – وهو يمد إليها يده – الاندهاش في عينيها مع إدراكها أن هذه الأنفاق حقيقة وليست خيالًا.

أمسكت جينا باليد الممدودة إليها، وفي صحبة أولر الذي كان يسير وراءها تابعت خطى سبتيموس في نزول السلم الذي كان مكسوًا بثلوج هشة ولم يكن زلقًا كما كانت تتوقع. وبعد وصولهم إلى آخر درج السلم، مروا أسفل مدخل مقنطر مدبب يرتفع سقفه عاليًا، كان في المعتاد يجلس عنده شبح ساحر أعظم لحراسته؛ إلا أنه هذه المرة كان بدون حراسة؛ لانشغال الشبح في أمور أخرى بالبرج أعلاهم. ومع فرحة سبتيموس بأنه لن يضطر لأن يُعرف الشبح بنفسه – إذ إن هذا الشبح كان قد استقر به الرأي على أن سبتيموس، والذي كان يُزعجه ذلك، ليس من التلامذة الأذكياء – تابع خطى بيتل عبر المدخل المقنطر، واتجهوا إلى الأنفاق القادمة من برج السحرة. كان مصباح بيتل الأزرق يضيء النفق الطويل والأسطح المتلألئة ببلايين البلورات الثلجية التي تمتد إلى مسافات بعيدة أمامهم، وسمع سبتيموس جينا وهي تهمس قائلة: «*ما أروع ذلك!*».

فابتسم ابتسامة عريضة وقال لها: «لقد قلت لكِ إنها مدهشة».

«لكن ليس *بهذا الشكل*. ما كنت أدري ذلك. ما كل هذا الكم من الجليد؟ إنه غريب جدًا.. وبرودته تجمد الدم في العروق». وكانت أنفاسهم تتعلق في الهواء البارد كالثلج على هيئة سحب بيضاء ممتدة، ورأت جينا أنها لم تشعر قط من قبل بمثل هذا البرد.. لا، لقد شعرت بمثله يومًا، لكنها لا تتذكر ذلك.

كان هناك شيء ما في الأنفاق الجليدية جعلها تشعر بقشعريرة، ولم يكن ذلك بسبب البرد القارس فحسب، فقد كانت واثقة من أنها تسمع تأوهات خافتة يتردد صداها بعيدًا من مكان ما. ومما زاد من شعورها بالقشعريرة ذلك الضوء الأزرق الصادر عن مصباح بيتل الذي جعل وجوههم يغلب عليها طابع الأموات وبدت عيونهم داكنة يملؤها الخوف.

همست جينا لأولر بطريقة سنوري: «تعال يا أولر»، ثم أجرت يدها عبر فروته الضخمة الدافئة التي بدأت تنفش وتتصلب بطول ظهره، وكان في وسعها أن تشعر به في حالة من اليقظة والانتباه، ثم سألتهما: «وأين طريق الخروج؟».

قال سبتيموس: «انتظري لحظة يا جينا»، ثم أخرج صفارة فضية من جيب حزام التلامذة الذي يرتديه وصفر بها، لكنها لم تعمل. فأخرجها من فمه، وهزها، ثم صفر بها مرة ثانية لكنْ شيئًا لم يحدث!

قال له بيتل يحذره: «احترس يا سِب! أنت لا تحتاج لأن تصفر بالصفارة إلا مرة واحدة فقط، ولا داعي أن تزعجها؛ فزحلوقة برج السحرة حساسة. ولقد سمعت أن الخوف يتملكها وتهرب بعيدًا إذا ما صفرت لها بصوت عالٍ».

رد سبتيموس معترضًا: «لكن الصفارة لا تعمل».

«إن صوتها غير مسموع، والزحلوقة فقط هي التي تسمعها. بل إن الطريقة الوحيدة في واقع الأمر التي تجعلك تعلم أن الصفارة لا تعمل هي أن تسمع لها صوتًا، أفهمت الآن؟».

«ليس تمامًا، لكن...».

قاطعه بيتل قائلًا: «صه! هل سمعت ذلك الصوت؟».

«لا.. أي صوت؟!».

«ياه! سحقًا». فما عاد صوت التأوهات الآن خافتًا أو بعيدًا، بل كان يزداد علوًا وقربًا مع كل لحظة.. «يا للهول! إنها هيلدا الأواهة. لم أتخيل أنها ستأتي من هذا الطريق».

«هيلدا الأواهة؟» هكذا سألته چينا وهي تقبض بقوة على أولر، وكان في وسعها أن تشعر بعضلات القط الضخم وهي تشتد وتبرز، مع استعداده للفرار.

«إنها شبح الجليد. بسرعة.. ارجعوا للوراء أسفل المدخل المقنطر، ومهما حدث، *لا تتنفسوا أثناء مرورها*. مفهوم؟».

وهبت ريح جامحة وهي تزأر على امتداد النفق، وتطير معها طبقات الندى المتجمدة من على أسطح الجدران وتنشرها في الهواء على هيئة ضباب أبيض. وعلى الفور، قفزوا جميعًا أسفل المدخل المقنطر يحتمون فيه، وبدأ نواح شبح الجليد بصوته المجلجل الأجوف يملأ الأجواء في النفق. أطلق أولر عويلًا، وعلى الفور غطت چينا أذني النمر الأسود الحساستين بيديها. وفي لحظة، كان قد مر بهم كالصاروخ تيار قوي من

الهواء شديد البرودة، واجتاح چينا إحساس بأنها تُسحب تحت سطح مياه باردة كالثلج. فالتفت بشكل لاإرادي، وأغمضت عينيها ثم سدت أنفها مع امتلاء أجواء النفق بـآآآآآآآآآآآه طويلة للغاية تخرق الآذان، ثم رحلت هيلدا بعيدًا عنهم، وواصلت طريقها وهي تترنح بشكل خطير من جانب لآخر وتصرخ عبر الأنفاق، كما تفعل دائمًا منذ مئات السنين.

ثم انبثقت چينا وأولر وبيتل وسبتيموس من خلف المدخل المقنطر، وهمست چينا قائلة: «لقد كان ذلك بشعًا».

رد بيتل بنبرة مرحة: «إن هيلدا لا بأس بها، وأنت ستعتادينها بعد ذلك، فأول مرة دائمًا تكون صادمة. ياه! انظروا! ها هي»، ورفع بيتل مصباحه يضيء به النفق أمامهم، فانعكس وميض ذهبي للضوء الأزرق الذي يلقيه المصباح؛ كانت زحلوقة برج السحرة تتقدم بصمت نحوهم على امتداد النفق، مع انزلاق زوج مجاري عجلاتها الأنيقة بانسياب على الجليد. وبهسيس ناعم توقفت الزحلوقة أمامهم، وفركت طرفها في ركبة سبتيموس كما يفعل كلب الصيد الوفي.

قالت چينا وهي تشهق، وقد بدأ ينمو لديها تقدير كبير للأعمال الفاخرة المشغولة بالذهب: «إنها فعلا جميلة».

قال سبتيموس بفخر وهو يلتقط الحبل الأرجواني: «فعلًا، ما رأيك؟ إنها زحلوقتي، أو هي هكذا ما دمتُ التلميذ - وإن كنت لا أدري كم سيدوم هذا».

قالت چينا التي بدأت تشعر بالمرح إلى حد كبير الآن بعد وصول الزحلوقة: «لا تكن أبله يا سِب، ستظل أنت التلميذ لسنوات طويلة».

ثم عقب بيتل بنبرة كئيبة وقال: «لا أحد يدري كم سيدوم حال أي شيء».

ثم قال في سره كم أنه سيفتقد زحلوقته القديمة البالية التي كان يقوم بها بمهمات التفتيش، وكم أنه سيفتقد كثيرًا اللفات العكسية المزدوجة التي كان يقوم بها، وأزيزها.

قالت جينا: «ياه! أنا آسفة جدًا يا بيتل، لم أقصد ...».

غمغم بيتل قائلًا: «لا بأس».

فسأله سبتيموس: «*ما الأمر*؟».

رد بيتل بنبرة متذمرة: «لا شيء»، سوف أخبرك فيما بعد. *هيا بنا الآن* يا سِب، هل ستقود هذا الشيء أم ستظل تُحدق به؟».

«اهدأ ولا تغضب هكذا يا بيتل، فهذا هو ما *أفعله* الآن». وبحذر، صعد سبتيموس على مقدمة الزحلوقة وهو شبه متوقع أنها ستنطلق به كالصاروخ، إلا أنها انتظرت بصبر أثناء إصرار جينا على صعود بيتل بعد سبتيموس حتى تستطيع أن تجلس هي في المؤخرة وتتأكد من أن أولر يتبعهم؛ فالزحلوقة كانت بالكاد تسع ثلاثتهم، ولا مجال إذن للحديث عن نمر أسود ضخم.

وببطء، بدأت زحلوقة برج السحرة التي تحمل حمولة ثقيلة تتزحلق على امتداد النفق، يتبعها أولر عن قرب في طاعة، وسرعان ما كانت تزحف نزولًا ما اعتبره سبتيموس منحدرًا خطيرًا شديد الانحدار.

قال بيتل وهو لا يستوعب بسهولة دوره الجديد كراكب: «أحب أن ألفت نظرك إلى أن الانطلاق بسرعة تزيد على سرعة القواقع لا يُعد *خرقًا للقانون*».

رد سبتيموس عليه بنبرة سريعة الانفعال مدركًا تمامًا رأي بيتل في مهاراته في التزحلق: «كفى يا بيتل، أنا في مرحلة تعوُّدها الآن».

ولدى قاع المنحدر، تغلب سبتيموس على منعطفين سهلين، ثم زحف لأعلى على منحدر طفيف وقاد الزحلوقة بعد ذلك ببطء على امتداد مسار مكسو بأنعم جليد رآه بيتل في حياته. وتنهد بيتل بصوت مسموع، محاولًا ألا يفكر في السرعة المدهشة التي يستطيع أن يصل إليها هو بزحلوقة السحرة على جليد رائع بهذا الشكل.

وبعد أن اقتربوا من تفريعة، سأله سبتيموس: «بيتل، أي اتجاه سنسلك؟».

قال بيتل بشيء من السلبية: «هذا يتوقف على وجهتك».

رد سبتيموس قائلًا: «أي مكان خارج القلعة، كما قالت مارشا، فيما عدا موضوع الغابة أو العمة زيلدا. فنحن ذاهبون للبحث عن نكو وسنوري، أليس كذلك يا جين؟».

غمغمت جينا قائلة: «هممم، لا بد أولًا أن نجلب...».

لكن لا بيتل ولا سبتيموس سمعاها، ثم قال بيتل بنبرة متذمرة: «إذن، أي طريق تريد أن نسلكه الآن؟ قرر».

قال له سبتيموس: «بيتل، ما خطبك؟ إنك تبدو كدب مصاب بصداع».

رد بيتل بنبرة حادة: «ربما لأنك تزحف بالزحلوقة كأنك سيدة عجوز تدفع أمامها عربة بضائعها».

«هذا غير صحيح. اصمت الآن يا بيتل».

ثم قالت چينا: «لا تضغط عليه يا سِب، إنه محبط؛ فقد فصلته چيلي دچين ظهر اليوم».

بدا الذعر على سبتيموس وقال: «*ماذا قلتِ*؟ أنا لا *أصدق* ذلك. مستحيل أن تكون قد فعلت ذلك. ما الذي سيجعلها تقدِم على هذا التصرف الأحمق؟».

«إنه بالفعل تصرف أحمق، لكن هذا هو ما فعلته. يا لها من امرأة مزعجة!».

فسأله سبتيموس: «ولماذا لم تخبرني من قبل؟».

ردت چينا قائلة: «إنه لا يريد أن يتحدث في الأمر».

قال سبتيموس: «فهمت. أنا فعلًا يؤسفني ذلك جدًا يا بيتل».

همهم بيتل قائلًا: «لا بأس. دعنا نواصل طريقنا الآن».

أخذت چينا نفسًا عميقًا؛ لقد حانت اللحظة التي كانت تخشاها، وقالت: «سِب، الخريطة. هناك مشكلة في موضوع الخريطة».

«نعم نعم، تقصدين أننا لا بد أن نذهب إلى القصر لنأخذها من هناك».

قالت چينا بنبرة يائسة: «لا. فقد حدث ما لا تعرفه».

بعد نصف ساعة، في سراديب دار المخطوطات الهادئة ذات الطلاء الأبيض الناصع، كان إيفانيا جريب يستقبل الدفعة الثانية من الزوار الذين حضروا على نحو غير متوقع في نفس اليوم، ولقد أسعده كثيرًا رؤية بيتل والأميرة چينا مرة أخرى بهذه السرعة. كما أن مقابلة تلميذ الساحرة العظمى الشاب كانت شيئًا يود أن يقوم به منذ أن وصل سبتيموس إلى برج السحرة - أما عن النمر الأسود فكانت رؤيته صدمة مزعجة.. مزعجة جدًا بالفعل.

وكان إيفانيا جُرذًا أكثر مما يبدو عليه، ولقد بذلت مورينا كل ما في وسعها كي يبدو بقدر المستطاع أشبه بالبشر، لكن إيفانيا جريب ظل في جوهره جُرذًا - وأولر علم ذلك. وبعد أن باتت مسألة فرق الحجم لا تمثل لأولر عقبة الآن، انتابته بالتالي رغبة لأن يجرب حظه مع الجُرذ العملاق. لكن أولر كائن مخلص، ولقد قالت له چينا بحزم تام: «لا يا أولر، لا!» ومن ثم، تمدد النمر الأسود بكآبة عند قدميها - لكن الطرف البرتقالي لذيله ظل يرتجف، ولم يرفع عينيه الخضراوين البراقتين ولو لحظة واحدة عن إيفانيا.

ومع إدراك إيفانيا بكل تأكيد أنه مراقب من أكبر قط رآه في حياته، بذل قصارى جهده كي يحتفظ بتركيزه بينما كانوا جميعًا محتشدين حول مائدة العمل، ينظرون في كومة قصاصات الورق الصغيرة المختلطة التي تفترش المائدة، والتي كانت تمثل خريطة سنوري وقد باتت أشبه بالأوراق الملونة المستخدمة في الاحتفالات.

وكان سبتيموس يقول بنبرة كئيبة: «إن تعويذة **البحث** لم تنجح. وليس في وسعي رؤية القطعة المفقودة في أي مكان».

سألته چينا: «أواثق أنت؟».

«بالطبع، فأنا دائمًا ما أحصل في رأسي على صورة مبدئية للمكان الذي يوجد فيه الشيء الذي **أبحث** عنه. ولقد قمت الأسبوع الماضي بعملية **بحث** عن أحد جواربي ووجدته في إبريق القهوة، ولم أصدق ما شاهدته في ذهني عندما رأيت صورة غريبة تُظهر جوربي طافيًا على سطح القهوة، لكن عندما نظرت في الإبريق وجدته. إن **عمليات البحث** التي أقوم بها دائمًا تنجح يا چين، صدقيني».

تنهدت چينا وقالت: «أعلم ذلك. لكن المسألة أني كنت أتمنى فحسب.. في حقيقة الأمر، أنا لم يساورني *أدنى شك* في أنك ستعثر عليه».

كان أمام إيفانيا قلمه وورقه المألوف، وكتب الكلمات التالية: ***ما مجال عملية بحثك؟***

أخذ سبتيموس القلم وبدأ يكتب الرد، لكن چينا قاطعته قائلة: «إن السيد جريب يستطيع أن يسمعك يا سِب. إنه لا يستطيع فقط أن يتحدث، هذا كل ما في الأمر».

قال سبتيموس وقد بدا عليه الحرج: «ياه! أنا آسف، لقد قمت بذلك تلقائيًا».

وضع إيفانيا جريب بطاقة مطوية عند ركنه أمام سبتيموس مكتوبًا عليها التالي: ***لا تشغل بالك؛ إنه خطأ عفوي يقع فيه الكثيرون.***

ابتسم سبتيموس، وتلقى في المقابل ومضة متلألئة من عيني إيفانيا الخضراوين، تصاحبها رجفة وخشخشة الوشاح الحريري الأبيض الذي يلف وجهه أسفل عينيه، ثم رد سبتيموس قائلًا: «على مدى نحو ميل».

هل شمل ذلك كل الأماكن التي كانت فيها الخريطة عندما كانت معكم؟

«نعم، بدون أدنى مجال للشك».

إذن، يبدو أن القطعة قد فُقدت. ربما أن طائرًا طار بها بعيدًا ليفرش بها عشه، أو أن الرياح طيرتها إلى النهر. لا أحد يعلم.

قالت چينا: «إيفانيا، هل تستطيع أن تعيد تجميع الخريطة بدون هذه القطعة؟ فعلى الأقل سيكون معنا حينها معظم الخريطة».

إن عملية التجميع الناقصة تولد قدرًا كبيرًا من الحرارة، وهناك احتمال أن تشتعل النار في قصاصات الورق.

قالت چينا وهي تنظر إلى سبتيموس وبيتل: «إن الأمر يستحق المحاولة» فأومأ لها الفتيان برأسيهما.

ابتسمت عينا إيفانيا وانحنى انحناءة قصيرة لچينا؛ فهو يحب الأعمال التي تتضمن شيئًا من التحدي، ***لقد قمت أصلًا بتغطية كل قصاصة بسائل مخلوط، وأعطيت الأركان اهتمامًا خاصًا، وأنا الآن سأختار الوصفتين السحريتين.*** ثم رفع سدادة قارورة زجاجية كبيرة؛ كان بداخلها مجموعة من الأقراص المخططة باللونين الأصفر والأسود، والتي تعرفتها چينا في الحال وعلمت أنها **وصفات سحرية**.

برجاء التراجع إلى الخلف.

فانسحبوا بعيدًا حتى مدخل الباب وأخذوا يراقبون. حرك كاتب الصيانة **الوصفتين السحريتين** فوق كل قصاصات الورق من أصغرها إلى أكبرها، ممسكًا كلًّا منها بيد، بين ظفري إبهامه وسبابته الطويلين. وبينما كان يفعل ذلك ظهرت غشاوة صفراء باهتة فوق المائدة واستقرت فوق قصاصات الورق كأنها طبقة من الضباب الرقيق، ثم رفع إيفانيا ذراعيه وكأنه يقود فرقة موسيقية غير مرئية وبسط يديه الطويلتين المتسختين، موجهًا كفيه قبالة المائدة؛ فبدأت **الوصفتان السحريتان** تنجرفان للأسفل كأنهما نحلتان ضخمتان كسولان، ثم بدأتا تلفان في الاتجاه المعاكس فوق الضباب، بينما كان إيفانيا يقوم بحركات **تجميع** طويلة وبطيئة فوق القصاصات، ثم ملأت الأجواء رائحة الورق الساخن، فأغمضت چينا عينيها.. فإذا كانت الخريطة ستشب فيها النار فهي لا تريد أن ترى هذا المشهد.

وفجأة، أطلق إيفانيا صريرًا عاليًا، ثم أخذ سبتيموس وبيتل يصفقان، وفتحت چينا عينيها في نفس اللحظة التي كانت الطبقة البيضاء تلتف فيها حول نفسها وتتجمع كاشفةً عن قطعة ورق كبيرة أسفلها.. وباتت الخريطة **مجمعة** من جديد.

التف إيفانيا إلى جمهوره وانحنى يشكرهم، ثم أشار إليهم بالتقدم.. ولم تصدق چينا نفسها وهي ترى الخريطة في هذه الحالة الجيدة؛ إذ كانت ملساء ومستوية، وبدت وكأنها لم تُطوَ قط من قبل.. ناهيك عن تمزقها إربًا إربًا وانسحاقها أسفل الأقدام، وكانت الخطوط التي رسمتها سنوري تتسم بالحيوية والوضوح، وتشير إلى تفاصيل عديدة. وللحظة،

ظنت چينا أن إيفانيا كان مخطئًا، وأن الخريطة مكتملة، لكن سبتيموس صحح لها الأمر على الفور.

وقال: «هناك ثقب في مركز الخريطة، *ثقب معتبر*».

وكان ذلك صحيحًا. وفي مكان ما داخل هذا *الثقب* يوجد بيت حيوانات الفوريكس؛ المكان الذي تتلاقى فيه كل الأزمان.

رفضت چينا أن يثبط ذلك من عزيمتها، وقالت: «لا يهم. فالجزء الموجود من الخريطة يكفي لأن يقودنا إلى معظم الطريق، ولدى وصولنا إلى المنطقة الموجود فيها الثقب، على الأرجح سنتمكن من رؤية بيت الفوريكس».

رد سبتيموس عليها قائلًا: «لكن سنوري كانت قد رسمت أشياء عديدة على الجزء الناقص، ألا تتذكرين ذلك؟ وأنا أراهن أن هذه الرسوم كانت مهمة».

قالت چينا وقد بدا عليها الاختناق وتمنت أن ينظر سبتيموس ولو لمرة واحدة إلى الجانب المشرق من الأمور: «أنت لست متأكدًا من ذلك. اسمع يا سِب، أنا ذاهبة سواء جئت معي أم لا. وسوف أستأجر مركب الميناء وأبحث عن سفينة ثم...».

«بالله عليك، انتظري لحظة يا چين.. أنا بالطبع ذاهب معك.. حاولي أن تمنعيني إن استطعت. وبيتل أيضًا سوف يأتي معنا، أليس كذلك يا بيتل؟».

«*من، أنا؟*».

قالت چينا: «أرجوك يا بيتل تعال معنا، *أرجوك*».

تملك بيتل الذهول من أن جينا تريده أن يذهب معهما. وفجأة، شعر أنه أصبح حرًا؛ فما عاد الآن مقيدًا ليل نهار في دار المخطوطات؛ إنه يستطيع أن يفعل ما يشاء؛ يستطيع أن يعيش حياته كما يريد ويقوم بنوعية الأعمال المثيرة التي يقوم بها سبتيموس. ما أروع ذلك! لكن... ثم تنهد، فهناك دائمًا لكن!

وقال: «لا بد أن أخبر أمي، وسوف يصيبها ذلك بالهلع».

27

الجرذان الرسل



كان برج *مراقبة البوابة الشرقية*، للغرابة، يقع لدى الجانب الغربي من القلعة - فقد نُقل هذا البرج بناءً على أوامر ملكة صعبة الإرضاء جدًا، وكان ذلك منذ سنوات عديدة مضت حتى إنه لم يعد أحد يتذكر الآن سبب نقله، وجثم البرج الصغير المستدير بهيئة مرحة فوق السطح العريض لأسوار القلعة. وإذا صعدت إلى قمة البرج فسيكون في وسعك أن ترى - لأميال بعيدة - امتداد الغابة التي تحد المنطقة الغربية والجنوبية الغربية من القلعة.

وفي السابق، عندما كان مكتب خدمة الجرذان الرسل مزدهرًا، كان البرج بأسره يعج بالجرذان، لكنه الآن لا يضم بين جنباته سوى جُرذ

واحد ووحيد.. ومكتئب جدًا. وصدر ضوء خافت لشمعة وحيدة من النافذة الصغيرة للطابق السفلي من البرج، وعلى الباب البالي القديم كانت ثلاث لافتات قد عُلقت، يشير ترتيبها الزمني إلى حالة اليأس المتصاعد التي مرت بالمكتب؛ الأولى كانت تُقرأ كالتالي:

مطلوب جرذان للقيام بمهام الجرذان الرسل
الخبرة ليست ضرورية
الجُرذ المتقدم سوف يحصل على دورة تدريبية كاملة
تقديم الطلبات في الداخل...

وكانت الثانية تُقرأ كالتالي:

نحن نقدم أفضل المرتبات
مرتباتنا ضعف مرتبات الميناء!
لا تفوتوا هذه الفرصة الرائعة!!

أما الثالثة فكانت تُقرأ كالتالي:

الطعام مجانًا!!!!

كان ستانلي في يومه الرابع منذ أن استقر في برج مراقبة البوابة الشرقية، ولقد عسكر الجُرذ في المكتب القديم بالطابق الأرضي، وكان

أمامه الآن بقايا عشائه الذي استطاع أن ينقذه من صندوق قمامة يُعد موردًا وفيرًا، يقبع خارج بيت صغير يبعد عنه ببضعة بيوت مقامة على امتداد أسوار القلعة. وكانت فطيرة البطاطس المهروسة واللحم المفروم هذه الليلة لذيذة المذاق جدًا، ولقد استمتع ستانلي كثيرًا بطبقة «الباشاميل» الباردة والطماطم المهروسة التي كانت تعلو سطح الفطيرة، وإن لم تكن القطع المقرمشة فيها مغرية كبقية الفطيرة، وهو يشك في أنها أظافر أقدام. لكن بوجه عام، كان العشاء طيبًا، وسرَّه أن يكتشف أنه لم يفقد لمسته في الاقتتات على بقايا الطعام عندما يتعلق ذلك بصناديق قمامة الآخرين.

لكن لو نحينا جانبًا مسألة نجاحه في الاقتتات على بقايا الطعام، فإن الأمور في مكتب توفير خدمة الجرذان الرسل لم تكن تسير على ما يُرام؛ فالمكتب يواجه مصاعب عديدة كي يواصل تشغيله، على الرغم من أن ستانلي نفذ كل ما خطر على باله من أفكار. حتى إنه نظف غرفة المكتب، ونظف المكتب القديم الذي كان يجلس إليه هامفري من الغبار، وأصلح رجله المتخلخلة، ثم أنقذ دفتر المهمات وكذلك كراسة اليوميات، والجداول المنظمة للرحلات المؤكدة التي يقوم بها الجرذان، وجداول التسعير.. أنقذ كل هذا من صندوق صفيح كان يقبع أسفل سطح الأرض. ولقد بات كل شيء منظمًا، وجاهزًا وفي الانتظار، لكن لاتزال هناك مشكلة واحدة كبيرة تعرقل مسيرة العمل: ليس هناك جرذان. ورغم محاولات ستانلي، فلم يعثر على جُرذ واحد في القلعة.

لكن في هذه الليلة، بينما كان ستانلي يجلس وحيدًا خلف مكتبه، في حالة تجمع على غير المعتاد بين إحساسه بامتلاء البطن والكآبة، اشتم – لسعادته – رائحة جُرذ، فأخذ يستنشق الهواء بحماس. إنها رائحة قوية، لا بد أنه أكثر من جُرذ بدون أدنى شك. إن عددها على الأقل دستة على حسب ظنه.. ولقد حضرت جميعها عقب الإعلان الذي علقه. يا له من حظ!

ومع صوت الطرق على الباب تريث ستانلي ولم يرد على الفور، ثم أمسك بقلم وفتح دفتر الجرذان، وبدأ يتابع بياناته وكأنه يواكب سير عمل يوم مكتظ بالأعمال. وبعد أن بذل أقصى ما في وسعه كي يبدو منشغلًا ومنهمكًا في أعمال عديدة – ويكتم في نفسه إحساسه المفرط بالحماس – صاح قائلًا: «تفضل».

فانفتح الباب على الفور ودخل أكبر جُرذ رآه ستانلي في حياته، وفي الحال سقط ستانلي من فوق مقعده.

انتظر إيفانيا جريب بصبر إلى أن هبَّ ستانلي واقفًا على أرجله، وبكل عزة النفس التي يستطيع أن يشحذها ستانلي في نفسه، صعد على المقعد، ثم همهم قائلًا: «كنت أختبرك فحسب. فنحن نحب أن تتسم جرذاننا بالثبات. لقد نجحت. والآن، متى تريد أن تبدأ؟».

رد إيفانيا، وقد أسعده أنه استطاع أخيرًا أن يتحدث مع من يستطيع أن يفهم كلامه، قائلًا: «لم أحضر من أجل الوظيفة».

شعر ستانلي بغاية الإحباط وقال: «هل أنت واثق من أنك لا تريد

الوظيفة؟ ما رأيك لو قبلتها كعمل إضافي؟ فنحن نقبل ذلك هذا الأسبوع. لا تفوت هذا العرض. إنها فرصة رائعة».

«هذا مما لا شك فيه، لكنني أعمل في وظيفة تستغرق كل وقتي، أشكرك. لقد جئت لأرسل رسالة».

رد ستانلي: «ياه!».. ثم أدرك أنه لم يسعد كما كان ينبغي أن يسعد بعد أن حصل على ما يُعد في نهاية الأمر أول زبون له؛ بل إنه سيضطر الآن لأن يقوم بنفسه بالمهمة، وينحي جانبًا أحلام اليقظة التي كانت تراوده بأنه يجلس إلى مكتبه هنا بينما فريق عمل من الجرذان الشابة التي تتسم بالكفاءة يباشر العمل في المهام الخارجية. ثم قال وهو يدعو متضرعًا في سره ألا تكون المهمة في مستنقعات مرام: «وأين هي المهمة؟».

أخرج إيفانيا جريب قصاصة ورق وقرأ بصعوبة خط بيتل: «الباب الأزرق المقنطر. البرج الجانبي الأعلى. نهاية رجع الصدى، منطقة العشوائيات».

تنفس ستانلي الصُّعداء وقال: «وما مضمون الرسالة؟».

قرأ إيفانيا بشيء من الخجل: «أمي العزيزة، لقد تم استدعائي خارج القلعة في مأمورية طارئة، لكنني لن أتأخر. هناك بعض النقود مخبأة في البرطمان القديم في المقعد المجاور للنافذة. أرجوكِ لا تقلقي. مع حبي بيتل xxx».

كتب ستانلي الرسالة في دفتر الرسائل بسعادة غامرة. إنها رسالة يستطيع أن يحفظها.. فهي قصيرة ورقيقة، وبالأسلوب الذي يروقه.

قال إيفانيا: «إن الأمر عاجل. ولا بد أن تُنفذ المهمة في أسرع وقت ممكن إذا سمحت».

تنهد ستانلي، وبدأ يعاوده من جديد كل التوتر الذي كان ينتابه عندما كان جُرذًا رسولًا. فمن خلال خبرته، *دائمًا ما* تكون الرسائل عاجلة. فلا أحد يفكر أبدًا سلفًا. لا أحد يومًا قال له مثلًا «أريد إرسال الرسالة في ظرف ثلاثة أيام إذا سمحت. أخبرني فحسب متى سيكون ذلك مناسبًا لجدولك». لكن الزبون هو الزبون، ومعنى ذلك على الأقل أن هناك بعض البنسات قادمة في الطريق. أخذ ستانلي بحركة استعراضية يتصفح جداول التسعير، رغم علمه التام بأن أسعار منطقة العشوائيات تقع في القسم الأول للأسعار.

«دعني أر الآن.. هذا يعني أنك ستدفع بنسًا واحدًا لإرسال الرسالة، وبنسين لانتظار الرد عليها.. وثلاثة بنسات لأخذ الرد في اليوم التالي. والدفع نقدًا ومقدمًا».

قال إيفانيا جريب: «إن الرسالة مرسلة من قِبل الأميرة جينا. وعلى حد علمي، لقد مُنحت الأميرة عرضًا استفتاحيًا خاصًا، يشمل رسائل مجانية لمدة عام».

رد ستانلي على الفور: «هذا فقط للرسائل القادمة من القصر نفسه، والتي تسلمها الأميرة بنفسها، وغير ذلك يُطبق عليه الأسعار المحددة. والآن، هل المهمة لتوصيل الرسالة فقط أم تشمل أيضًا العودة بالرد؟».

ترك إيفانيا جريب برج مراقبة البوابة الشرقية وقد قل رصيده بثلاثة بنسات – بعد أن أرسل رسالتين أخريين؛ إحداهما لسارة هيب والأخرى لمارشا أوفرستراند، لكن ارتسمت أسفل شواربه الجرذانية ابتسامة تملؤها السعادة. وبعد أن ترك الجُرذ وجهه غير مقمط، وترك أنفه حرًّا يستنشق هواء المساء، سلك الممر العريض الذي يمتد بطول سطح سور القلعة، وسار على امتداده على غير عجلة، عائدًا إلى دار المخطوطات. كان إيفانيا مستمتعًا بالسير وهو يجر خلفه ذيله الحساس على الأرض كما ينبغي أن يفعل، يلمس به الأحجار الباردة ويمنحه الاتزان لمشيته المنتصبة، فأحيانًا تكون عودته إلى طبيعته الجرذانية الحقيقية راحة.

وبينما كان إيفانيا يسير هائمًا على امتداد الأسوار في طريق عودته – كما يفعل أحيانًا عندما يصعب عليه تحمل حبسته في قبو دار المخطوطات – راح ينظر إلى أسطح البيوت الصغيرة المقامة على واجهة الأحجار القديمة للسور، ورأى الشموع في نوافذ غرف العلّيات وهي تشتعل ساطعة في ظلام الليل، كما رأى داخل هذه الغرف الصغيرة بأسقفها المائلة بشرًا – لا تظهر عليهم أية ملامح جرذانية – وقد راحوا يتحركون هنا وهناك، منشغلين بأعمالهم؛ فمنهم من كان يحيك بجانب النار، ومنهم من كان ينظف المكان بعد العشاء، ومنهم من كان يطعم رضيعًا، ومنهم من كان مستغرقًا فحسب في سُبات عميق على مقعد مريح، لا أحد منهم يُدرك أن هناك، خارج نوافذهم، رجلًا خجولًا نصفه جُرذ، يجوب وهو ينظر إلى أنماط من الحياة كان من الممكن أن يكون أحدها نمط حياته هو أيضًا.

هز إيفانيا رأسه ليطرد هذه الأفكار الحزينة كما يهز أي جُرذ رأسه ليخلصه من ماء متسخ أُلقي عليه من دلو بتسديدة متقنة، ثم واصل طريقه بخطوات واسعة.

وبينما كانت أجراس منتصف الليل تملأ الأجواء وهي تدق من ساحة تجار الجوخ، كان إيفانيا قد وصل لأعلى السلم الذي سيؤدي إلى دار المخطوطات، ثم توقف ونظر نظرة أخيرة من على هذا الارتفاع على الامتداد العريض للقلعة أسفل منه قبل أن ينزل من جديد إلى القبو الساطع. كان المنظر ساحرًا يخلب العقول؛ فقد ارتفع القمر عاليًا في السماء، ملقيًا بنوره الأبيض البارد فوق أسطح البيوت، مرسلًا ظلالًا ممتدة بطول الشوارع بعيدًا في الأسفل، وتلألأت الشموع على هيئة بؤر ضوئية لا حصر لها عبر الاتساع العريض للقلعة على نحو لم يسبق لإيفانيا أن رآه من قبل.. فوقف حائرًا يتساءل في سره ما الذي يجعله يرى كل هذه الشموع – ثم أدرك السبب فجأة؛ إن الأضواء **السحرية** الساطعة ذات اللون الأرجواني والذهبي التي كانت تضيء برج السحرة كل ليلة اختفت، وبدا برج السحرة كأنه ما عاد موجودًا. لكن بينما أخذ إيفانيا يدقق النظر في الظلام، تمكن بالكاد من أن يرى الحدود الخارجية للبرج ترسمها السحب التي ينيرها القمر، أما البرج فلم يصدر عنه ولو ومضة ضوء واحدة؛ فبرج السحرة الآن كان تحت **الحصار**.

28

مركب الرحلة الاستكشافية



كانت *مارشا تسير بخطى متعثرة حول برج السحرة*، ليس في وسعها أن ترى الطريق أمامها. وبيأس أخذت تصيح: «سبتيموس.. سبتيموس.. أين أنت؟».

فصاح سبتيموس: «أنا هنا، أنا هنا!».

همهمت چينا قائلة: «عد إلى النوم يا سِب».

ثم همهم بيتل أيضًا بكلام غامض، وكان في منتصف حلم يرى فيه أن چيلي دچين حبسته في زنزانة مع جُرذ عملاق.

كان ثلاثتهم نائمين – أو يحاولون ذلك – على أرض مخزن صغير لدى مدخل الحدود الخاصة بإيفانيا. استغرقت چينا وبيتل في النوم مرة ثانية، لكن سبتيموس هجره النوم تمامًا، ولايزال حلمه بمارشا العمياء ماثلًا أمام عينيه بشكل مخيف. فاعتدل جالسًا، تتزاحم في رأسه كل

أحداث الليلة السابقة. تُرى، ما الذي يحدث في برج السحرة؟ من المؤكد أن تيرتيوس فيوم اكتشف أمر هروبه؟ وإن كان قد فعل، فهل أرسل في أعقابه أفرادًا – أو أشباحًا أغلب الظن – للبحث عنه؟ وما الذي ألمَّ بمارشا الآن؟ أهي بخير؟ وضع سبتيموس يده في جيبه بحثًا عن آخر ذكرى له من برج السحرة، وأخرج **الوصفة السحرية** للسلامة التي أعطتها له هيلدا جارد. كم كانت هذه لفتة طيبة منها، هكذا قال سبتيموس في سره، ثم نظر إلى **الوصفة السحرية** بكل حب في الضوء الأصفر المريح الصادر عن خاتمه التنيني، وفجأة خالجه إحساس بالخوف اخترقه كالسكين. لا! لا لا لا لا. لا يمكن. مستحيل. أخذ سبتيموس يُحدق إلى قطعة حجر اللازورد الثقيلة ذات الشكل البيضاوي وهي قابعة في راحة يده، وتلألأ الحرفان (ر.١) المنقوشان بعمق فيها وكأنهما يسخران منه. وعندما لف قطعة الحجر على وجهها الآخر، بدأ يظهر له الرقم 21، فعلم بشكل قاطع يملؤه الرعب ما الذي يحمله في يده؛ إنه **حجر الرحلة الاستكشافية**.

أخذ سبتيموس يُحدق إلى **الحجر**، يحاول جاهدًا تذكر كلام ألثر الذي ذكره له أثناء **التجمع**. لكن بدا كل ما خطر على باله مشوشًا – فيما عدا أنه تذكر جملة (ما إن تقبل **الحجر** ويصبح لك، حتى تسلب منك إرادتك).

حاول أن يفكر في الأمر بذهن صافٍ، إنه في واقع الأمر لم يقبل **حجر الرحلة الاستكشافية**، أليس هذا بالفعل ما حدث؟ فقد قبل ما كان يعتقد

أنها **وصفة سحرية للسلامة**. ومن المؤكد أن هناك فارقًا، أليس كذلك؟ ثم بدأ يُحدق إلى **الحجر**، كان قطعة جميلة ناعمة كالحرير، ومتقزحة بعض الشيء ومعرقة بخطوط ذهبية رقيقة تتعرج عبر لونها الأزرق البراق، كما أن شكل الحرفين (ر.١) المرعبين كان هو أيضًا جميلًا. وكان الذهب الذي نُقش به الحرفان يتوغل في عمق **الحجر**، وكان مصقولًا إلى درجة من النعومة جعلت سبتيموس عندما أجرى أصابعه عليه لا يشعر بأية وصلات، حتى إنه كاد يقتنع بأن الحرفين غير موجودين. لكن ما إن نظر في **الحجر** وهو قابع في يده حتى رأى الحرفين يغمزان له في الضوء الأصفر الخافت، ويأبيان أن يختفيا.

دس سبتيموس **حجر الرحلة الاستكشافية** في جيبه، وقرر في سره أنه سيتجاهله. لن يُخبر چينا عنه ولا حتى بيتل. فيكفيهما ما لديهما من متاعب يفكران فيها حتى ينشغلا **برحلة استكشافية** حمقاء، هو على أية حال لن يقوم بها أساسًا.

ألقى سبتيموس بجسده على الحشية الصلبة المتنقلة مرة أخرى، وجذب بطانية الطوارئ الخاصة بدار المخطوطات إلى رأسه، ثم حاول أن يكف عن التفكير في **الحجر**، لكنه لم يفلح. وبدأ يتذكر شيئًا فشيئًا المزيد من كلمات ألثر له، والتي منها أن **الحجر** شيء **سحري**، وأنه كلما اقترب **القائم بالرحلة الاستكشافية** أكثر من هدفه تغير لون **الحجر**. وبنهاية **الرحلة الاستكشافية** يصل لونه إلى أعمق درجة من اللون الأزرق، حتى إنه سيبدو من فرط عمقه أسود، فيما عدا في نور القمر عندما يكون بدرًا.

ونظم له ألثر بكلمات سريعة قافية، حاول أن يجعلها تشمل كل المعلومات الممكنة، لكن سبتيموس لم يود أساسًا أن يفكر في الأمر؛ فهو ليس في حاجة لذلك، هكذا قرر في سره؛ لأنه *لن* يقوم بهذه **الرحلة الاستكشافية**، ثم أغمض عينيه وحاول أن ينام.. دون أن يفلح كثيرًا.

بعد نحو نصف ساعة، كان إيفانيا - من خلف باب غرفة المخزن- يراقب أولر الليلي وهو يتحول. فبينما كان النمر الأسود نائمًا رأى إيفانيا الطرف البرتقالي لذيله وهو يمتد وينتشر، وبدأ اللون البرتقالي الساطع يكسو جسد هذا الكائن كأنه شمس تشرق وتزيح الظلال في طريقها. ومع توسع انتشار هذا اللون عبر جسده، باتت فروته الملساء منمشة، وأخذت عضلاته تنكمش بسرعة حتى إن إيفانيا كان واثقًا من أن أولر سيختفي في نهاية الأمر. وبالفعل، بعد أن اكتملت **عملية التحول**، كاد النمر الأسود يبدو وكأنه تلاشى، فأولر النهاري ليس إلا قطًا صغيرًا هزيلًا، وبدا وكأنه يصلح لأن يتناوله كطعام. وكان الشيء الوحيد الذي تبقى من أولر الليلي مذكرًا به، طرفًا أسود عند ذيله جاهزًا للحظة التي ستغرب فيها الشمس من جديد.

وبعد أن أصبح المخزن لا يحرسه سوى قط صغير، تجرأ إيفانيا وذهب ليوقظ شاغليه. وبالنعاس لا *يزال* يملأ عيونهم، لفت چينا وسبتيموس وبيتل الحشيات المحمولة، وأعادوها بنظام إلى الأرفف المرتبة. وتحت إصرار إيفانيا، تجمعوا حول منضدة العمل الكبيرة الموجودة في السرداب الأول.. تناول ثلاثتهم وجبة من الشوفان التي طهاها لهم على

الشعلة الصغيرة التي يستخدمها لإذابة الصمغ. وقبل أولر بحذر، بعد بضع محاولات قامت بها چينا لإقناعه - أن يتناول سلطانية اللبن التي قدمها له إيفانيا.

لم تكن الأجواء أثناء الإفطار مرحة؛ فچينا كانت تتلهف للرحيل على عجل إلى الميناء، وقالت وهي تتناول آخر ملعقة من الشوفان الذي كان للدهش لذيذًا: «لو عجلنا لاستطعنا اللحاق بمركب الميناء الصباحي».

ورد بيتل - الذي كان قد احتاج لعملية إقناع طويلة كي يعود ويقضي الليلة السابقة في محل عمله القديم وأراد أن يخرج من المكان بأسرع وقت - قائلًا: «حسنًا».

وعاد إيفانيا بعد أن كان قد ذهب ليضع أعمال اليوم السابق في السلة عند أعلى السلم، وبعد أن حرك يده مشيرًا لهم بالانتظار بسط ورقة كبيرة بجانب الأواني. كانت الورقة مدونة بخط يده الذي بات الآن مألوفًا، وأجرى إيفانيا أصبعه الرفيع على الكلمات التالية: ***إن الرحلة إلى غابات البلاد المنخفضة بالسفينة طويلة وستعرضكم للخطر. لكن هناك طريقة أخرى للوصول. وهناك مقولة تقول بأن «أفضل طريقة للقيام برحلة إلى غابة تبدأ من الغابة».***

كانت چينا تعرف هذه المقولة، لكنها لم تفهم معناها، وقالت له: «ماذا تقصد؟».

كتب إيفانيا يقول: ***هناك في الغابة «طرق» قديمة تؤدي إلى غابات أخرى، وموروينا تعرف هذه «الطرق»، وأستطيع أنا أن أصطحبكم إلى الغابة بأمان عبر أخاديد محارق الفحم القديمة.***

قال سبتيموس: «لقد اعتدنا أن نستخدم هذه الطرق في جيش الشباب، لاتزال الساحرات يستخدمنها. بعض هذه الطرق تصل إلى قواعد الساحرات الشتوية».

أومأ له إيفانيا برأسه، وكتب: **سوف نعثر على موروينا، وسوف أطلب منها أن تدلنا على طرق الغابات.**

سأل سبتيموس جينا: «ما رأيك يا جين؟».

كانت جينا تشارك سارة هيب رأيها في عدم ثقتها بساحرات ويندرون، لكن لو كان ذلك سيساعدهم في العثور على نكو – والابتعاد بسبتيموس عن القلعة – فلا بأس إذن. وقالت: «حسنًا، هيا بنا».

ثم سأل سبتيموس: «بيتل، ما رأيك؟».

رد بيتل قائلًا: «موافق. وكلما أسرعنا بالخروج من هنا كان ذلك أفضل».

تقدمهم إيفانيا جريب أثناء سيرهم على امتداد حارة «حزاز الصخر»، وهي حارة رطبة تصل إلى مخزن مراكب دار المخطوطات.

كان مخزن المراكب عبارة عن سقيفة متداعية مقامة على بعد عدة ياردات من خليج صغير عند ضفة الخندق المائي. وبداخل السقيفة،

كانت هناك معدية دار المخطوطات، وهي زورق تجديف قليل الاستخدام تمكن من الإفلات من مصيدة ألوان چيلي دچين الجديدة. عرض سبتيموس وبيتل على إيفانيا أن يقوما بالتجديف، لكن إيفانيا أصر على أن يُجدف بنفسه؛ فالتجديف كان شيئًا يستمتع به في صباه قبل أن يتحول إلى جُرذ، ولقد مضى وقت طويل منذ آخر مرة خرج فيها بمركب.

كان الجو صباح هذا اليوم باردًا وعاصفًا، ومع ذلك كان الخروج إلى الهواء الطلق مرة أخرى ممتعًا، وأظهر إيفانيا أنه لايزال يتمتع بمهارته في التجديف، وقاد الزورق بمهارة وخرج به من الممر المائي ذي النهاية المسدودة هناك. لكن بينما كان يُجدف بهم في الخندق المائي ذي المياه الرمادية المتقلبة، قابلهم مشهد غير متوقع؛ إذ رأوا مركبًا شراعيًّا مدهشًا له ثلاثة صوارٍ يرسو في موقع المرسى القديم لبرج السحرة. كان المرسى قد دمره العفن بعد أن ولى عصر ازدهار الأعمال البحرية التي كان يقوم بها السحرة الأعظمون، لكن المركب كان مربوطًا في قائم من القوائم القليلة المتبقية المكسوة بالذهب وأحجار اللازورد. تهادى المركب برفق مع حركة أمواج الخندق المائي الخفيفة؛ وبعد أن جرفت حركة المد زورق تجديف دار المخطوطات وقربته من المرسى – رغم محاولات إيفانيا بالابتعاد – تمكنوا من رؤية اللون الأزرق الذهبي الباهت لجسم المركب، والحبال البالية الزرقاء زرقة السماء، والصواري الذهبية التي تقشرت وإن كان يبدو عليها أنها كانت يومًا تسطع – ولا شك – كسطوع الشمس.

كان سبتيموس فقط هو الذي تمكن من رؤية الغشاوة **السحرية** الأرجوانية التي أحاطت بالمركب، لكن بعد أن سحبت دوامة مفاجئة المجداف من قبضة إيفانيا، وجعلت زورق التجديف يلف في حركات محورية نحو جسم المركب، تمكن الجميع من رؤية الاسم الباهت المكتوب بالحروف الذهبية على امتداد مقدمة المركب: **الرحلة الاستكشافية**.

تمكن بيتل من التقاط مجداف إيفانيا مباشرة قبل أن يختفي في المياه فشكره إيفانيا بصرير، ثم تزحزح قليلًا ليفسح مكانًا لبيتل، وتمكنا معًا من إعادة المجداف لسيطرتهما - لكن لم يكن ذلك إلا بعد أن ارتطم المجداف بجسم **مركب الرحلة الاستكشافية** بصوت مدوٍّ أجوف.

وما إن بدأ بيتل وإيفانيا يجدفان بهلع، مبتعدين عن **مركب الرحلة الاستكشافية**، حتى سمعوا جميعهم وقْع خطوات أقدام تنطلق جريًا على ظهر **المركب**. وعلى الفور، حلت چينا دبوس عباءتها وألقت بها على سبتيموس؛ حتى تخفي شعره الأشقر ورداءه الأخضر المميزين، بحيث جعلت **حراس الرحلة الاستكشافية** الثلاثة عندما أطلوا من جانب المركب يرون أميرة ترتجف وتلف ذراعها حول سيدة عجوز ضئيلة الحجم بظهر أحدب لتحميها، ويقلهما زورق لعبور الخندق المائي. لم تكن الوجهة التي تقصدها الأميرة والسيدة العجوز أمرًا يهم الحراس؛ فما يهمهم هو ما حدث للتلميذ الأخير الذي اختير ليكون **القائم بالرحلة الاستكشافية**.

خرج التلميذ الأخير المختار ليكون **القائم بالرحلة** من زورق التجديف، ثم جازف بإلقاء نظرة خاطفة إلى **مركب الرحلة الاستكشافية**. إنه مركب لا بأس به، هكذا قال في سره، ويبدو عليه أنه سريع ويسهل التحكم فيه ومن النوع الذي يروق تكو. ووجد سبتيموس نفسه، مع تفكيره في تكو، قد نسي همومه هو وأزماته الشخصية.

تقدمهم إيفانيا أثناء سيرهم على امتداد الضفة مارين بالمستشفى الذي كانت نوافذه الصغيرة مضاءة بشموع الصباح الباكر - ولايزال يمكث فيه عدد قليل من الضحايا من كبار السن الذين أُصيبوا بالمرض الغامض، ثم استخدموا الممشى الممتد خلف المستشفى، وباتوا أخيرًا بعيدين عن أنظار **مركب الرحلة الاستكشافية**. ومع شعور سبتيموس بالخلاص، تخلص من هيئة السيدة العجوز ضئيلة الحجم، وناول العباءة إلى چينا التي شبكتها بحرص بمشبك تكو الذهبي الثمين.

كان هناك خلف المستشفى مسار مغطى بالنباتات، يغطس بين جانبين عميقين، وبات متهالكًا منذ زمن بعد تشغيل أجيال متوالية من محارق الفحم. وتابع ثلاثتهم خطى إيفانيا وهو يسلك طريقه بصعوبة بين نباتات السرخس وأوراق شجر منجرفة كانت تغطي هذا المسار القديم، وسرعان ما وصلوا إلى سفح جرف صخري ممتد عرضًا ومحدود الارتفاع، وقد بدا أن الجرف يسد الطريق عليهم، وهنا التف إليهم إيفانيا وأشار إلى فجوة ضيقة بين الصخور. وبشيء من الصعوبة، بدأ الرجل الجُرذ يحشر نفسه للمرور عبر الفجوة (فآخر مرة قام فيها بهذه الرحلة كان أنحف بعض

الشيء، وذلك عندما كان في الرابعة عشرة من عمره)، بينما تابعه سبتيموس وبيتل وچينا وأولر بسهولة.

وأمامهم، امتد مسار ضيق عميق شُقَّ بين صخور الجرف، تُظلل عليه أشجار متدلية الأغصان تنمو على أماكن مرتفعة من الجرف.

وهنا، قال إيفانيا بفخر بصوت صرير الجُرذان، وقد أسعده أنه لم يضل الطريق بعد كل هذه السنوات الطويلة: «هذا هو أخدود محارق الفحم. *أفضل* طريق للوصول إلى الغابة».

قالت چينا: «ليت ستانلي كان معنا؛ كان سيترجم لنا كلام إيفانيا».

رد عليها سبتيموس قائلًا وقد علت وجهه ابتسامة عريضة: «ربما كان سيترجم لنا الكلام في نهاية المطاف، لكن ليس قبل أن يكون قد حكى لنا كل شيء عن قريب من أقاربه من الدرجة الثالثة الذي انتقل مرتين من محل إقامته وتابع جُرذًا عملاقًا إلى الغابة ولم يُر بعد ذلك قط، وسرد كل شيء عن الأوقات التي قضاها مع داوني ...».

ضحكت چينا وقالت: «حسنًا حسنًا، ربما أنه من الأفضل إذن أن ستانلي *ليس* معنا الآن».

29

مهمة البحث التي قام بها سايلاس



في *الوقت الذي كانت چينا وأولر وسبتيموس* وبيتل منطلقين فيه وحدهم على امتداد أخدود محارق الفحم، كان سايلاس وماكسي يستيقظان من النوم في إحدى خيام حلقة ساحرات ويندرون الصيفية.

ولقد استمتع ماكسي بقضاء ليلته في حلقة الساحرات على عكس سايلاس الذي أزعجه أن الخيمة كانت تسرب الماء، فتبللت الملاءة وبدأ ينبعث منها رائحة كريهة لماعز. ومما زاد الأمر سوءًا أن النوم هجره بسبب قهقهة مجموعة من الساحرات المراهقات اللاتي كن يخططن للقيام بغزوة على ما يطلقن عليه معسكر هيب، وهو المكان الذي

يعيش فيه سام وإد وإيريك وجوجو.. ولأن سايلاس لم تكن لديه أية رغبة في معرفة ما الذي يدور في رأس أبنائه الأربعة فيما يخص ساحرات ويندرون، حشر في أذنيه صوف ماعز كريه الرائحة - وكان ذلك خطأً فادحًا - ثم حاول أن يخلد إلى النوم مستخدمًا طريقة عد الأغنام - وكان ذلك خطأً أفدح؛ إذ تحولت الأغنام التي كان يعدها إلى أغنام تفوح منها رائحة كريهة، وبدأت هذه الأغنام تنشد. وبعد فترة، أدرك أن هذا الإنشاد كان في واقع الأمر إنشاد الساحرات حول نار المعسكر. وبحنق، ألقى سايلاس على رأسه - لعزل الصوت - مجموعة من الفراء التي كان يفوح منها هي أيضًا رائحة كريهة، ثم راح في النوم في نهاية المطاف.

وبينما كان سايلاس يُحدق إلى سقف الخيمة والنعاس لا يزال يملأ عينيه، أطلت ساحرة شابة برأسها عبر فتحة باب الخيمة وقالت له: «إن الساحرة الأم تود منك أن تنضم إليها لتتناول الإفطار معها».

جاهد سايلاس حتى تمكن من الجلوس، وكتمت الساحرة الشابة ضحكة؛ إذ كان شعر سايلاس الملفوف ذو اللون الذهبي قد نفش وبدا كأنه عش طائر من نوع الأعشاش التي تسكنها طيور ضخمة تعاني متاعب في مسائل النظافة والصحة العامة. ومن وسط هذا العش، نظر سايلاس بعينيه الخضراوين محاولًا أن يركز بصره على الساحرة الشابة وقال: «همم، أشكرك أرجوك أخبريها بأن هذا سيسعدني». وعلى الرغم من أن سايلاس شعر كأنه قضى ليلته مع ماعز مبلل يجلس فوق رأسه، كان يعلم أن دعوة الساحرة الأم لا بد أن تُقابل بكل تبجيل واحترام.

وبعد دقائق معدودة، كان سايلاس وماكسي يجلسان بجانب نار متوهجة.. وفاحت في الأجواء الرائحة النفاذة التي تميز الكلاب المبللة مع تلميحات غير مباشرة تفصح عن الصوف غير النظيف، بينما كانت عباءة سايلاس الخاصة بالسحرة العاديين تجف في الحرارة المنبعثة من النار المشتعلة.. وخلفه قبعت الساحرة الشابة التي أيقظته من النوم، وكانت تصب له فنجانًا من المشروب الخاص بالساحرات متجنبة التنفس بعمق إلى جواره.

وأمامه جلست الساحرة الأم، مورووينا، وهي سيدة ضخمة لها عينا ساحرة زرقاوان ثاقبتان، وشعر طويل بدأ الشيب يزحف إليه، وينسدل للخلف مثبتًا برباط رأس جلدي أخضر، وكانت ترتدي الرداء الأخضر الصيفي المميز لساحرات ويندرون.. وبصفتها الساحرة الأم، كانت تربط حول خصرها العريض وشاحًا عريضًا أبيض.

قدمت الساحرة الشابة إلى سايلاس فنجانًا من المشروب الخاص بالساحرات، وبحذر ارتشف منه رشفة. لقد كان المشروب، كما كان يخشى، منفرًا - لكنه كان يبعث الدفء في جسمه على نحو غريب. كانت مورووينا تراقبه بابتسامة يفيض منها حب وحنان، فاضطر سايلاس لأن يرتشف بضع رشفات أخرى بملء فمه بتمهل. وبينما كان يفعل ذلك، تلاشت آلام عظامه، وبدأت معنوياته ترتفع بعد أن كانت قد هوت في حضيض المكان الذي قضى فيه ليلة أمس.

ناولت الساحرة الشابة سايلاس إناءً خشبيًا يحتوي على ما بدا لأول

وهلة حبوبًا بالديدان. تفحص سايلاس محتوى الإناء بريبة، لكن بعد أن أقنع نفسه بأن النقط الخضراء التي يراها في الإناء هي على الأرجح نوع من الأعشاب اللحمية، تناول ملعقة منه. لكن انطباعه الأول كان صحيحًا، وكان فمه الآن ممتلئًا فعلًا بالديدان. ابتلع سايلاس بشيء من الصعوبة؛ لأن المرء لا يبصق *بأي حال من الأحوال* طعامًا قدمته له ساحرة. وبكآبة، تفحص الكمية الهائلة من الحبوب بالديدان التي تنتظر أن يتناولها، وتساءل في سره ما إذا كان يستطيع أن يناول خلسة بعضًا منها إلى ماكسي، لكنه قرر ألا يخاطر.

قالت موروينا وقد لاحظت تعبيرات وجه سايلاس: «أتمنى أن تكون قد أعجبتك».

«فعلًا فعلًا. إنها...» - وقضم سايلاس دودة ضخمة جدًّا ولها *أرجل*، ثم واصل قائلًا: «إنها مقرمشة جدًّا».

«لقد أسعدني ذلك؛ إنه طبق فاخر تقدمه في أواخر الربيع، وهو يمنح طاقة هائلة للجسم، ويجعل ذهنك صافيًا، ولقد رأيت أنك في حاجة لذلك».

أومأ لها سايلاس برأسه، غير قادر على أن يرد عليها مع امتلاء فمه بالديدان وإحساسه المفاجئ بأنه عاجز عن البلع. وبعد بُلعة مرعبة أخرى، قرر في سره أنه لا بد أن يتعامل مع الموقف بصلابة - فسوف يجمع كل الديدان معًا وينتهي من أمرها دفعة واحدة. وبعد أن استجمع شجاعته، اغترف الديدان وبسرعة ابتلع ملعقتين مملوءتين بها. وبارتياح شديد، نظر إلى طبق الحبوب الخالي الآن من الديدان، ولكن ما إن ابتلع قدرًا كبيرًا

من يخنة الساحرات ليسهل عليه ابتلاع آخر دودة عنيدة انحشرت في فجوة بين أسنانه - حتى تقدمت الساحرة الشابة التي تقدم الطعام في إناء صغير مملوء بأشكال أسطوانية خضراء ملتوية.. وبإحساس بالواجب، أضافت ثلاث ملاعق أخرى إلى عصيدته.

ثم قالت موروينا: «يبدو عليك القلق يا سايلاس هيب».

«أخ!» هكذا رد سايلاس وقد قهرته دفعة الديدان الأخيرة.

قالت موروينا وهي تشير للساحرة الشابة بالانصراف: «أشكرك يا ماريسا، بمكنك أن تنصرفي الآن»، ثم أخذت الإناء من سايلاس بابتسامة ووضعته أمام ماكسي الذي كان في غاية الامتنان، ثم واصلت كلامها قائلة: «ربما أن تناول هذا الكم من الديدان كان كثيرًا عليك هذا الصباح يا سايلاس».

«لكنها... لكنها ديدان معتبرة، وأنا أشعر بتحسن كبير الآن». وهو ما كان بالفعل صحيحًا، ولقد شعر سايلاس فجأة بتحسن حالته، بل لقد شعر في واقع الأمر أنه في أروع حالاته، وأن ذهنه أصبح صافيًا، وأن القوة دبت في جسمه وصار مستعدًا ليومه.

قالت له موروينا: «لقد كنت متوقعة حضورك منذ أن سمعت عن اختفاء نكو».

بدا الاندهاش على سايلاس، وقال: «ياه! ياه يا موروينا، أنا **أعلم** أن نكو في الغابة، لكن لا **أعلم** أين تحديدًا».

ردت موروينا قائلة: «وأنا **أعلم** أنه ليس في الغابة».

فسألها سايلاس الذي يكنُّ لقدراتها المعرفية احترامًا كبيرًا: «أواثقة أنتِ من هذا؟».

انحنت مورروينا للأمام ووضعت يدها التي كانت على غير المتوقع رقيقة جدًا على ذراع سايلاس، وبرفق شديد قالت: «سايلاس، لا بد أن أقول لك هذا، إن نكو ليس في هذا العالم».

فعلا الشحوب فجأة وجهه، وبدا له أن الخيام من حوله تتأرجح، وخالجه إحساس بأنه سيتقيأ، ثم قال: «أتقصدين أنه مات؟».

ردت مورروينا على الفور قائلة: «لا. إنما وجوده في هذا العالم لا يختلف عن وجود الذين لم يولدوا بعد».

أطرق سايلاس رأسه ووضعه بين يديه، وكان في أفضل الأوقات يجد أن كلام الساحرات الذي تقول عنه سارة هيب بانتقاد عنيف إنه كلام ساحرات تافه - صعب، وهذه اللحظة ليست حتمًا من بين أفضل هذه الأوقات، إنه يحتاج لأن يتحدث مع والده؛ فوالده كان دائمًا رجلًا عمليًا؛ إنه ساحر من المتحولين، يتسم بالطيبة والإخلاص، ويعيش في مكان ما في الغابة على هيئة شجرة، ووالده سوف يعرف ما هو التصرف السليم.

فقال: «مورروينا، هناك شجرة أحتاج أن أعثر عليها».

ردت عليه مورروينا قائلة: «هناك العديد من الأشجار في الغابة». فتساءل سايلاس في سره ما إذا كانت مورروينا تسخر منه، لكنها واصلت كلامها قائلة: «وبعض هذه الأشجار في حقيقتها أشجار أكثر من غيرها. فبعضها في الأصل أشجار، وبعضها الآخر تحول إلى أشجار. أعتقد أن

الشجرة التي تبحث عنها ليست في الأصل شجرة، أليس كذلك يا سايلاس؟».

رد سايلاس قائلًا: «بلى».

«إن مهمة العثور على شجرة ليست في الأصل شجرة - مهمة صعبة جدًا، وهذه الأشجار تعيش في أراضي الغابات القديمة التي تُعد أماكن محفوفة بالمخاطر. بعض هذه الأشجار المتحولة أسعدها اختيارها، والبعض الآخر يبكي وينوح ويتمنى أن يعود إلى ما كان عليه. وهذا النوع هو الذي يتخذ من المارة فرائس له، ويغريها ليقودها إلى التهلكة. فمن تريد أن تعثر عليه يا سايلاس؟».

«بنيامين هيب، إنه والدي».

«ياه! والدك المتحول. يبدو أن ما يُقال صحيح، إن عائلتك لها جذور عميقة وظلال وارفة يا سايلاس هيب».

«حقًا؟ أنا لا أعرف السبب.. كل ما في الأمر أن والدي كان يحب الأشجار فحسب، لقد كان هادئًا بطبعه، وبطيئًا جدًا في تصرفاته، أعتقد أن هذا الوضع الآن يناسبه. لكن في حقيقة الأمر، لقد عثر عليه الأبناء - سبتيموس ونكو - العام الماضي. وأنا أحتاج لأن أعثر عليه الآن يا مورروينا، إنه سيعرف كيف يمكن العثور على نكو. لا بد. لا بد».

لم يسبق لمورروينا أن رأت سايلاس في مثل هذه الحالة من اليأس. ومن ثم، عرضت عليه عرضًا سخيًا، وهي تتذكر يوم أن أنقذها منذ سنوات طويلة مضت من الموت الحتمي عندما حاصرتها حيوانات الولفرين التي تعيش في الغابة، وقالت له: «سوف آخذك إلى والدك».

قال لها سايلاس وهو يشهق: «أتعرفين مكانه؟».

«بالطبع. فأنا أعرف كل شجرة في الغابة، وإلا كيف كان سيتسنى لي أن أصبح الساحرة الأم؟».

وجد سايلاس نفسه عاجزًا عن الكلام؛ لقد مكث السنوات الخمس والعشرين الماضية يبحث عن والده، بينما كانت موروينا تعلم مكانه *طوال هذا الوقت*.

«أنت صامت على نحو غريب جدًا يا سايلاس. هل سبب ذلك أنك لا تريد في نهاية الأمر أن تقابل والدك؟».

«لا.. لا، بل أريد أن أقابله. *أريد بالفعل* أن أقابله».

وبعد خمس دقائق كان سايلاس وماكسي يتبعان خطى الساحرة الأم على امتداد الطريق الملتف المؤدي إلى أرض الغابة، وأخذوا مسارًا ضيقًا يعلم سايلاس أنه يقود إلى معسكر هيب الذي أقام فيه الأيام القليلة الماضية - إلى أن طفح الكيل بالجميع؛ فلا هو تحمل سكان المعسكر ولا سكان المعسكر تحملوه. وبهدوء، انعطفوا مارين بمعسكر هيب الذي لا يعدو منظره في هذا الوقت المبكر من النهار أكثر من مساحة في حالة سُبات تبدو كأكوام ضخمة من أوراق الأشجار. هذه الأكوام في حقيقة الأمر ما يُطلق عليه أبناء هيب السواتر - وهي ملاجئ بسيطة مصنوعة من أغصان وأوراق أشجار الصفصاف. وكانت العلامة الوحيدة الدالة على أن المكان معمور هي الدخان المتصاعد من نار المعسكر التي يتركها الأبناء مشتعلة بشكل متواصل، وصوت الغطيط

المنجرف من خيمة سام هيب. داهمت سايلاس رغبة ملحة لأن يذهب ويوقظهم من النوم، ويقول لهم أن *ينهضوا ويفعلوا أي شيء مفيد* - وكان هذا هو سبب معظم المشكلات والخلافات التي كانت تنشب بينهم أثناء إقامته معه إلا أنه قاوم هذه الرغبة.

سار سايلاس وماكسي وموروينا متوغلين في أعماق الغابة، يسلكون طريقهم عبر أراضٍ فضاء وأخاديد مظلمة، وفي أماكن مخفية لم يسبق لسايلاس أن رآها من قبل، وكانوا يقطعون الطريق مسرعين، بما أن موروينا كانت تسير بخطوات سريعة ورشيقة بين الأشجار. وظل سايلاس يركز بشدة في متابعة عباءة الساحرة بلونها الأخضر الأشبه باخضرار الغابة، وكانت العباءة تتخذ أشكال الهيئات المحيطة، وعلم أنه إذا غفل عنها لوهلة فسوف تتوارى موروينا عن أنظاره بسرعة. كان ماكسي يتبختر في الخلف، مع تذمر مفاصله المتصلبة من طول الطريق، لكنه لم يترك الفرصة لسايلاس بأن يغيب عن عينيه ولو للحظة واحدة.

وفجأة، غطست موروينا في دغل من السراخس العملاقة وتبعها سايلاس، لكن منعته جذوعها من المرور فأخذ يزيح فيها ويدفعها، حتى إنه راح يسبها بصوت خفيض، لكنها لم تتحرك من مكانها، ولم ينله من كل ذلك غير أن عباءته التصقت بها مجموعة مثيرة من القشور الخشنة لثمار عملاقة، وضفدعان لزجان. وكبح سايلاس إغراء فكرة أن ينادي موروينا؛ لعلمه أن أي صوت بشري في الغابة، حتى وإن كان ذلك في وضح النهار، قد يُلفت انتباه ذلك النوع من الأشياء التي لا يود المرء أن يُلفت انتباهها. ومن ثم، انتظر على أمل أن موروينا سرعان ما ستلحظ أنه

تخلف عنها. واستلقى ماكسي ممتنًا على الأرض وأخذ يلعق أرجله المجهدة، لكن سايلاس لم يكن في صبر ماكسي وأخذ يركل كعبيه، ويفرك في رأسه الذي كان يحكه، ثم أزاح ثلاث خنافس من خنافس الأشجار، وأجبر الضفدعين اللزجين على ترك عباءته وألصقهما في شجيرة قريبة، ثم بدأ ينزع واحدًا تلو الآخر خمسة وعشرين نباتًا شوكيًا عملاقًا كانت قد التصقت بعباءته، وألقى بها وسط نباتات السرخس، ورغم مُضي كل هذا الوقت لم تظهر الساحرة الأم!

وقرر سايلاس أن يجازف وينادي عليها هامسًا: «موروينا.. موروينا..».

وبعد لحظات، انبثقت من بين نباتات السراخس، وقالت: «*ها أنت* يا سايلاس. هيا، اتبعني بخطوات سريعة». وغاصت موروينا من جديد بين السراخس، لكن هذه المرة تابع سايلاس خطواتها عن قرب حتى إنه كاد يدوس بقدمه على كعبها، وكانت الجذوع السميكة تُفسح الطريق لموروينا، لكنها لم تفعل ذلك مع سايلاس. فما إن كانت موروينا تعبر بين السراخس العملاقة حتى كانت هذه السراخس تتقارب من بعضها البعض مرة أخرى في تكوين عسكري، وتجبر سايلاس وماكسي على التحرك سريعًا والتسلل بينها من الفتحة التي يقل اتساعها، وقال سايلاس في سره إن من حظه أن موروينا أضخم منه بكثير.

ومع مواصلة تحركهم بين السراخس، خَفُت الضوء وتحول إلى اخضرار معتم. وأخيرًا وصلوا إلى كتلة خضراء شاسعة ومهيمنة من الأشجار - كانت أطول أشجار رآها سايلاس في حياته، وكانت أغصانها

تتقوس برشاقة لأعلى مكونة سقفًا للغابة يرتفع عاليًا مئات الأقدام، وداهمه إحساس بالرهبة لم يتوقعه، وأخذ ماكسي يعوي.

قالت موروينا بهدوء: «إن والدك هنا».

«ياه!».

ثم قالت موروينا شبه هامسة: «سوف أتركك هنا يا سايلاس. فلديَّ بعض الأعمال في قاعدتنا الشتوية. وسوف أمر بك لأصطحبك في طريق عودتي».

لم يرد سايلاس عليها، إنه لا يستطيع أن يتخيل بأي حال كيف يمكن أن يترك مكانًا مسالمًا بهذا الشكل.

وقالت موروينا على عجل: «سايلاس؟».

طرد سايلاس حالة الافتتان التي اجتاحته ورد عليها قائلًا: «أشكرك يا موروينا، لكن أعتقد أنني أود البقاء هنا لبعض الوقت».

رأت موروينا النظرة الشاردة في عيني سايلاس، وعلمت أنها لن تصل معه إلى ما هو أبعد من ذلك. فقالت له: «احرص على قضاء ساعات الظلام بعيدًا عن سطح أرض الغابة؛ فالغابات القديمة أماكن خطيرة في المساء».

أومأ لها سايلاس برأسه.

«في رعاية الله».

«موروينا؟».

«نعم، ماذا تريد يا سايلاس؟».

«أين والدي بالتحديد؟».

أشارت موروينا إلى الكتلة المتشابكة من الجذور الطحلبية الملتوية أسفل حذاء سايلاس الطويل، وقالت بابتسامة: «أنت تقف على أطراف أصابع قدميه».. وبهذه الكلمات اختفت موروينا.

30

الوعد



بعد أن راقبت موروينا سايلاس والكلب الذئبي ماكسي الذي انتابه الذهول الشديد وهما يُرفعان ببطء إلى أغصان بنيامين هيب – توجهت مباشرة إلى المحاجر القديمة. وقد كانت الساحرة الأم السابقة، السيدة أجاريك، تدير مجموعة ساحرات ويندرون من مقر متسع في كهف ضخم يقع عاليًا في أسوار المحجر القديم بأعماق الغابة. وكانت فترة حكم السيدة أجاريك قد

انتهت بشكل غير متوقع – دون أن يؤسف عليها بوجه عام – ولقد حدث ذلك في ليلة شتاء باردة كان القمر فيها بدرًا عندما تجاوزت الساحرة السابقة بجزء من الثانية المدة المطلوبة **لتجميد** رجل ذئب وجدته يتربص وسط أكوام الفوضى المتعفنة في آخر الكهف.

وكان أول أمر قامت به موروينا عندما تولت منصب الساحرة الأم أنها أنشأت حلقة الساحرات الصيفية على التل؛ ولقد وضع هذا حدًا لكل الأشكال العدائية التافهة وممارسة اللعنات الشخصية التي كانت منتشرة بين الساحرات، والتي كانت تحفزها على الإقامة في المحجر الكئيب. كانت موروينا تحب أن تراجع كل تفاصيل عملية الانتقال بنفسها – ومن بين هذه التفاصيل ما هو متعلق بجعل المحجر القديم آمنًا ومرحبًا حين عودتهم لاحقًا يوم الاعتدال الخريفي.

أخذت موروينا الطريق المختصر للوصول إلى المحجر القديم، وهو طريق يتوارى عن الأنظار ويتجه نزولًا إلى وادٍ سري هو وادي أشجار تنوب النجم الأزرق التي لا تنمو في أي مكان آخر. ومع دخولها الوادي، كانت الأجواء تفوح منها رائحـة التنوب الأزرق، وهي رائحـة تجعل النعاس يتسلل إلى جفون العابرين الغافلين، فيصبحون فريسة سهلة للأفاعي الزرقاء التي ترعى فوق الأغصان العليا من أشجار التنوب. لكن موروينا كانت مستعدة تمامًا، وأخرجت منديلها الأخضر المنقط، ورشته ببضع قطرات من زيت النعناع، ثم غطت به أنفها. ظهرت موروينا في الوادي، وتوقفت للحظات بجانب البركة الخضراء.. وهي بركة قديمة حُفرت في أعماق الأرض الصخرية للغابة، ثم جثت على ركبتيها وغطست يديها في

المياه الباردة وشربت منها، ثم ملأت زجاجة صغيرة بالماء وواصلت طريقها.

بعد نحو نصف ساعة، كانت موروينا تهبط الطريق الصخري شديد الانحدار الذي يؤدي إلى المحجر القديم، ثم عبرت الصخرة الأخيرة بقفزة رشيقة، ووطئت بقدمها على سطح أرض المحجر الناعم. وهنا، وقفت للحظات تلتقط فيها أنفاسها، ثم رفعت بصرها تنظر إلى الاتساع الممتد للصخرة المنبثقة أمامها. وكان المحجر القديم يتخذ شكلًا نصف دائري. وعلى الرغم من أنه يتشكل من الصخور الصفراء الباهتة التي بُني بها العديد من البيوت القديمة في القلعة – والقصر أيضًا – فإن جدرانه التي قُطعت بشكل غير مصقول وامتدت لأعلى نحو قمم الأشجار كانت داكنة إلى درجة الكآبة، ومخططة وقد اسودت من أثر السخام المنبعث من النيران التي تواصل ساحرات ويندرون إشعالها منذ مئات السنين، منذ أن احتللن هذا المكان، كما أن هذه الجدران عشش فيها نوع من أشنات الوحل المحلي في الغابة، وتتميز بلون أسود مزعج يميل إلى الأخضر، وتفوح منها رائحة كئيبة كلما طالتها الرطوبة. وكان يعترض واجهة الصخرة كل حين أشكال أكثر قتامةً من كل ما سبق؛ هي مداخل لعدد من الكهوف كانت مكشوفة لعمال المحاجر خلال السنوات الطويلة التي مضت. ولكل كهف من هذه الكهوف سلم قامت الساحرات بحفره في الصخور بشق الأنفس بمجرد استيلائهن على المحجر. وهذه هي الكهوف التي تقيم فيها ساحرات ويندرون في

الشتاء، في مأمن – أغلب الأوقات على الأقل– من الكائنات الليلية المغيرة التي تعيش في الغابة.

ولقد أرادت موروينا اليوم أن تطمئن على الكهوف السفلية وتؤمنها؛ فالوضع بلا شك لن يكون لطيفًا أن تفاجأ الساحرات لدى عودتهن إلى المحجر القديم في يوم خريف بارد، مثقلات بأحمال الخيام المتسخة والحشيات المبللة – تفاجأ بأن مجموعة من حيوانات الولفرين قررت أن كهوفهن تناسبها أكثر منهن، وأنها مستعدة لإثبات ذلك.

وكان الأمر الوحيد الذي تحبه موروينا حقًّا في المحجر القديم هو أنه يُعد أحد الأماكن المعدودة في الغابة ذات السطح المنبسط.. توجهت موروينا بعزم سائرة على الأرض الحجرية الصفراء الممتدة، ولاحظت باستحسان أن كل شيء نظيف ومرتب ولا شيء تُرك في الخارج هنا، أو لو أن هذا قد حدث فلا بد أن كائنًا ما قد التهمه، وأزاح عنها عبء التخلص منه. وما إن اقتربت من الظلال السوداء المائلة إلى اللون الأزرق عند سفح الواجهة الصخرية – حتى لمحت حركة فجائية قادمة من داخل كهف كبير أدخلت في نفسها الرعب فتسمرت في مكانها. وببطء شديد، شديد جدًّا جدًّا، سحبت عباءتها الخضراء، ولفتها حول جسمها بحيث ظهرت بطانتها المنقطة وجعلتها تمتزج مع الظلال، ثم انتظرت وهي تنشد بهمس الكلمات السحرية التالية:

«على الرغم من أنك قد تستطيع أن ترى، لا تراني.. لا تراني.. لا تراني..».

لكنها حرصت في نفس الوقت على ألا يفوتها هي رؤية أي شيء. وبدأت عيناها الزرقاوان الثاقبتان تكتسبان بريقًا ساطعًا مع تحديقهما إلى الظلام – بحثًا وفحصًا – وفجأة لمحت وميضًا أبيض. وعلى الفور، حبست أنفاسها – تُرى، ما هذا الذي تراه؟ ما هذا الكائن الأبيض الضخم القابع داخل الكهف؟

رأت موروينا الهيئة البيضاء وهي تتحرك متوجهة نحو مقدمة الكهف. وعلى الفور، استخدمت تعويذة **الدرع الواقي** الأساسية، وهي إحدى التعاويذ البسيطة التي تستخدمها الساحرات. وما إن بدأت تعد نفسها لأن تجمد هذا الكائن بتعويذة **التجميد** لتتمكن من رؤيته – حتى كادت الهيئة البيضاء الضخمة تسقط خارج الكهف، فشهقت موروينا من فرط دهشتها وأنهت **الدرع الواقي**، ثم صاحت قائلة: «*إيفانيا! إيفانيا!*».. فموروينا بأي حال من الأحوال لن تخطئ التعرف إلى الرجل الجُرذ ولو من على بعد.

توقف إيفانيا جريب، وطرفت عينه وهو ينظر جهة الضوء.. وقد بدا عليه الاندهاش وهو يسمع اسمه، لكنه تعرَّف الصوت فورًا. وبحماس، أطلق صريرًا؛ كانت ترجمته كالتالي: «موروينا، كم كنت آمل أن أعثر عليك، وها أنت أمامي الآن!» وانطلق نحو الساحرة وهو يعرج.

تقابل الاثنان في منتصف الطريق، وعانقت موروينا الرجل الجُرذ عناقًا أطبق على أنفاسه حتى إنه أخذ يسعل، بينما كانت رئتاه الصغيرتان تُسحقان بين قبضتي الساحرة.

تراجعت موروينا خطوة للوراء، وأخذت تتفحص إيفانيا من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، ثم قالت له وقد بدا عليها القلق: «أنت تعرج».

همهم إيفانيا قائلًا: «لا تشغلي بالك، إنها العدوى التي تصيب قدمي».

كانت مورروينا تستطيع - كالعديد من الساحرات - أن تفهم كلام الجرذان والقطط، وردت عليه بنبرة لطيفة قائلة: «تعال معي إلى حلقتنا، سوف أضمدها لك برباط ضاغط».

ارتسمت ابتسامة على عيني إيفانيا، لكنه هز رأسه أسفًا، وقال: «للأسف لا أستطيع المكوث هنا. إن معي بعض الأطفال الصغار أنا مسئول عنهم ولا بد أن أعتني بهم».

رفعت مورروينا حاجبيها، وقالت بنبرة بدا عليها الاندهاش، رغم أنها لم تقصد ذلك: «فعلًا *لديك أطفال* ؟».

رد إيفانيا على الفور قائلًا: «لا، لا، إنهم ليسوا أبنائي. المسألة أن هناك أمورًا حدثت في برج السحرة، وأنا معي الآن تلميذ الساحرة العظمى الذي هرب من **الرحلة الاستكشافية**».

قالت مورروينا: «**الرحلة الاستكشافية**؟! إذن لقد حان وقت إجراء ذلك مرة أخرى، *أليس كذلك*؟ كم يؤسفني ذلك. يا له من إهدار لمواهب شابة! ويا لها من مكافأة بعد سبع سنوات من العمل المضني!». ثم توقفت مورروينا في حيرة، وقالت: «لكن، أوليس الفتى أصغر بكثير من السن المفترضة؟ فالفتى لم تمض عليه ثلاث سنوات منذ أن أصبح تلميذًا».

تحول صرير إيفانيا إلى همس، وقال ما معناه: «مورروينا، لقد جئت كي أطلب منك المساعدة. فعلى الرغم من أنهم يفرون من **الرحلة الاستكشافية**، فإنهم أيضًا...».

قاطعته مورروينا متسائلة: «هم؟!».

«إن معي الأميرة أيضًا، وعضوًا سابقًا من فريق العمل في دار المخطوطات».

«عظيم عظيم. أنت تتقن عملك تمامًا. الأميرة في الغابة إذن؟ من المؤكد أن هذه سابقة».

«أنا أحتاج لنصيحتك، لقد فقدوا أخاهم».

«في زمن آخر على ما يبدو».

«*أتعلمين* ذلك؟».

قالت مورروينا بابتسامة: «لا بد للساحرة أن تكون - أولًا بأول - على علم بالشائعات التي تدور هنا وهناك».

قال لها إيفانيا بتردد: «أنا... أنا أريد أن أطلب منك خدمة».

«لا ضرر من السؤال».

أخذ إيفانيا نفسًا عميقًا وقال: «لقد جئت لأطلب منك أن تدليهم على طريق الغابة».

«يباه!». وهنا اختفت خفة ظل مورروينا التي استقبلت بها إيفانيا، وتراجعت خطوة للوراء كأنها تقيم حاجزًا بينهما.

«أرجوك يا مورروينا».

تنهدت موروينا وقالت: «إيفانيا، إن هذه المعلومة ليست ملكي كي أعطيها لأحد. لا بد أن يُدفع الثمن في المقابل».

قال إيفانيا بعينين متوسلتين: «لكن هذا قد يُنقذ حياة شخصين أو أكثر».

«حسنًا، لقد رفعت أنت السعر توًّا».

«موروينا، أرجوك».

ابتسمت موروينا بشيء من التكلف، وقالت: «كفى الآن يا إيفانيا. تعال وامكث معنا اليوم في حلقتنا، سوف ألف قدمك بضمادة، ثم نتناقش في الأمر، ما رأيك؟».

استمتع كل من سبتيموس وبيتل بالحلقة الصيفية ظهر هذا اليوم خلافًا لچينا.. وبينما كانت موروينا منشغلة بلف ضمادة خضراء كبيرة على قدم إيفانيا المتورمة، أخذ سبتيموس وبيتل يثرثران مع الساحرات الشابات حتى إن سبتيموس قام بتضفير شعره ببعض الخرز، وهو ما راق بيتل كثيرًا. لكن چينا ظلت جالسة لدى باب خيمة الزوار وهي تحكم قبضتها على أولر، وتراقب كل ذلك باستنكار؛ فهي لم تشعر بأي ود تجاه الساحرات الشابات، وارتابت من أحاديثهن عن الإلهات والأرواح، ومن طريقتهن المتعالية الواثقة. ومقارنة بسكان القلعة الذين يتسمون بالرزانة، بدت الساحرات الشابات مختلفات تمامًا، بملابسهن ذات الألوان الساطعة والمشغولة بالخرز، وبمنظر أصابعهن المثقلة بالخواتم الفضية،

وبالخرز والريش المتشابك والمنسوج في شعرهن، وبمنظرهن الذي بدا بوجه عام أنه مكسو بالأوساخ التي لفحتها الشمس.

جلس إيفانيا بجانب نار المعسكر وقد باتت قدمه مغطاة الآن بضمادة ساخنة غير مريحة، يحاول جاهدًا أن يفكر في وسيلة يقنع بها موروينا بأن تدلهم على طريق الغابة. فبعد أن وعد چينا وسبتيموس بالحصول على مساعدة موروينا - وهو تصرف أدرك حمقه الآن - لم يود أن يتخلى عنهما، وكان مستعدًا لأن يدفع أي مقابل تطلبه منه موروينا، لكنها لا تريد أن تذكر الثمن، واكتفت بأن قالت له: «سوف نتحدث في ذلك مساءً على نور القمر».

بدأ الظلام يحل - ومع تحول أولر النهاري إلى الليلي - شُحنت الأجواء، وتزاحمت الساحرات حول چينا والنمر الأسود، دون أن تنبس أيٌّ منهن ببنت شفة، لكن بريق عيونهن الزرقاء كان يتلألأ وسط الظلام.. وكانت چينا حيثما التفتت، تلاقت نظراتها مع نقطتين زرقاوين للحظة خاطفة ثم تلتفت بعدها فورًا النقطتان وتنظران بعيدًا. لم يبدُ على أولر الاكتراث، وظل ممددًا بجوار چينا، وفيما عدا حركة طرف ذيله المتذبذبة لم يُحرك ساكنًا.

وأخيرًا، انتهت الأمسية المزعجة حول نار معسكر الساحرات، وألقت چينا وسبتيموس وبيتل بأجسادهم على كومة من فراء الماعز كريهة الرائحة في خيمة الضيوف. ومن فرط الإرهاق، راحت چينا في سُبات عميق وذراعها ملتفة حول أولر، لكن سبتيموس ظل مستيقظًا وأخذ

يُنصت إلى الثرثرة المتقطعة التي كانت تدور بين الساحرات مع هدوئهن واستقرارهن في فترة المساء، وكذلك إلى الصرخات والصيحات غير المنتظمة التي تطلقها الكائنات الليلية بعيدًا بالأسفل في الغابة.

كان سبتيموس غاضبًا من موروينا؛ فيبدو أن والدته - كما قال في سره وهو ممدد أسفل فروة ماعز مبللة يعطس للمرة المليون - كانت محقة؛ فأنت لا تستطيع أبدًا أن تعرف رأسك من قدميك مع ساحرات ويندرون.. وظل ذهنه يستعرض أحداث الليلة؛ لقد بدأت الليلة بداية طيبة، حتى وإن بدت چينا مضطربة بعض الشيء، فقد استقبلتهم موروينا كضيوف شرف، وبُسط البساط وفُرشت لهم الوسائد ليجلسوا عليها، وتم تعريفهم إلى كل مجموعة الساحرات، وانضمت المجموعة لهم في حلقة واسعة حول نيران المعسكر. ومن بين كومة الأخشاب، رُفعت كتل ضخمة - احتاجت الواحدة لرفعها قوة ثلاث ساحرات - وأُلقي بها في النار. وأخذ سبتيموس يراقب شعلة النار بينما كانت شرارتها تتقافز عاليًا وسط سماء الليل، واجتاحته موجة يملؤها الأمل في الاحتمالات التي تجليها جلسة مسائية حول نار متوهجة بأحد المعسكرات.

ولقد قدمت لهن الساحرات الشابات اللاتي تولين مهمة الطهو- يخنة حيوانات الولڤرين وكانت رائعة المذاق، حتى المشروب الخاص بالساحرات كان أيضًا مذاقه لذيذًا.. وظل كل شيء على ما يُرام، إلى أن عاد إيفانيا يعرض طلبه على موروينا مرة أخرى. وفي لحظة - وكأن هناك من ضغط على زر - ساد صمت يجمد الدم في العروق، وشعر سبتيموس فجأة أنه محاط بقطيع من حيوانات الولڤرين لا بساحرات.

وبتهور، كرر إيفانيا طلبه، وقال ما معناه: «لكني *أتوسل* إليك يا موروينا أن تدلينا على طريق الغابة. من المؤكد أنك، ومن أجلي أنا، سوف تفعلين هذا، أليس كذلك؟».

لم يفهم سبتيموس صرير إيفانيا، لكن الرد كان واضحًا تمامًا.

وقالت موروينا بنبرة حادة: «ألم يكفِك كل ما فعلته من أجلك حتى الآن؟».

بدا إيفانيا مذهولًا ومجروح المشاعر، ورد قائلًا: «أنا لا أنكر ذلك. لقد قدمتِ لي الكثير، ومهما فعلت لن أستطيع أن أرد جميلك. أبدًا».

اخترقت عينا موروينا الزرقاوان ظلام الليل، وقالت له: «أنا ما طلبت منك قطُّ أن ترد الجميل يا إيفانيا. وبمحض إرادتي قدمت لك ما أملك أن أقدمه. أما عن المعلومة التي تطلبها مني فهي ليست ملكًا لي كي أقدمها لك. ما أنا إلا حارسة لطريق الغابة. ومن ثم، لا بد أن أحدد ثمن ذلك».

رد إيفانيا باندفاع قائلًا: «وأنا سوف أدفع ما تطلبينه».

بدا الاندهاش على موروينا وقالت له: «حسنًا، سوف أحدد ثمن ذلك صباح غد. وحينها، عندما أطلب منك الثمن لا بد أن تدفع».

وبتجهم، أومأ لها إيفانيا برأسه، وقال بصرير: «مفهوم».

وبهذه الكلمات، هبت الساحرة الأم واقفة على قدميها، وبصمت تام حذت كل ساحرات الحلقة حذوها.. وهكذا انتهت الأمسية.

اعتدل سبتيموس جالسًا، وهو يلقي بعيدًا بفروة الماعز المقززة؛ فهو - وكما قرر في سره - لديه حساسية من الماعز.. خاصة تلك التي تفوح

منها رائحة كريهة. وتساءل في سره ما إذا كان في وسعه أن يبدل فروة الماعز مع بيتل ويأخذ منه بطانيته دون أن يوقظه.

ثم جاء همس بيتل من الطرف الآخر من الخيمة، وقال: «ألا تزال مستيقظًا يا سِبِ؟».

«لا، أنا أنام دائمًا وأنا جالس».

«حقًا؟».

«بالطبع أنا مستيقظ يا بيتل، وهل أنت أيضًا مستيقظ؟».

«لا، أنا مستغرق في النوم».

«ها ها.. بيتل، انظر! ما هذا؟»؛ إذ ظهرت فجأة ظلال ممتدة ومتعرجة، واضحة تمامًا على جانب من الخيمة، ثم أفصحت نوبة من القهقهة المكتومة عن الأمر؛ حيث كانت الظلال لمجموعة من الساحرات الشابات على الجانب الآخر من الخيمة.

كان هناك صوت تشوبه نبرة ارتياب يسأل: «*مستحيل*.. هل هذا فعلا ما سوف تطلبه من الرجل الجُرذ؟».

«هذا هو ما قالته. إنها دائمًا تخبرني بمثل هذه الأمور عندما أساعدها أثناء استعدادها للنوم؛ فهي تحب في تلك الأوقات أن تسترخي وتتحدث في بعض الأمور».

«سوف تضعكِ في قائمتها السوداء يا ماريسا إذا لم تحترسي».

«ياه! ها ها، لا أظن ذلك».

واقتحم الحديث صوت جاد يقول: «لكن الرجل الجُرذ ليس مضطرًا لأن يدفع الثمن إذا طلبت منه الدفع، أليس كذلك؟».

«بل إنه مضطر. فقد وافق، أليس كذلك؟».

وقال صوت آخر: «لقد أصدر صريرًا، وقد يعني ذلك أي شيء.. فقد يعني (اغربي عن وجهي أيتها المرأة البدينة)...».

«صه! هل أصابتك *لوثة في عقلك* حتى تصفي الساحرة الأم بالبدينة؟ أنت تعلمين تمامًا مدى حساسيتها من مسألة وزنها الزائد. سوف ينتهي بك الأمر يومًا إلى أنك ستتحولين إلى ضفدع، أو إلى ما هو أسوأ من ذلك».

اقتحم الصوت الجاد الحديث مرة أخرى وقال: «لكن ما الذي يجعلها أساسًا تريد الأميرة جينا؟».

اتسعت عيون سبتيموس وبيتل على آخرها من فرط الذهول، وركز كلاهما بشدة حتى يسمع الجملة القادمة.

«إنها تريد النمر الأسود»، وكان ذلك صوت ماريسا التي واصلت قائلة: «فمورووينا دائمًا ما كانت تود أن تمتلك واحدًا من **المتحولين** بين الليل والنهار».

«فلماذا إذن لا تطلب النمر الأسود فحسب؟».

قالت ماريسا وهي تقهقه: «سلعتان بثمن سلعة واحدة؛ فهي إذا طلبت النمر الأسود سوف تحصل عليه هو فقط، لكن إذا طلبت الأميرة فسوف تحصل على كليهما. إنها ذكية، أليس كذلك؟».

«فعلًا».

«كما أن حصولها على الأميرة سيقوي نفوذها فعلا، أليس كذلك؟ إن مورووينا تقول إن القصر مملوء بأطنان من الأعمال **السحرية** القديمة التي

سرقتها منا الملكات في الأصل، وهي تريد فقط استعادة ما يُعد ملكًا شرعيًا لنا».

«أي أنها بالفعل سوف تطلب الأميرة في المقابل».

«فعلًا. هذا هو ما ستفعله بمجرد أن تستيقظ من نومها غدًا؛ أي أن الأنسة الملكية المتأففة وقطها الهزيل سوف يعيشان معنا هنا. سرعان ما ستتعلم، هو- هو».

وانبعثت نوبة قهقهة أخرى - تحمل شيئًا في طياتها من الشر هذه المرة - ثم شعر سبتيموس أنه على وشك العطس مرة ثانية، وهو ما أفزعه. فأمسك أنفه ليكتم العطسة. لا بد *ألا* يعطس. لا بد ألا، ألا، ألا، أت.. أت.. *أت*.. وأدرك بيتل هذه العطسة الوشيكة، فانتفض من مكانه وكتم أنف سبتيموس الذي زال عنه فجأة رغبته في العطس، وبات كل ما يريده الآن هو أن يتنفس.

استمر حديث الساحرات الشابات غير مدركات بأن هناك من يتنصت عليهن على بُعد خطوات، لا يفصل بينهما سوى قطعة من القماش السميك. كانت ماريسا هي التي تتحدث الآن، وبدا عليها نفاد الصبر وهي تقول: «إن سام سرعان ما سيصل. فأنا أرى ضوء مصباحه يتحرك على امتداد الطريق. ونحن لن نستطيع أن ننتظر بريوني أكثر من ذلك».

«امنحيها عدة دقائق أخرى يا ماريسا؛ إذ كان لا بد أن تنظف القدر الذي طُهي به الطعام وهي مهمة أكبر من المهمة التي قمت بها صباح اليوم، إنها مهمة مقززة».

«حسنًا، أنا *أكره* تنظيف القدر. إن أحدًا لم يلاحظ وجود بقايا من الإفطار في يخنة حيوانات الولفرين الذي كانوا يتناولونه. أف! لقد سئمت من الانتظار، سوف أذهب أنا إليها، فإما أن تأتي معنا الآن وإما أن تنسى الأمر».

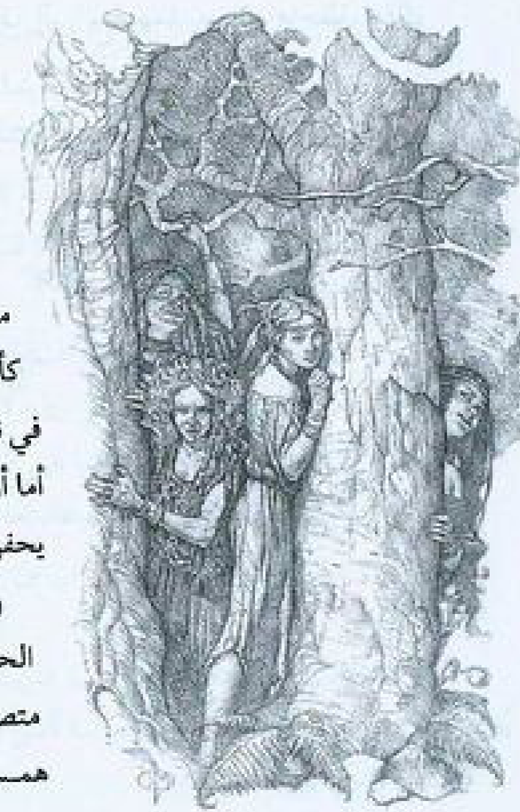
«حسنًا، سوف نأتي معك»، وترك الظل الأطول المجموعة، وتبعه الظلال الثلاثة الأخرى على الفور.

أخذ سبتيموس وبيتل يحدقان إلى بعضهما بعيون جاحظة، وقال بيتل: «هل سمعت *هذا*؟».

أومأ له سبتيموس برأسه وهمس: «لا بد أن نُخرج جينا من هنا حالًا».

31

معسكر أبناء هيب



بعد *ثلاثين ثانية*، كانت چينا، والتي كان النعاس لا يزال يملأ عينيها، قد أُخرجت من الخيمة، يحيط بها سبتيموس من جانب وبيتل من الجانب الآخر كأنهما حارسان. رمشت چينا بعينها في نور القمر، ونظرت حولها في حيرة. أما أولر فتثاءب وسط جسمه، وأخذ يحفر بمخالبه في العشب المبلل.

وبعيدًا على الجانب الآخر من الحلقة الصيفية كان هناك جدل متصاعد يدور حول قدور الطهو.. همس سبتيموس متخذًا الأصوات

العالية غطاء له، وقال: «چين.. لا بد أن نخرج من هنا الآن. في الحال. هيا».

«لكن ما السبب؟ أنا مجهدة جدًا يا سِب».

«مع الأسف الشديد يا چين، لا يمكنك البقاء هنا. هيا».

«لكن إلى أين؟ أنا لن أدخل الغابة في المساء.. مُحال».

«هيا يا چين»، ثم أشار سبتيموس إلى بيتل بنظرة، وعلى الفور أمسك كل منهما چينا من ذراع، ورفعاها على قدميها.

قالت چينا معترضة: «كفى!».

فهمس سبتيموس وبيتل في نفس واحد: «صه!».

وهمست چينا ترد قائلة: «أقول.. لكما.. اتركاني»، ثم أكملت جملتها بعد أن حولت صوتها إلى نبرة الأميرات: «*في الحال*» فتركها سبتيموس وبيتل.

ثم قال سبتيموس متوسلًا: «هيا بنا يا چين، لا بد أن تثقي بنا، أرجوكِ».

كانت چينا تثق بسبتيموس ثقة عمياء، لكن الشيء الذي لا تثق به هو وجودها في الغابة ليلًا. وعلى مضض، نزلت التل مع سبتيموس وبيتل تاركين دفء نيران المعسكر والحلقة المضاءة التي بدت خيامها الآن كأنها أقماع صفراء مقلوبة تعلو التل، وتوجهوا نحو ظلام الغابة غير مأمون العواقب. وحتى وهي في صحبة أولر الليلي الذي كان إلى جوارها، شعرت بالخوف.. وهنالك رأت شيئًا أدخل الرعب في نفسها؛ فهناك بعيدًا في الأسفل رأوا شعلة تتراقص يمينًا ويسارًا شبه متوارية بين الأشجار، وتتوجه نحو المكان الذي يتوجهون إليه مباشرة. توقفت چينا، ثم حملقت

في سبتيموس وبيتل بنظرة تهددهما بها إن فكرا ولو للحظة واحدة في أن يجبراها على النهوض ومواصلة السير، وهمست قائلة: «إنه شبح الغابة، وهو يتوجه نحونا مباشرة».

«إنه ليس شبح الغابة يا جين»، ثم أضاء نور القمر ابتسامة سبتيموس العريضة ورأت جينا عينيه الخضراوين تتلألآن، وأردف سبتيموس قائلًا: «هذا سام».

قال سام بنبرة مرحة واضحة وهو يفكر في النتيجة المتوقعة: «إن جوجو سوف يقتلني».

قال سبتيموس بينما كانوا يتبعون سام على امتداد المسار الممتد بين أشجار الغابة الشاهقة:

«أنا فعلًا آسف».

رد سام قائلًا: «*وأنا* غير آسف. لقد طفح بي الكيل من هؤلاء الساحرات وقهقهتهن التي تقلق نومي في الليل. إنهن مزعجات. وأنا لا أفهم سبب حب جوجو وإيريك وإد لهن».

ظن بيتل أنه يعلم السبب لكنه لم ينبس بكلمة.. لقد كان مستغرقًا في محاولة اللحاق بسام؛ فسام كان يسلك يشق الطريق بخطوات سريعة ويحمل معه غصنًا طويلًا من شجر البلوط تم تغطيسه في القار وحرقه بنار قوية، وأراد بيتل أن يظل قريبًا من الغصن بقدر المستطاع؛ إذ إن المسار بات الآن ضيقًا وتوغل في رقعة مظلمة ظلامًا حالكًا، واضطرت المجموعة إلى السير في صف مفرد كان بيتل في آخره، وظلت القصص والحكايات

عن حيوانات الولفرين التي تختار أضعف الضالين تدور في ذهنه، وكان مصرًا على ألا يُعطي أدنى انطباع بالضلال.

تحلى سام بصفته قائدًا بالثقة بالنفس؛ فكان يسير بثبات وبخطى واسعة، ولم يبطئ من سرعته إلا مرة واحدة عندما سمعوا زمجرة طويلة قادمة من وسط الظلام الممتد أمامهم. وعلى الرغم من زئير أولر الذي انطلق ردًا على صوت الزمجرة فإن الزمجرة استمرت، ورأى بيتل أمامه على امتداد المسار البريق الأصفر لزوج من العيون. وفجأة، دفع سام مصباحه بحركة عنيفة في اتجاه الظلام، تلا ذلك صرخة حادة ورائحة فرو محترق حرقًا خفيفًا. وعلى الفور، هرعوا مسرعين، وكانت خطوات بيتل تكاد تصطدم بكعبي سبتيموس وهو يحاول جاهدًا اللحاق بهم، لكنه ظل يلتفت خلفه تحسبًا للعينين الصفراوين لو فكر صاحبهما في أن يجرب حظه.

بعد عدة دقائق، بدأ المسار يتسع عرضًا، وبدأ بيتل يشعر بتحسن كبير، وأمكنه رؤية شعلة نيران المعسكر وهي تتراقص يمينًا ويسارًا بين الأشجار، وعلم أنه لا بد وأنهم يقتربون الآن من معسكر هيب. ومع مواصلتهم السير وراء سام متوجهين نحو ساحة خالية من الأشجار، هب ثلاثة فتيان بهيئات نحيلة وطويلة القامة من حول النار التي كانوا يجلسون بتراخ حولها، وانطلقوا جريًا ليحيوهم.

لم يسبق لبيتل من قبل أن قابل إخوة سبتيموس الذين يقيمون في الغابة، وإن كان سبتيموس قد حكى له كل شيء عنهم. ووجد بيتل نفسه مندهشًا؛ فقد أدرك أنه كان يتوقع أن يقابل نسخًا أكبر من سبتيموس، لكنه

ثم قال أحدهما بخجل: «مرحبًا يا چين».

ردت چينا بنفس القدر من الخجل: «مرحبًا يا إد».

«إذن، أنتِ تستطيعين *التمييز* بيننا؟».

«بالطبع *أستطيع*، ولم يختلط عليَّ الأمر يومًا، أليس كذلك؟ ولا حتى عندما كنتما تحاولان خداعي».

وضحك التوءمان إيريك وإد، وقال إيريك وهو يتذكر أنه كان يستطيع أحيانًا خداع والدته، لكنه لم ينجح قط مع چينا: «بلى هذا صحيح، ولا مرة واحدة».

ومع جلوسهم في دفء نار المعسكر يسمعون أصوات طقطقة الأخشاب وأزيزًا خافتًا لصف من الأسماك الصغيرة يتم شيها على النار، كانت چينا تستمع لسبتيموس وبيتل وهما يحكيان ما سمعاه هذه الليلة من على الجانب الآخر من الخيمة، ثم قالت: «إن هذا محض غباء. إن إيفانيا ما كان سيوافق. كما أنه على أية حال لا يستطيع أن يفعل ذلك، فأنت لا تستطيع أن تعطي شخصًا لشخص آخر».

رد سبتيموس قائلًا: «الأمر مختلف مع الساحرات».

قالت چينا بازدراء: «فليحاولن أن يفعلن ذلك وسوف يرين حينها».

قال سام: «إنه محق يا چين، إن *الأمر* مختلف مع الساحرات؛ فهن *لديهن* قوانين مختلفة؛ قوانين خاصة بهن. فأنت تعتقدين أنك تفعلين ما تريدينه، ثم يتبين لكِ بعد ذلك أنكِ كنت طوال ذلك الوقت تفعلين ما تريده الساحرات. انظري لچوچو!».

رد إيريك وإد بضحكة خبيثة: «إن چوچو يفعل ما يريده بالضبط».

غمغم سام قائلًا: «إنه يفعل ما يظن أنه يريده».

ثم خيم الصمت على الجميع، والتقط سبتيموس عصا وبدأ ينخس بها النار.

ثم قالت چينا فجأة: «وماذا عن إيفانيا؟».

رد سبتيموس: «سوف يتفهم الأمر».

«لا، لن يتفهم *الأمر*. كل ما سيتبادر إلى ذهنه أننا رحلنا وتخلينا عنه».

«كان لا بد أن نرحل يا چين؛ فقد كان سينتهي بكِ الأمر إلى أنكِ ستصبحين واحدة من ساحرات ويندرون». دمدمت چينا غير مصدقة ما تسمعه، ثم واصل سبتيموس قائلًا: «هذا هو ما كان سيحدث لكِ».

تنهدت چينا، والتقطت هي أيضًا عصا وأخذت تنخس بها النار بغضب؛ إذ شعرت وكأن نكو يتسرب من بين أيديهم، ودائمًا ما تكون هي بشكل أو بآخر وراء عرقلة الأمر.

ثم قال سام الذي يؤمن إيمانًا راسخًا بقدرة السمك على حفظ حالة السلام والهدوء حول نار المعسكر: «هل يريد أحد منكم سمكًا؟». لم يكن بينهم من يشعر بالجوع بعد يخنة حيوانات الولڤرين التي تناولوها، لكنهم رغم ذلك أومأوا له برءوسهم.

كان لسام طريقته الخاصة في طهي السمك، فقد مرر عصا رفيعة من الخشب المبلل في كل سمكة ووضعها على شواية سام هيب – وهي عبارة عن حامل معدني ثلاثي مُقام فوق النار، وله عادة خطيرة بأنه ينهار في أوقات غير متوقعة مطلقًا.. اختار سام أفضل ثلاث سمكات ناولها

لچينا وسبتيموس وبيتل. أخذ بيتل سمكته على مضض؛ فهو ليس من هواة تناول الأسماك، ومما زاد الطين بلة أن السمكة بدت وكأنها تحدق إليه بنظرة عتاب فحدق بيتل بدوره إليها وضغط على نفسه ليأخذ منها قضمة.

فسأله سام: «هل سمكتك لا تعجبك يا صرصار؟».

قال سبتيموس بفم ممتلئ بسمك كان في واقع الأمر رائع المذاق: «إن اسمه ليس (صرصار) يا سام، بل بيـ...»، وقاطعه صوت اصطدام مفاجئ بين الأشجار خلفهم. وبرد فعل منسجم انسجامًا تامًّا مع الغابة، انتفض سام وإد وإيريك وهبوا واقفين على أقدامهم وهم يلوحون بعصي، في وضع استعداد للدفاع عن المعسكر. وهنالك، خرج فهد صغير من فهود الغابة من بين الأشجار، منطلقًا مباشرة نحو نار المعسكر في حالة من الهلع الأعمى، ثم انعطف في طريقه لتجنب النار - وتجنب أولر أيضًا - ليتوارى بعد ذلك عن الأنظار مع توجهه إلى الجانب الآخر من الغابة.

قال سام: «هذا غريب جدًا. تُرى ما خطبه؟».

وظهر الرد على سؤال سام من بين الأشجار ملوحًا بمصباح زيتي، ومتجهًا بخطوات واسعة نحو معسكر هيب بهيئة يملؤها الفخر، سائرًا إلى جواره الساحرة الشابة ماريسا. كانت ماريسا بطول قامة چوچو، ذات شعر بني طويل مموج، ينسدل للخلف بواسطة رباط رأس جلدي مضفر، هو صورة طبق الأصل من رباط الرأس الذي يعتمره چوچو.. ولقد سمحت ماريسا لچوچو بأن يقودها حتى نار المعسكر؛ حيث ألقى چوچو

المصباح الزيتي جهة شعلة النار وهو يلوح سعيدًا بهذا الانتصار، ثم ألقى بجسده على الأرض بجانب النار وجذب ماريسا لتجلس إلى جواره. وأخيرًا، استقرت ماريسا وأخذت تعبث في عباءتها الخضراء الداكنة الخاصة بالساحرات والتي زينتها بعشرات المجموعات الصغيرة من الريش الملون، فبدت كأنها طائر غريب جاثم وحوله مجموعة من العصافير الرثة. أمسك چوچو بسمكة وتناولها في قضمة واحدة، وهو لا يزال منتشيًا بعد هذه الرحلة الليلية الناجحة في الغابة التي كانت مخيفة أيضًا - رغم أنه آخر من سيعترف بذلك. وبعد لحظات، تذكر أصول وآداب الضيافة، فقدم لماريسا سمكة، لكن الساحرة الشابة لم تلحظه؛ إذ كانت عيناها مركزتَيْن على چينا وسبتيموس وبيتل الجالسين على الجهة الأخرى من نار المعسكر؛ ثم سألتهم بريبة: «ما الذي تفعلونه هنا؟».

قال سبتيموس مصرًا على ألا يُفصح عن أي شيء: «وأنتِ، ما الذي تفعلينه هنا؟».

شعرت ماريسا بالسخط وقالت: «لكنكم ضيوف الساحرة الأم. ولا يمكنكم الرحيل هكذا بهذه البساطة. لا أحد يفعل هذا».

هز سبتيموس كتفيه ولم يرد عليها، وقد انطبعت عليه أساليب معسكر هيب؛ فقد بدأ يتعلم من إخوته أنه غير ملزم بتفسير تصرفاته إذا كان لا يريد ذلك، وأنه يُفضل في بعض الأحيان، مع الساحرات، ألا يُفسر المرء تصرفاته.

جلست ماريسا وهي مقطبة الجبين.. قدم لها چوچو السمكة مرة أخرى، لكنها هزت رأسها بغضب، وغمغمت قائلة: «لا بد أن أعود الآن».

قال چوچو غير مصدق: «تريدين العودة؟».

«نعم، أريد العودة. عُد بي يا چوچو».

بدا الذهول على چوچو وقال: «ماذا؟ الآن؟!».

«الآن».. وبرزت شفة ماريسا السفلية للخارج بغضب، وأخذت عيناها الزرقاوان المميزتان للساحرات تومضان في ضوء النار.

«لكن...».

قاطع سام اعتراضات چوچو، وقال: «إن چوچو لن يذهب إلى أي مكان هذه الليلة؛ فهذا في منتهى الخطورة. كما أن الوقت تجاوز منتصف الليل الآن، ولقد حان وقت نومنا». ألقى چوچو نظرة امتنان لسام، لكن سام تجاهله، ثم وقف وقال: «يستطيع بيب وچينا وصرصار استخدام الساتر القديم الذي كان يُقيم فيه الفتى الذئبي. هيا أيها الشباب»، ثم نظر في اتجاههم وقال لهم: «سوف أدلكم على طريقها».

كان سبتيموس على وشك أن يقول لسام إنه لا يحتاج لأن يصطحبهم، فهو يتذكر مكانها، لكن سام رمقه بنظرة ذات مغزى، فهمهم سبتيموس قائلًا: «حسنًا».

وما إن ابتعدوا عن مرمى سمع الجالسين حول نار المعسكر حتى قال سام على الفور: «لا بد أن ترحلوا غدًا في الفجر، فماريسا سوف تعود مباشرة إلى مورووينا وتخبرها، هذا لا جدال فيه، وإذا كانت مورووينا تريد ضم چين إلى المجموعة فستنفذ ذلك بأي شكل».

رد بيتل بعنف: «لا، لن تفعل ذلك! مادمتُ أنا وسبتيموس معها هنا».

قال سام متحليًا بالصبر: «اسمع يا صرصار، ليس أمامك أنت وسبتيموس أية فرصة للنجاح في مواجهة الساحرة الأم، صدقني. فأنتم تحتاجون لأن تخرجوا من هنا فورًا قبل أن تدرك الساحرة الأم أنكم رحلتم».

قال سبتيموس بريبة: «أعتقد أننا نستطيع أن نحاول اللحاق بمركب الميناء، لكنه عادة لا يتوقف في الغابة».

فسأله سام في حيرة: «لماذا تريد أن تفعل ذلك؟ كنت أظن أنكم ستسلكون طريق الغابة».

«فعلًا. هذا هو ما كنا ننوي القيام به، إلى أن بدا الانزعاج على مورووينا ورفضت أن تدلنا على الطريق».

قال سام: «لستم في حاجة إلى تلك الساحرة التي تحسبها بالورقة والقلم، أنا سوف أدلكم عليه».

قال سبتيموس وهو يشهق: «أنت؟!».

«صه!»، ونظر سام إلى المجموعة التي ترسم ظلها نار المعسكر، ثم واصل قائلًا: «لا تجعل هذه التافهة ماريسا تشعر بأننا نخطط لشيء. سوف أحضر في الصباح لأوقظكم، حسنًا؟».

فأومأ له سبتيموس برأسه، ثم قال: «تصبح على خير يا سام، أشكرك».

قال سام وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة عريضة: «لا تشغل بالك. فلا بد أن أرعى أخي وأختي الصغيرين، أليس كذلك؟».

كانت خيمة الفتى الذئبي دافئة ومريحة بعد أن ألقى لهم سام بمجموعة من البطاطين الثقيلة. ومع شعور چينا وسبتيموس وبيتل بالإرهاق الشديد، اندسوا تحت البطاطين، وتقوقعوا على فرش من أوراق الأشجار.

همس بيتل قائلًا: «تصبحان على خير».

«تصبح على خير يا صرصار».

«تصبح على خير يا صرصار».. هكذا جاء الردان على بيتل.

32

العبور الليلي



في الوقت الذي كانت چينا وسبتيموس وبيتل مستغرقين فيه في نوم خلا من الأحلام داخل خيمة الفتى الذئبي وكان أولر الليلي يُنصت إلى أصوات الغابة - عبرت معدية المياه في رحلة خطرة متوجهة إلى القلعة. وعلى الرغم من أن ملّاح المعدية تقاضى مبلغًا كبيرًا للقيام بهذه الرحلة، فإنه بدأ يندم؛ فحركة المد كانت قوية، وتدفقت المياه بسرعة عكس اتجاه الريح، ومع وصولهم إلى منتصف عرض النهر، أخذت المياه

«تتناثر» داخل المركب مع كل موجة تضربها.

كما أن الراكبيْن اللذين كان يقلهما المركب بدأ هما أيضًا يندمان.

قالت لوسي جرينج وهي تتأوه مع غوص المركب بشكل ينذر بالخطر وسط المياه، وبدت معدتها وكأنها تأخذ الاتجاه المعاكس: «كان من الأفضل لنا أن ننتظر حتى الصباح».

رد سايمون عليها يريد أن يطمئنها: «لا تقلقي يا لوسي، لقد مررت بما هو أسوأ من ذلك من قبل». إنه في واقع الأمر لم يمر بما هو أسوأ من ذلك، كما قال في سره، ولكن ليس هذا هو الوقت المناسب الآن للتدقيق في كل كلمة.

سكتت لوسي ولم تنطق بكلمة واحدة أخرى؛ إذ رأت أنها لو نطقت الآن فعلى الأرجح سوف تتقيأ، وهي لا تريد أن يراها سايمون في هذا الوضع؛ فالفتاة لا بد أن تحافظ على مظهرها حتى ولو كانت على متن مركب صغير طاله العفن. أغمضت لوسي عينيها بقوة، وجلست تركز في الأفكار التي كانت تدور في رأسها؛ إنها لا تستطيع أن تطرد من ذهنها تعبير الذعر الذي ارتسم على وجه سايمون لحظة دخولهما المرصد عصر اليوم، وهمس لها حينها بهلع قائلًا: «لوسي، انزلي السلم فورًا وأحضري (رعد) في الحال!».

كانت لوسي لا تحب أن يُملي عليها سايمون أفعالها – وهو عامة لا يجرؤ على ذلك – لكنها علمت في تلك اللحظة أن هذا الموقف مختلف. وعلى الفور نزلت السلم الإردواز الزلق شديد الانحدار، مارةً بغرفة كائنات المأجوج المروعة، وعندما لحق بها سايمون كانت قد أعدت

سرج رعد مرة أخرى وبات الحصان مستعدًا للانطلاق. ولقد سألت حينها سايمون ما الذي حدث، لكن كان كل ما قاله لها **«لقد رأيت»**.

بدأت المعدية تقترب من الجانب الآخر للنهر، وباتت المياه أكثر هدوءًا. وأخيرًا أشرق وجه لوسي. وإذا كان ما قاله لها سايمون صحيحًا – بأن أقدامهما لن تطأ عتبة هذا المرصد البشع أبدًا مرة أخرى – فسوف يسعدها هذا تمامًا، لكنها كانت تتمنى لو ما كانا قد توجها عائدين إلى القلعة من جديد. فقد كانت تفضل كثيرًا لو كانا قد توجها إلى الميناء؛ فلوسي أحبت الميناء؛ إذ إن المكان هناك أكثر مرحًا وبهجةً من القلعة، كما أنها هناك لن تكون عُرضة لأن تجد نفسها تصطدم مصادفةً بوالدتها أو والدها، إلا أن السبب الأقوى في عدم رغبتها في العودة إلى القلعة يكمن في سايمون نفسه؛ فيبدو أنه قد نسي تمامًا الأحداث التي أدت إلى فراره من القلعة منذ نحو عام. وإن كانت لوسي لا تعلم بالتحديد ما الذي حدث، إلا أنها سمعت كل ما يخطر على البال من القصص البشعة حول هذا الأمر، والتي لم تصدق معظمها، لكنها كانت تعلم أن بعضها صحيح. ولقد أخبرها أخوها روبرت بأنه رأى سايمون يقذف **صاعقة رعدية** نحو سبتيموس ونكو وجينا – ولوسي تعلم أن روبرت لا يختلق الأكاذيب، كما أنها سمعت قصصًا أخرى، منها أن سايمون حاول أن يمارس شيئًا من **السحر** البشع على مارشا باستخدام عظام دومدانيال، وكاد ينجح، وأن مارشا أشاعت أن سايمون إذا وطئ بقدمه القلعة في يوم من الأيام فسوف يُلقى به في الحبس إلى الأبد.

نظرت لوسي إلى خاتمها الجميل – والذي لم يكن بكل تأكيد من ضمن تصفيات مخزن دراجو ميلز – وتنهدت؛ لماذا لا تستطيع هي وسايمون أن يعيشا حياة طبيعية؟ إنها لا تطمح لأكثر من أن يكونا كسائر الناس؛ يتزوجان، ويبحثان معًا عن بيتٍ يقيمان فيه ولو مجرد غرفة في منطقة العشوائيات. لماذا لا تستطيع أن تأخذ سايمون ليقابل والدها ووالدتها، وتجعله هو وروبرت صديقين؟ هذا *ليس عدلا*، ليس عدلًا على الإطلاق.

وصل المركب إلى مقصده لدى رصيف المعديات المسائية، جنوب مقهى سالي مولن للشاي والجعة مباشرة، وقام صاحب المعدية ميكي مولن، وهو أحد أقارب سالي الكثر، بربط المركب مع شعوره أخيرًا بالارتياح، وحيا راكبيه المغمورين بالمياه، متمنيًا لهما ليلة طيبة، ثم راقبهما وهما يسيران بخطوات مترددة نحو البوابة الجنوبية التي لها باب صغير مفتوح طوال الليل يستطيع من يعرفون المكان المرور منه – وتساءل الرجل في سره ما الذي يخططان له. وعلى الرغم من أن سايمون حرص على أن يسحب غطاء رأسه بحيث يخفي وجهه، فإن ميكي لاحظ عليه الملامح المميزة لأسرة هيب؛ إذ بدا سايمون بشكل ملحوظ، وهو الآن في أوائل العشرينيات من عمره، نسخة شابة من والده سايلاس. وقرر ميكي أن يذهب غدًا صباحًا في زيارة لخالته؛ فهي تحب أن تستقطع بعض الوقت في النميمة، كما أنها تصنع كعك شعير شهيًا.

ظلت لوسي أثناء سيرهما على امتداد الشوارع الخالية، مع تجنبهما السير في مواجهة الريح الأكثر عصفًا، صامتة على غير عادتها.

فسألها سايمون: «ما خطبك يا لوسي؟ هل أنتِ بخير؟».

فردت قائلة: «ليتنا لم نعد. أخشى يا سايمون أن يعثروا عليك ويحبسوك».

أخرج سايمون رسالة جعدة كان قد وجدها في انتظاره لدى عودتهما. وتنهدت لوسي؛ كم كانت تتمنى لو أنها ما رأت هذه الرسالة مدسوسة أسفل صخرة بجانب الممر المؤدي إلى مدخل المرصد، لكن كان الظرف مختومًا بالكلمات التالية: **تم تسليمه عن طريق شركة بريد الميناء،** ورأت حينها أن الأمر بدا مثيرًا للاهتمام. ورغم أنها باتت الآن تحفظ محتوى الرسالة عن ظهر قلب، ها هي تسمعه مرة أخرى بينما كان سايمون يقرأ الآن الخط الصغير جدًا ذا الزوايا الحادة..

كانت الرسالة مكتوبة على ورقة رسمية خاصة بدار المخطوطات، وتقول التالي:

عزيزي سايمون

أتوقع أنك لاحظت أني رحلت.

ربما أنك لا حظت أن هناك شيئًا آخر قد رحل هو أيضًا.

فقد اصطحبت ~~سلوص سلوص~~ سلوث معي، ولقد بات ملكي أنا الآن،

إنه يحب أن يكون في صحبتي.

إذا حضرت لتبحث عنه فسوف أعمل على أن يعثروا عليك.

وكما يمكنك أن تلاحظ من عنوان هذه الورقة - إن مواهبي تم أخيرًا تقديرها؛ إذ إني حصلت على وظيفة ممتازة هنا، وهي أفضل بكثير من وظيفتي لديك.

لقد عدت الآن إلى حيث أنتمي، أما أنت فلا أحد سوف يسمح لك بالعودة. ولا بعد مليون مليون سنة. ها ها!

خادمك ~~المخلث المخلس~~ المخلص السابق،

ميرين ميريديث/ دانيال الصياد/ سبتيموس هيب

قال سايمون وهو يدس الرسالة بعنف في جيبه: «لقد قلت لك يا لوسي، لن أتركه يفلت بفعلته. ولقد كون فريقًا من شخصين آخرين من الحمقى.. ورغم أني لا أعلم شيئًا عن دانيال الصياد هذا، فقد كنت أعلم دائمًا أن هذا التافه سبتيموس فتى عديم الأخلاق - وها هو الآن يعتقد أنه يستطيع أن يخيفني بتهديده لي حتى يحتفظ هو بسلوث، وسرعان ما سيكتشف كم كان مخطئًا».

هزت لوسي رأسها. تُرى، ما الذي يجعل الفتيان يحبون دائمًا الشجار والعراك؟ ثم قالت له: «جعلتنا نقطع كل هذه المسافة لمجرد كرة».

بعد أن تجاوزت سارة هيب حالة الذعر التي داهمتها وأدركت أن سايمون هو الذي يطرق على زجاج نافذة غرفة الجلوس، وجدت نفسها لا تدري، أتضحك أم تبكي. وانتهى بها الأمر إلى أنها أخذت تضحك وتبكي في آن واحد. وقفت لوسي بعيدًا وقد خالجها إحساس غريب، وهي تفكر في

أنه ربما ينبغي عليها أن تذهب لزيارة والدتها هي. وبعد أن بدأت سارة تغمر سايمون بوابل من الأسئلة: أين كان يعيش طوال هذه المدة، وماذا كان يفعل، وهل بالفعل قام بكل هذه الأعمال البشعة التي يقول الجميع إنه قام بها، ولماذا لم يرسل لها أي رسالة - رأت لوسي أنه من الأفضل ربما ألا تذهب لزيارة والدتها. ليس بعد.

جلست لوسي وسايمون بجانب النار في غرفة جلوس سارة يجففان ملابسهما، بينما كانا يتناولان الخبز والجبن والتفاح الذي عثرت عليه سارة في المطبخ. ولقد راقت لوسي حالة الفوضى العارمة التي تكتنف غرفة الجلوس، وانبهرت بالبطة القصيرة البدينة بمعطفها القصير المشغول بالكروشيه، والتي رفعتها سارة من على الأرض بعد أن كانت تجلس بجانب النار لتجلسها على «حِجرها». لقد أحبت لوسي أسرة هيب؛ إذ كانوا بالنسبة لها أكثر تشويقًا من أسرتها هي.

قالت سارة وقد بدأت تشعر بالقلق: «لا أدري ما الذي ستفعله مارشا عندما تعلم أنك هنا، إن مزاجها متعكر هذه الأيام بشكل دائم، كما أصبحت حساسة جدًا، وغير لطيفة أيضًا. وأنا لا أرى سبتيموس *أبدًا* الآن، وهي *تعلم* ذلك، لكن كلما قابلتني أصرت على أن تسألني ما إذا كنت أستمتع برؤيته كثيرًا هذه الأيام. لا داعي لأن تكشر هكذا يا سايمون. أنا لن أتركك تتشاجر مع أخيك الصغير بعد الآن، مفهوم؟ *اتفقنا*؟».

هز سايمون كتفيه، وغمغم بهمس قائلًا: «ليس *أنا* الذي يسعى إلى الشجار، لقد سرق سلوث».

«سرق *ماذا*؟».

رد عليها سايمون متذمرًا: «لا عليكِ، لا تشغلي بالك».

تنهدت سارة؛ لقد كانت في غاية الابتهاج برؤية سايمون بعد غيابه الطويل، لكنها كانت تتمنى لو لم يكن غاضبًا إلى هذا الحد، ثم قالت له: «لا بد ألا يعرف أحد أنك هنا.. *أي أحد*. وأنت ولوسي سوف تضطران لأن تختبئا هنا في القصر إلى أن نجد حلًا لهذا الأمر».

تثاءبت لوسي وترنحت مع تسلل النعاس إلى جفونها، ولاحظت سارة تثاؤبها، وبحرص أنزلت البطة من على «حِجرها» ووقفت بجانب النار، ثم قالت للوسي وهي تبتسم ابتسامة تنمُّ عن الاهتمام: «أنتِ مرهقة، ما رأيك لو ذهبنا لنبحث لك عن سرير مريح في مكان ما هنا؟».

وبامتنان، أومأت لها لوسي برأسها، ثم قالت في سرها إن والدة سايمون لطيفة فعلًا.

وبعد نصف ساعة، كانت لوسي مستغرقة في نوم عميق على سرير دافئ في غرفة ضيوف شاسعة تطل على النهر. لكن على الجانب الآخر، أخذ سايمون الذي مكث في طابق علوي أسفل العلّية يُحدق بمزاج متعكر من النافذة، وهنالك لاحظ شيئًا غير طبيعي في الأجواء؛ هناك شيء مفقود؛ *إنها أنوار برج السحرة، لقد اختفت*. فتح سايمون النافذة على الفور، وحدق إلى جو هذا المساء الذي تعصف فيه الريح. كانت أضواء القلعة تنتشر في الأنحاء بالأسفل، وأخذت مصابيح طريق السحرة تتراقص مع الريح، لكنّ سلم الأضواء السحرية الأرجوانية ذا الارتفاع

الشاهق الذي كان ينير على الدوام سماء القلعة كان، بمنتهى البساطة، غير موجود.

علم سايمون أنه لن يصبر على المكوث في هذه الغرفة الصغيرة، ويواصل التساؤل في سره ما الذي يحدث في برج السحرة، لا بد أن يستكشف الأمر. وبإحساس الفتى الصغير الذي يتسلل من غرفته ويخرج في مغامرة رغم تنبيه والدته عليه بالمكوث فيها واستذكار دروسه- فتح سايمون ببطء الباب ذا الصرير، ثم سار على أطراف أصابعه في الطرقة المظلمة. ومن فرط حرصه على ألا يُصدر أي صوت، لم يلحظ ميرين عند أعلى السلم، والذي كان قد عاد لتوه من زيارة أخرى من زياراته الليلية المتأخرة إلى متجر ما كاسترد. ومن فرط ذهول ميرين برؤية سايمون، كاد يختنق وهو يبتلع آخر مضغة من حلوى الموز باللحم المقدد، وتسمّر في مكانه، ثم انحنى خلف إحدى العوارض الضخمة التي تبطن الجدران.

ومع مرور سايمون سائرًا على أطراف أصابعه من أمامه، حدق ميرين إلى رئيسه السابق وكأنه أرنب تم تثبيته وشل حركته. إنه لا يصدق عينيه.. كيف تسنى لسايمون أن يقتفي أثره؟ كيف علم بمكانه؟ وبدون أن يجرؤ حتى على أن يلتفت برأسه، راقب ميرين سايمون وهو ينزل السلم متسللًا بنفس الخطوات الحريصة، كما كان يفعل ميرين نفسه أثناء أيامه الأولى في القصر.

خرج سايمون خلسة من باب جانبي وتوجه إلى الحارة المجاورة للقصر، وسرعان ما سار بخطى واسعة في طريق السحرة نحو المنطقة

المظلمة التي يعلم أنها تضم برج السحرة؛ فسايمون على الرغم من كل الأعمال السيئة التي قام بها – والتي لا يكاد يصدق الآن أنه قام بها، ولا يدري *ما* الذي كان يفكر فيه حينها – لايزال يحمل في نفسه اهتمامًا خاصًا ببرج السحرة كأنه ينتمي إليه؛ فهناك شيء ما في أعماقه يريد أن يكون ساحرًا أعظم، إلا أنه ما عاد الآن يريد ذلك عن طريق **السحر الأسود**. فهذا، كما قال في سره، غش وخداع. وهو حاليًا يريد تحقيق ذلك الأسلوب الصحيح، على نحو لا تشوبه أية شائبة؛ حتى تفخر به لوسي.

علم سايمون أن هذا حلم مستحيل، لكن لم يمنعه ذلك من انجذابه إلى برج السحرة، كما لم يمنعه من الرغبة في معرفة ما الذي يحدث هناك.

ومع اقترابه من القوس العظيم الذي يتقدم مدخل الفناء، رأى زحامًا شديدًا، لكنه منضبط، متجمهرًا في الخارج، وقد أخذ المحتشدون يتحدثون بصوت خفيض يملؤه القلق، فلم يكن سايمون هو الوحيد الذي لاحظ غياب الأضواء **السحرية** فسحب غطاء رأس عباءته على رأسه، ومتجاهلًا الهمهمات المعترضة واصل تدافعه وسط الزحام نحو الصفوف الأمامية من الجماهير.. وعندما وصل وجد نفسه وجهًا لوجه مع هيئتين طويلتي القامة، يحيط بهما سديم **سحري**. كانت هاتان الهيئتان، رغم أنه كان يجهل ذلك، اثنين من ضمن سبعة **حراس للرحلة الاستكشافية** الذين حضروا لاصطحاب التلميذ. ومع تقدمه بإصرار، رفع **الحارسان** المسلحان رمحيهما بشكل متعامد أمامه تصاحبهما *صلصلة* مدوية، وسدا

عليه طريق الدخول عبر القوس العظيم..ثم قالا بصوت غليظ: «قف!»، وعلى الفور توقف سايمون.

وبعد أن استجمع شجاعته، سألهما: «ما الذي يحدث؟».

وجاء الرد مقتضبًا: «**حصار**».

وانتشر بين الجماهير خلف سايمون همهمة يشوبها القلق.

فسألهما سايمون: «ما السبب؟».

كان رد **الحارسين** سريعًا وغير متوقع؛ إذ سحب كل منهما خنجره وأشهره في وجهه، وأغمد أحدهما الخنجر في عباءته..

ثم قالا معًا بصوت غليظ: «ابتعد!» فتفرق الزحام.

وفي ذهول، خلص سايمون عباءته من الخنجر، ثم ابتعد وهو يسير بأبطأ سرعة يجرؤ أن يسير بها. وبذهن شارد في أوهام تملؤها البهجة تصور له أنه يقتحم برج السحرة وينقذه من **الحصار**، ثم تطلب منه مارشا أوفرستراند امتنانًا له أن يكون تلميذها- سار سايمون حول المحيط الخارجي لجدران الفناء، لكن بوابات الفناء كانت **مغلقة بالمتاريس**، ولم يرَ أمامه سوى الحدود الشبحية لبرج السحرة يرسمها نور القمر، ولم يسمع إلا صرخة بومة، وبابًا يُصفق من بعيد بعد عودة أحد المتجمهرين إلى أمان بيته.

سار سايمون بتباطؤ عائدًا إلى القصر، وقال في سره إن هذا ما كان سيحدث لو كان هو التلميذ، وبالطبع كان محقًا في هذا.

* * *

بالعودة إلى القصر كان ميرين يُحزم حقيبة ظهره بغضب، وتساءل في سره *لماذا* تسوء الأمور معه دائمًا في نهاية المطاف؟ لماذا بعد أن وجد أخيرًا مكانًا يعيش فيه وحده، يظهر له هذا الأبله سايمون هيب ويُفسد عليه كل شيء؟ ثم راحت العديد من الأشباح القدماء تراقب ميرين وهو يستعد لترك الغرفة، بما في ذلك شبح مربية تنفست الصُعداء برحيله. نزل ميرين متسللًا عبر القصر الذي كان سكانه مستغرقين في النوم، وخرج خلسة متوجهًا إلى سقيفة حديقة المطبخ. فعلى الأقل، لن يجد هنا رؤساء سابقين.

وكم كان ميرين مخطئًا في ذلك..

لكنه كان يستعيد صلابته سريعًا. وبغضب، أخذ حقيبة العظام التي تحتوي على عظام دومدانيال، وجرها خارج السقيفة، وبعد أن لفها عدة لفات إيقاعية في الهواء، ألقاها من فوق سور حديقة المطابخ فسقطت بعد أن طارت في السماء في مسار قوس تام، لتحط على رقعة أرض بيلي بوت التي كان يزرعها سابقًا بالخضراوات، ثم تحولت بعد ذلك إلى المكان الذي يعيش فيه السيد لافظ اللهب، كما يطلق عليه بيلي بوت الآن بكل احترام.

واصل لافظ اللهب نومه، غير مدرك أن وجبة الإفطار هبطت عليه من السماء.

33
الإفطار



في *صباح اليوم التالي كان بيلي بوت يُعد* وجبة إفطار لافظ اللهب وفقًا للتعليمات المشددة التي تلقاها من سبتيموس، لكن ذلك لم يثر اهتمام التنين؛ كان لافظ اللهب ممددًا خارج وجاره الجديد ينظر إلى بيلي بوت بعينين نصف مغمضتين يملؤهما النعاس. ومع تقدم بيلي حاملًا معه دلو الإفطار، انطلق زئير جوفي هز الأرض وتجشأ التنين فتراجع بيلي للوراء.

فرك بيلي رأسه وهو في حيرة من أمره، ولولا أنه واثق تمامًا لجَزَمَ أن التنين بالفعل تناول إفطاره، ثم قال

له: «سأترك دلو إفطارك هنا يا سيد لافظ اللهب، ربما تحب أن تتناوله فيما بعد».

تأوه لافظ اللهب وأغمض عينيه نصف غمضة؛ إذ كان في وسعه أن يشعر بوطأة عظام **نيكرومانسر** قديم **وبسحرها الأسود** وهي قابعة في أعماق معدته النارية، وتمنى لو لم يتناول هذا الكيس القديم المزعج، حتى إنه شعر أنه ما عاد يريد أن يتناول *أي* طعام.

وبينما كانت معدة التنين النارية تستعد ببطء للقيام بمهمة **شيطانية** لإذابة العظام، كان شبح دومدانيال يستمتع بوجوده مرة أخرى في برج السحرة. ولقد ارتفعت معنوياته وهو يرى تلك المحتالة المزعجة تتلقى العقاب الذي تستحقه، وأمتعه أن يراها وهي تتسكع في الأنحاء شأنها شأن أي ساحرة عادية، تنتظر أن يُملي عليها تحركاتها، ولقد ضيق الآن الخناق على تلميذه القديم ألثر ميلا الذي دفعه يومًا من فوق سطح الهرم الذهبي الذي يتوج برج السحرة. إن ذكرى *هذا اليوم* لاتزال حية وحاضرة في رأسه، ويراها واضحة أمام عينيه كيوم حدوثها. وبينما كان دومدانيال يستمتع بإخبار ألثر بالتفصيل الممل بكل الخطط **الشيطانية** التي ينوي تنفيذها بعد أن أصبح أخيرًا شبحًا- إذا به يشعر بشيء غريب.. وفي تلك اللحظة لاحظ ألثر أن ساق دومدانيال اليسرى اختفت.

ثم راقب ألثر بانبهار ذراع دومدانيال اليمنى بأكملها وهي تتلاشى أيضًا، ثم ركبته اليسرى.. ثم ساعده الأيسر.. ثم أصابع قدميه.. ثم كعبيه. وفي ذهول، راح ألثر يُحدق إلى سيده القديم وهو يتلاشى جزءًا جزءًا.

لم يرق دومدانيال الطريقة التي كان ألثر يراقبه بها، إنها طريقة فظة للغاية ولا تُظهر الاحترام الذي هو جدير به. وما إن فتح فمه ليقول له أن يكف عن التحديق إليه بفم فاغر هكذا حتى اختفى رأسه، وبات كل ما تبقى منه عبارة عن يد يسرى غير مجسمة أخذت تتحرك بشكل هائج، ومعدة تتقلب بشكل مهين.

وبعد أن ذابت العظام القليلة المتبقية في معدة لافظ اللهب النارية، اختفى **النيكرومانسر** القديم بالكامل – وللأبد. فليس هناك خاتم ذو وجهين في معدة لافظ اللهب حتى يُنقذه من هذا المأزق هذه المرة، وهي لحظة سوف يستمتع ألثر بذكراها لفترة طويلة جدًا، وكذلك ذكرى اللحظات التالية عندما عثر على مارشا وأخبرها بأن **التجمع** ما عاد له أثر.

ولقد استمتعت مارشا أيضًا بذكرى انتهاء التجمع **الأخير**، وكانت تستمتع على وجه الخصوص وهي تتذكر رد فعل تيرتيوس فيوم عندما جعلته يقوم من على أريكتها بعد انتصارها عليه – مستنكرة في سرها تصرفه بهذه الجراءة – وقالت له إن انعقاد **التجمع** لم ينته فحسب، بل إنه لا يمكن أن ينعقد بعد ذلك أبدًا، وعليه أن يخرج من جناحها *وفي الحال*، ورفض تيرتيوس فيوم أن يصدقها إلى أن دعم ألثر كلامها. وقد كان ما ذكرته مارشا لبيتل صحيحًا – فتيرتيوس فيوم لا يتعامل باحترام مع النساء.

وكان تيرتيوس قد فرض **الحصار** لإجبار سبتيموس على إجراء عملية **السحب**. وعندما أدرك أن سبتيموس غائب، أقسم إنه سيواصل **الحصار**

– وإلى الأبد إن كان ذلك ضروريًا – إلى أن تخبره مارشا بمكان تلميذها، لاقتناع تيرتيوس فيوم بأنه مختبئ في مكان ما ببرج السحرة. لكنه بعد أن فقد الآن القوة الداعمة التي كان يستمدها من **التجمع**، ما عاد يمتلك الوسيلة التي تجعله يواصل **الحصار**؛ وهكذا انتهى **الحصار**.

لم تهدر مارشا وقتًا بعد ذلك، وعلى الفور جعلت كاتشبول يصطحب تيرتيوس فيوم بشكل مخزٍ خارج المبنى.. ومع عودة **السحر** إلى برج السحرة، وقفت مارشا لدى الباب بابتسامة ارتسمت على شفتيها وهي تجز على أسنانها، ثم أخذت تحيي أشباح **التجمع** التي علتها الحيرة مع خروجها محلقة وهي تقول لها: «وداعًا، وداعًا، أشكركم شكرًا جزيلًا لحضوركم».

كان هناك خارج برج السحرة جُرذ مبلل يشعر بالبرد، يراقب الباب الضخم وهو ينفتح أخيرًا. ولدهشه، رأى سيلًا لا ينتهي من الأشباح الأرجوانية يتدفق خارج السلم، وانتظر بفارغ الصبر إلى أن خرج آخر شبح، ثم قفز إلى الداخل وهو يصيح قائلًا: «جُرذ رسول!».

وبينما كان ستانلي يتحرك بخطوات سريعة بين أقدام مجموعة من السحرة العاديين المتحمسين تجمعوا حول متسلِّمة رسالة الجُرذ – كان تيرتيوس فيوم يُجري حوارًا شخصيًا قصيرًا في ظلال القوس العظيم مع هيئة بدت أنها ساحرة ثانوية شابة.

قال تيرتيوس فيوم: «اعثر عليه. لقد بدأت **الرحلة الاستكشافية** ولا بد أن تأخذ مجراها».

أومأ له **الشيء** برأسه .. وبعد أن راقب تيرتيوس فيوم وهو يسير بخطى واسعة عائدًا بغضب إلى دار المخطوطات، بدأ يمضغ أطراف أصابع هيلدا جارد. لقد سئم **الشيء** من **سكنة** الساحرة الثانوية، فتواضعها وأسلوبها اللطيف كانا يزعجانه؛ إذ كانا يتسربان إليه ويجعلانه يشعر بشيء من الاكتئاب. وهو عن نفسه كان يفضل أن **يسكن** جسدًا غير تقليدي، يحمل لمسة من **السحر الأسود**. استند **الشيء** إلى جدران القوس العظيم الباردة المكسوة باللازورد، وأخذ ينتظر إلى أن يطرأ شيء جديد في الأفق.. وحتى يقتل الوقت راح يختبر إلى أي مدى ستصل بصقته للقطع التي أخذ يقضمها من أظافر هيلدا جارد.

وقبل ذلك بساعات، صباح هذا اليوم، كان إيفانيا جريب قد استيقظ من النوم في خيمة مبللة بإحساس غريب جدًّا. فبعد أن انسحبت جينا وسبتيموس وبيتل إلى خيمتهم، قبل إيفانيا من موروينا مشروبًا قويًا حلو المذاق. وعلم بمجرد أن ارتشف منه رشفة أنه يحتوي على مخدر، وقام خلسة بسكب معظمه على الأرض، لكن بينما كانت الساحرة الأم تصطحبه إلى خيمته شعر بتأرجح الأرض أسفل قدميه وبمرارة في حلقه. حاول إيفانيا بلا جدوى أن يقاوم النوم، لكن بعد بضع ساعات أيقظته من النوم الأحلام النشطة التي كان يراها. ومع إصراره على ألا يسمح للنوم بأن يتسلل إلى جفونه مرة أخرى، تسلل خارج خيمته لاستنشاق الهواء

الطلق. وهنالك، رأى مورونيا واقفة في منتصف الحلقة الصيفية في حوار ساخن مع ساحرة شابة.

«أين ماريسا؟».

كانت الساحرة الشابة يبدو عليها الذعر.

«تكلمي يا بريوني، *فورًا*».

«همم. لقد ذهبت إلى معسكر هيب».

«أنا لم أسمح لها بذلك.. لسوف تندم على ذلك، سوف تحلين مكانها».

«*أنا*؟ لكن أنا لا أفكر...».

«ليس عليكِ أن تفكري أيتها الفتاة، نفذي ما قلته لكِ فحسب. أريد تجهيز خيمة للأميرة وحيوانها؛ إذ سنحتاج إليها في الصباح».

«ياه! معنى هذا أنها *بالفعل* سوف...».

«كفاكِ ثرثرة، وتأكدي من أن الخيمة **مؤمنة**».

ألقت بريوني تحية خرقاء على عجل وانصرفت مسرعة، ثم تساءلت في سرها كيف تتم عمليات **تأمين** الخيام؟ كيف؟

شعر إيفانيا بالغثيان؛ فقد *أدرك* الآن ما الذي ستطلبه منه مورونيا في الصباح، وتكهن بأن مشروب الليل - كما أطلقت عليه مورونيا - كان الهدف منه أن يبقيه هادئًا وسهل الانقياد عندما يحل الصباح. لعن إيفانيا نفسه؛ لأنه كان بكل هذا الحمق والسذاجة، وأنه وعد بما لا يملك. وخلسة، تسلل إلى خيمة الضيوف الأخرى برأس يدور: تُرى، ماذا سيقول لهم؟

وعندما وجد خيمة چينا وسبتيموس وبيتل خاوية، غمره شعور بالارتياح - لكنه لم يدم طويلًا؛ إذ بدأت كل الأفكار المثيرة للقلق تدور في رأسه: ترى، أين ذهبوا؟ ولماذا لم يخبروه؟ ألا يثقون به؟ هل كان نائمًا بينما كانوا يصرخون مستنجدين به؟ وبدوار أصاب رأسه، ترك الحلقة الصيفية ونزل وهو يعرج إلى الطريق المتعرج، وعباءته البيضاء تتلألأ في نور القمر الذي كان بدرًا. رأته بريوني وهو يرحل، لكنها لم تجرؤ على إخبار الساحرة الأم حتى لا تزعجها، ثم راقبته وهو يتوارى عن الأنظار مع توجهه إلى الغابة - وحيدًا بين كائناتها الليلية التي تفضل أن تتجنب الجرذان العملاقة - وانطلق إيفانيا عائدًا إلى القلعة.

وبحلول الفجر، وجد إيفانيا نفسه يقف لدى جانب من الخندق المائي، وأخذ يراقب جرينج وهو يُنزل الجسر المتحرك، ثم دفع له البنس الفضي الذي كان معه، وعبر الجسر وهو يعرج، متجاهلًا نظرات جرينج الفضولية.

فيما بعد، قال جرينج لزوجته وهو مستغرق في التفكير يراقبها وهي تسخن للإفطار يخنة ليلة أمس: «إن المرء في هذه الوظيفة يرى كل ما لا يخطر على بال؛ لقد رأيت جُرذا عملاقًا صباح اليوم يلبس نظارة».

كسرت السيدة جرينج عادة عدم الاستماع إلى زوجها، فكفَّت عن التقليب ونظرت في الأعماق البنية للمقلاة، وقالت: «لقد رأيت أن عيش الغراب هذا بدا غريبًا».

فسألها جرينج في حيرة: «أي عيش غراب؟».

«الذي طهوته مساء أمس. كان لونه غريبًا. وأنا عن نفسي لم أتناول منه».

«لكنكِ تركتِني *أنا* أتناول منه؟».

هزت السيدة جرينج كتفيها، وسكبت اليخنة في إناء زوجها، وقالت له: «من الأفضل أن تستخرج منه عيش الغراب».

رد جرينج قائلًا: «لا، لن أتناوله أصلًا، *شكرًا*»، ثم نهض وعاد إلى الجسر المتحرك وهو يمشي الهوينَى. وبحلول منتصف النهار، رأى جرينج أن عيش الغراب على الأرجح كان فاسدًا. وفيما عدا اقتناعه بأنه رأى لوسي تظهر في الأنحاء - وهو ما قد أحبطه غاية الإحباط - لم يشعر بأية أعراض مرضية أخرى.

* * *

عندما عاد إيفانيا إلى دار المخطوطات صباح هذا اليوم، ترسخت بداخله حالة الاكتئاب التي كان يشعر بها من منظر الموظف الجديد في مكتب الاستقبال وهو يجلس رافعًا قدميه على المكتب ويمضغ بفم مفتوح ثعبانًا أسود. وعندما رأى ميرين كاتب الصيانة، حدق به وواصل بصفاقة مضغ ما كان في واقع الأمر إفطاره، وإيفانيا قلما يشتاق إلى القدرة على التحدث، لكن بينما كان يراقب ذيل الثعبان وهو يُشفط بصوت مسموع بين شفتي ميرين، ثم نظر إلى الحذاء الطويل وهو ينشر الفوضى على المكتب الذي كان بيتل يلمعه صباح كل يوم بكل الحب والانتماء، اجتاحته رغبة جامحة أن يقول للفتى *أنزل قدميك من على المكتب*.. ثم

أسعده كثيرًا أنه لا يستطيع الكلام؛ إذ بينما كان يحدق بغلٍّ إلى الحذاء الطويل المهين، رأى قصاصة ورق صغيرة مستديرة الشكل ملتصقة بنعل فردة حذاء ميرين الطويل اليمنى. وحدثته فطرة نمت مع السنوات الطويلة التي قضاها في إعادة تجميع الأشياء مع بعضها - بأن هذه القصاصة *تنتمي* لشيء، وعلم يقينًا إلى أي شيء تنتمي. ومع توجهه نحو الحذاء الطويل المهين، علت وجه ميرين لمحة خاطفة من الخوف؛ ما الذي يفعله هذا الرجل الجُرذ؟ وفي لمح البصر - بعد حركة انقضاض أشبه بانقضاض الصقور على الأرانب - كانت القصاصة الجعدة في يد إيفانيا، وكان ميرين قد هب واقفًا على قدميه وهو يصيح قائلًا: «ابتعد عني أيها الكائن الغريب!».

ترك إيفانيا موظف مكتب الاستقبال يسعل وهو يبصق بقايا ثعبانه ونزل على عجل إلى القبو، ثم صفق الباب المبطن بالجوخ الأخضر وأغلقه بالمفتاح. وبينما كان يتفحص لقيته شعر بفرحة غامرة؛ إنها هي؛ *إنها القطعة المفقودة من الخريطة*.

قضى إيفانيا الساعات التالية يعمل بجهد وعناء في **ترميم** قصاصة الورق الرقيقة، وسار العمل على ما يُرام.. ولم يمض وقت حتى كان أمامه شكل دائري تام وصغير لمنظر مرسوم بالقلم الرصاص بتفاصيل دقيقة لمبنى مثمن الشكل تحيط به أفعى، وفي مركز الدائرة كان هناك مفتاح. وبحرص شديد، وضع إيفانيا قطعته المستديرة الثمينة في جيب سري أسفل ردائه، ثم رفع نظارته على جبينه وجلس مستندًا بظهره إلى المقعد، ثم تنهد.. لقد نجح.. وانتهت عملية **الترميم**. انتهت أكثر عملية **ترميم**

تطلبت منه مجهودًا مضنيًا - وربما أيضًا أكثرها أهمية - من بين كل العمليات التي تطرق إليها.

والآن، حان وقت الجزء الصعب؛ وهي عملية **إعادة التجميع**.

«لا»، هكذا قال ستانلي بفم ممتلئ بطعام الإفطار، ثم واصل قائلًا: «لا يمكن. إن الجُرذ الرسول لا يقوم أبدًا بتوصيل طلبات. ياه! ليس هناك ما هو أروع من سندوتش لحم بارد مقدد بعد قضاء ليلة في الخارج وسط الأمطار، أليس كذلك؟ ألا تريد قطعة؟».

رد إيفانيا بازدراء: «لا، شكرًا».

«كما تشاء».

«هذا لصالحك».

ضحك ستانلي بمرارة وقال: «ياه! ها! إنهم جميعًا يقولون ذلك. لكن هذا لا يحدث أبدًا. ثم ينتهي بك الأمر إلى أن تجد نفسك حبيسًا في قفص أحد المجانين أو ملقى بكَ أسفل ألواح خشبية تكسو سطح الأرض، وأنت تتضور جوعًا، وتترك حتى تلقى حتفك. لا تحاول، لن تستطيع أن تؤثر عليَّ».

«يمكنني أن أجلب لك جرذانًا».

«جرذان؟».

«كل الجرذان التي تريدها سوف أجلبها لك».

نحَّى ستانلي سندوتش اللحم البارد المقدد جانبًا وقال: «هل تقصد فريق عمل؟».

أومأ له إيفانيا برأسه.

فكر ستانلي في الأمر، وتخيل برج مراقبة البوابة الشرقية وهو يعود مرة أخرى مقرًا لمكتب مزدهر متخصص في خدمة توفير الجرذان الرسل.. ويكون هو المسئول عنه. وتخيل الأعمال الورقية وفواتير المرتبات، وداوني بعد أن تصلها أخبار نجاحه، وتحاول إعادة المياه لمجاريها مرة أخرى.

ثم قال: «لا».

وبينما كان إيفانيا سائرًا في طريق العودة ببطء بعد أن ترك برج مراقبة البوابة الشرقية، رأى شيئًا ما كان يتوقعه؛ لقد عادت الأضواء **السحرية** تنير برج السحرة من جديد. وطرفت عينه من فرط الدهش.. نعم، إنها لاتزال موجودة. لقد عادت الأضواء الزرقاء والأرجوانية المعتادة بشعلاتها المتراقصة تشع بنورها حول البرج من جديد، وأخذ البريق العميق للهرم الذهبي الذي يتوج البرج يسطع في الجو الكئيب لسماء ملبدة بالغيوم، كما أخذت النوافذ الأرجوانية تبرق مرة أخرى بسديمها **السحري**. وهنا تلاشت كل هموم إيفانيا؛ فكل شيء بات على ما يُرام الآن، وسوف يذهب إلى الساحرة العظمى ويطلب إليها أن تقوم بتعويذة **إرسال**، وسوف ينتهي كل شيء على مايرام.. وبخطوات يملؤها النشاط - بقدر المستطاع مع التورم المؤلم الذي يعلو بطن قدمه المتقيحة - لف إيفانيا وشاحه الأبيض حول وجهه بمزيد من الإحكام، وخطا خطواته التالية متوجهًا إلى طريق السحرة.

وبينما كان يسير في الظلال الزرقاء العميقة التي يلقي بها القوس العظيم، اصطدم بهيلدا جارد ولم يتذكر شيئًا بعد ذلك.

34
طرق الغابات



همس سام قائلًا: «لقد نسيتِ أن تأخذي نمرك الأسود».

كانت چينا وسبتيموس وبيتل يقفون خارج خيمة الفتى الذئبي في الضوء الأخضر الرمادي المصاحب لبزوغ فجر الغابة، يطرفون بعيونهم ويطردون النعاس منها، وكانوا على حد علم سام ينقصهم النمر الأسود.

ومن فرط شعور چينا بالنعاس كانت عاجزةً عن التركيز فى الرد عليه .. ومن ثم، أخرجت أولر من أسفل عباءتها وأظهرت لسام

القط البرتقالي الصغير فبدت الحيرة عليه للحظات، ثم رفع حاجبيه وابتسم ابتسامة عريضة؛ فهذه هي چينا، كما قال في سره، إن كنت تريد حيوانًا من الحيوانات **المتحولة** فيمكنك الاعتماد عليها تمامًا. صحيح أنها لا تتمتع بأية قدرات **سحرية** إلا أنها تتميز بشيء خارق .. هذا بكل تأكيد. إنه شيء متعلق بالملكات على حسب ظنه. وموروينا لا تدري شيئًا عما كانت ستتكبده. لكن أيًا كان الذي تدري به أو لا تدري به الساحرة الأم، فقد حان الوقت لإخراجهم من الغابة قبل أن تأتي المجموعة في **عملية بحث**، وهو إحساس حتمًا غير لطيف عندما تقوم المجموعة **بعملية من عمليات البحث**.

قام سام بحزم ثلاث حقائب ظهر، كانت ملكًا لچوچو واد وإيريك أثناء الفترة الأولى من إقامتهم عندما كانوا يجوبون في الأنحاء بحثًا عن طعام، لكن بعد أن باتت ساحرات ويندرون الشابات يجلبن لهم معظم الطعام – فيما عدا الأسماك – تخلى چوچو واد وإيريك عن مهمة جمع الطعام، وباتوا يفضلون التسكع حول نيران المعسكر طوال اليوم، وهو ما يُزعج سام كثيرًا. ولأن سام خبير بالتجول في أنحاء الغابة، قام بعملية تخزين وافية شملت كل المستلزمات التي كان يرى أن المتجول يحتاج إليها.

أنزلت چينا أولر على الأرض، ثم أخرجت من جيبها الكتاب الثمين الذي يضم أوراق نكو، ووضعته في حقيبة الظهر الخاصة بها، **وبعد أن** رفعت الحقيبة الثقيلة على كتفيها، همست للقط قائلة: «أولر، لا بد أن تتبعني» فأطلق مواءً؛ فقد بات يفهم الآن لغتها كما كان يفهم من قبل لغة سنوري.. وأولر قط مخلص، وسوف يتبع چينا أينما ذهبت.

وهكذا، تابعت خطى سام ثلاث هيئات محملة بالأمتعة الثقيلة، وقط برتقالي صغير، وخرجوا من معسكر هيب المقام في ساحة مقطوعة الأشجار. كان هذا الصباح شديد الرطوبة كئيبًا، وكانت الرطوبة تتجمع في قطرات تتساقط من الأشجار، لتجد طريقًا لها داخل ملابسهم، ويتسرب معها برد الغابة إلى أجسامهم فينخر في عظامهم. سار سام بخطى واسعة على امتداد الطريق العريض الذي يبدأ من معسكر هيب ويمتد إلى أعلى التل. كانت عصا السير الطويلة التي يحملها معه تحدد خطواته السهلة المتبخترة، ورأت جينا كم أنه قريب الشبه من رجل الغابة.

ساروا جميعًا إلى جوار سام، لكن خطواته كانت أسرع منهم بشكل محبط، ولقد سرهم جميعًا - بعد أن قطعوا مسافة ميل أو ما نحو ذلك- أنه توقف عند صخرة كبيرة مستديرة الشكل، وهنا جثا سام على ركبتيه وطرق على الصخرة طرقة، انعكست بصوت أجوف أشبه بصوت الجرس. ومع شعوره بالرضا أومأ لهم برأسه، ثم قفز عاليًا وغطس بين مجموعة من الأشجار المرتفعة والمتقاربة، جذوعها نحيلة وملساء.

وانطلق سام في طريقه سائرًا في مسارات متعرجة عبر الغابة، متبعًا طريقًا لا يستطيع أحد غيره أن يراه. وبات سبتيموس وبيتل وجينا وأولر الآن يسيرون في صف واحد، يركزون بشدة في تتبع خطى سام ويحاولون ألا تغيب عن أنظارهم العباءة الزرقاء المائلة إلى اللون البني، الممتزجة تمامًا مع لحاء الأشجار المُعرق. ولحسن حظهم، كان الطريق سلسًا أسفل أقدامهم؛ حيث كانوا يسيرون على طبقة مهاد لينة تكونها آلاف

من الأوراق المتساقطة من أشجارها الموسمية، المخلوطة مع سعف سراخس بدأت أطرافها تبرز مع بزوغ الضوء كأنها أفاع صغيرة متطفلة.

وفجأة، توقف سام وقال بابتسامة عريضة أشرقتْ على وجهه: «لقد وصلنا، هذه هي البوابة، كنت أرى أني سوف أعثر عليها ثانية».

قال سبتيموس: «ترى فقط؟».

رد سام قائلًا: «تمامًا. لكنها رؤية بمنطق الغابات. وهي دائمًا ما تكون صحيحة. ما عليك إذن أيها الأخ الصغير إلا أن تثق بأخيك الكبير. حسنًا، والآن لا بد أن نمر من البوابة.. سوف يتركونني أمرُّ بما أن رائحة الغابة تفوح مني، أما أنتم فتفوح منكم رائحة القلعة، وهم لا يحبون رائحة القلعة هنا. فخير لكم إذن أن ترتدوا عباءاتكم، إنها في حقائب الظهر التي تحملونها».

وهكذا، سحب كل منهم من حقيبة الظهر التي يحملها عباءة مصنوعة من جلد حيوانات الولفرين، وهسهس أولر عندما ألقت جينا بالعباءة على كتفيها.

قالت جينا وهي تشهق: «أف! إن رائحتها كريهة جدًا، كما أن أرجلها لاتزال موجودة».

رد سام قائلًا: «إن رائحتها الكريهة هذه أساس الموضوع أيتها الأخت العزيزة. فلا بد أن تكون رائحتك هي الرائحة المطلوبة، كما أن الأرجل مفيدة لربط العباءة، انظري!» وربط سام عباءة جينا المصنوعة من جلود حيوانات الولفرين بإحكام أسفل ذقنها، تمامًا كما كانت سارة هيب تربط لها عباءتها عندما كانت طفلة صغيرة، وواصل قائلًا: «إن معك حيواني

ولقرين في هذه العباءة.. اتركي دائمًا الأرجل الأمامية للولقرين العلوي وذيل الولقرين السفلي دون أن تربطيها. إنها من عادات وتقاليد الغابة».

نظرت چينا للأسفل فرأت أن عباءتها، ولا شك، لها ذيل ولقرين أجرب الشكل يتدلى من حافتها.

همهم سبتيموس قائلًا: مادامت أسنانه غير موجودة فلا بأس». وما إن ألقى بالعباءة على كتفيه حتى وجد نفسه مندهشًا من كمّ الدفء الذي تسرب إليه فجأة، ومن كل هذا الإحساس بالأمان الذي بعثته في نفسه، وشعر فجأة بأنه بات الآن جزءًا من الغابة؛ كائنًا آخر من كائناتها؛ منطلقًا هو أيضًا في **شئونها**.

تفحص سام سكان الغابة الجدد الثلاث باستحسان، وقال لهم: «عظيم، من المفترض أنهما سيقبلانكم الآن باعتباركم من سكان الغابة».

فسألته چينا وهي تنظر حولها: «عمن تتحدث؟».

«إنهما هناك»، وأشار سام إلى زوج من الأشجار الهائلة يرتفعان أمامهم كأنهما زوج من الحراس. كانت هاتان الشجرتان تتصدران طريقًا طويلًا تصطف على جانبيه، بشكل متقارب، أزواج متوالية من الأشجار المتشابهة طبق الأصل. ومن كل شجرة منهما، كان يتدلى غصن سميك ملولب يسد عليهم الطريق. قال لهم سام: «انتظروا هنا! لا تنبسوا بكلمة واحدة، والزموا الصمت التام، اتفقنا؟».

فأومأوا له برءوسهم، ثم سار هو نحو الأشجار وبدأ يتحدث إليها قائلًا: «نحن من الغابة مثلما أنتم منها. نحن نسعى لأن نقطع طريق الغابة».

لم تبدِ الأشجار أي استجابة، ولم يتحرك سام من مكانه وظل واقفًا، عاقدًا ذراعيه، وبقدمين متباعدتين، محدقًا إلى أعماق الأشجار، دون أن يطرف له جفن.. وقفت چينا وبيتل وسبتيموس يترقبون، بينما تمدد أولر على الأرض عند قدمي چينا وأغمض عينيه، وأحاط بهم سكون الغابة **العميق** من كل جانب. هذا ولايزال سام يقف في مكانه ساكنًا، منتظرًا. مرت الدقائق ببطء، وسام على نفس الحال، يقف منتظرًا.. ويواصل الانتظار. لم يجرؤ أحد على الاقتراب. وبعد نحو عشر دقائق، أصيب بيتل بشد عضلي في ساقه فقام بلفة من لفات رقصة البيرويت، فلف على قدم واحدة بشكل غريب وبطيء، محاولًا علاج الشد العضلي. راقبه سبتيموس بعينين يملؤهما الضحك، فلمح بيتل هذا في عيني سبتيموس، **فتنحنح** نحنحة مختنقة بصوت غريب ليكتم الضحك إلا أن چينا رمقتهما على الفور بنظرة تحذيرية، بذل على إثرها كل منهما قصارى جهده كي يكسو وجهه بمظهر جاد مرة أخرى، إلى أن سقط بيتل فجأة مرتطمًا طريح الأرض يرتج من فرط الضحك الذي يكتمه. ورغم ذلك، ظل سام ساكنًا لا يتحرك!

وأخيرًا، في اللحظة التي بدأت چينا تتساءل فيها في سرها ما إذا كان كل هذا مسرحية من اختلاق سام- بدأت الأغصان التي تسد الطريق أمامهم تتحرك ببطء لأعلى.. وكالموجة المنتشرة في طريقها، حذت حذوها سائر الأشجار الأخرى الممتدة على طول الطريق. وهنا، أشار لهم

سام بالتقدم.. وفي صمت، تابعوا السير وراءه على امتداد الطريق الذي انفتح توًا بين الأشجار، وبينما كانوا يتقدمون في طريقهم كانت الأغصان خلفهم تنسدل من جديد.

ومع وصولهم إلى نهاية الطريق خرجوا إلى ساحة خالية من الأشجار، يسيطر عليها ثلاثة أكوام ضخمة من الأخشاب، مغطاة جزئيًا بالخس، ولكل كومة منها باب متداع.

قال سبتيموس: «إنها أفران محارق فحم قديمة، كنا نحب هذه الأفران كثيرًا في جيش الشباب؛ فقد كانت دائمًا مكانًا آمنًا في المساء، ودافئًا».

نظر سام إلى سبتيموس بنظرة يملؤها احترام من نوع جديد، وقال له: «أحيانًا أنسى أنك كنت في جيش الشباب، أنت بذلك تعرف الغابة أيضًا».

رد سبتيموس قائلًا: «لكن بطريقة مختلفة. فنحن كنا دائمًا نتعامل مع الغابة على اعتبارها عدوًا. نحن في مواجهة الغابة. أما أنت فتأخذ الغابة في صفك».

أومأ له سام برأسه.. إنه كلما ازداد معرفةً بسبتيموس ازداد حبه له؛ فسبتيموس يفهم في هذه الأمور، ولا تحتاج لأن تشرح له - إنه يعرف فحسب.

قال سام: «لكن في واقع الأمر هذه ليست أفران محارق الفحم؛ إنها «طرق الغابات الأخرى» فكل منها يقود إلى غابة مختلفة .. حسبما يُقال».

نظرت چينا إلى أكوام الأخشاب الثلاثة بفزع وإحباط؛ إذ لم يتبادر إلى ذهنها من قبل أن الأمر سيشمل *الاختيار* بين غابات. ثم سألته: «لكن، كيف سيتسنى لنا تحديد الغابة التي نريدها؟».

رد سام قائلًا: «أعتقد أننا نستطيع أن نفتح الأبواب ونلقي نظرة».

قالت چينا: «حقًا؟ أي أننا لسنا مضطرين لأن ندخل حتى نعرف؟».

«بالضبط. فما الذي يُجبركم على ذلك؟ فليس هناك قوانين في الغابة كما تعلمين».

لكن بيتل ساوره الشك في ذلك؛ فعلى ما يبدو هناك العديد من القوانين في الغابة؛ قوانين تجعلك ترتدي جلود حيوانات الولڤرين رائحتها كريهة؛ وقوانين تجعلك تلتزم الصمت، هذا على سبيل المثال لا الحصر، لكنه لم يعلق؛ إذ شعر كأنه تلميذ التحق حديثًا بالمدرسة، يحاول في نفس الوقت الابتعاد عن طريق الكائنات الأكبر منه وفهم طبيعة هذا المكان الغريب، ثم راقب سام الواثق بنفسه وهو يفتح باب الكومة الوسطى فهب عليهم هواء ساخن.

قال سام مع انجراف رمال دوامة عند قدميه: «هذه صحراء».

قالت چينا: «كنت أظن أننا سنجد غابات».

قال سام: «هذه طرق قديمة، والغابات تتحول. فما كان يومًا غابة قد يتحول إلى صحراء، وما كان يومًا صحراء قد يتحول إلى بحر.. فكل شيء يتغير بمرور الزمن».

ردت چينا بنبرة حادة: «لا تقل ذلك».

نظر سام إلى چينا بدهشة، ثم أدرك مغزى كلامه فقال: «آسف يا چينا، إن نكو سيظل هو نكو الذي تحبه عندما تعثرين عليه، سترين ذلك بنفسك. دعينا الآن نرَ ما إذا كانت هذه هي الغابة التي تريدينها».

وأغلق سام الباب الذي يفتح على الصحراء، وفتح باب الكومة اليسرى؛

فانجرفت إليهم حرارة مشبعة بالرطوبة واجتاح السكون المسالم للغابة الصوت الخارق المميز للببغاوات، فسألهم سام قائلًا: «أهذه هي الغابة التي تريدونها؟».

ردت عليه چينا: «لا».

«أمتأكدة أنتِ؟».

رد سبتيموس قائلًا: «تمامًا».

«حسنًا. لا بد أنها ستكون هنا إذن».. وبحركة استعراضية مؤثرة، فتح سام باب الكومة الأخيرة فهبت موجة من الثلوج صفعت وجوههم. لعقت چينا شفتيها وشعرت من المذاق المعدني لرقائق الثلوج التي هبت من أرض غير الأرض بأنها باتت أقرب إلى نكو بعض الشيء.

وقالت: «هذه هي الغابة التي نريدها».

«أمتأكدة أنتِ؟».

«أنا واثقة تمامًا، لقد كتب نكو قائمة تشمل أغراضًا للتدفئة وفراء».

«حسنًا. ها هو ذا الطريق إذن.. هذا إذا كنت متأكدة من ذلك».. وبدا على سام فجأة أنه فقد ثقته المعتادة بنفسه. فشتان، بالنسبة لسام، بين قيادة غريب من حين لآخر يتوه من قافلة صحراوية أو ينقلب قاربه الصغير، وإرسال اثنين من إخوته الأصغر منه إلى المجهول، فهذا شيء آخر تمامًا. ومن ثم قال لهم: «دعوني أذهب معكم».

هز سبتيموس رأسه؛ فهذه المهمة أراد سبتيموس أن يقوم بها دون إملاءات أخيه الأكبر منه، وقال له: «لا يا سام. لا تقلق، سوف نكون على ما يُرام».

«أمتأكد أنت من ذلك؟».

قالت چينا: «فعلًا يا سام، وسرعان ما سنعود ومعنا نكو».

أضاف سبتيموس قائلًا: «وسنوري».

هبت موجة ثلجية أخرى من الباب، ثم حل سام المنديل الأحمر الذي يلفه حول عنقه، وبعد أن ربطه في الطرف العلوي من العصا التي يحملها معه، أعطى العصا إلى سبتيموس وهو يقول له: «اغرس هذه في الأرض حتى تضع علامة في المكان الذي دخلتم منه. لقد سمعت أنه من الصعب معرفة ذلك ما إن تدخل هناك».

قال سبتيموس: «شكرًا».

همهم سام قائلًا: «لا شكر على واجب».

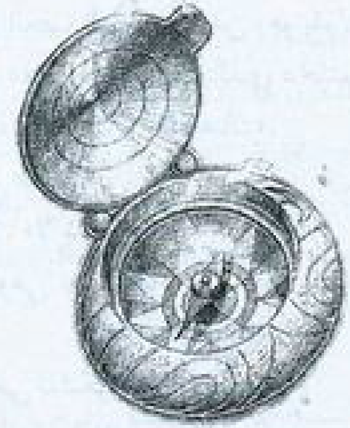
ثم قالت چينا وهي تعانق سام بقوة: «ياه يا سام! أشكرك، أشكرك جزيل الشكر».

رد سام: «لا داعي للشكر».

وما إن وطئت أقدام ثلاثتهم داخل الفرن، حتى كانت قد غُرست بعمق في الثلوج.

ثم لـوح لهـم سـام قائلًا: «وداعًا يا چـيـن، وداعًا يا سـب، وداعًا يا صرصار. خذوا حذركم»، ثم أغلق الباب.

35
الثلوج



وهكذا، *وطئت أقدام چينا وأولر وسبتيموس وبيتل* غابة غارقة في السكون تتساقط عليها الثلوج.

غرس سبتيموس عصا سام حتى يضع علامة في المكان الذي جاءوا منه – فسام كان محقًّا، وكان المحيط حولهم خاليًا من أية علامات يمكن أن يضعوها بالمكان. وتدلى الوشاح الأحمر على العصا هزيلًا، لا تحركه ولو نسمة هواء واحدة؛ فكل شيء بدا ساكنًا تمامًا. تبادل ثلاثتهم النظرات، لكنهم لم ينطقوا بكلمة واحدة .. فلم يرِد أحد منهم أن يكسر الصمت المطبق الذي غلفهم كأنه بساط نزل عليهم من السماء. وكان

كل ما في وسعهم أن يروه حولهم الثلوج والأشجار، والتي من فرط كثافتها بدت جذوعها السوداء كأنها قضبان ضخمة لقفص يحيط بهم. كانت الثلوج تتساقط بانتظام، ثم تتساقط من الأغصان العالية فوقهم لتهبط بخفة على شعورهم ووجوههم، أزالت چينا الثلوج من على رموشها ونظرت لأعلى. كانت الأشجار جذوعها نحيلة، وترتفع بانسياب دون أن تتفرع أغصانها إلا عند هاماتها فتمتد الأغصان هنالك للخارج في محيط عريض ومنبسط لتبدو كما لو كانت مظلات تكسوها الثلوج.

أدركت چينا أن ثلاثتهم توقعوا أن يجدوا أنفسهم على طريق ما، لكنهم وجدوا المكان خاليًا تمامًا من أي طرق؛ مجرد مكان موحش منبسط بلا أية ملامح، لا يُرى فيه سوى أشجار تمتد أغصانها للخارج في كل الاتجاهات، كما لم تكن هناك أية آثار لأقدام تنتهي إلى حيث يقفون، وما كانت هناك أي وسيلة تحدد أي اتجاه يأخذهم للأمام وأي اتجاه يأخذهم للخلف. وبدا لچينا، كما قالت في سرها، وكأن هناك طائرًا ضخمًا أسقطهم في قلب الغابة.

همس سبتيموس قائلًا: «دعينا ننظر في الخريطة يا چين».

أنزلت چينا الحقيبة من على ظهرها، ثم أخرجت كتاب تكو، واستخرجت منه الخريطة المطوية بدقة، أمسك سبتيموس الخريطة بيده لأول مرة وفتحها فطقطقت بسبب سائل الترميم الذي استخدم في ترميمها، لكنها بدت رغم ذلك مرنة وقوية. وسبتيموس يحب الخرائط، ولقد اعتاد استخدامها منذ كان في جيش الشباب وقد كان حينها قارئًا جيدًا لها، لكنه أدرك وهو ينظر في خطوط سنوري المرسومة بتفاصيل

دقيقة بالقلم الرصاص- أن هناك شيئًا واحدًا ظل يتعامل معه دائمًا في قراءة الخرائط على أنه أمر مسلَّم به؛ وهو أنه كان يبدأ دائمًا في قراءتها وهو يعلم موقعه عليها.

سأله بيتل وهو ينظر من فوق كتفيه: «أين نحن؟».

فردَّ سبتيموس قائلًا: «سؤال وجيه حقًا. قد نكون في أي مكان على الخريطة هنا. فليس هناك أية معالم على الإطلاق»، ثم لف أصبعه في الثقب الذي يتوسط الخريطة وقال: «حتى إننا قد نكون هنا».

قالت جينا: «لا، مستحيل؛ *فهذا* هو بيت الفوريكس».

رد سبتيموس قائلًا: «هذا هو ما نعتقده نحن. لكننا لا نعلم على وجه الدقة *ما* الذي تضمه القطعة المفقودة، أليس كذلك؟».

لم ترد جينا عليه؛ فهي ترفض حتى مجرد *التفكير* في أنهم ليسوا في طريقهم إلى نكو وبيت حيوانات الفوريكس، ثم أخذت تعبث في جيبي ردائها الأحمر الصوفي، وهما جيبان عميقان مبطنان بالحرير، على أمل أن تجد معها ولو لمرة واحدة شيئًا ذا منفعة. حاولت جينا أن تتذكر ما إذا كانت قد أعادت البوصلة إلى جيبها بعد أن ألقتها على الأرض في نوبة غضب عندما قال لها والدها الحقيقي ميلو إنه سيرحل مرة أخرى في رحلة بحرية. وهنا، قبضت يدها على قرص معدني بارد الملمس، وعلت وجهها ابتسامة عريضة، ثم قالت: «إن معي بوصلة».

قال سبتيموس مندهشًا: «معكِ *بوصلة*؟!».

«نعم، ولا داعي لكل هذا الاندهاش».

«لكنك لا تحملين معكِ أبدًا *أي* شيء يا جين».

هزت جينا كتفيها بتوتر؛ فهذا صحيح.. إنها لا تحمل معها أبدًا أي شيء. وعندما أشار معلمها باستحسان إلى أن هذا سلوك تشتهر به الأميرات والملكات، شعرت جينا حينها بالحرج؛ فهي لا تريد أن تتصرف في كل الأمور من منطلق أنها أميرة، كما أن فكرة أنها ستكون الملكة لاتزال تبدو لها، ببساطة، غريبة تمامًا.. لكنها حاولت، بعد تعليق معلمها، أن تتعمد أن يكون معها دائمًا بعض الأشياء في جيبها – حتى وإن كانت لا تبدو بشكل واضح أنها ذات جدوى – لمجرد أن تثبت أن معلمها كان مخطئًا. وها هي الآن بوصلة ميلو التي لم تنفعها حتمًا في دفع ثمن عبوة من عبوات لبان سلاحف قوس قزح من متجر «ما كاسترد»- تفي بغرضها الآن. أمسكت جينا بالبوصلة النحاسية الصغيرة، وراقبوا ثلاثتهم إبرتها وهي تلف.. وتلف.. وتلف، كأنها ساعة انطلقت عقاربها تدور بسرعة.

فقالت لهما جينا: «ليس من المفترض أن تدور بهذا الشكل، أليس كذلك؟».

رد بيتل وسبتيموس في نفس واحد: «فعلًا».

قالت جينا بتذمر: «هذا هو *بالضبط* ميلو. كل أغراضه عديمة الجدوى، وغريبة أيضًا».

قال بيتل وهو ينظر حوله: «في رأيي أن هذه *الغابة* هي الغريبة».

ثم سألها سبتيموس: «هل أستطيع أن ألقي عليها نظرة يا جين؟».

فناولته جينا البوصلة، وهي تتساءل في سرها ما إذا كانت البوصلة ستتصرف باحترام ما إن تجد نفسها في قبضة سبتيموس، لكنها لم تفعل. جثا سبتيموس على ركبتيه وبسط الخريطة على سطح الجليد

شديد البرودة، مزيحًا رقائق الثلوج التي كانت تنجرف إلى سطح الخريطة، ثم قال: «لا أعلم أين نحن، لكنني سوف أضع البوصلة.. همم..»، وحرك يده فوق الخريطة بحركة مموجة، كأنه يأمل أن تظهر له أي إشارات ولكن لم يظهر شيء، ثم قال: «هنا»، ووضع البوصلة عند الركن الأيسر السفلي.

سأله بيتل: «هل ستستخدم تعويذة ملاحة».

أومأ له سبتيموس برأسه.

فسأله بيتل وهو يشير إلى الثقب الذي يتوسط الخريطة: «لكن كيف ستفعل ذلك بدون الجزء الذي نريد التوجه إليه؟».

رد سبتيموس قائلًا: «لقد فكرت في أني قد أستطيع أن أجعلها تأخذنا إلى أطراف الثقب. ومن يدرينا ما سيحدث بعد ذلك، فربما سيكون في وسعنا حينها أن نرى من هذا المكان بيت حيوانات الفوريكس».

«حسنًا، إن الأمر يستحق المحاولة، المهم أن تكف هذه الإبرة عن الدوران كأنها مصابة بلوثة عقلية، إنها تشعرني بقشعريرة».

أخرج سبتيموس سلكًا رفيعًا يتكون من سلكين متعامدين من حزام التلامذة الذي يلبسه، وبسط جزءًا منه كان قد التوى، ثم وضعه على سطح البوصلة. نظرت چينا وبيتل من فوق كتفيه، لكن الإبرة واصلت مع ذلك الدوران.

قالت چينا بنبرة يشوبها القلق: «لم يُجدِ ذلك في شيء».

همهم سبتيموس قائلًا: «أمهلينا بعض الوقت. فلا بد أن أتذكر كلمات هذه الساذجة».

سألته چينا مستفسرة: «الساذجة؟».

«إنه مصطلح تقني يا چين».

«ظريف، ها ها».

وضع سبتيموس أصبعه فوق السلك المتعامد وأغمض عينيه، ثم همهم قائلًا: «العلامة x سوف تحدد المكان»، ثم رفع السلك من فوق البوصلة ووضعه عند طرف الثقب الذي يتوسط الخريطة، ثم سألهما: «هنا تقريبًا؟» فأومأت له چينا وبيتل برأسيهما، ثم قال سبتيموس وهو محتفظ بوضع أصبعه على مركز تعامد السلك:

«قدنا خلال الوديان والمنخفضات،

أرشدنا بصدق وأظهر العلامات».

قالت چينا وهي تشهق: «لقد توقفت!» أصبحت الإبرة الآن ثابتة، لا يصدر عنها إلا الرجفة الخفيفة المعتادة لإبر البوصلات، ثم قالت لسبتيموس: «أنت مدهش».

فردَّ عليها قائلًا: «بالطبع لا، فأي شخص يستطيع أن يفعل هذا».

قالت چينا: «لا تكن أحمق. فلا أنا ولا بيتل نستطيع أن نفعل ذلك، أليس كذلك يا بيتل؟».

فأومأ لها بيتل برأسه، لكن سبتيموس قطب جبينه وقال: «هذا أمر بسيط».

وهكذا انطلق ثلاثتهم في طريقهم، وحمل سبتيموس البوصلة متتبعًا الاتجاه الذي تشير إليه إبرتها. أما چينا فحملت الخريطة في يدها بحثًا عن أي مَعلم مميز في الطريق، على أمل أن تقع عيناها على أي شيء؛ فالخريطة كانت تحمل العديد من المعالم؛ منها مسارات متقاطعة، ومجرى مائي متعرج تعلوه جسور متنوعة، وصخور قائمة، وبئر، وعدد كبير من الأكواخ المتناثرة بشكل عشوائي عبر الخريطة مرسومة بدقة، ولها أسقف مدببة ومداخن. ولقد عنونت سنوري كل كوخ من هذه الأكواخ بكلمة «ملجأ».. وهنا تساءلت چينا في سرها: ملجأ، من أي شيء يا تُرى؟ لكن ظل كل ما يرونه أمامهم على أرض الواقع هو سطح أرض الغابة المنبسط، المكسو بطبقة من الثلوج، والخالي من أية معالم.

وواصلوا السير بخطوات سريعة، متبعين الاتجاه الذي تشير إليه البوصلة بثبات، وعيونهم متيقظة تبحث عن أي مَعلم مميز، مع توقفهم للحظات خاطفة تناولوا فيها بعض الأسماك المجففة وشربوا من زجاجة ماء مُلئت من نبع، وجدها سبتيموس على سطح الأغراض الموجودة في حقيبته. وبعد ذلك استأنفوا السير بإصرار وعزيمة، في صورة ثلاث هيئات صغيرة ترتدي عباءات من جلود حيوانات الولفرين، بالإضافة إلى قط برتقالي، يسلكون طريقهم في مسار متعرج بين الأشجار، والثلوج تطقطق أسفل أحذيتهم الطويلة مع اختراقها طبقة الجليد الرقيقة في كل خطوة يخطونها.

كان سبتيموس كل عشرين خطوة ينظر وراءه؛ ولقد تعلم هذه العادة عندما كان في جيش الشباب وكان لا بد أن يتدرب عليها لساعات

وساعات أثناء الجولات الطويلة التي كانوا يقومون بها في الغابة، وها هو ذا الآن يطبقها تلقائيًا كما لو كانت عادة قديمة مألوفة، وهو تدريب (لاحظ وحافظ على سلامتك) - كما كانوا يُطلقون عليه. لم تُفصح له معظم المرات التي كان يلتفت فيها للوراء عن أي شيء فيما عدا كتلة الأشجار الضخمة المصطفة خلفهم، وصراعَ چينا وبيتل مع الثلوج التي كان حذاءاهما الطويلان يغرسان فيها، ووميضًا ينطلق من فروة أولر البرتقالية بينما كان القط يقفز بينهما. ومع ذلك، كان سبتيموس بين حين وآخر يعتقد أنه يلمح شيئًا ممثلًا في حركة يلمحها بطرف عينه، لكنه لم ينطق؛ فهو لم يرغب في بث الرعب في نفس چينا وبيتل، وأمل أن يكون ما يراه ليس إلا وهمًا. فلا بد أنها الأشجار، كما قال في سره، هي التي تتخذ أشكالًا كإحدى تلك الخدع البصرية التي اعتاد فوكسي القيام بها.

لاحظت چينا أثناء صعودهم تلًا كانت أشجاره محتشدة بكثافة بالغة حتى إنها أجبرتهم على السير في صف واحد - أن اللون الأبيض الذي يسيطر على الغابة بدأ يتسلل إليه الظلام، ثم نظرت إلى الخريطة، لكن الرؤية كانت صعبة في هذا الضوء الخافت حتى ترى العلامات الدقيقة التي رسمتها سنوري بالقلم الرصاص، فسألت بيتل: «كم الساعة الآن يا بيتل؟».

فنظر في ساعته، وكان من الصعب الرؤية في هذا الجو المظلم، ثم رد عليها قائلًا: «الثانية والنصف».

فسألته چينا: «فلماذا إذن بدأ الجو يُظلم الآن؟».

نظر بيتل حوله في حيرة؛ إن چينا محقة؛ فقد بدأ الظلام يتسرب إلى الجو بالفعل، وظهر *الشفق الأحمر*.

فقال سبتيموس مقترحًا، وهو ينظر للوراء إلى بيتل ويسير بخطوات أسرع، راغبًا في الوصول لأعلى التل بسرعة: «ربما أن ساعتك هي المخطئة».

رد بيتل وهو يزفر متذمرًا ويحاول اللحاق به: «إن ساعتي ليست هي التي تجعل الظلام يخيم، أليس كذلك؟ إنها الشمس هي التي تغرب الآن».

رد عليهما سبتيموس بصوت عالٍ من أمامهما: «ربما أن هناك عاصفة في الطريق. عاصفة ثلجية. والجو بالفعل قارس جدًا».

توقفت چينا وقد لاحظت أن أولر لم يعد بجوارها، ثم قالت بكل بساطة: «ليست عاصفة ثلجية، إنما الشمس هي التي تغرب الآن. بل لقد غربت توًا في واقع الأمر، انظرا». وهنا، رأوا أولر الليلي يتقدم نحوهم من بين الأشجار، ولونه الأسود يمتزج مع سواد جذوع الأشجار، وأرجله الضخمة تظهر بوضوح وسط الثلوج البيضاء.

قال بيتل: «ياه! سحقًا!».

فقالت له چينا وهي تمسكه من يده: «هيا بنا يا بيتل، دعنا نلحق بسبتيموس الآن».

ابتسم بيتل؛ فالليل في الغابة بدا فجأة أنه ليس بهذا السوء.

توقف سبتيموس لدى قمة التل وانتظر حتى يلحق به بيتل وچينا.. كان بالكاد يتحمل النظر للأسفل، فهمهم بتعويذة شائعة تجلب الحظ - من النوع الذي تستنكره مارشا كثيرًا جدًا - ثم أجبر نفسه على النظر. وهنا، رأى أمامه منحدرًا عريضًا يميل برفق، ويقل كثيرًا انتشار الأشجار على سطحه مقارنة بالجانب الآخر. كان هناك على مسافة ليست ببعيدة ضوءٌ يتلألأ وسط الظلام؛ فابتسم سبتيموس ابتسامة عريضة؛ إذ يبدو أن هذه التعاويذ الشائعة قد تنجح أحيانًا. وبينما كان يراقب الضوء، مع تسلل الظلام في المحيط حوله، بدأت نقطة الضوء تزداد لمعانًا. ومع وصول چينا وبيتل إلى قمة التل منضميْن إليه، كان الضوء يتلألأ كأنه شعلة فنار.

انطلقوا جميعًا ينزلون التل وهم يقفزون وسط الثلوج، وما لبث هذا القطيع الصغير من الولڤرين - يتبعه نمر أسود - أن غطت آثار أرجله سطح الأرض، ومع اقترابهم من الوادي في الأسفل، سمعوا خرير مياه جارية.

همست چينا، وهي تخشى التحدث بصوت عالٍ في الظلام، قائلة: «إنه المجرى المائي الموجود في الخريطة»، ثم قالت بنبرة يكاد يملؤها التوسل والرجاء: «مما يعني أن هذا الضوء من المؤكد أنه صادر عن كوخ من أكواخ الملاجئ.. أليس كذلك؟».

رد سبتيموس قائلًا: «يُستحسن له أن يكون كذلك».. وكانت الأنشودة السحرية **التي استخدمها منذ قليل** لا تزال تطن في رأسه، وبدا متفائلًا؛ متفائلًا أكثر من أي وقت مضى طوال هذا اليوم، ثم شبك ذراعيه في أذرع چينا وبيتل، وخاضوا معًا في الثلوج التي كانت أكثر عمقًا هنا في الوادي ووصلت إلى رُكَبهم. أخذ أولر يقفز وهو يغرس في

الثلوج، وما عاد يتزحلق كما كان يفعل على طبقة الجليد السابقة، وقد أخذت فروته السوداء تتلألأ بلون أبيض، وجعلت الثلوج شعر **ذقنه** يبدو كأنه لحية رجل مسن.

لاحظت چينا وبيتل ارتفاع معنويات سبتيموس، وكسر خرير المياه المتدفق في المجرى المائي الصمت الساحق الذي كان يخيم على الغابة، وأضاء البريق الأصفر لمصباح الكوخ الثلوج الهشة أمامهم، وكان لامتزاج الثلوج وضوء المصابيح تأثير جميل أدخل السرور في نفوس ثلاثتهم؛ فقد ذكَّر هذا المشهد چينا وسبتيموس بالوقت الذي قضياه أثناء الصقيع الكبير لدى العمة زيلدا، وهي فترة ينظر إليها كلاهما بسعادة وابتهاج. وبالنسبة لبيتل فقد أعاد له المنظر ذكريات الأيام التي كانت تتساقط فيها الثلوج فلا يضطر للذهاب إلى المدرسة؛ أيام كانت زاخرة بالاحتمالات عندما كان يستيقظ من النوم ليجد أن الثلوج قد غطت النوافذ بالكامل، وأن والدته أضاءت المصباح وراحت تطهو اللحم المقدد بالبيض على النار.

ومع اقترابهم من الضوء، تبينوا أنه بالفعل يصدر عن كوخ خشبي صغير له مدخنة تنبثق من الموقد في الداخل، تمامًا كالمداخن التي رسمتها سنوري. وكان الضوء يصدر عن مصباح يقبع لدى النافذة الصغيرة التي تعلو الباب، وكان يُلقي بظلال ممتدة يرونها من بين الأشجار القليلة التي لاتزال تفصل بينهم وبين الكوخ.

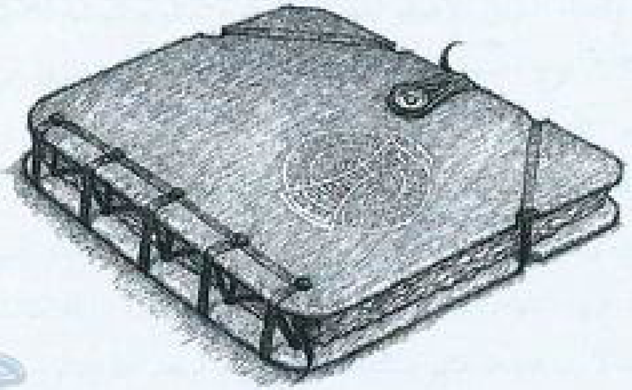
وبعد لحظات قليلة، كانوا يدفعون باب الكوخ .. وما إن وطئت أقدامهم عتبة الكوخ حتى سمعوا عويلًا مفزعًا غريبًا على مسافة ليست ببعيدة عنهم.

وعلى الفور صفق بيتل الباب وأغلقت چينا المزاليج الثلاثة.

قال سبتيموس: «يا لها من مزاليج كبيرة! تُرى، ما سبب ذلك؟».

قال بيتل: «لا تبدأ،/رجوك لا تبدأ».

36
الكوخ



كان *الكوخ من الداخل تمامًا كما* وصفته الخالة إيلس ذات مرة لنكو وسنوري خاليًا من الأثاث وبسيطًا للغاية، لكن بعد برودة الثلوج وكآبة الجو في الغابة، بدا دافئًا ومرحبًا. وعلى كلا جانبي الكوخ وجدت ثلاث مصاطب للنوم يعلو بعضها بعضًا، كل منها تقبع عليها بطانيتان مطويتان بدقة. وكان يتوسط الفراغ مائدة قديمة وموقد حديدي، يكتنفه على الجانبين كَمٌّ لا بأس به من الكتل الخشبية المكومة عاليًا، كما كان في آخر الكوخ باب.. فتحته چينا وأطلت منه فرأت غرفة صغيرة جدًا

تحوي إبريقًا، وإناءً من الماء المجمد، وحفرة مخيفة تصفها مغطى بألواح خشبية، وبجانبها دلو مملوءة بالتربة.. لم تكن الرائحة طيبة في الغرفة فأغلقت چينا الباب على الفور.

شرع سبتيموس وبيتل في إشعال الموقد، وسرعان ما كانت الكتل الخشبية تتوهج مشتعلة، ثم تركوا باب الموقد مفتوحًا، وبعد أن تجمع ثلاثتهم حول النار أخذوا يدفئون أياديهم بينما كانت الثلوج التي تغطي عباءاتهم المصنوعة من جلد حيوانات الولڤرين تذوب وتتساقط منها، وتحولت الأرض الترابية أسفلهم إلى وحل. وما إن تخلصت أياديهم من حالة التجمد وانبعث فيها الدفء، حتى حلوا على الفور مشابك حقائب الظهر التي كانوا يحملونها، ليجدوها مملوءة عن آخرها بعبوات ملفوفة بدقة ونظام بورق الأشجار ومربوطة بشرائط رفيعة مأخوذة من نبات الكروم.. وبلهفة، أفرغوا محتوياتها على المائدة.

أطلق أولر زمجرة يملؤها الأمل؛ فقد اشتم رائحة سمك. فأولر - حتى وهو في صورة النمر الأسود - يحتفظ بولع القطط لمذاق السمك.

قالت چينا، وهي تتفحص الكنز المكدس أمامهم على المائدة، وقد خالجها إحساس يملؤه الحماس كما لو كان اليوم هو عيد ميلادها: «لا بد أن سام مكث الليل بطوله يُعد كل ذلك».

ولأن سبتيموس كان واثقًا من أن چينا تريد أن تفتح كل العبوات في الحال، قال لها: «لا ينبغي علينا أن نفتح سوى عدد قليل في المرة الواحدة، أعتقد أن أوراق الشجر ستحافظ على الطعام، كما... كما أننا لا نعرف المدة التي سنمكثها هنا، أليس كذلك؟ ربما قد تمتد لشهور».

قالت چينا: «أحيانًا يا سب تكون بخيلًا للغاية. حسنًا، أيها سنفتح الآن؟»، ثم قرروا أن يفتح كل منهم عبوتين، وهو ما أسفر عن أربع سمكات، وعبوة من أوراق الأشجار المجففة رأى سبتيموس أنها من الخلطات المُخمرة التي تصنعها الساحرات، ورغيف خبز مسطح مكسو بالرماد من الواضح أنه تم طهوه في معسكر هيب.

قالت چينا وهي تتفحص الكومة الكبيرة من العبوات التي مازالت غير مفتوحة: «ما رأيكم لو فتح كل منا عبوة أخرى؟».

وافق سبتيموس، وإن كان ذلك قد أثار حفيظته، وقال: «حسنًا يا چين، عبوة واحدة فقط»، فأسفر ذلك عن سمكة أخرى ورغيف خبز آخر، لكن بيتل هو الذي ربح؛ حيث احتوت عبوته على قطعة كبيرة من الطوفي. فالمركب الذي كان في طريقه لتسليم شحنة متجر «ما كاسترد» كان قد جنح لدى ضفة النهر في المكان الذي يصطاد فيه سام، وكان قائد المركب في غاية الامتنان لسام بعد أن ساعده في دفع المركب بلا مقابل أثناء حركة الجزر.

وما لبث أن أزال بيتل ورق الزبد السميك الذي كان يغلف القطعة الكبيرة اللزجة حتى وجدوا أنفسهم يستنشقون هواء معبأ بالرائحة الحلوة الدافئة المميزة للطوفي.

قال سبتيموس: «أتعرفان؟ أنا بالفعل أحب سام».

وبعد ساعة، كان ثلاثتهم ممددين على المصاطب، يملأ أجسادهم الدفء المنبعث من حرارة الموقد، بطونهم ممتلئة بالطوفي والسمك

وخلطة الساحرات، وامتلأ الكوخ ببريق برتقالي يصدر عن الموقد جعل النوم يتسلل إلى الجفون، بينما كانت الثلوج في الخارج تتلألأ في النور الذي كان يلقي به من الناحية العملية القمر الذي كان بدرًا هذه الليلة. ومع ذلك، بدا لهم أن الوقت لايزال في منتصف فترة العصر؛ أي أن الوقت كان لايزال مبكرًا على النوم.

سألت چينا بيتل: «كم الساعة معك يا بيتل؟».

فقال وهو يرفع ساعته عاليًا حتى تلتقط ضوء الموقد: «الرابعة».

قالت له چينا: «أي أننا في الرابعة عصرًا ورغم ذلك خيم الظلام منذ نحو ساعتين؟!».

رد بيتل عليها محاولًا أن يُخلص الجزء الخلفي من أسنانه من بقايا قطعة طوفي ملتصقة به: «فعلًا».

«أي معنى ذلك أن...».

قال سبتيموس: «أن كل شيء غريب جدًا هنا».

«لا يا سب.. هذا معناه إما أننا في أقصى الشمال وإما أننا في أقصى الشرق، أو في كليهما».

قال بيتل: «وهذا هو ما يجعل الأمر غريبًا جدًا؛ فكل ما فعلناه أننا عبرنا كومة من الفحم وهذا لا يتوقعه المرء من كومة من الفحم، رغم كلام مدرسي القديم في الفنون الذي اعتاد أن يقول إن «الفحم يمكن أن يأخذك إلى عالم جديد تمامًا يا بيتل».

قال سبتيموس: «تُرى، في أي الاتجاهين نحن الآن: الشمال أم الشرق؟».

قالت چينا: «يمكننا أن نتوصل إلى النتيجة غدًا؛ فغدًا سيكون في وسعنا أن نتبين طول اليوم. أنا أعتقد أننا في الشرق، وخسرنا من فارق التوقيت بضع ساعات، فلا أظن أن الليل سيحل بهذه السرعة في أقصى الشمال، فنحن نقترب من فصل الصيف الآن، ومن المفترض أن يزداد اليوم طولًا».

ظل الفتيان صامتين لوهلة، ثم قال سبتيموس: «كيف تسنى لك معرفة كل هذه الأمور يا چين؟».

استغرقت چينا لحظاتٍ حتى ردت قائلة: «إنه ميلو. لقد حكى لي كل شيء عن رحلاته. فقد كانت لديه ساعة هو أيضًا، وقال إنه قبل أن أولد كان يضبطها على ما أطلق عليه (ساعة الوطن) حتى يستطيع أن يعرف ماذا كانت.. هممم.. والدتي تفعل. وقال إنه عندما كان يسافر، كانت الشمس كلما اتجه شرقًا، وفقا لما كانت تشير إليه ساعته، كانت تغرب في وقت مبكر أكثر فأكثر - حتى وإن كان الأمر لم يبد له كذلك.. كما قالت لي سنوري إن اليوم في بلاد الليالي الطويلة في الصيف يكون طويلًا حتى إن الشمس لا تكاد تغرب فيها».

فكر سبتيموس في هذا الكلام وقال: «إذن، لو كنا أقصى الشمال فهذا شيء في صالحنا؛ لأن هذا مكان بيت حيوانات الفوريكس، أليس كذلك؟».

«سوف أرى ماذا يقول نكو في ذلك»، وأخذت چينا الكتاب الذي جمعه إيفانيا وغلفه تغليفًا جميلًا من على سريرها الذي كانت قد وضعته بشكل آمن عليه، ثم تصفحت الأوراق التي كان بعضها عبارة عن

قصاصات متناهية في الصغر دمجها إيفانيا في قطع ورق أكبر، وبعضها الآخر كان أكبر ومطويًا بحرص وأطرافه تم تقويتها، وكانت كل الأوراق ملساء، تكاد تكون صمغية في ملمسها، وعلى الرغم من أن كتابة نكو تميل لأن تشرد في الورقة كأنها نملة ضلت الطريق، فإن إيفانيا جعلها تبدو أنضر وأوضح، وتمكنت چينا أخيرًا من أن تفهم من معظمها شيئًا منطقيًا. ثم همهمت چينا قائلة وهي تتصفح الأوراق بحثًا: «بيت حيوانات الفوريكس.. بيت حيوانات الفوريكس. هذه الصفحة تذكر شيئًا عنها. فقد ألصقت سنوري ملحوظة عليها موجهة إلى نكو.. (نكو، هذه الملحوظة لك. وهي بشأن مقاطع الحديث التي فاتتك عندما كنت أتحدث مع الخالة إيلس بلُغتنا، سنوري x). أعتقد أن المكتوب فيها هو ما ذكرته لهم الخالة إيلس».

قال لها سبتيموس: «هيا يا چين، اقرئي لنا المكتوب».. وكالطفلين الصغيرين اللذين ينتظران سماع حكاية قبل النوم، نظر بيتل وسبتيموس إلى چينا بترقب.

ضحكت چينا وقالت: «حسنًا. لكني لن أقلد صوت الخالة إيلس».

فملأ أجواء الكوخ تعليقات معترضة.

لا، لن أقلدها. وإليكم الآن ما قالته: «كنت في التاسعة من عمري، وكنت ألعب مع أختي في بيت جدتي ثم تشاجرنا. دفعتها فدفعتني، فسقطت في اللوح الزجاجي ونفذت منه. أنا الآن أدرك ذلك، لكني حينها لم أفهم شيئًا مما حدث لي. وكل ما أدركته أني فجأة لم أعد في

بيت جدتي الصغير المجاور للبحر، وإنما وجدت نفسي في غرفة مثمنة الشكل تمتلئ بالأثاث الداكن الثقيل فتملكني الرعب.

وعندما تجرأت أخيرًا وجازفت بالخروج من الغرفة وجدت نفسي عند أعلى سلم حلزوني طويل وما إن نزلته حتى وجدت نفسي في أغرب مكان يمكن أن تتخيليه؛ كان عبارة عن بهو هائل يملؤه دخان الشموع، ويعج بأناس يتحدثون بلغات مختلفة ويرتدون ملابس غريبة، وبدا لي كأني دخلت حفلًا تنكريًا ممتدًا إلى ما لا نهاية. كان الناس يجوبون في الطرقات ويتحدثون بلا هدف، أو يجلسون بجانب كتل خشبية تشتعل بشكل متواصل دون أن يبدو عليها أنها تُستهلك.. لم يلتفت أحد لوجودي أثناء تجولي في أنحاء البيت، وأكلت بملء بطني في المطابخ، ووجدت سريرًا مريحًا في غرفة جميلة بها مدفأة تشتعل نارها بشكل متواصل، وظل الإناء الكبير الذي يحتوي على أنواع من البسكويت الحلو مملوءًا، دائمًا، لكني شعرت بالوحدة واشتقت إلى العودة للبيت.

«كان للبيت باب مدخل هائل الحجم، لكن الزوار كانوا يُعدون حدثًا نادرًا؛ بعضهم كان يأتي ليبقى وينتظر تطور الأحداث، لكن معظمهم كانوا يأتون بحثًا عن أحبائهم المفقودين، رغم أني لا أتذكر أن أحدًا منهم عثر على من يبحث عنه. ولقد أدهشني قلة عدد الموجودين أصلًا هنا في بيت حيوانات الفوريكس الذين أرادوا المغادرة. أتذكر سيدة شابة كانت ترتدي عباءة جميلة من الفرو الأبيض، وكانت تريد أن تغادر لكنها أشفقت عليَّ وتنازلت لي عن مكانها على المقعد التنيني في بهو

المدخل المعروف ببهو الشطرنج الموجود بجانب الباب، وقالت لي إني لست إلا طفلة صغيرة، وينبغي عليَّ أن أغادر في أسرع فرصة ممكنة، وأيًا كان الزمن الذي سوف أذهب إليه فأنا لا أزال صغيرة وسوف أتأقلم. ولقد كانت محقة.. وسأظل إلى الأبد ممتنة لها، وهكذا أخذت مكانها على المقعد وكنت أجلس بين رأسي تنينين، وقدماي تستندان إلى الذيل. انتظرت أسابيع طويلة، بينما كانت السيدة تجلب لي الطعام وتؤنس وحدتي. كانت تقص عليَّ قصصًا عن قصور وسهول مكسوة بالثلوج، وعن زحاليق وطرق جليدية، حتى إن ركبتي كانتا تتخبطان في بعضهما؛ لفرط شعوري بالبرد وكنت أرتجف داخل عباءتي الصوفية رغم حرارة الجو المنبعثة من الشموع التي تشتعل ليل نهار.

«وأخيرًا» جاءت فرصتي صباح أحد الأيام عندما سُمع طرْق مدوٍ على الباب. ولدهشتي، خرج رجل ضئيل الحجم من العمود المجاور للمكان الذي كنت أجلس فيه وانطلق قفزًا إلى الباب، وكان هناك رجل وامرأة ينتظران لدى الباب، لكن حارس الباب لم يسمح لهما بالدخول، وفي اللحظة التي بدأ فيها الباب ينغلق انتهزت الفرصة ولذت بالفرار - وسط اندهاشهما.

«ولقد كنت، كما أدركت فيما بعد، محظوظة إلى حد لا يتصوره عقل. لا أعلم السبب الذي جعل والديَّ الجديدين يذهبان إلى بيت حيوانات الفوريكس؛ فهما لم يذكرا لي ذلك قطُّ. وكل ما أتذكره بعد أن خرجت أني كنت أعبر هوة هائلة فوق جسر ضيق متأرجح وسط الرياح. كان أبي الجديد يقود حصانًا كنت جالسة فوق ظهره أمام أمي الجديدة. وفيما

بعد، قالت لي إنها كانت تغمض عينيها من فرط الرعب أثناء عبورنا الهوة، لكنّ عيني أنا كانتا حينها مفتوحتين عن آخرهما من فرط الحماس. كان البدر يرتفع في السماء ويعلو منبثقًا من الضباب أسفلنا، ومن فرط ارتفاعنا نحن بدا لي كأننا كنا نطير بين النجوم.

وهكذا جاء والداي الجديدان بي إلى القلعة، وكانا رمزًا للطيبة وحُسن الخلق، ولقد نشأت على حبهما كما أحببت أمي وأبي، لكن ظل دائمًا يتردد في أعماق ذهني سؤال حائر: *ما الذي حدث لي؟*

«ولم أدرك لسنوات طويلة أني انتقلت إلى زمن غير زمني إلا عندما حدث وحكت راوية قصص رحالة قصة عن بيت حيوانات الفوريكس، وعلمت أن قصتها لم تكن إلا الحقيقة. بحثت عنها بعد ذلك وعندما وجدتها ذكرت لها قصة ما حدث لي، فقالت لي إن بيت حيوانات الفوريكس مكان تتلاقى فيه كل الأزمان، ولا تستطيعين أن تغادري المكان إلا عندما يصل شخص، وإذا غادرت معه فلا بد حينها أن تدخلي الزمن الذي ينتمي إليه؛ ولذلك عندما هربت من بيت حيوانات الفوريكس كنت في واقع الأمر أهرب إلى زمن والديّ الجديدين.

«أعتقد أن فرصتك الوحيدة كي تعودي إلى زمنك تكمن في العثور على بيت حيوانات الفوريكس، على أمل أن يأتي أحد من زمنك لاصطحابك. ولقد كنت أشتاق عندما كنت طفلة صغيرة إلى العودة لزمني، لكن بعد أن مرت السنون وفهمت في نهاية الأمر ما حدث لي، كنت حينها قد قابلت زوجي العزيز، وكان والداي بالتبني قد طعنا في السن ووهن العظم منهما، ولم أرغب في العودة؛ فهذا الزمن جميل..

وكان من الممكن أن يكون الأمر أسوأ من ذلك بكثير. لكن أنتما لاتزالان في ريعان الشباب، وأرى فيكما قدرًا من الشجاعة لكي تحاولا. فليرعكما الإلهان أودين وسكادي»، ثم كتب نكو.. أعتقد أن هذا هو ما كتبه.. «يا بيت حيوانات الفوريكس.. ها نحن قادمون».

قال سبتيموس: «هذا هو نكو».

ثم قالت چينا: «تُرى، هل لايزالان موجودين هناك؟».

رد سبتيموس قائلًا: «ليس هناك سوى سبيل واحد للتحقق من ذلك».

لم يتمكن أحد من النوم بسهولة هذه الليلة.

كان الموقد يحافظ على انبعاث الدفء إلى أجسادهم، واستخدم سبتيموس تعويذة **الدرع الأمن** لتأمين الكوخ، لكن كان من الصعب تجاهل الأصوات الآتية من الخارج.. وكانت هناك تشكيلة منها لا بأس بها تلبي كل الأذواق.. وتساءل سبتيموس في سره مستغربًا كيف أن غابة بكل هذا الهدوء نهارًا تملأ أجواءها كل هذه الضوضاء ليلًا. ومع ارتفاع القمر في السماء، زادت حدة الريح، وكانت تهب على امتداد الوادي غير مرحبة بوجود الكوخ في طريقها، فأخذت تئن وتعوي، وجعلت النوافذ تتخبط وراحت ترج الباب، وتآمرت الريح أيضًا مع الأشجار، فأخذت الأغصان تطرق على سطح الكوخ الصغير وجدرانه الضعيفة وتخمش فيه، كما كانت هناك أصوات أخرى على مسافة ليست ببعيدة، تمثلت في صراخ حاد وعواء جعل شعر فروة رأس أولر يقف. ودسَّ بيتل أصبعين

في أذنيه، وتمنى لو كان الآن في سريره الذي يبعث في نفسه الشعور بالدفء والراحة في منطقة العشوائيات.

استغرق بيتل وسبتيموس في النوم قبل چينا، وجلست هي على سريرها متلحفة بجلد الولڤرين، وراحت تنصت لعويل الريح. راقبت چينا الثلوج وهي تتراكم أمام النافذة، ونار الموقد وهي تخفت، فتسلل البرد رويدًا رويدًا إلى الكوخ، وفجأة سمعت صوتًا «سكريتش.. *سكراتش*.. سكريتش»، كان هناك شيء يخمش في الباب. انتفض أولر الذي كان ممددًا أمام الباب وهب واقفًا على أرجله مزمجرًا. وبقلب يخفق بسرعة، نزلت چينا إلى سبتيموس الذي كان ينام على السرير الأسفل منها، وأخذت تهز فيه لتوقظه وهي تقول له: «سب.. *أنصت!*».

انتفض سبتيموس فزِعًا، واستيقظ، معتقدًا في لحظة بشعة أنه عاد إلى جيش الشباب مرة أخرى، وقال: «أيييين.. كاااان ذذذذلك؟».

همست چينا قائلة: «*هناك شيء يحاول الدخول*».

«ياه! ياه! يا للهول!»، ثم زمجر أولر ثانيةً، واهتز الكوخ مع هبة ريح أخرى، ثم سمع سبتيموس صوتًا قادمًا من الخارج «سكريتش.. سكريتش.. سكريتش» كأن هناك من يخمش بأظافره الطويلة على الباب الخشبي الهزيل.

ومع عودة سبتيموس إلى اليقظة والانتباه هب من على سريره على الفور، ثم وضع كلتا يديه على الباب، وأخذ يتمتم بكلمات تعويذة **الدرع الواقي** مرة أخرى، لكن رغم ذلك استمر الخمش. تُرى، ما الذي يبطل

مفعول التعويذة؟ وبارتباك يشوبه الهلع، حاول سبتيموس إبطال الصوت برقية مضادة **للسحر الأسود**، وهنالك توقف الخمش.

أمعنت چينا وسبتيموس في الإنصات، لا يكادان يجرؤان على التنفس. وفي الخارج، كانت الأشجار تدق بأغصانها على سطح سقف الكوخ كأنها أظافر طويلة نفد صبرها، لكن صوت الخمش اختفى. تقلب بيتل وأخذ يهمهم ببعض الكلمات وهو لايزال نائمًا، بدت وكأنه يقول «احترس يا فوكسي»، ثم تقلب على الجانب الآخر يصاحبه صرير قوي من سريره، ثم عاد وهدأ من جديد. أما أولر فتمدد ثانية وقد اتخذ موقعه أمام الباب.

همس سبتيموس قائلًا: «لقد توقف الصوت».

ردت چينا هامسة: «أشكرك يا سب»، ثم دسَّت نفسها أسفل بطاطين الكوخ الخشنة وجلد حيوانات الولڤرين، وسرعان ما كانت قد استغرقت في النوم.

لكن سبتيموس ظل مستيقظًا، ولم يكن عويل الريح هو الذي منعه عن النوم، ولا صوت حركة الأغصان على سطح الكوخ، ولا حتى تساؤله في سره ما هذا الكائن **الشيطاني** الذي كان بالخارج. فما كان يمنعه عن النوم هو الحجر اللازوردي المحفور عليه بالذهب حرفا (ر.ا). فكل مرة كان يحاول فيها أن يشعر بالاسترخاء **ويخلد إلى النوم**، كانت صورة **الحجر** البائس هذا تمكن بشكل أو بآخر من أن تقفز إلى ذهنه، فدس يده في عمق جيب ردائه بتوتر وأخرج منه **الحجر**. وكان ثقيلًا في راحة يده ويبعث فيها الدفء، ثم تساءل في سره «ما أغرب ذلك!»..كيف يجعل

ضوء المصباح **الحجر** يبدو أخضر إلى هذا الحد – فالضوء لم يفعل ذلك مع أي شيء آخر في أنحاء الكوخ. فداهمه على الفور إحساس رهيب بالخوف كأن خنجرًا اخترق جسده؛ إذ لم يكن ذلك خدعة من الضوء بل إنه **الحجر** نفسه في واقع الأمر هو الذي يفعل ذلك، لقد *تحول* **لون حجر الرحلة الاستكشافية** إلى الأخضر.

وكالأرنب الذي **تم تثبيته وشل حركته**، أخذ سبتيموس يحدق إلى **الحجر**، بينما أخذت الكلمات التي همس له بها ألثر أثناء احتشاد **التجمع** تلف وتدور في رأسه كأنها أغنية أطفال مرعبة:

الأزرق كي تستعد،
والأخضر كي تنطلق،
والأصفر سوف يدلك على الطريق
عبر الثلوج..
والبرتقالي كي يحذرك
مما أنت ماضٍ إليه..
والأحمر هو البريق الأخير
اسع للون الأسود، ولن تكون هناك رجعة بعد الآن.

الأخضر للانطلاق.. هذا هو الموضوع إذن.. الأخضر للانطلاق إلى **الرحلة الاستكشافية**. استلقى سبتيموس وهو يحدق بلا تركيز إلى الألواح

الخشبية الخشنة التي لا تبعد عن وجهه إلا ببضع بوصات فقط، بينما أخذت الأفكار تلف وتدور بهلع كالدوامة في رأسه.

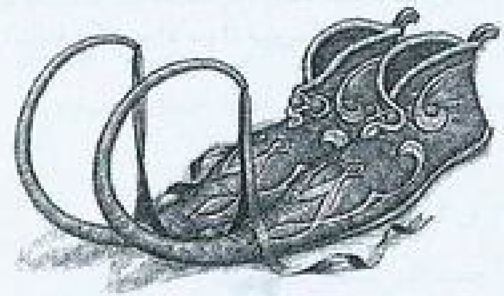
كانت الفكرة الأولى في حد ذاتها مزعجة تمامًا: **إنه الآن في الرحلة الاستكشافية.. إنه الآن في *الرحلة الاستكشافية*.**

والفكرة الثانية كانت أكثر إزعاجًا: فإذا كان قد أصبح **الآن في الرحلة الاستكشافية**، فكيف سيتسنى لهم العثور على نكو؟

أما الفكرة الثالثة فكانت الأسوأ: *تُرى،* ***كيف سيخبرجينا*؟**

37

دعـــوة



كانت *مارشا مستمتعة باستعادة مسئولية برج السحرة.*

وفور خروج آخر شبح من أشباح **التجمع** هائمًا بشيء من الارتباك بعد الانتهاء المفاجئ لهذه الرحلة القصيرة التي قام بها الأشباح، أخذت مارشا تتفحص برج السحرة بأسره من أعلى لأسفل؛ لتتأكد من خلوه من أي أشباح ضالة؛ فقد طفح بها الكيل من أشباح السحرة الأعظمين، وهي لا تود بأي حال من الأحوال أن تجد نفسها تصطدم بشبح مستغرق في غفوة بركن مظلم منسي خلال الأيام التالية. ولقد عثرت مارشا على أحد هذه الأشباح نائمًا في مخزن أحد السحرة

العاديين، وآخر يجوب في طرقة الطابق الخامس عشر يبحث عن أسنانه. وكان الأمر، كما قالت مارشا في سرها وهي تتفحص آخر دواليب البهو العظيم وتطرد منه كاتشبول الذي كان نائمًا - لا يختلف عن عملية استخدام الدخان لطرد الجرذان.

وبعد أن استعادت مارشا سلطتها في البرج، وهو ما أسعدها كثيرًا - وبعد أن اطمأنت على السحرة العاديين الأكبر سنًّا - قررت أن تركز اهتمامها الآن في **العثور** على سبتيموس. وافترضت أنه توجه إما إلى الغابة ليكون مع إخوته، وإما إلى العمة زيلدا في مستنقعات مرام. وفي كلتا الحالتين، كانت تعلم أن تعويذة **للعثور** سوف تقوم بالمطلوب وتعيده إليها.

لكن ما لم تكن مارشا تعلمه - في اللحظة التي أغلقت فيها باب جناحها الأرجواني وتنفست الصُّعداء - أن چينا وسبتيموس وبيتل كانوا يعبرون إحدى طرق الغابات القديمة متوجهين إلى غابة متجمدة غارقة في السكون. وبإحساس مفرط بالارتياح، صعدت مارشا السلم الحجري الضيق إلى المكتبة التي تقع داخل الهرم الذهبي العظيم عند سطح البرج، وجلست إلى مكتبها. استنشقت مارشا هواء المكتبة الذي تنبعث منه رائحة الجلود القديمة، والتعاويذ المتعفنة، وأتربة الأوراق المتحللة (فخنافس الورق تزدهر في المكتبة)، وشعرت أخيرًا بالاسترخاء.. فكل شيء عاد إلى قواعده سالمًا من جديد والعالم عاد إليه الاستقرار.

وبعد عشر دقائق، بدأت مارشا تساورها الشكوك في مسألة أن كل شيء عاد إلى قواعده سالمًا وأن العالم عاد إليه الاستقرار؛ فتعويذة **العثور**

لم تنجح. ومع إدراكها أنه ليس هناك **سحر** مضمون بنسبة 100٪ - وإن كانت تتوقع نسبة 99,9٪ في كل مرة - أعادت استخدام تعويذة **العثور** مرة أخرى، إلا أنها لم تنجح هذه المرة أيضًا.

وبعد نصف ساعة وثلاث محاولات أخرى، بدأ القلق ينتاب مارشا؛ إن سبتيموس على ما يبدو اختفى.

قالت مارشا وهي تهب واقفة على قدميها وتضرب المكتب بقبضة يدها: «إنه فيوم! هذا *الحقير* فيوم! إنه هو الذي وراء كل هذا. أنا لا يساورني أدنى شك في ذلك». وبعد دقيقتين، حيث جعلت مارشا السلم الحلزوني ينزل بالوتيرة السريعة الخاصة بحالات الطوارئ، كانت تسير مترنحة في بهو برج السحرة، يصاحبها إحساس بدوار شديد وغثيان ليس بالهين.

ومع خروجها إلى الهواء الطلق، أنعشها الهواء المائل إلى البرودة، وعبرت الفناء بخطوات واسعة، تصاحبها قعقعة كعب حذائها المصنوع من جلد الأفعى الأرجوانية على الأرض الحجرية.

كانت هناك كومة من الغسيل المتسخ تركها شخص أسفل القوس العظيم، وهو ما أثار اشمئزازها. فليس هناك أي عذر، كما قالت في سرها، كي يترك السحرة عباءاتهم القديمة المتسخة لدى مدخل فناء برج السحرة. فكيف سيكون وقع ذلك على المارة؟ وبتعبير يعلوه الاشمئزاز والنفور، رفعت مارشا طرفًا من العباءة، بحثًا عن البطاقة التي تحمل اسم الساحر صاحب العباءة. فجميع السحرة لا بد أن يحيكوا بطاقات بأسمائهم في عباءاتهم حتى تستطيع مغسلة البرج أن تعيد لكل ساحر

عباءته الخاصة به. لكن لم يكن ذلك مجديًا في أغلب الأوقات؛ فقد حدث ذات يوم أن أحد السحرة العاديين ويُدعى ماركوس أوفرلاند تسلم عن طريق **الخطأ** عباءة مارشا من المغسلة، وأخذ يتجول بها في البرج ثلاثة أيام كاملة، مع تصرفه بشكل سافر، إلى أن ضيقت مارشا الخناق عليه، ولقد ترك ماركوس البرج بعد ذلك بفترة قصيرة.

وبينما كانت مارشا ترفع العباءة الزرقاء المتسخة، أدركت فجأة أن هناك جسدًا بداخلها، وإذا بها تشهق وهي تقول: «هيلدا جارد!». وعلى الفور، رفعت مارشا غطاء رأس الساحرة الثانوية الذي كان يغطي وجهها. كان وجه هيلدا جارد مكسوًا بلون رمادي، لكنها كانت لا تزال تتنفس. **تنفست** مارشا **نفس إحياء** سريع في وجه هيلدا جارد، فاستعادت وجنتا الساحرة الثانوية لونهما بعض الشيء، ثم تأوهت هيلدا جارد.

فسألتها مارشا: «هيلدا جارد.. *ما الذي حدث*؟».

صارعت هيلدا حتى تمكنت من الجلوس وقالت: «يا للهول! أنا... سب.. تيموس..»، «سبتيموس؟».

«لقد رحل. في **الرحلة الاستكشافية**».

قالت مارشا بنبرة حازمة: «أنت تهلوسين يا هيلدا جارد. إنه بكل تأكيد *لم* يرحل في **الرحلة الاستكشافية**. انتظري أنت هنا الآن، وسوف أذهب لأحضر لك أحدًا».

«لا!» وصارعت هيلدا جارد مرة ثانية كي تجلس، وعيناها مثبتتان تمامًا على مارشا، ثم قالت بإصرار تام: «لقد **سكنني شيء**. وأنا... وهو *أعطى* سبتيموس حجر **الرحلة الاستكشافية**، وسبتيموس قبلها وقال لي

شكرًا». وابتسمت هيلدا جارد بشحوب، ثم واصلت قائلة: «يا له من فتى مؤدب!». وبعد أن أرهقها المجهود الذي بذلته، تراخى جسمها وراحت في نوم عميق مصحوب بغطيط.

ساعدت مارشا بعض السحرة في حمل هيلدا جارد إلى ركن المرضى في برج السحرة - وهي غرفة متسعة جيدة التهوية في الطابق الأول بالبرج - ثم جعلت السلم يتحرك ببطء، ونزل بها وهو يلف برزانة وهدوء إلى البهو بينما كانت تفكر في كلام هيلدا جارد. ولولا فشل تعويذة **العثور** لاعتبرت مارشا هذا الكلام مجرد هلوسة اضطرابات مفاجئة نتيجة ارتفاع في درجة الحرارة، لكنها الآن بدأت تنتابها الهواجس. فماذا لو كان ذلك صحيحًا.. وأن سبتيموس بالفعل *رحل* في **الرحلة الاستكشافية!** إنه أمر لا تحتمل التفكير فيه. عبرت مارشا الفناء وهي مستغرقة في أفكارها، ووجدت خطواتها تقودها للسير على امتداد طريق السحرة.

وبذهن شارد، راحت ترد على تساؤلات المعنيين بما حدث لبرج السحرة والتي كان يطرحها عليها المارة الأكثر جراءة، بينما كانت خطواتها تقودها طوال ذلك الوقت إلى نهاية الطريق. وربما كانت قدما مارشا تعلمان إلى أين تقودانها، لكن مارشا نفسها لم تكن تعلم ذلك، إلى أن انعطفت إلى المنزلق الثعباني.

أخذت مارشا نفسًا عميقًا خارج البيت المرتفع ذي الواجهة الضيقة، وبأدب رنت الجرس ثم انتظرت، بتوتر، وهي تعيد وتزيد في الكلام الذي أعدته سلفًا لتُلقيه على صاحب البيت.

بعد عدة دقائق، وبعد رنتين أخريين، سمعت مارشا خطوات أقدام مترددة تتجه نحو الباب، ثم سمعت المزاليج تُسحب، ومفتاح الباب يُلف، ولم ينفتح الباب إلا بفتحة صغيرة لم تزد على عدة بوصات.

ثم قال صوت متردد: «نعم؟».

فسألته مارشا: «أهذا أنت يا سيد باي؟».

«نعم».

«أنا مارشا. مارشا أوفرستراند».

«هه؟».

«هل تسمح لي بالدخول؟».

«تريدين *الدخول*؟».

«إذا سمحت.. إن الأمر بشأن سبتيموس».

«إنه ليس هنا».

«أعلم ذلك يا سيد باي، وأنا أحتاج بشدة لأن أتحدث إليك».

فانفتح الباب بضع بوصات أخرى.. وبقلق، أطل منه مارسيلوس باي، ولقد كانت خادمته اليوم في عطلة، وقالت له قبل أن تنصرف إنه حان الوقت كي يتعلم أن يفتح الباب بنفسه عندما يرن الجرس. وكان مارسيلوس قد تجاهل أول رنتين لمارشا، وقرر في سره أن الجرس إذا رن للمرة الثالثة فسوف يفتح الباب. وبعد أن فتحه الآن على مصراعيه، وهو يتساءل في سره ما هذا الذي فعله في نفسه، قال: «أرجوك، تفضلي يا سيدة مارشا».

قالت مارشا وهي تدخل الصالة الضيقة المظلمة: «أشكرك يا سيد باي، وناديني بمارشا فحسب».

رد مارسيلوس بانحناءة مختصرة: «وأنتِ ناديني بمارسيلوس فحسب. أنا تحت أمرك».

نظرت مارشا حولها وهي تتوجس خيفة على نحو مفاجئ بأن يكون هناك من يتنصت عليهما؛ فهي تعلم أن البيت متصل بدار المخطوطات عبر الأنفاق الجليدية، وأن **الغلق المحكم** للفتحة على الأرجح قد **أبطل مفعوله**. ومن ثم، سيكون في وسع أي شخص أن يسمعهما.. ويشمل أي شخص هنا تيرتيوس فيوم؛ فهي تحتاج إذن إلى مكان آمن.

فقالت له: «ما رأيك لو حضرت إلى برج السحرة وتناولنا الشاي معًا، بعد نصف ساعة؟».

رد مارسيلوس مندهشًا: «*الشاي*؟».

«في جناحي، وسأعطي التعليمات للباب كي ينفتح لك لدى حضورك. إن حضورك يشرفني يا سيد باي.. أقصد يا مارسيلوس. بعد نصف ساعة».

«نعم نعم. وأنا أيضًا... وأنا أيضًا يشرفني ذلك. موعدنا بعد نصف ساعة إذن.. وداعًا».

«وداعًا يا مارسيلوس».

وما إن انحنى مارسيلوس باي يُحيي مارشا حتى كانت قد رحلت، فزفر بصوت مسموع، ثم أغلق الباب، واستند إليه ليتمالك نفسه. تُرى، ما الذي يحدث هنا؟ وأين وضع أفضل حذاء له؟

قالت مارشا، وهي تصب لمارسيلوس فنجان الشاي الخامس، وتراقب الكيميائي وهو يضيف له ثلاث ملاعق سكر كبيرة: «الموضوع أنني أخشى فعلًا أن يكون كلام هيلدا جارد صحيحًا. ولو كان كذلك...»، وتلاشى صوتها، ثم تنهدت، وواصلت قائلة: «إذا كان هذا الكلام صحيحًا فلا بد إذن أن أعرف بقدر المستطاع كل شيء عن **الرحلات الاستكشافية**. وأنت يا مارسيلوس الشخص الحي الوحيد الذي له تجربة سابقة مع هذه **الرحلات**.. صحيح أن هناك وفرة في الأشباح، لكن بصراحة لست على استعداد للتعامل مع أيٍّ منها في الوقت الراهن».

ابتسم مارسيلوس وقال وهو يتذكر كم كانت صحبة أشباح أصدقائه القدامى تزداد سوءًا كلما تقدم به العمر: «كما أن اهتمامات الأشباح ليست دائمًا هي اهتمامات الأحياء».

ردت مارشا قائلة وهي تتذكر الأهوال التي صاحبت **التجمع**: «هذا صحيح، صحيح للغاية»، ثم نظرت في عينيه كأنها تريد أن تتأكد ما إذا كانت تستطيع الوثوق به. وبثبات، رد مارسيلوس نظرتها، ثم واصلت مارشا قائلة: «حسب علمي، أنت عاصرت ثلاث **رحلات استكشافية** طوال حياتك حتى الآن»، ثم تذكرت أن حياته امتدت حتى اللحظة إلى خمسمائة عام أو أكثر، فأردفت قائلة: «أو... أو ربما أكثر من ذلك».

فرد مارسيلوس قائلًا: «أكثر من ذلك، لكن عدد هذه **الرحلات الاستكشافية** أثناء حياتي الطبيعية - وكما ذكرت - هو بالفعل كذلك.

ولقد فقد صديقي العزيز جوليوس بايك تلميذته ثم تلميذه بعد أن خرج كل منهما في **رحلة استكشافية**.

ردت مارشا وهي تشهق: «كلاهما!».

أومأ لها مارسيلوس برأسه، ثم قال: «وكانت صدمة رهيبة بالنسبة له عندما فقد تلميذته الأولى، وكانت تُدعى سيرا سيارا وأنا أتذكرها جيدًا؛ إذ كنت موجودًا أثناء عملية السحب، ففي تلك الأيام كان كيميائي القلعة يعمل عن قرب مع برج السحرة، وكان يتم دعوتنا في كل المناسبات المهمة».

وبصعوبة، كبحت مارشا التعبير عن استنكارها..

ثم واصل مارسيلوس قائلًا: «لا أزال أتذكر شهقة السحرة التي يملؤها الفزع بعد أن سحبت التلميذة **الحجر**، ولقد رفض جوليوس أن يتركها تخرج إلى **الرحلة**.. فسيرا كانت يتيمة، وكان يعتبرها ابنته، ولقد نشب شجار كبير بينه وبين تيرتيوس فيوم، ثم لكمت سيرا أنف تيرتيوس – وقد نسيت أنه شبح– وقوبل ذلك بهتاف وتهليل من الجمهور. فاستشاط فيوم غضبًا ووضع برج السحرة تحت **الحصار** لأربع وعشرين ساعة.. ومع انتهاء هذه الفترة، كانت سيرا قد رحلت. وعلى ما يبدو، اضطر لأن يجرها إلى **مركب الرحلة الاستكشافية** سبعة من الحراس.. ولقد وجهت إليهم هم أيضًا عددًا من اللكمات، كما قيل لنا». وهز مارسيلوس باي رأسه، ثم واصل قائلًا: «كان الموقف بشعًا».

«وظل جوليوس لبضع سنوات بعد ذلك يرفض تعيين تلميذ آخر، وعندما حان الوقت لأن يقوم تلميذه الثاني بعملية السحب، كان الرجل

قد طعن في السن، ولم يصدق أحد نفسه عندما سحب هذا التلميذ أيضًا **حجر الرحلة الاستكشافية**. ولقد أجهز ذلك على جوليوس وحطمه تمامًا، ثم مات بعد عدة شهور. وبالطبع هذا التلميذ أيضًا – وكان شابًا لطيفًا وهادئًا – لم يعد قطُّ بعد ذلك. وقد كان رأيي أن فيوم فعل ذلك نكايةً في جوليوس؛ حتى يُثبت له من الذي يتولى بالفعل زمام الأمور».

فسألته مارشا: «هل تقصد أن تيرتيوس فيوم يتحكم في مسألة من يأخذ **الحجر**؟».

ارتشف مارسيلوس آخر رشفة من الشاي وقال: «أعتقد ذلك.. فبشكل أو بآخر، أصبح هو المتحكم في **الرحلة الاستكشافية**، ولقد حاول جوليوس بعد رحيل سيرا أن يكتشف كل ما في وسعه أن يكتشفه عن **الرحلات الاستكشافية**، لكن كل النصوص والبروتوكولات القديمة كانت قد اختفت، ويُشاع أن فيوم كان قد دمرها لأن المذكور فيها كان مختلفًا تمامًا عن حقيقة ما يحدث. حتى إني سمعت أن **الرحلات الاستكشافية** أُسست أصلًا لكي تكون تكريمًا؛ مكافأة للتلاميذ الموهوبين»، ثم تنهد مارسيلوس وقال: «لكن وا أسفاه، فليس هذا هو ما يحدث على أرض الواقع بل إن ما يحدث هو العكس تمامًا، وكل من رحلوا لم يعودوا قطُّ».

كانت مارشا صامتة؛ فليس هذا هو ما تريد أن تسمعه، ثم قالت: «لكن سبتيموس في واقع الأمر لم يسحب **الحجر**، ألا يؤكد ذلك أنه ليس في **الرحلة الاستكشافية** الآن؟».

هز مارسيلوس رأسه، وقال: «إن عملية **السحب** ليست إلا إجراءً شكليًّا. إنها في رأيي وسيلة لوضع إطار رسمي لما هو غير مقبول، واللحظة الفاصلة في الأمر هي لحظة قبول التلميذ **الحجر**. وبسحبه يكون التلميذ قد قبله. وبأخذ سبتيموس **الحجر** من ساحرة **مسكونة** والرد عليها بكلمة «شكرًا»، أخشى أن يكون هو أيضًا قد قبله. ومعنى ذلك أنه الآن في **الرحلة الاستكشافية**، وهذا هو السبب في أنك لا تستطيعين **العثور** عليه. وكما يقول القول المأثور: «ما إن تقبل **الحجر** حتى تُسلَب منك إرادتك».

نهضت مارشا بتوتر وأخذت تسير في الغرفة ذهابًا وإيابًا، فهب مارسيلوس واقفًا على قدميه؛ ففي زمنه كان الجلوس أثناء وقوف الساحر الأعظم يُعد تصرفًا يخلو من اللياقة. ثم قالت مارشا وهي تخطو ذهابًا وإيابًا على سجادتها: «هذا بشع. إن سبتيموس ليس إلا في *الثانية* عشرة من عمره، فكيف سيستطيع أن يتصرف؟ وما يزيد الأمر سوءًا أن جينا على ما يبدو ذهبت معه».

قال مارسيلوس: «هذا لا يدهشني؛ إنها فتاة حازمة تعرف ما تريد، وتذكرني بأختي العزيزة وإن كانت أقل ميلًا للصراخ».

«*أختك*؟ صحيح، لقد نسيت أنك ابن ملكة».

«لكنها للأسف لم تكن ملكة صالحة، أعتقد أن الأميرة جينا سوف تكون أفضل بكثير عندما يحين الوقت المناسب».

قالت مارشا: «لكن هذا الوقت المناسب لن يحين أبدًا إذا لم تتمكن من إعادتهما، أليس كذلك؟».

وبشكل تلقائي، وضع مارسيلوس يده على ذراع مارشا، فبدا عليها الاندهاش، ثم قال بنبرة يملؤها الجد: «لا بد أن تدركي يا مارشا أنه *ما من أحد* يستطيع إعادة تلميذ من **الرحلة الاستكشافية**».

ردت مارشا قائلة: «هراء!».

38
اقتفاء الأثر



كان ميرين ميريديث مستغرقًا في قضم رأس ثعبان من ثعابين العرقسوس عندما دخل سايمون مندفعًا من الباب.

وهمس سايمون قائلًا: «*أيها الدودة الغبية الحقيرة*». فانتفض ميرين وهبَّ واقفًا على قدميه من فرط فزعه.

«أعطني سلوث قبل أن أسحق *رأسك* أيها *اللص*».

فتسمَّر ميرين في مكانه، وقال وهو يتلعثم: «لكككككن...».

«أعطني سلوث *فورًا*». وباستماتة، أخذ ميرين يعبث في جيوب ردائه الجديد الخاص بدار المخطوطات، كان الرداء متعدد الجيوب.. تُرى، في أي جيب منها وضع سلوث؟ أخذ سايمون هيب يُحدق إلى ميرين بعينين تتلألآن بوميض أخضر وهو يضيقهما وينظر إليه شزرًا، وقال ببطء: «أعطني... سلوث... فورًا».

ومع شعوره بالارتياح قبضت أصابع ميرين المرتجفة أخيرًا على الكرة المتعقبة فأخرجها من جيبه، ثم دفعها نحو سايمون، وعلى الفور كانت قدماه قد انطلقتا كالصاروخ إلى أعماق دار المخطوطات. اندفع سايمون بسرعة ليلتقط الكرة، لكن رمية ميرين، والتي كان يملؤها الرعب، كانت سريعة وطويلة المدى، فدفعت الكرة مارَّةً بسايمون في اللحظة التي انفتح فيها باب دار المخطوطات تصاحبه رنة حادة، والتقطت الكرة بمهارة يد الزائر السادس والعشرين لهذا اليوم؛ مارشا أوفرستراند.

قال مارسيلوس الزائر السابع والعشرون: «صدة ماهرة».

وقف سايمون هيب يشهق. وبفم فاغر، أطلق صوتًا أشبه بثغاء الماعز، والذي كان للدهش لا يختلف عن الصوت الذي أطلقه ميرين منذ لحظات.

قالت مارشا: «يا هلا يا هلا، مرحبًا بك يا سيد هيب. ما رأيك لو ذكرتني يا سيد هيب متى كانت آخر مرة التقينا فيها. ألم يكن ذلك على ما أظن في جناحي، في أعقاب مشكلة تافهة تتعلق على وجه الخصوص **بعملية زرع**؟».

احمر وجه سايمون، وقال: «أنا... أنا... هذا صحيح. لقد كان ذلك تصرفًا سيئًا. وأنا... أنا آسف جدًّا».

«هذا الاعتذار ينهي الأمر إذن».

قال سايمون وقد بدا مُشرق الوجه: «حقًّا؟».. ومع شعوره باحتمال قبول عودته إلى القلعة، انزاح فجأة عن كاهله العبء الثقيل الذي كان يحمله منذ ليلة عشاء التلميذ الذي أقيم احتفالًا بسبتيموس، عندما وصل به الحمق إلى أن راح يجدف بزورق في مستنقعات مرام بحثًا عن عظام دومدانيال.

لكن مارشا ردت عليه وهي توبخه قائلة: «*بالطبع* هو لا ينهي أي شيء. كيف تجرؤ أصلًا على العودة بعد كل المتاعب التي تسببت فيها. كيف تجرؤ على ذلك؟ يا لك من وقح!».

وقف سايمون يُحدق إلى مارشا التي كانت تُحكم قبضتها على سلوث، وبدت له الأمور لا تسير كما خطط لها، ثم قالت له مارشا وعيناها ينطلق منهما شرر غاضب: «أمامك خمس دقائق من الآن حتى تترك القلعة قبل أن أخطر السجن. *خمس دقائق*».

بدا سايمون وكأنه تسمر في مكانه، ثم قال: «همم».

«ماذا تريد؟».

«همم.. هل تسمحين لي بأن أستعيد كرتي إذا سمحت؟».

«لا. والآن *اغرب عن وجهي*!».

تردد سايمون للحظة، وبعد أن فكر في مدى إحباط لوسي لو انتهى به الأمر في السجن - ناهيك عن إحباط والدته - فر هاربًا.

تقدمت مارشا بخطوات واسعة ومارسيلوس في عقبها، نحو المكتب الداخلي. واصل جميع الكتبة عملهم بمثابرة، لكن بارتريدج رفع بصره ونظر إليهما، سعيدًا بلحظات يرتاح فيها من الحسابات التي كان يراجعها للمرة الرابعة بمشقة، ثم سأل مارشا وهو يقوم من على مقعده قافزًا: «أي خدمة يا سيدة مارشا؟».

ردت مارشا قائلة: «أشكرك يا سيد بارتريدج، يمكنك أن تصحبني إلى الأقبية».

تبادل الكتبة الآخرون النظرات بحواجب مرفوعة؛ فهذه هي الزيارة الثانية التي تقوم بها الساحرة العظمى للأقبية في أسبوع واحد.. تُرى، ما الذي يحدث هنا؟

ثم سُمع صوت واضح لخشخشة حرير أعاد انتباه الكتبة إلى أعمالهم مرة أخرى، وخرجت چيلي دچين مندفعة من الممر الذي يؤدي إلى الغرفة الهرمسية، ثم قالت لمارشا بنبرة آمرة حاسمة: «ماذا تريدين؟».

نظرت مارشا إلى چيلي بغضب، وهي تقول في سرها إن حس هذه المرأة بالذوق الاجتماعي - والذي تفتقده أصلًا إلى حد كبير - في سبيله إلى التلاشي تمامًا وبسرعة، ثم كررت كلامها قائلة: «نريد أن يصطحبنا أحد الموظفين إلى الأقبية».

فردّت چيلي وهي تنظر بريبة إلى مارسيلوس باي: «هذا غير متاح في الوقت الحاضر، فجميع الكتبة منشغلون».

فقال بارتريدج: «أنا أستطيع أن أصطحبهما».

نظرت چيلي إليه شزرًا وقالت له: «لا، لن تفعل ذلك. ستواصل عملك وتُنهي الحسابات المطلوبة منك».

زفر بارتريدج زفرة ثقيلة، ثم أمسك بقلمه.

وواصلت چيلي كلامها قائلة: «لكن إذا كلفت نفسك وطلبت من الموظف الجديد في مكتب الاستقبال أن يحدد لك موعدًا فعلى الأرجح سيكون في وسعي أن أستقبلك الأسبوع المقبل».

قالت مارشا: «*الموظف الجديد* في مكتب الاستقبال؟ لكن أين بيتل؟».

«لم يعد من موظفينا».

«ماذا؟! *وما السبب*؟».

ردت چيلي قائلة: «إن سلوكه لم يكن مُرضيًا. والآن، اسمحا لي بأن أصطحبكما إلى الخارج».

وهكذا، تم اصطحاب مارشا ومارسيلوس إلى الخارج في حالة من الاندهاش أعجزتهما عن الكلام وأخذا يغمغمان من فرط الغيظ. فإذا كانت رئيسة كتبة النصوص الهرمسية قد اختارت أن ترفض دخولهما إلى الأقبية، فليس هناك شيء في وسع مارشا أن تفعله. فچيلي دچين، بموجب حدودها هنا، لها نفس نفوذ الساحرة العظمى على برج السحرة، وچيلي تعلم ذلك.

أغلقت چيلي الباب بحزم وراءهما، والتفت إلى موظفها الجديد الحائز كامل دعمها وحمايتها، ثم قالت له: «إذا كانت تظن أني

سأسمح لشخص يرتدي عباءة *الكيميائيين* بالنزول إلى الأقبية فهي إذن واهمة».

أومأ لها ميرين برأسه بإيماءة تملؤها الحكمة، كأنه فهم تمامًا ماذا تقصد، وأنه لو كان مكانها فسيتصرف مثلها تمامًا، ثم رفع قدميه على المكتب وأمال رأسه للخلف وحاول أن يُسقط ثعبان العرقسوس بأكمله في فمه دفعة واحدة.

لقد تحمل مارسيلوس اليوم ما يكفيه ويزيد من الأحداث المثيرة، ومن مارشا.. وبعد أن أبدى لمارشا استعداده لأن يساعدها بقدر المستطاع في العثور على سبتيموس، حياها باحترام قبل أن يغادر، وتركته مارشا يرحل؛ فقد رأت أنه غير اجتماعي، وأن صحبة الناس ترهقه، ثم راقبت الكيميائي وهو يسير هائمًا في طريق السحرة عائدًا إلى بيته، وكان حذاؤه يثير انتباه المارة المستمتعين بمنظره. وقد يكون مارسيلوس بالفعل قد بذل أقصى ما في وسعه، لكن مارشا من جانبها ليست على استعداد لأن تستسلم وتكف عن **البحث** عن سبتيموس، لا يزال في جعبتها حيلة أخرى.. حرفيًا.

لم تكن مارشا من هواة ممارسة **السحر** علنًا؛ إذ إنها تجد في ذلك نوعًا من «المنظرة»، كما أن الطريقة التي يتوقف بها الناس حينها ويبدءون في التحديق لا تروقها، لكن أحيانًا تكون هناك ضرورة لذلك. ومن ثم، دُعي هؤلاء الذين تعافوا توًّا من صدمة منظر مارسيلوس باي وحذائه إلى مشاهدة ساحرتهم العظمى في مشهد مذهل وهي تقوم بعملية **بحث** في

منتصف طريق السحرة بالضبط، ووقف المارة فاغري الأفواه بينما بدأت مارشا التي كانت تقف ساكنة تمامًا وتنشد بهمس يغلفها سديم **سحري** رقيق أرجواني اللون، وببطء شديد بدأت تختفي. وفي تلك اللحظات، انطلقت طفلة شجاعة نحو مارشا تريد أن تلكزها حتى تتبين إذا كان ما تراه حقيقة أم خيالًا، لكن ما إن وصلت حتى كان كل ما تبقى من مارشا ظلًا أرجوانيًا متلألئًا؛ فانفجرت الطفلة في البكاء، وانطلقت والدتها سائرة بخطوات غاضبة إلى برج السحرة كي تقدم شكوى.

*

كان سايمون ينتظر مع لوسي وصول المعدية عندما ظهر بجانبه سديم أرجواني متلألئ، وفي التو صرخت لوسي. وعندما أدرك سايمون من تكون صاحبة هذا السديم، شعر هو أيضًا برغبة في الصراخ، ثم غمغم قائلًا: «أنا... أنا في طريقي للرحيل، فعلًا. لكن كان لا بد أولًا أن أودع أمي وأبحث عن لوسي، ثم فاتتنا المعدية التي كانت قد غادرت لتوها و...».

وقالت لوسي متوسلة: «أرجوك لا تضعيه في الحبس، *أرجوك*. سوف أفعل *أي* شيء، سوف آخذه بعيدًا عن هنا وسوف أحرص على ألا يعود *أبدًا*. يا للهول! أرجوك، أرجوك.. *يا للهول*!».

قالت مارشا على الفور، وقد استشعرت أن لوسي على وشك الصراخ: «لن أضعه في الحبس يا لوسي».

فهدأت لوسي.

«أو على الأقل لن أفعل ذلك إلا... كفى يا لوسي، اطمئني.. إلا إذا تعمد الامتناع عن الإدلاء بمعلومات. وأنا واثقة من أنه لن يفعل ذلك، *أليس كذلك* يا سايمون؟».

فأومأ لها سايمون برأسه.

وبطريقة الحواة، جعلت سلوث يخرج من كمها.

«ياه!» هكذا قال سايمون وهو يُحدق بحزن وأسى إلى كرته المتعقبة التي يحبها كثيرًا؛ إذ حدثه هاجس في نفسه بأن مارشا لن تعيدها إليه.

قالت مارشا: «حسب ظني، هذه كرة متعقبة».

«نعم. إنها بالفعل كذلك. واسمها سلوث. ولقد دربت سلوث بنفسي».

«فعلًا؟ عظيم. عظيم *جدًا*».

ابتسم سايمون؛ فهو أيضًا يرى في ذلك إنجازًا عظيمًا.

«أريد أن أعثر على سبتيموس، وأريد منك أن **تأمر** الكرة بذلك».

تراخى وجه سايمون.. أليس سبتيموس دائمًا محور كل شيء؟ أما هو فلا أحد يهتم به أبدًا.

تجاهلت مارشا التعبير المتجهم الذي غلف وجه سايمون، وواصلت قائلة: «سايمون، أعلم أن هذه الكرة المتعقبة كانت قد وضعت **بطاقة تعريف** على جينا، وجينا مع سبتيموس الآن، وأنا أريدك أن تأمر سلوث بأن يتعقب **البطاقة**».

قال سايمون بنبرة مكتئبة: «لا أستطيع».

فسألته مارشا ببرود: «لا تستطيع أم لا *تريد*؟».

ثم قالت لوسي: «ساي، لا تكن أخرق. أرجوك افعل ما تطلبه منك. ما الذي يجعلك ترفض؟».

«لا أستطيع يا لوس.. أو بالأحرى سلوث لا يستطيع»، ثم التف نحو مارشا وقال لها: «أنا آسف يا سيدة مارشا، لكن سلوث لم يعد **يعلم** چينا **ببطاقة**؛ ولذلك لا يستطيع أن يتعقبها».

قالت مارشا بحدة: «أنا أحذرك يا سايمون إن كنت تكذب عليّ».

قالت لوسي وهي تنوح: «ساي.. مون!».

«اصمتي يا لوسي. مارشا، أنا... أنا لا أكذب عليك، صدقيني. صحيح أن سلوث كان فيما مضى **يعلم** چينا **ببطاقة**، لكن هذه الأمور كانت في الماضي وانتهت.. ولا أثر لها الآن. لقد أعدت برمجة سلوث لأني... في حقيقة الأمر، لقد وقع شيء بشع منذ عدة شهور؛ إذ كان هناك شيء **شيطاني** يلاحقني، وأنا لا أريد بعد الآن أن تكون لي أي علاقة **بالسحر الأسود**.. إنه يستهلكك ثم يستغنى عنك بعد ذلك. إنه بشع. وسلوث كان يحمل الكثير من **السحر الأسود**؛ ولذلك قمت **بعملية إزالة** كاملة. وكنت قد تركت سلوث **يُشحن** من جديد عندما أخذه ذلك الفتى التافه. أنا آسف. ما كنت سأتأخر عن مساعدتك لو كان ذلك في وسعي. فعلًا ما كنت سأتأخر عن مساعدتك»، وكان سايمون يكاد يتوسل لمارشا كي تصدقه.

تنهدت مارشا؛ فهي ترى أن سايمون لا يكذب. وهذا هو حظها، كما قالت في سرها، فيَوم أن احتاجت إلى مساعدة ممارس **للسحر الأسود**، قرر هذا الممارس أن يُصلح حاله ويعتزل هذا النوع من **السحر**.

تركت مارشا سايمون ولوسي يرحلان، وكان من المستحيل عليها أثناء مراقبتها المعدية وهي تعبر بهما إلى الضفة الأخرى من النهر، ألا تتساءل في سرها ما الذي تخبئه الأقدار لهذين الشابين.. والأهم من ذلك، ما الذي تخبئه لسبتيموس؟!

* * *

في صباح اليوم التالي، في كوخ صغير على بعد آلاف الأميال، استيقظت چينا لتجد أولر في هيئته النهارية يجلس فوق سطح الموقد. كان الكوخ قد ملأه ضوء رمادي كئيب وبدا الجو باردًا فسحبت چينا البطانية الخشنة حول جسمها وهمست بلغة سنوري قائلة: «أولر، تعال هنا يا أولر» فبدأ ذيل أولر يتذبذب، ثم نظر إلى چينا وهو يفكر ما إذا كان يغامر ويترك مكانه الدافئ ويذهب إليها، ثم قرر ألا يعير لكلامها اهتمامًا. وكان رد چينا – وهي التي لا تحب أن تُعصَى أوامرها حتى لو كان من فعل ذلك قطًّا – أن نزلت من على سريرها وأمسكت بأولر، ثم عادت به إلى السرير.

همهم سبتيموس من على سريره السفلي قائلًا: «نعم نعم.. لقد استيقظت يا مارشا، فعلًا».

ضحكت چينا وقالت له: «اطمئن يا سب، أنا لست مارشا».

فتح سبتيموس عينيه ليجد نفسه يُحدق إلى سقف سرير چينا الذي لا يعلوه إلا ببضع بوصات. وما إن تذكر أين هو حتى هب جالسًا في عجالة دون أن يفكر فاصطدم رأسه بالسقف وصاح متألمًا.

قالت له چينا: «لقد انطفأت النار. هل يمكنك أن تشعلها يا سب؟ إن الجو بارد جدًا».

تذمر سبتيموس وصارع كي يخرج من دفء شرنقته، ثم قال لها: «وإن كنتِ في واقع الأمر يا چين لست مارشا، إلا أنك تتركين فيمن حولك انطباعًا لا يختلف عنها كثيرًا»، ثم زود الموقد ببعض الكتل الخشبية، ولأن النعاس كان لا يزال يملأ عينيه حتى يستخدم الكبريت، غش واستخدم تعويذة **إشعال النار**. وعلى الفور، قفزت من الكتل الخشبية شعلات نارية.. وبعد دقائق معدودة، كان الكوخ قد عاد يشع دفئًا مرة أخرى.

تناول ثلاثتهم في إفطارهم آخر ما تبقى من السمك المجفف، ثم ناولت چينا لكل منهما فنجانًا من الصفيح يحتوي على شراب السحرة، والذي قامت بغليه.. ثم أضافت لكل فنجان قطعة من الطوفي طافت بلزوجة على سطح السائل الأخضر السحابي. نظر سبتيموس في حيرة إلى محتوى الفنجان وقال: «ما أغرب هذا يا چين! فحتى العمة زيلدا يمكنها أن تتعلم منك بعض الأمور».

ردت چينا قائلة: «حسنًا، إن كنت لا تريده فسآخذه أنا».

قال سبتيموس وهو يتجرع الشراب على جرعة واحدة ويمضغ الطوفي بامتنان بعد أن أزال مرارة الشراب: «لا لا. فأنا بالفعل أحب ما تصنعه العمة زيلدا».

وبينما كان أولر يُجهِز على عظام ورءوس السمك، قاموا بحزم حقائب الظهر، ثم نظروا إلى الخريطة.

قال سبتيموس وهو يشير إلى كوخ مرسوم بجانب خط متعرج عنونته سنوري لحسن الحظ بكلمة مجرى مائي: «نحن هنا».

قال بيتل وهو يُجري أصبعه حول حدود الثقب الذي يتوسط الخريطة: «أي أننا نقترب من أطراف الثقب».

أومأ له سبتيموس برأسه وقال: «آمل أننا سنستطيع لدى خروجنا إلى ضوء النهار أن نرى شيئًا. ربما حتى إننا قد نرى بيت حيوانات الفوريكس نفسه – أيًا كان شكله».

* * *

كان من الصعب عليهم ترك دفء وأمان الكوخ لفتح الباب والخروج إلى عالم لا يألفون فيه شيئًا. بل إن الأمر كان بالفعل أصعب بكثير مما كانوا يتوقعونه؛ حيث رفض الباب رفضًا باتًا أن ينفتح. فاستند سبتيموس وبيتل بكل ثقلهما إلى الباب ودفعاه، ومع ذلك لم يتحرك.

قال بيتل: «إنها الثلوج، انظرا إلى الأكوام المتراكمة على النوافذ. لقد حبستنا الثلوج»، ثم وجه دفعة أخرى قوية للباب وقال: «أف! لا فائدة. لقد بتنا محاصرين هنا».

قالت چينا: «دعاني أجرب».

رد سبتيموس قائلًا: «حسنًا، تعالي وساعدينا، رغم أني لا أعتقد أن هذا سيُحدث فارقًا».

«سأجرب ذلك وحدي، شكرًا يا سب».

قال سبتيموس وبيتل في نفس واحد: «وحدكِ؟».

«نعم، وحدي، حسنًا؟».

«حسنًا»، وهز سبتيموس وبيتل أكتافهما، ثم أفسحا لها الطريق، وهما يداعبانها بسخرية واضحة.

أمسكت جينا بالمقبض وجذبت الباب فانفتح واندفعت معه كومة من الثلوج، ثم ابتسمت ابتسامة عريضة وقالت لهما: «إن الباب يُفتح للداخل».

* * *

كان بيتل محقًا فيما قاله في أمر واحد فقط؛ وهو أن الثلوج، من كثافة تساقطها ليلة أمس، باتت تغطي الكوخ بشكل شبه كامل، واستقرت الآن إلى حيث دفعتها الريح، في صورة أكوام عالية تستند إلى واجهات الكوخ، ولقد سدت كومة هائلة من بين هذه الأكوام الطريق عليهم ومنعتهم من الخروج. ذهب بيتل ليحضر الجاروف من الغرفة الصغيرة الملحقة ذات الرائحة الكريهة، وبدأ بمنتهى الهمة والنشاط يحفر في الثلوج وكأنه يحاول تحسين صورته بعد الموقف المحرج السابق. وبعد بضع ضربات بالجاروف ألقت قدرًا من الثلوج على جانب، توقف بيتل فجأة.

فسأله سبتيموس: «أتحتاج لأن تلتقط أنفاسك؟».

«لا! أقصد لا، شكرًا. أنا لا أشعر بالإرهاق بعد، فقد بدأت توًا. لكنَّ هناك شيئًا أسفل الثلوج؛ شيئًا لينًا». وبحرص الآن، أخذ بيتل يزيح الثلوج.

وإذا بجينا تقول وهي تشهق فجأة: «انظرا! يا للهول! *انظرا*!».

كان بجانب الجزء الذي كان بيتل يحفر فيه قطعة قماش صوفية بيضاء مبللة ومندسة أسفل الثلوج ولا تكاد تُرى، غمغم بيتل قائلًا: «هناك شخص أسفل الثلوج»، ثم جثا على يديه وركبتيه، وبسرعة بدأ يزيح الثلوج مع جينا وسبتيموس.

ثم صاحت جينا في ذهول: «إيفانيا! يا للهول! إنه *إيفانيا*. إيفانيا، استيقظ!».

39

أسفل الثلوج



تطلب رفع *الهيئة المبللة المتجمدة* وإدخالها إلى الكوخ قوة ثلاثتهم مجتمعةً. وطُرح إيفانيا ممدد الجسم على الأرض، محتلاً الفراغ بين جانبي الأسرّة بأكمله؛ عبارة عن مساحة كبيرة من الملابس البيضاء المغمورة بالماء والملتصقة بجسم رجل جرذ. قوّس أولر جسمه لأعلى وهو يهسّ، ونفش شعر ذيله فبدا كأنه فرشة من فرش تنظيف الزجاجات، ثم انطلق كالصاروخ خارج الكوخ، إلا أن چينا لم تلحظ أيًا من ذلك، وقالت وهي جاثية على ركبتيها بجوار الرجل الجُرذ والدموع تملأ عينيها:

«يا للهول! ما أبشع ذلك! إن الخمش الذي سمعناه ليلة أمس كان من *إيفانيا*، ونحن تجاهلناه. إنه لم يستطع حتى أن يصيح ليخبرنا بأنه حضر .. وتجمد حتى الموت. ياه يا سب! نحن على الأرجح قتلناه».

رأى سبتيموس أن چينا قد تكون محقة في كلامها.. ولأن مارشا كانت قد علمته أن **يسمع دقات القلوب البشرية**، كان في وسعه الآن أن يسمع دقات قلب چينا وبيتل فقط - وكلاهما كان قلبه يدق بسرعة. لكنه، وكما قال في سره وهو يُلقي ببعض الكتل الخشبية في الموقد ويُعيد إشعال النار فيه من جديد، لا يدري ما إذا كانت هذه **العملية** تنجح في **سماع** دقات قلب رجل جُرذ أيضًا أم لا؛ فهو سؤال لم يخطر على باله حينها أن يسأله لمارشا.

نظرت چينا إلى إيفانيا بحزن وأسى؛ لقد فقد نظارته، وكانت عيناه مغمضتين، والتصقت رموشه الداكنة الطويلة ببعضها البعض بحبيبات من الجليد، ولقد علا القدر الضئيل الظاهر من جلده البشري لون أبيض مائل إلى الزرقة، بينما غطت الثلوج شعره البني الخفيف، وبات ملتصقًا بجمجمته التي بدت للدهش بشكل الجماجم البشرية. علمت چينا أنه يتعين عليها الآن أن تفك الوشاح الذي يغطي فمه الجرذاني وتنصت لصوت أنفاسه، أو أن تضع يدها على الأقل على صدره لتتبين ما إذا كان يتحرك صعودًا وهبوطًا أم لا، لكنها وجدت نفسها تنفر تمامًا من فكرة لمس الرجل الجُرذ، ثم رأت أن السبب في ذلك ربما يعود إلى اقترابها الشديد من جسمه الذي جعل فجأة غرابة شكله الجرذاني هي التي تهيمن عليها. فإيفانيا عندما كان سليمًا، كان الجزء البشري منه هو الذي

كان يتألق فيه، وكانت چينا بالكاد تلحظ الجزء الجرذاني منه – أما الآن فكان من الصعب رؤية الجزء البشري في هذا الجُرذ. رفعت چينا بصرها لأعلى ونظرت إلى بيتل الذي كان يقف لدى مدخل الباب محدقًا إلى إيفانيا، ثم قالت له شبه هامسة: «*أتعتقد* أنه لايزال حيًا؟».

أومأ لها بيتل برأسه بحركة بطيئة، ورد عليها وقد أخذ ينقل ساعته من يد إلى أخرى، وهي عادة عصبية تنتابه عندما يشعر بالقلق: «هو كذلك»؛ فقد خُيل إلى بيتل أنه رأى عيني الرجل الجُرذ ترمشان وتُفتحان للحظة، لكنه كتم ذلك في سره.

كانت النار في الموقد متأججة الآن، وراح البخار يتصاعد من العباءة الصوفية البيضاء، وبدأت رائحة الكوخ تملؤها عفونة مزعجة.

قال سبتيموس وهو ينظر للأسفل نحو إيفانيا: «لا بد أنه تتبعنا. لا بد أن هذا كان ما رأيته...».

قاطعته چينا لتسأله: «*أنت رأيته؟ لماذا لم تخبرنا؟*».

«في الحقيقة.. لم أكن واثقًا».

قالت چينا: «مسكين يا إيفانيا.. من المؤكد أن الثلوج كانت تموه عليه، مثل ثعالب الجليد في بلاد الليالي الطويلة».

«فعلًا. لكن كان هناك سبب آخر؛ فأنا لم أود أن أخبركما أني رأيته لأنه بدا أنه... أنه يحمل **سحرًا أسود**».

«إيفانيا يحمل **سحرًا أسود**!».

هز سبتيموس كتفيه وقال: «في الحقيقة، أنا...».

كان بيتل ينظر إلى إيفانيا بإمعان، ثم قاطع سبتيموس قائلًا: «سب».

كان هناك شيء ما في صوت بيتل أرسل رعبًا جمد الدم في عروق سبتيموس الذي همس قائلًا: «ماذا؟».

وبصمت، أشار له بيتل إلى بنصر يده اليسرى، ثم جعل سبابته والوسطى متعامدتين؛ وهي العلامة التي يستخدمها الكتبة للإشارة إلى **السحر الأسود** – والآن، فهم سبتيموس الأمر لكن چينا لم تفهم شيئًا. وبخوف، نظرت إلى سبتيموس الذي قال لها على الفور: «اخرجي من هنا يا چينا!».

فردَّت بصوت بدا، وسط هذا السكون، مدويًا بشكل رهيب قائلة: «لماذا؟».

لم يرد أيٌّ منهما عليها، وفي اللحظة التالية كان سبتيموس واقفًا إلى جوارها وهي جاثمة على ركبتيها، وبحركة مباغتة وجدت نفسها تُرفع وتقف على قدميها ثم تُسحب عبر مدخل الباب وتقف على كومة الثلوج في الخارج.

فاعترضت وهي تقول دون جدوى: «لكن...».

همس سبتيموس قائلًا: «صه! سوف توقظين ذلك الشيء».

«أوقظ *ماذا؟!*».

وبسرعة وبلا صوت أغلق بيتل باب الكوخ خلفهم، وراقبت چينا سبتيموس وهو يضع كلتا يديه على الباب، تمامًا كما فعل ليلة أمس، وغمغم بكلام ما بصوت خفيض، ثم أعطاهما إشارة النصر بإبهامه، وتقدم نحوهما وهو يتسلق أكوام الثلوج. وفي اللحظة التالية، وجدت چينا أن

سبتيموس وبيتل يسحبانها وأنهم ينطلقون جريًا بعيدًا عن الكوخ وكأن النار شبت فيه، وأولر يتبعهم وهو يقفز خلفهم.

انطلق ثلاثتهم متوجهين نحو الوادي يسلكون طريقهم قفزًا على الثلوج في مسارات متعرجة بين الأشجار، كأنهم ثلاثة أيائل تملّكها الذعر، ثم رأوا عن يمينهم جرفًا صخريًا يرتفع عاليًا بين هامات الأشجار، وعندما وصلوا إلى سفح الجرف توقفوا ليلتقطوا أنفاسهم، ونظروا خلفهم على امتداد الوادي يبحثون عن الكوخ الذي لولا أدخنة الأخشاب المتصاعدة بكسل والتي كانت تنجرف عاليًا بين الأشجار - لكادت رؤيته تكون مستحيلة.

قال بيتل: «نحن في أمان الآن. أنا لا أراه. وإن كان هناك احتمال أن يكون ذلك الشيء مختبئًا خلف الأشجار، إلا أني لا أظن ذلك».

فسألته چينا: «تقول ذلك الشيء؟ ماذا تقصد يا بيتل - هل تقصد أن الكوخ يتبعنا؟ هل جننت يا بيتل؟».

قال بيتل: «أقصد إيفانيا، لكنه ليس هو».

فسألته چينا: «ما *هذا* الذي ليس هو؟ لا أفهم».

رد بيتل عليها قائلًا: «إن إيفانيا ليس إيفانيا، إنه **شيء**».

«**شيء**؟!».

«تمامًا. إنه ذلك **الشيء** الذي جاء من دار المخطوطات؛ أقصد ذلك **الشيء** الذي جاء مع ذلك الفتى الذي تسبب في فصلي من العمل».

«لا. لا، أنا لا أصدق ذلك. إنه *إيفانيا* بالطبع».

التف سبتيموس ينظر خلفه بقلق، ثم قال: «هيا أسرعا، فلنجعل بيننا وبين الكوخ مسافة آمنة»..

وهكذا انطلقوا مرة أخرى متبعين الانحدار الثابت للوادي، مع احتفاظهم بالسير في الظلال التي تلقي بها واجهة الجرف الصخري. كانت چينا تشعر مع كل خطوة يخطونها مبتعدين عن الكوخ، وكأنها تخون إيفانيا. وفي نهاية الأمر، طفح بها الكيل وقالت متعمدة التحدث بنبرة الأميرات: «توقفا. أنا لن أتحرك أبعد من ذلك. ولا بد أن نعود الآن».

توقف سبتيموس وبيتل واعترض كلاهما قائلًا: «لكن يا چين».

ثم سحبت چينا عباءتها المصنوعة من جلد حيوانات الولڤرين وكأنها معطف ملكي فاخر، وجعلت ذقنها بارزًا للخارج بمظهر معاند - تمامًا كما كانت تفعل والدتها في الحالات النادرة التي كان يتجرأ فيها مستشاروها على معارضتها- ثم قالت: «إما أن تقولا لي بالتحديد ما الذي يحدث هنا، وإما سأعود إلى الكوخ مباشرة، وفورًا».

أخذ سبتيموس نفسًا عميقًا ورأى أنه سيضطر لأن يوصل إليها الأمر بطريقة غير مزعجة، ومن ثم قال لها: «چين، إن الخمش الذي سمعناه ليلة أمس على الباب توقف بعد أن استخدمت رقية **مضادة للسحر الأسود**، وهي حتمًا لا تؤثر إلا على الأشياء التي تحمل **سحرًا أسود**، وما كانت ستؤثر على إيفانيا الحقيقي».

«ربما أن الأمر كان مجرد مصادفة.. ربما أن الإرهاق أصابه، أو أن يديه تجمدتا من شدة البرد...»، ثم دقت بقدمها في الثلوج بتوتر؛ فكيف تأتّى لسبتيموس أن يُجزم بما حدث؟

قال سبتيموس بشكل قاطع: «لا يا جين.. بيتل، أخبر جين بما رأيت».

جلس بيتل على كتلة خشبية مكسوة بالثلوج، بساقين تؤلمانه بعد أن مارس في الأيام القليلة الماضية كمًا من التمارين لم يعتدهُ من قبل وقال: «لقد رأيت خاتمًا؛ خاتمًا **شيطانيًا**».

فسألته جينا: «ماذا تقصد؟».

«كان ذلك عندما ذهبت لأجلب لك دبوسك».

«وما *الذي* حدث حينها؟».

لقد قام الفتى بتقليص حجم ثعبان من ثعابين العرقسوس التي هو مغرم بها وأعطاها **للشيء** كجزء من **العقد**».

«**عقد**؟ بيتل، ما الذي تتحدث عنه؟».

كان من الصعب على بيتل أن يشرح لجينا ما حدث؛ فالطريقة التي كانت تنظر بها إليه شلّت تفكيره بشكل مباشر. لكن لا بد أن يحاول، ومن ثم أخذ نفسًا عميقًا وقال: «ذلك الكاتب الذي عينته چيلي دچين والذي كان في الأقبية ..هل تتذكرينه؟».

أومأت له جينا برأسها.

«يبدو أنه كان معه **شيء** له علاقة **بالسحر الأسود**؛ لأني عندما ذهبت لأجلب دبوسك سمعت الفتى وهو ينقل ملكيته لهذا **الشيء** إلى تيرتيوس فيوم، وكان الفتى مضطرًا لأن يُفرج عن **الشيء** شفويًا ولم يكن

يحمل معه أي شيء سوى ثعبان العرقسوس الذي قلص حجمه وأعطاه **للشيء**، وهذا هو ما رأيته في الأصبع الصغير ليد إيفانيا اليسرى».

«ياه! لكن كيف حدث ذلك؟».

«التفسير الوحيد الممكن لذلك هو أن **الشيء سكن** إيفانيا؛ لأن أيًا كانت الهيئة التي يتخذها **الشيء** فإن الخاتم الذي يحمل **سحرًا أسود** سيظل كما هو».

قالت جينا بعنادٍ: «لكني لم أر أي خاتم».

قال سبتيموس: «لأنك لم تنظري يا جين».

هزت جينا رأسها، غير مصدقة نفسها، وكان من المستحيل عليها أن تطرد من ذهنها فكرة أن إيفانيا مطروح على الأرض الآن ومتروك في الكوخ، ثم قالت: «أنا... أنا لا أصدق ذلك. مسكين يا إيفانيا! من المؤكد أنه تبعنا عبر هذه الغابة البشعة. وبمشيته العرجاء ما كان سيتمكن من اللحاق بنا أبدًا، كما أنه ما كان سيستطيع الصياح، أليس كذلك؟ وماذا فعلنا نحن في المقابل؟ تركناه في الخارج طوال الليل رغم أنه كان *يتوسل* إلينا كي يدخل، والآن تركناه داخل الكوخ إلى أن يلقى حتفه متجمدًا. فإن *كنتما* تريان أن كل هذا مقبول، ***فأنا*** لا أراه كذلك».

«لكن يا جين...» وتلاشى في الهواء اعتراض سبتيموس؛ فجينا كانت قد التفت لتنطلق جريًا عبر الوادي عائدةً إلى الكوخ، متتبعة آثار أقدامهم، ويتبعها المخلص أولر.

فصاح سبتيموس: «جين، *انتظري*!».

قال بيتل: «لا أنصحك بالصياح يا سب؛ فمن يدرينا من الذي يسمعنا. هلم يا سب، لابد أن نلحق بها قبل أن يسبقنا **الشيء** إليها».

لكن چينا التي تستطيع دائمًا الجري بسرعة فائقة، كانت قد سبقتهما بمسافة.

وصل بيتل، ولدهشه، إلى الكوخ قبل سبتيموس ونادى چينا وهو يلهث: «چينا.. چينا؟».

لكنه لم يتلق ردًا. وبقلب سريع الخفقان، تابع بيتل آثار خطوات چينا السريعة فوق الثلوج المنجرفة في الخارج، ووجدها بمفردها تقف عند البقعة المبللة التي كان جسد إيفانيا مطروحًا عليها.

قالت چينا: «لقد رحل».

رد بيتل قائلًا: «خيرًا فعل».

«لكن كيف؟ لقد كان *فاقد الوعي*».

هز بيتل رأسه وقال: «لقد رأيته وهو يفتح عينيه لوهلة فقط ونظر إليّ، ولا أظن أن المرء يستطيع أن يفعل ذلك وهو فاقد الوعي!».

«لكن، كيف استطاع أن يرحل بهذه السرعة؟ إن إيفانيا لا يمكنه أصلًا *السير* بسهولة».

قال بيتل: «**الأشياء لا يهمها من تسكنهم؛ فالشيء** يستطيع أن يحرك الشخص الذي **يسكنه**».

نظرت چينا في عيني بيتل وقالت: «أنت فعلًا تعتقد أن إيفانيا كان... ماذا كانت الكلمة؟ **مسكونًا**، أليس كذلك؟».

فأومأ لها بيتل برأسه بجدية.

«وهل حقًا رأيت الخاتم الثعباني في أصبعه؟».

«بكل تأكيد؛ في بنصر يده اليسرى الوردي، وهذا هو الأصبع الذي يلبسون فيه دائمًا مثل هذه الأشياء».

قالت چينا على مضض: «حسنًا، أنا أصدق ذلك الآن».

ابتسم بيتل ابتسامة عريضة وقد شعر الآن بالارتياح والسعادة؛ فچينا سمعت كلامه، وهو إحساس جميل.

ثم ظهر سبتيموس لاهثًا وقال: «لقد رأيته على قمة التل، إنه يبتعد عنا».

قال بيتل: «حسنًا فعل».

كانت چينا لديها ما تريد أن تقوله «بيتل، أنا آسفة لأني لم أصدق كلامك».

هز بيتل كتفيه ورد عليها قائلًا: «لا تشغلي بالك».

«أعلم أنه كان ينبغي عليَّ أن أصدق كلامك».

«وأنا لا أرى سببًا لذلك.. إنها مسائل غريبة. فما الذي كان سيجعلك تصدقينها؟».

«لأني أعلم من هو الفتى؛ ذلك الفتى الذي تطلق عليه دانيال الصياد».

«فعلًا؟».

«إنه تلميذ دومدانيال، هل تتذكره يا سب؟ أنا أعلم أنه تغير كثيرًا؛ فقد ازداد طولًا، وبشرته باتت سيئة، وشعره أصبح طويلًا ومنظره بشعًا، لكنه هو بلا شك، أليس كذلك؟».

وعلى الرغم من أن سبتيموس لا يتذكر الوجوه بسهولة فإنه أدرك بعد ما ذكرته چينا الآن أنها محقة، وقال: «إذن، هذا هو *السبب* الذي جعله يقول إنه أنا.. بما أنه ظل هكذا لمدة عشر سنوات. أو بالأحرى، هذا هو ما كان يعتقده. يا له من فتى مسكين!».

بدت الحيرة على وجه بيتل، فقال له سبتيموس: «سوف أخبرك بهذه التفاصيل فيما بعد. فلا بد أن ننطلق الآن»، ثم أمسك بالبوصلة، وكانت إبرتها لا تزال تشير بثبات.. لكن ليس إلى الاتجاه الذي تمنوه، ثم قال: «سحقًا؛ إنها تشير إلى الوجهة التي اتجه إليها **الشيء**».

قالت چينا: «لا بد أن نتبع الجهة التي تشير إليها البوصلة».

قال سبتيموس معترضًا: «لا يا چين، هذا بمنتهى البساطة خطير جدًا».

وبمظهر معاند، أبرزت چينا شفتها السفلية وقالت: «أنا لا يهمني يا سب، فإذا كان هذا هو الطريق إلى بيت حيوانات الفوريكس فهذا هو الطريق الذي سنمضي فيه».

لجأ سبتيموس إلى بيتل ليؤازره، وقال: «إنه ضرب من *الجنون* أن ننطلق في أعقاب ذلك **الشيء**، أنت تتفق معي يا بيتل، أليس كذلك؟».

قال بيتل مترددًا: «في الحقيقة...».

قال سبتيموس معترضًا: «*بيتل*».

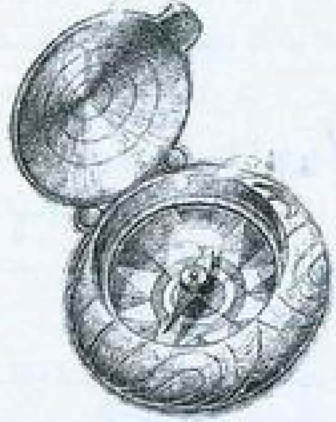
«إذا كان **الشيء** يسير في الاتجاه الذي نقصده فسنخسر أكثر لو لم نسِر نحو مقصدنا في أعقابه؛ فنحن بهذه الطريقة نستطيع أن نضعه نصب

أعيننا. فمن الأفضل كثيرًا أن يكون **شيء** كهذا نصب عينيك وليس وراء ظهرك، فلن تستطيع حينها أن ترى ماذا يدبر لك».

قالت چينا على الفور: «صحيح، هذا هو ما كنت أفكر فيه».

قال سبتيموس مع انطلاقهم متعقبين مسار **الشيء**: «هل تعلمين يا چين؟ أنت *بالفعل* تذكرينني أحيانًا بمارشا».

40
حافة الهاوية



وهكذا، *تابع ثلاثتهم*، مبتعدين عن الكوخ، المسارات الطويلة الصعبة التي قادتهم إلى جسر حجري صغير أشارت إليه سنوري على الخريطة، ثم صعدوا سطحًا مائلًا شديد الانحدار، ونزلوا بعد ذلك إلى وادٍ آخر وراءه. وبينما كانوا يسلكون طريقهم بين الأشجار المرتفعة عند بدايات الوادي العريض كان كل شيء حولهم غارقًا في الصمت والثلوج، ولم تكن هناك ولو نسمة واحدة تحرك الأغصان، ومرة أو مرتين لمحوا الشيء بعيدًا في الأسفل وهو يُسرع نازلًا السطح المائل

بمشيته الغريبة المتربصة، لكن بياض عباءته جعل من الصعب تحديد موقعه وسط الثلوج، وظل يبتعد أكثر فأكثر إلى أن توارى عن أنظارهم.

وبينما كانوا يواصلون متابعة هذه المسارات قادتهم إبرة البوصلة إلى مستنقع متجمد يقع في الجزء العريض المنبسط من الوادي، كان الطقس باردًا بشكل ملحوظ، وراح الجليد الممتزج بوحل المستنقع يطقطق أسفل أقدامهم، وأخذت الأشواك السوداء للنباتات القصبية التي تبرز من وسط الثلوج تشبك في عباءاتهم المصنوعة من جلود حيوانات الولفرين.. ومع مواصلتهم شق طريقهم نزولًا من على منحدر مائل، كشف المنظر أمامهم عن مجرى مائي عريض ومتجمد، كان الشيء يسير على امتداده بخطوات واسعة منزلقة. رفعت جينا أولر ووضعته أعلى حقيبة الظهر التي تحملها، فجثم القط عليها في وضع خطير، وأخذ يتفحص المشهد حوله باستنكار. وبخطوات زلقة، انطلقوا في السير على امتداد الجليد، بأجسام تميل للأمام حتى تتزن مع حقائب الظهر التي يحملونها. وسرعان ما كانوا يتزحلقون بعد قليل بإيقاع ثابت، ثم زادت سرعة تزحلقهم على امتداد سطح الجليد الأملس للمجرى المائي.

ازداد عرض المجرى المائي وقادهم إلى الجزء المنخفض من الوادي. وفجأة، رأى سبتيموس، الذي كان في المقدمة، كتلة هائلة من الضباب الأبيض السميك تنبثق أمامهم فكف عن تزحلقه دون سابق إنذار وتوقف فاصطدم به بيتل، ثم جينا وأولر الذي سقط على الجليد مطلقًا مواءً مدويًا.

«آي!» هكذا تأوه بيتل متألمًا وهو يتخلص من الثلوج التي علقت به، محاولًا الوقوف على قدميه، ثم قال: «كان ينبغي عليك أن تحذرنا من أنك ستتوقف».

رد سبتيموس قائلًا: «لقد فوجئت. انظر!» وأشار إلى الضباب.

أطلق بيتل صفارة من بين أسنانه وقال: «من أين جاء هذا؟».

قالت چينا: «لقد رأيته أنا أيضًا، لكني أعتقدت أنه ثلوج».

وكانت چينا محقة في ذلك؛ فالضباب كان أبيض بياض الثلوج، وكان يمتد من اليسار إلى اليمين إلى أبعد ما يصل إليه البصر، ويندمج دون حاجزٍ مع السماء الرمادية المائلة إلى البياض. وكانت چينا لا تحب الضباب؛ فهو يذكرها باللحظات التي جلست فيها معزولة داخل ضباب **سحري**، بجانب مستنقعات مرام، تنصت لصوت مسدس يستعد لأن يصوب طلقته نحوها من على مسافة لا تبعد عنها إلا ببضعة أقدام قليلة، ثم همست قائلة: «هل تعتقد أن **الشيء** موجود وسط هذا الضباب وينتظرنا هناك؟».

رد عليها بيتل قائلًا: «لا. انظري! لقد رأى **الشيء** الضباب قبلنا، فهذه هي آثار مساراته»؛ إذ تركت خطواته آثارًا بدت ثقيلة على أحد جانبيها لمسارين ذهابًا وإيابًا على سطح المجرى المائي المتجمد، ثم اختفت عند أعلى التل واتجهت نحو الأشجار بعد ذلك.

وبينما كانوا يتفحصون الآثار إذا بهم يسمعون بوادر زئير خفيض يهز سطح الأرض، ومن أعماق الضباب كان هناك شيء يسلك طريقه قدمًا.

سألتهما چينا بعينين مفتوحتين على آخرهما وبوجه كساه الشحوب: «هل سمعتما هذا؟».

فأومأ لها سبتيموس وبيتل برأسيهما.

وقال بيتل بينما كانت الأرض ترتج أسفل نعال أحذيتهم: «أننطلق جريًا؟ *فورًا*؟».

فسألته چينا وهي تنظر حولها: «إلى أين؟» إذ لم يبدُ لها أن هناك اتجاهًا آمنًا حولها.

رد سبتيموس قائلًا: «لا.. لا. إنه يبتعد. أنصتا، لقد مر وابتعد، أيًا كان ذلك».

غمغم بيتل قائلًا: «أيًا كان هذا ما كان سيروقني أن أجد نفسي في طريقه».

ومن مكان ليس ببعيد، عند قمة التل، توقف **الشيء** ونظر للأسفل إلى ثلاث هيئات تقف بتردد لدى حافة كتلة الضباب الكثيفة، وقطب جبينه، وهو يلوي فم إيفانيا الجرذاني ويُطلق منه زمجرة شريرة. لم يتبق الآن، كما قال في سره، سوى بضع خطوات غير محسوبة منهم وسوف تنتهي المهمة. لكن لا بأس، دعهم يأخذوا فرصتهم أولًا مع الفوريكس عند الطريق المحيط بالهاوية.. وإن فاتهم الفوريكس فسوف ينفذ هو بالحرف الواحد ما أمره به سيده الجديد، و**الشيء** يكنُّ احترامًا لهذا السيد. وببطء، وعلى نحو أخرق، التف مبتعدًا، ومع تزايد شعوره بالإرهاق من الجسد الثقيل الذي **سكنه**، سار عائدًا وهو يعرج فوق الثلوج.

* * *

وبالعودة إلى المجرى المائي المتجمد، كان سبتيموس ينظر إلى البوصلة وهو يهزها بتوتر، ثم قال: «سحقًا، سحقًا، *توقفي*» إلا أن الإبرة لم تولِ اهتمامًا لمن يتحدث إليها وواصلت دورانها على نحو أهوج. فقال: «چين، خير لنا الآن أن ننظر في الخريطة. أعتقد أننا وصلنا إلى حافة الثقب».

قال بيتل وهو يزدرد ريقه: «هذا من الناحية النظرية فقط. *انظرا!*»؛ إذ كان الضباب أمامهم ينجرف عاليًا في السماء على هيئة مجموعة من الدوامات لا تكف عن الحركة، وبدت في بعض المناطق كثيفة، وفي بعضها الآخر شبه شفافة.. ومن خلال إحدى هذه المناطق الشفافة، رأى بيتل المجرى المائي يتحول على بُعد لا يزيد على عدة أقدام منهم إلى شلال جليدي يسقط جاريًا من عند حافة هاوية.

«ياه!» هكذا قال سبتيموس في ذهول، ثم ترنح وأغمض عينيه.. وعلى الفور كان قد داهمه إحساس رهيب بالدوار جعل رأسه يلف ويدور.

زحفت چينا وبيتل للأمام ونظرا بحذر، كان الضباب يرتفع لأعلى وهو يلف ويدور في حركة دوامة لها حوالق طويلة التفت حول أقدامهما، وأرسلت في جسميهما بردًا ينخر في عظامهما. زحف بيتل للأمام مقتربًا أكثر من حافة الهاوية، وأخذ صخرة من الصخور المكومة بالقرب من الشلال وألقاها في الهاوية، وراحوا يعدون الثواني منتظرين ارتطام الصخرة بالقاع، ولكن مرت دقيقة كاملة من دون أن يسمعوا أي صوت،

وهبت رياح مفاجئة أمسكت بعباءة بيتل وطيرتها لترفرف بقوة فشهقت چينا وقالت وهي تمسك بقوة في كُم بيتل: «بيتل، أنت قريب جدًا، *ارجع للوراء*».. كان هذا هو ما ستفعله والدته بالتحديد في مثل هذه الحالة، لكن لو كانت والدته هي التي قالت له ذلك لكان رد فعله معها فظًا للغاية، ولاقترب أكثر من الحافة عن عمد.. لكن، ولأن الأمر مختلف مع چينا، رجع بيتل إلى الوراء.

أما سبتيموس فلم تكن لديه أية نية في تلك الأثناء للاقتراب من الحافة، ولقد وجد شجرة لطيفة ومتينة وعلى مسافة أمنة فاستند إليها، ورأسه لايزال يكتنفه الدوار.. إنه لم يشعر بدوار كهذا منذ زمن طويل.. طبعًا ليس منذ أن كان يحمل معه **الوصفة السحرية للطيران**. كم كان يتمنى الآن لو كانت معه، ثم قال في سره: هذه هي مارشا، يمكنك الاعتماد عليها تمامًا كي تحرمك من الشيء الوحيد الذي كان سيسهل من وطأة هذه **الرحلة الاستكشافية** برمتها. أخذ سبتيموس نفسًا عميقًا؛ فأمامه الآن على بُعد بضعة أقدام منه أعمق هاوية صادفها في حياته، ولم يكن في حاجة لأن ينظر من عند الحافة كي يُدرك ذلك؛ إنه إحساس يستطيع أن يشعر به وهو يسري في أنحاء جسده بدءًا من قدميه، لقد كان يعلم.

ثم تذكر عندما كان يُقال لهم في جيش الشباب: *عند حافة الهاوية، توقف وفكر ثانية*. وبدت له الأغنية التي كان يرددها كالببغاء دون أن يفهمها – منطقية الآن، بعد أن زاد عمره بضع سنوات بطريقة لم يُدركها حينها ومع استناده إلى الشجرة – على أقرب مسافة من الهاوية يرغب أن

يتقدم إليها – بدأ يفكر؛ فكر في **الرحلة الاستكشافية**، ورأى أنه ينبغي عليه بالفعل أن يخبر جينا وبيتل عن **الحجر** الذي أرسله إلى هذه **الرحلة**، وينبغي عليه أيضًا أن يخبرهما بأن يواصلا هما الاثنان مهمتهما في العثور على نكو، ويتركاه هو يقوم **بالرحلة الاستكشافية** – أيًا كان المكان الذي ستأخذه إليه، ثم فكر في أنه إذا فعل ذلك فسوف يترك جينا وبيتل يبحثان عن نكو بمفردهما، وعلم أنه لن يستطيع – حتمًا *لن* يستطيع.

ثم اقتحم صوت جينا أفكاره، وقالت وهي تبسط الخريطة على الثلوج أسفل الشجرة: «انظر يا سب»، ثم قالت لأولر وهي تدفعه برفق بعيدًا عن الخريطة: «لا يا أولر، اذهب واجلس في مكان آخر»، وكان أولر غير مكترث بما يحدث، فجلس على الثلوج وأخذ يلعق أرجله. جثت جينا على ركبتيها، وأجرت أصابعها حول حافة الثقب ذي القطعة المفقودة وقالت: «من الغريب أن حافة الثقب على الخريطة تقع عند حافة هاوية، وكأن الثقب نظريًا يمثل الثقب *الحقيقي* لو كنت تفهم قصدي. أعتقد أن بيت حيوانات الفوريكس موجود هناك»، وأشارت بأصبعها نحو الضباب، ثم قالت: «إن الامر يبدو منطقيًا الآن. فلا بد أن هذه الهاوية هي التي ذكرتها الخالة إيلس بالهوة الهائلة».

وفجأة قال بيتل: «انظرا! ها هو الجسر»، ثم أطلق صفارة اندهاش وقال: «وهو *ليس* كأي جسر».

وبعيدًا في الأفق جهة اليسار، كان في وسعهم بالكاد الآن رؤية حدود هيكل يرتفع عاليًا في السماء ويختفي وسط الضباب.. كان منظره جميلًا، تزينه زخارف رقيقة بخطوط دقيقة كأنه بيت عنكبوت معلق في

الفضاء، ثم انسدل الضباب على المنظر مرة أخرى وتوارى الجسر عن الأنظار.

قالت جينا بحماس: «لقد وصلنا! كل ما علينا فعله الآن هو أن نعبر الجسر. أليس ذلك رائعًا؟».

قال سبتيموس وقد خالجه إحساس مزعج بدأ من معدته ووصل إلى قدميه: «رائع. رائع جدًا!».

وانطلق ثلاثتهم نحو الجسر سيرًا على امتداد حافة الهاوية، مع احتفاظهم بمسافة آمنة – لإصرار سبتيموس على ذلك. وبعد فترة، أصبح من الواضح أنهم– ولأول مرة منذ وصولهم إلى هذا المكان الغريب – يتبعون في واقع الأمر مسارًا محددًا. بدت الثلوج تحمل آثارًا لأرجل حيوانات لا أقدام بشر، وتساءل سبتيموس في سره أي نوع من الحيوانات هي يا تُرى. لكن أيًا كانت، فكان روثها من النوع الذي يفضل ألا يطأ عليه بقدمه.

ومع تقدم ساعات النهار، ارتفعت الشمس فوق الضباب، وبدأت السماء تصفو مع انقشاع السحب الثلجية الثقيلة، لكن الضباب ظل على حاله، كأنه كائن مفكر هائل الحجم يتحرك إلى جوارهم. أحيانًا، كان سبتيموس يُخيل إليه أنه يسمع أصواتًا بعيدة في الأسفل، قادمة من مكان ما من أعماق الضباب. وتوقفت جينا مرة واحدة، بعد اقتناعها بأنها سمعت صوتًا بشريًا يصرخ مناديًا.

وكانت فكرة أنهم سرعان ما سيضطرون لأن يطئوا بأقدامهم على جسر ويسيروا على امتداده وسط كتلة الضباب المفكرة والمتحركة تشغل بال

ثلاثتهم، وعلى الأخص سبتيموس. فتراجع للوراء، تاركًا جينا وبيتل يتقدمان الطريق، ثم بدأ شيء آخر يشغل باله بينما كان يسير مجهدًا خلف هيئتين بعباءتين مصنوعتين من جلود الولڤرين وتحملان حقيبتي ظهر مخصوصتين للغابات، وقط برتقالي صغير بفروة منفوشة. فوضع يده في جيب ردائه وهو مُكره تمامًا، رغم عدم قدرته على المقاومة، وأخرج **حجر الرحلة الاستكشافية**، ثم أغمض عينيه، لا يكاد يجرؤ أن ينظر إليه، ثم في التوّ فتحهما مرة أخرى - متذكرًا مدى قربه من الهاوية. كان **الحجر** قد *اصفر* الآن؛ الأصفر سوف يدلك على الطريق عبر الثلوج، هكذا قال في سره مع شعوره بالإحباط.

التفت جينا فجأة للوراء وقالت له: «ماذا بك يا سب؟ هل أنت بخير؟».

وعلى الفور، دس سبتيموس يده في جيبه ورد عليها بنبرة متثاقلة: «نعم، أنا بخير».

كان المسار طوال رحلتهم بجانب الهاوية يلتف بشكل ثابت جهة اليمين ويقودهم للسير حول محيط دائرة شاسعة، إلا أن الضباب ظل طوال ذلك الوقت يغيم على الجسر. لكن مع اقترابهم من شجرة متينة مكسوة بالثلوج قائمة بالقرب من المسار، ظهر عمودان حديديان شاهقان يميلان ميلًا طفيفًا للوراء، وقد أخذا يتلألآن مع تكثف الندى على سطحيهما، وكانت قمتاهما مستدقتي الطرف وتختفيان وسط دوامات الضباب التي تنجرف لأعلى من الهاوية في الأسفل، وخالج سبتيموس إحساس مرعب؛ لعلمه بأنهم وصلوا.

قال بيتل وهو يزفر: «بحق السماء! انظرا إلى هذا المنظر».

وفضّل سبتيموس ألا ينظر.

كان الجسر نفسه عبارة عن هيكل غير ثابت، وكان مبنيًا بألواح خشبية متراصة على كابلين سميكين يمتدان لأعلى في مسار منحنٍ، ويختفيان وسط الضباب. تُرى، كما تساءل سبتيموس في سره، كم يمتد الجسر خلف هذا الضباب؟ أيمتد فقط لعدة ياردات أم لعدة أميال؟ وحدثه هاجس رهيب داخله بأن الاحتمال الثاني هو الأكثر ترجيحًا؛ إذ كان هناك شيء ما في دوران الجسر يجعله يبدو كأنه يمتد في محيط عريض. وكان الهيكل غريب المنظر؛ وتدلت أربعة كابلات من قمة العمودين، امتد اثنان منها خلفهم لمسافة بعيدة ودفنا في الثلوج، أما الآخران فاتبعا مسار انحناء الجسر واختفيا وسط الضباب. ونظر سبتيموس باحثًا عما يمكن أن يُعد منطقيًا «سورًا» للجسر أو ربما «درابزين»، لكنه لم ير سوى بعض الحبال. ولقد كانت هناك من قبل كوابيس تراود سبتيموس عن جسور بهذا الشكل.. لكن لم يبد أي منها مرعبًا إلى *هذا* الحد.

نظر سبتيموس إلى جينا وبيتل، وشعر بارتياح غريب أن يرى أن منظر الجسر لم يبعث في أنفسهما هما أيضًا ما يُمكن وصفه بالذهول. وكان على وشك أن يقترح عليهما أن يتناولا من أسماك سام؛ كحجة يؤجل بها اللحظة الرهيبة التي سيضطر فيها لأن يطأ بقدمه على ما لا يبدو أنه أكثر من قطعة نسيج نسجها مبتدئ بالتريكو - فإذا به يسمع حركة من جهة الشجرة خلفهم.

ثم قال صوت أجش من مكان عالٍ: «سوف يكلفكم ذلك الكثير».

فانتفض ثلاثتهم في الهواء مع سماع أول صوت يتحدث منذ أن ودعهم سام قائلاً: «وداعًا».

كرر الصوت كلامه: «قلت لكم إن هذا سوف يكلفكم الكثير».

نظر سبتيموس لأعلى وقال: «*أين أنت* ؟».

«أنا فوق الشجرة وسأنزل إليكم الآن».

41
مُحصّل رسوم عبور الجسر



ترجّل من على شجرة *البلوط* رجل نحيل ضئيل الحجم، يلفه الفرو من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، وقفز بخفة على الثلوج. استوعبت بسرعة عيناه الغائرتان اللتان تبدوان كأنهما خرزتان سوداوان هيئة چينا وبيتل، ثم ثبت بصره على سبتيموس بينما كان يتقدم نحوهم، وتذكرت چينا وهي ترى بشرة الرجل البنية الجعدة قرد عازف أورج متجول رأته ذات مرة في أحد المهرجانات.. ولم يرقها حينها منظر القرد، كما لم يرقها منظر الرجل الآن.

انتظر الرجل إلى أن انضم سبتيموس إليهم، ثم قال: «في حال أن كنتم تتساءلون في سركم من أنا، أقول لكم إني المسئول هنا عن تحصيل رسوم عبور الجسر، فلا أحد يعبر الجسر دون أن يدفع الثمن. البعض يدفع أكثر من البعض الآخر.. كلٌ على حسب».

«حسب ماذا؟» هكذا سألته چينا التي لم تعجبها الطريقة التي كان الرجل ينظر بها إليها.

«حسب مدى إعجابي بالعابرين، وحسب كم الذهب الذي يحملونه»، ثم ابتسم ابتسامة مزعجة؛ ولدهشهم، كشفت ابتسامته عن صفين من الأسنان الذهبية بأشكال وأحجام خلت من التناسق على نحو غريب، ثم واصل قائلًا: «لا تقلقي أيتها الآنسة، أنا أعلم أنكم أيها الشباب لاتزالون تحتفظون بأسنانكم الطبيعية، وأنا لست في حاجة إليها. فأنا رجل عادل. وأنا لا أطلب ما لا يملكه الآخرون»، ثم هز رأسه وكأنه مستمتع وقال: «لكن يُدهشني دائمًا ما يستطيع الآخرون أن يمنحوه عندما يضطرون لذلك»، ثم أجرى لسانًا طويلًا شاحبًا على أسنانه المتعرجة، وابتسم ابتسامة عريضة.

فسألته چينا: «إذن، كم سيكلفنا عبور الجسر؟».

فسألها الرجل: «إلى أي مدى أنتم متلهفون لأن تعبروه؟».

لم يرد عليه أحد؛ لأنه لا أحد منهم في واقع الأمر يريد قطعًا أن يعبر الجسر؛ فكل ما يريدونه هو أن يجدوا أنفسهم على الجانب الآخر فحسب.

فسألهم الرجل بنبرة يشوبها التوتر: «إذن، هل ستعبرون أم أنكم (ستتفرجون) فحسب؟ (والفرجة) لها رسوم أيضًا. فأنا لا أستطيع أن أترك الناس يتجمعون هنا طوال النهار لمجرد (*الفرجة*)..».

قالت چينا بحسم: «سوف نعبر. كم تريد في المقابل؟».

فنظر الرجل إليها يتفحصها من رأسها إلى أخمص قدميها وقال: «في الحقيقة يا آنسة، أرى أن الطوق الذهبي الذي تضعينه على رأسك لطيف. سوف آخذ ذلك».

وفي التوّ، كانت چينا قد رفعت يدها على الطوق الذهبي؛ ذلك الطوق الذي كانت والدتها الملكة تلبسه وهي فتاة، ثم قالت وهي تشهق: «لا أستطيع أن أعطيك *ذلك*!».

هز الرجل كتفيه وقال: «إذن، لن تعبروا».

وبقلب مثقل، مدت چينا يدها لتخلع الطوق الذهبي وهي تقول في سرها إنه في نهاية الأمر ليس سوى جماد، ونكو أهم من الذهب، أهم بكثير. لكن الرجل لم يلحظ ذلك؛ إذ كان ينظر الآن إلى بيتل وقال له: «وأنت أيها الفتى، سوف آخذ منك ساعتك».

بدا الذهول على بيتل وسأله: «ومن الذي قال إن معي ساعة؟».

لم يرد الرجل وقد أربكه سؤال بيتل لوهلة، ثم قال: «يمكنني أن أسمع دقاتها. إن أذني حساسة للدقات».

قطب بيتل جبينه ونظر إلى سبتيموس يسأله ماذا يفعل، فأومأ له سبتيموس برأسه ردًا عليه، ثم قال الرجل ملتفتًا إلى سبتيموس: «أما أنت أيها الفتى فلديك حزام فضي جميل مشغول ببعض الذهب.. سيكفيني

ذلك، كما أني سآخذ أيضًا الأغراض الصغيرة الموجودة بداخله»، ثم نظر الرجل إلى ثلاثتهم بابتسامته الصفراء الساطعة، وواصل قائلًا: «فكما ترون، أنا لا أظلم أحدًا، فأنا لا أطلب شيئًا لا تملكونه». ثم أخرج من جيبه حقيبة قطيفة عريضة تتدلى من حلقة خشبية تُفتح وتُغلق. وبحركة خبيرة وخاطفة بمعصمه، فتح الحلقة فتدلت الحقيبة كأنها جورب خالٍ. ومثل قرد عازف الأورج المتجول، دفع الرجل بالحقيبة في اتجاه سبتيموس وقال له: «ابدأ أنت أولًا أيها الفتى. ضع حزامك هنا».

وببطء شديد، فك سبتيموس مشبك حزام التلامذة الذي يرتديه، بينما أخذت عينا الرجل المتحمستان تراقبانه عن قرب، ولسانه يلعق أسنانه مرة أخرى بترقب، ثم قال: «أسرع أيها الفتى. لن تستطيعوا أن تكملوا عبوركم في ضوء النهار بهذه الوتيرة». استغرق سبتيموس وقتًا يعبث فيه بآخر جزء من مشبك الحزام، أحد أسباب ذلك أن يديه الباردتين كانت حركتهما خرقاء وبطيئة، لكن السبب الأساسي هو أنه كان يحتاج لبعض الوقت ليفكر فيه. فقد بدأت تدور في رأسه الآن مقولة أخرى من مقولات جيش الشباب وهي: *حتى تكسب المعركة، أحسن توقيت الهجوم*. أحسن توقيت الهجوم، هكذا قال في سره وهو يصر على أسنانه «أحسن توقيت *الهجوم*».

وبرنة، انفتح مشبك الحزام أخيرًا فانحنى الرجل للأمام بكيسه الذي يجمع فيه الرسوم. وفي هذه اللحظة تحديدًا، ولدهش چينا، اندفع سبتيموس نحو الرجل وطرحه أرضًا، فسقط في رقعة سميكة من الثلوج، وقبل أن يتمكن من دفع سبتيموس بعيدًا عنه، كان بيتل قد تكأكأ عليه

هو أيضًا، وأخذت چينا تراقب الموقف برعب بينما كان الثلاثي المتعارك، مثل كرة ثلج عملاقة، يتدحرجون نحو حافة الهاوية.

ولم تكن هيئة الرجل ضخمة، لكنه كان قويًا، وما كان سبتيموس بدون ثقل بيتل ورغبته في توجيه بعض اللكمات - سيتمكن من الصمود. واطمأنت چينا أخيرًا عندما توقفت كرة الثلج على مسافة قريبة من الحافة، وكان سبتيموس وبيتل فوق الرجل، فصاح بيتل قائلًا: «ادفعه يا سب.. *الآن*».

صاحت چينا وقد تملكها الذعر من فكرة قتل شخص بدفعه في هاوية وقالت: «لا! لا، مستحيل أن تفعلا ذلك، *مستحيل*!».

ويبدو أن چينا كانت محقة فيما قالته؛ إذ إن الرجل - وكأنه عزز موقفه بصياحها - ولأن الفتيين أيضًا فقدا التركيز للحظة - دبت فيه القوة. وبدفعة غاضبة، ألقى بيتل بعيدًا عنه وأرسله متدحرجًا على الجانب من الممشى المكسو بالجليد. تلا ذلك صوت طقطقة حادة مع ارتطام رأس بيتل بالجدار الجليدي، فانطرح ممدد الجسد على الأرض، وبدأ خط أحمر يسيل من وراء أذنه، تاركًا بقعة وردية على الجليد.

نظرت چينا إلى بيتل؛ لقد كان على الأقل سالمًا وبعيدًا بمسافة آمنة من الحافة، لكن سبتيموس لم يكن كذلك بل كان رأسه في واقع الأمر يتدلى في الهواء خارج حافة الهاوية، وكان الرجل على وشك أن يدفع بباقي جسم سبتيموس إلى الهاوية.

نظر سبتيموس إلى الهاوية، محاولًا ألا يتخيل بُعد العمق أسفل الضباب، وتمنى في تلك اللحظة، بينما كان يصارع الرجل الذي كان

يحاول دفعه بلا هوادة ويشعر بأنفاسه الحادة تضرب مؤخرة عنقه، لو كان معه **الوصفة السحرية للطيران**. إنه يراها بكل وضوح أمام عينيه الآن، ويكاد يشعر بها في يده؛ إنه يرى الجناحين الصغيرين الأبيضين **لوصفته السحرية** التي أعطتها له مارشا وأصبحت فيما بعد جزءًا من **الوصفة السحرية للطيران**، وهما يرفرفان.

وفجأة، كان سبتيموس بالفعل خارج الحافة.. وما إن بدأ يسقط - ببطء شديد على نحو رهيب كما بدا له - حتى تشبث بقوة بأحد القضبان الداعمة للجسر، وبات معلقًا وهو يتأرجح فوق الهاوية.

أما چينا التي لم يعد يعنيها الآن سواء سقط الرجل ولقي حتفه أو لم يسقط - فقد استعدت بقبضتها وباغتته بلكمة. صدر صوت مكتوم مع سقوط الرجل وتدحرجه للأمام على الثلوج، وسقطت إثر الاصطدام إحدى أسنانه الذهبية، فأخذ الرجل يتحسس في الثلوج بعينين غائمتين يبحث عن سنه.

أطلت چينا بوجهها خارج حافة الهاوية، وقد علاها الشحوب وملأها الخوف؛ خشية ما قد تراه، ثم قالت: «أمسك بيدي يا سب، بسرعة».

«لا يا چين، سأسحبك معي لو فعلت».

بدت چينا متنمرة، وصاحت قائلة: «*افعل* ما قلته لك فحسب يا سبتيموس!».

فامتثل لأمرها وأمسك بيدها.. ولدهشتهما، صعد سبتيموس بسهولة تامة حتى إنهما تدحرجا للخلف على الثلوج.

وفي تلك الأثناء، كان المُحصّل قد عثر على سِنّه، لكن بعد أن رفع قطعة الذهب الملطخة بالدم ارتسم الحنق على وجهه، وألقى بالسن بعيدًا باشمئزاز؛ فليس هذا ما جاء من أجله.. فما هذا الذي *يفعله*؟ لكن قبل أن يتمكن من الرد على تساؤله، كانت قد تكأكأت عليه قوتان عنيدتان وألقتا به بعيدًا خارج الحافة.

بدا الذهول على چينا مما أقدما عليه، وقالت: «*لقد سقط*».

كان سبتيموس غير واثق من أن الرجل سقط. وبحذر، انحنى خارج الحافة ليتأكد. وفجأة، انطلقت، كالصاروخ من وسط الضباب، يد ترتدي قفازًا، وأمسكت بعباءة سبتيموس. تراجع سبتيموس للخلف وهو يترنح وألقى باليد بعيدًا؛ إذ كان المُحصّل معلقًا من نفس القضيب الذي كان سبتيموس معلقًا فيه منذ لحظات. حدق المُحصّل إلى سبتيموس بعينين يملؤهما الغضب وقال: «ليس هناك مفر أيها التلميذ، فقد تم **التسويد**».

فسأله سبتيموس: «*من.. أو ما أنت؟*».

ضحك المُحصّل، ثم أخرج يده اليسرى من القفاز، والتي تجمدت من طول الإمساك بالقضيب المعدني، ومدها مرة أخرى نحو سبتيموس ليمسك به. فبادره سبتيموس وأمسك به من معصمه في منتصف الطريق، وكان المحصل يلبس في أصبعه الصغير ما كان سبتيموس يتوقعه تمامًا؛ ثعبان العرقسوس.

قال له سبتيموس: «سوف آخذ هذا». وعلى الفور، جذب الحلقة من أصبع المُحصّل، وعلى إثر ذلك بدأ الأخير يصيح بصوت مدوٍّ مرتلًا وصلة من الكلمات الغاضبة يعلم سبتيموس أنه **لسان شيطاني** ينطق

بسحر أسود، كان وقْع ذلك كريهًا. واخترقت **لعنات السحر الأسود** أذني سبتيموس، ووجدت طريقها إلى عقله، تحاول إثارة الاضطراب في ذهنه، لكنه تذكر الأنشودة المضادة **للسحر الأسود**، وأخذ يغمغمها مرة تلو أخرى بينما كان يصارع كي يفك غصبًا اليد الوحيدة الممسكة الآن بالقضيب المعدني.

لكن صيحات **السحر الأسود** ظلت تواصل تدفقها، وبدأ سبتيموس يشعر بفتور قوته؛ فصاح قائلًا: «أنقذيني يا چين!». وفي التوّ، كانت چينا إلى جواره، وأخذا يلويان معًا يد المحصل لإخراجها من القفاز، وفجأة خرجت اليد.. وفي الحال، كان كل ما تبقى من المحصل زوجًا من القفازات الصوفية بنية اللون التي ظلت ملتصقة بالقضيب، وصرخةً تتلاشى سريعًا وسط الضباب.

انهارت چينا على الأرض وأطرقت رأسها بين يديها، ثم قالت: «لا أصدق أننا فعلنا هذا»، ونظرت إلى سبتيموس وفي عينيها تعبير يملؤه الرعب، ثم واصلت قائلة: «سب، لقد *قتلنا* نفسًا».

رد سبتيموس ببساطة: «نعم».

قالت چينا: «لكن هذا بشع. لم أكن أتصور يومًا...».

نظر سبتيموس إليها، وبدت بعينيه الخضراوين نظرة جادة، ثم قال لها: «هذا ترف».

«ماذا تقصد؟».

حدق سبتيموس في الثلوج أسفل قدميه التي بات يعلوها الآن آثار خمش ودماء، واستغرق وقتًا حتى بدأ يرد ببطء قائلًا: «أقصد... أقصد لو

أمكنك أن تعيشي حياتك دون أن تواجهي موقفًا يتحتم فيه من أجل بقائك أنت على قيد الحياة موت شخص آخر، فأنت محظوظة. هذا هو ما أقصده».

«هذا كلام بشع يا سب».

هز سبتيموس كتفيه وقال: «هكذا هو حال الدنيا أحيانًا، لقد تعلمت هذا في جيش الشباب. فإما أن يسقط رئيس المجندين في حفرة الولفرين، وإما أن تسقطي أنتِ».

هزت چينا رأسها ببطء شديد؛ فلاتزال غير مصدقة ما فعلته.

فقال لها سبتيموس بهدوء: «چين.. انظري! هل هذا يريح ضميرك؟»، ورفع عاليًا حلقة سوداء صغيرة من العرقسوس.

«ياه!».

«لقد كان ذلك في بنصر يده اليسرى، لقد كان المحصل **هو الشيء** يا چين. فإما هو وإما نحن. وكان لا بد أن نختار أنفسنا.. وأنت تعلمين أن هذا هو ما كان يجب أن يكون».

قالت چينا: «لكنه أخذ معه المحصل أيضًا».

«نعم، أعلم ذلك».

وببطء، هب سبتيموس واقفًا على قدميه.. وبحذر شديد، اقترب من الهاوية، ثم وقف عند أقرب مسافة يجرؤ أن يصل إليها، وهمس بأنشودة مضادة **للسحر الأسود**، وهو يسحق خاتم العرقسوس بين أصابعه وينثره في الفراغ.

وهنا جاء صوت خفيض يتأوه من خلفهما؛ فانتفضت چينا وهبت واقفة على قدميها وهي تقول: «بيتل!».

وجاء رد متأوه يقول: «آآآآ.... أيييين أنتنننا؟».

احتاج بيتل قدرًا كبيرًا من الإقناع حتى يوافق على الصعود إلى بيت الشجرة الخاص بالمحصل، حتى بمساعدة الشقوق التي وجدوها محفورة في اللحاء.. كان سبتيموس يدفع وچينا تجذب.. وبشكل أو بآخر، تمكن ثلاثتهم من الصعود إلى مجموعة متداعية من الألواح الخشبية والجلود، مبنية على منصة مثبتة بين فرعين رئيسيين من فروع الشجرة. كان يغطي مدخل بيت الشجرة جلد حيوان ضخم يميل لونه إلى الأحمر، له مخالب هائلة ومقوسة فعقعت عندما رفعت چينا بحذر اللوح الذي يمثل باب بيت الشجرة، انبعث من داخل البيت رائحة عفنة مألوفة على نحو غريب. نظرت چينا داخل البيت، لكن الظلام كان حالكًا؛ وكل ما كان في وسعها أن تراه أن الأرض أيضًا كانت مفروشة بالفراء.

وبعد آخر دفعة وجذبة، تمكنت چينا وسبتيموس من دفع بيتل المصاب بدوار – وثقيل الوزن جدًا– داخل البيت ثم دخلا زحفًا خلفه..

وكان هناك شخص داخل البيت.

42

تجمعت من جديد



أضاء *البريق الأصفر لخاتم سبتيموس التنيني* بشكل مخيف وجهًا نصفه وجه جُرذ ونصفه الآخر وجه بشري، وكتمت چينا صرخة.

كان جسد إيفانيا جريب مستندًا إلى الركن البعيد من بيت الشجرة، في نفس المكان الذي تركه فيه **الشيء** ليستبدل هيئة المحصل الأكثر لياقة به.. تدلى رأس إيفانيا للأمام كأنه رأس دمية مكسور، وبدت عباءته البيضاء كأنها كومة من الملاءات المتسخة التي تنتظر أن تُغسل. وما إن رأته چينا حتى علمت أنه غير **مسكون**.. فالاختلاف بين إيفانيا الآن وآخر مرة رأته كان جليًا؛ *فهذا* هو إيفانيا الذي تعرفه.. ولم تشعر نحوه الآن بأي نفور، ولا خالجها إحساس بسيطرة الجزء الجرذاني منه عليه، ولا تملكتها مشاعر الشفقة واليأس التي ملأها بها إيفانيا عندما كان **مسكونًا**، كما كان

أصبع يده اليسرى، كما رأت الآن، خاليًا من أية خواتم. وعلى الفور، هرعت إليه ولمست يده، كان ملمسها باردًا.

فهمست لسبتيموس: «سب، هل تستطيع أن تسمع *أي شيء*؟».

علم سبتيموس قصد چينا. **وأنصت باحثًا عن دقات قلب بشري**، ثم قال: «لا أظن ذلك»، وبعد أن رأى التعبير الذي علا وجه چينا، أردف قائلًا على الفور: «لكن أعتقد أن سبب ذلك هو أن الجزء الجرذاني فيه يطغى عليه. فكل ما في وسعي أن **أسمعه** الآن هو دقات قلب بيتل، وهو بطيء وثابت، ودقات قلبك أنتِ، وهو عالٍ جدًّا».

قالت چينا بدهش: «ياه! معذرة. لكن ما بال **دقات قلبكَ** أنتَ؟».

رد سبتيموس قائلًا: «لا يستطيع المرء أبدًا سماع دقات قلبه»، ثم فكر للحظة وقال: «فلنفعل ذلك بالطريقة القديمة».

وجثا سبتيموس على ركبتيه بجوار إيفانيا، ثم أخرج علبة الطوارئ الطبية من جيبه. كانت العلبة مكدسة عن آخرها بأشياء لم تفهم چينا بأي حال من الأحوال ما الذي يمكن أن يجعل سبتيموس يريدها. اختار سبتيموس من بين هذه الأشياء مرآة مستديرة صغيرة، وأمسكها بالقرب من فم إيفانيا المفتوح فتحة صغيرة تبرز منها سنانِ طويلتان رفيعتان. فظهرت غشاوة خفيفة على الزجاج، ثم قال سبتيموس: «على الأقل أنه لا يزال يتنفس».

«ياه يا سبتيموس! أنا في غاية *السعادة*». وبرفق، ربتت چينا على أنف الرجل الجُرذ منبهرة من الطريقة التي تندمج بها ملامحه البشرية مع فروته الجرذانية التي تكسوه. وبينما كانت تربت على فروته انفتحت عيناه

واختلجتا للحظة قصيرة، فهمست چينا قائلة: «لقد رآني. لقد ابتسمت عيناه. إنه بخير، أنا *أعلم* ذلك».

قال سبتيموس الذي يعرف في الطب ما يجعله يعلم أنه ليس هناك شيء مؤكد: «سوف يتطلب الأمر وقتًا حتى نتأكد من ذلك. لكن هناك على الأقل فرصة».

كان بيت الشجرة، للدهش، مريحًا جدًّا، وإن كان غريبًا بعض الشيء، كان مبطنًا بالكامل بفرو أحمر خشن، ولا يدخله أي ضوء ما إن يُغلق الباب. في الركن المقابل للركن الذي يتمدد فيه إيفانيا برأس يتوسد وسادة صنعتها له چينا من بطاطين المحصل، كان هناك موقد صغير يستقر على صخرة من الإردواز. وبعد عدة محاولات لإشعال الموقد بكبريت بيتل، نجحت چينا في مسعاها وانبعث من الموقد الضخم المستدير شعلة كبيرة صفراء.. أخذ سبتيموس المقلاة البالية المعلقة على خطاف يعلو الموقد، ثم ترجل الشجرة نزولًا، واغترف قدرًا من الثلوج، ثم توقف لوهلة في اللحظة التي كان يستعد فيها للتسلق إلى أمان البيت، والمقلاة في يده تعلوها كومة من الثلوج، وأنصت. وهنالك، اخترق الجو عواء يجمد الدم في العروق - نفس الصوت الذي سمعوه ليلة أمس - وشعر سبتيموس أن الأرض ترتج من تحته.

وبذهول، نظر لأعلى؛ فإذا به يرى شكلًا طويلًا وداكنًا يتحرك على امتداد المسار الذي يحيط بالهاوية، وكان قادمًا نحوه وبسرعة. علم سبتيموس فجأة وبلا أدنى مجال للشك ما هذا الذي يراه، وما هذا الذي

مر بجوارهم اليوم مختبئًا وسط الضباب، ولم يتردد سبتيموس للحظة، وعلى الفور أسقط المقلاة من يده وانطلق كالصاروخ يصعد السلم الحبلي.. وما إن ارتمى داخل بيت الشجرة حتى بدأت الشجرة بأكملها تهتز.

صاحت چينا قائلة: «زلزال!».

هز سبتيموس رأسه وقال لها: «لا، إنه الفوريكس».

وبمزيج من الرعب والانبهار، نظرت چينا إلى الخارج عبر لوح الباب، فإذا بها ترى قطيعًا من الفوريكس يعدو فوق الثلوج بسرعة كبيرة جعلتها لا ترى منها سوى تيار أحمر طويل متدفق من الفراء والأنياب الطويلة مع عدو الفوريكس في الطريق أسفل بيت الشجرة، ثم قالت: «إذن، هذه الحيوانات حقيقية!».

رد سبتيموس قائلًا: «حقيقية أكثر من اللازم».

وبعد عدة دقائق، قالت چينا وهي تشير إلى جدران بيت الشجرة: «أنت تعلم الآن من أين جاء هذا الفراء، أليس كذلك؟».

قال سبتيموس وهو يقطب جبينه: «من حيوانات الفوريكس بالطبع».

فابتسمت چينا وقالت: «وهذا يعني، لو فكرت في الأمر، أننا بالفعل في أحد بيوت حيوانات الفوريكس».

رد سبتيموس بنبرة مكتئبة قائلًا: «ليت نكو كان هنا».

«أعلم ذلك، ليته فعلًا كان هنا».

* * *

جعلت چينا سبتيموس ينزل مرة أخرى ليُحضر كمية من الثلوج من الأسفل، وقالت له عندما اعترض: «سوف نسمعه إذا عاد. واحرص على أن تجلب الثلوج من رقعة نظيفة، فنحن لا نريد أن تتناول لُعاب الفوريكس في العشاء».

وحطم سبتيموس الرقم القياسي في سرعة جمع الثلوج.. وبينما كانت چينا تغلي قدرًا من يخنة الساحرات، جلس سبتيموس إلى جوار بيتل، وتفحص علبته الصفيح الطبية بلهفة. فأخيرًا، سنحت له الفرصة أن يجرب علوم الطب التي تعلمها ويطبقها على مريض حقيقي، وكان هذا المريض الذي وقع بين يديه بمحض المصادفة يرقد إلى جواره غافيًا بسلام على أرض بيت الشجرة شاحبًا، لكنه يتنفس بثبات. ولقد ملأ بيت الشجرة الضوء الأصفر الكثيف الصادر عن الموقد بوميض مريح، وبدأ الدفء ينشر الرائحة النفاذة لجلود حيوانات الفوريكس في الأجواء، ثم قرر سبتيموس أنه حان الوقت لإيقاظ بيتل حتى يتناول قدرًا من شراب الساحرات. وما كاد يُخرج قارورة صغيرة معنونة بملح سريع التبخر- وكان على وشك أن يحركها أسفل أنف مريضه- حتى فتح بيتل عينيه فجأة؛ إذ كان تأثير الدخان المنبعث من جلود حيوانات الفوريكس بنفس قوة تأثير أي نوع من أنواع الأملاح سريعة التبخر.

كان بيتل قد أصيب بجرح بالغ خلف أذنه اليمنى.. ومع تسلل الدفء إلى جسمه بدأ الجرح يلتهب بشكل مؤلم. واعترض بيتل متأوهًا بينما كان سبتيموس ينظف مكان الجرح من الدماء التي جفت عليه ببعض أنواع من الطحالب المغموسة في مُطهِّر.

نظرت چينا إليهما وهي تُسقط ثلاث قطع من الطوفي في الماء المغلي، ثم ضحكت وهي تقول: «لقد حولت لونه إلى الأرجواني يا سب».

قال بيتل: «أرجواني؟ ما الذي تفعله يا سب؟».

قال له سبتيموس شارحًا: «إنها نباتات كف الذئب البنفسجية. ستمنع تلوث الجرح. لكننا نحتاج لوصل أطراف الجرح ببعضها.. انتظر! إن معي شيئًا هنا»، وأخذ سبتيموس إبرة كبيرة من العلبة.

سأله بيتل بريبة: «ماذا ستفعل بها؟».

رد سبتيموس قائلًا: «تقصد هذه؟ عندما كنت أتعلم الطب أخذني مارسيلوس لمراقبة جراح أثناء قيامه بالعمليات الجراحية، وكان هناك شخص قد جاء مصابًا بجرح غائر، وقام الجراح بخياطة الأطراف ببعضها البعض».

قالت چينا بعينين مفتوحتين عن آخرهما: «قلت *ماذا* فعل؟».

وقال بيتل: «بالطبع أنت تمزح».

هز سبتيموس رأسه نافيًا.

قالت چينا: «يا للهول! إن ما تقوله منفر جدًّا يا سب. فليس من المعقول أن تخيط جروح الناس كأنهم أجولة دقيق».

«ولمَ لا؟ مادام ذلك يُجدي».

فقال له بيتل: «لكنك لن تفعل هذا بي. وأبعد هذه الإبرة عن هنا في الحال».

ابتسم سبتيموس سعيدًا بعودة بيتل إلى حالته الطبيعية، ثم قال له: «ما كنت سأخيط جرحك يا بيتل. إن جرحك ليس غائرًا بالدرجة التي تحتاج إلى خياطة، كما أن الجرح على أية حال موجود في مكان أخرق لا يصلح للغُرز. كنت أبحث في العلبة عن ضمادات فحسب. أخيرًا، ها هي».

وسمح بيتل لسبتيموس بأن يضع على جرحه قطعة نظيفة من الطحالب، ويربط ضمادة حول رأسه، ثم تناول بيتل، بلا اعتراض، كل شراب الساحرات الذي أعدته له چينا، وسرعان ما استغرق في النوم على الأرض التي تفترشها جلود الفوريكس.

قال سبتيموس: «كان مارسيلوس سيقول في ذلك إنه ينبغي علينا إيقاظه كل بضع ساعات؛ حتى نتأكد من أنه نائم وليس فاقد الوعي».

قالت چينا معترضة: «لكننا إذا أيقظناه فلن ينام، أليس كذلك؟ وسوف ينتهي به الأمر غدًا إلى أن يكون متذمرًا ومرهقًا».

قال سبتيموس: «أعلم ذلك. على أية حال، أعتقد أنه بخير؛ فهو يتنفس بشكل منتظم».

ابتسمت چينا وقالت له: «أتعلم؟ على الرغم من بشاعة ما حدث، عندما كنت حبيسًا في زمن مارسيلوس، فإنك عدت من هذه التجربة مختلفًا.. بشكل إيجابي، فقد تعلمت أمورًا كثيرة، أكثر مما يعرفه أي شخص آخر. أكثر حتى من مارشا».

قال سبتيموس بنبرة تشوبها الكآبة: «فعلًا»، ثم ظل صامتًا لوهلة وأخذ يقلب شراب الساحرات ويراقب قطعة الطوفي وهي تئز وتدور بسرعة أكبر فأكبر، ثم قال: «كنت سأصلح أكثر في العمل كطبيب وليس كساحر».

قالت چينا: «لا تكن أحمق، ستكون ساحرًا عظيمًا. أحد أعظم السحرة. وأنت تعلم ذلك».

«لكن ليس هذا هو رأي مارشا».

«إنها لم تقل ذلك».

«صحيح. لكن إحساسي يقول إن هذا هو رأيها. إنها تقول إني أتخذ من السحر وسيلة للهو. وهذا صحيح، فعلًا. أنا... أنا لا أعتقد أني أود أن أكون ساحرًا، فعلًا يا چين».

أومأت له چينا برأسها وقالت له: «أنا أيضًا أحيانًا أرى أني لا أود أن أكون ملكة. يا له من إحساس بشع أن تكون مجبرًا على منصب بعينه! والأمر أهون بالنسبة لك؛ فأنت على الأقل تستطيع أن تقرر ألا تكون ساحرًا إذا كنت لا تريد ذلك».

لم يرد سبتيموس على كلام چينا، ثم دس يده في جيبه، فإذا به يشعر **بحجر الرحلة الاستكشافية**. إنه لا يظن على أية حال أن هناك فرصة لأن يقرر أي شيء، ثم قال: «چين».

ردت چينا عليه بنبرة يشوبها القلق: «ما خطبك يا سب؟».

لم يمتلك سبتيموس الشجاعة لأن يخبرها، وقال: «لا شيء.. لا شيء».

وفيما بعد، بعد أن حلَّ الليل واستغرقت چينا وبيتل في النوم، وتمدد أولر الليلي بعرض مدخل الباب، حتى إيفانيا كان يتنفس بانتظام – أخرج سبتيموس **حجر الرحلة الاستكشافية** من جيبه.. تقلبت چينا فدس سبتيموس **الحجر** على الفور في جيبه.. لكن ليس قبل أن يرى أن لونه

الأصفر قد ازداد عمقًا وتحول إلى البرتقالي الباهت: «البرتقالي ليحذرك مما أنت مُقدِمٌ عليه»، وعلم سبتيموس الآن معنى ذلك تمامًا.

* * *

استيقظ سبتيموس صباح اليوم التالي وقد خالجه شعور بالاختناق من رائحة العفن المنبعثة من الأدخنة المتصاعدة من جلود الفوريكس. كان الجو لا يزال مظلمًا داخل بيت الشجرة، ولم يدرِ أن الصباح أشرق إلا عندما رأى قطًا برتقاليًا صغيرًا في الكوخ معهم يموء بنفاد صبر، يريد الخروج. فرفع سبتيموس ركنًا من الباب المصنوع من جلود الفوريكس.. وبذيل مرفوع، ومشية متعالية، خرج أولر إلى هواء الصباح. وبعد لحظات، كان القط قد هبط مصطدمًا بصوت ناعم ومكتوم على الثلوج أسفل الشجرة، ثم بدأ مهمة صيد إفطار أشهى من السمك المجفف.

لكنَّ شاغلي بيت الشجرة كانوا يفتقدون مهارة فن اصطياد جرذان الحقول خلافًا للقط، وكان عليهم أن يعدوا ترتيبات أخرى لتجهيز وجبة الإفطار، فبدءوا بغلي بعض الماء.. وتساءلوا فيما بينهم ما إذا كان مذاق السمك المجفف سيتحسن لو تم غليه مع الطوفي، لم توافق چينا على هذا الرأي بينما راقت الفكرة سبتيموس. أما بيتل فقد استيقظ بصداع وعنق متيبس، ورفض تناول السمك والطوفي، سواء أكانا مطهويْن معًا أم كلًا على حدة.

وضع سبتيموس حدًا لهذا النقاش الدائر حول سمك بدون طوفي أم سمك بالطوفي بأن استخدم المقلاة في غلي بعض الماء لإذابة شرائح من لحاء شجر الصفصاف أخذه من علبته الصفيح الطبية، وجعل بيتل يتناول المشروب، والذي كان مرًا وجعل بيتل يشعر بالاختناق، لكن بعد نصف ساعة خفت حدة الصداع وتيبُّس العنق، فأخذ يساعد چينا في فتح ثلاث عبوات أخرى من عبوات سام. وهنا اكتشفا احتواء العبوات على بعض القطع الصغيرة جدًا من كعك لزج مصنوع بالزبيب، كانت ميليسا قد صنعته لچوچو، بالإضافة إلى عرق طويل من اللحم المقدد المجفف، وبدا الإفطار فجأةً أكثر إثارةً.

ثم قرر سبتيموس أن يقيس نبض إيفانيا، وتساءل في سره ما إذا كان قياس نبض الجُرذ سيكون من نفس المكان المعتاد عند البشر. وكان بالفعل كذلك، على الرغم من أن معصم إيفانيا كان مكسوًا بفروة الجرذ الناعمة. كان النبض ضعيفًا لكنه منتظم، وكان سبتيموس واثقًا من أن إيفانيا الآن يغط في سُبات عميق وليس فاقد الوعي، لكنه لم يجد في علبته الطبية شيئًا يمكن أن يساعد الرجل الجُرذ. وكما قال في سره: كانت مسألة شفائه والأمر كذلك مسألة وقت، ثم يمكنه فيما بعد أن يستخدم علاجًا يمنع تكرار الكوابيس التي دائمًا ما تصيب هؤلاء الذين كانوا **مسكونين**.

وبحلول منتصف النهار – وفقًا لساعة بيتل التي تعمل بلا صوت – كانوا قد انتهوا من تناول الإفطار، وقرروا أن الحل الوحيد المتاح لديهم الآن هو أن يتركوا إيفانيا في بيت الشجرة حتى يتعافى، ثم يعودوا إليه

لاصطحابه معهم في طريق العودة.. وقالت چينا: «إن نكو حتمًا قوي البنية، والأمر سيكون أسهل بكثير وهو معنا في مساعدة إيفانيا على العودة إلى الغابة».

لم ينبس سبتيموس ببنت شفة؛ فهو لا يظن أصلًا أنهم سيعودون، ناهيك عن العودة بنكو. أما إيفانيا فهو في أمان هنا كأي مكان آخر، بل إنه في واقع الأمر أكثر أمانًا مقارنة بالمكان الذي هم في طريقهم إليه الآن.

جثت چينا على ركبتيها بجوار الرجل الجُرذ، وغطته بعباءاتهم المصنوعة من جلود الولڤرين، وجعلته ينام في وضع مريح، ثم قالت له: «وداعًا يا إيفانيا. لا بد أن نرحل الآن، لكننا سنعود بسرعة». اختلجت شوارب إيفانيا، فربتت چينا على جبينه، ثم قالت له: «ستكون على ما يُرام»، وهنا فتح إيفانيا عينًا واحدة نصف فتحة، فشهقت چينا قائلة: «إنه يفيق!».

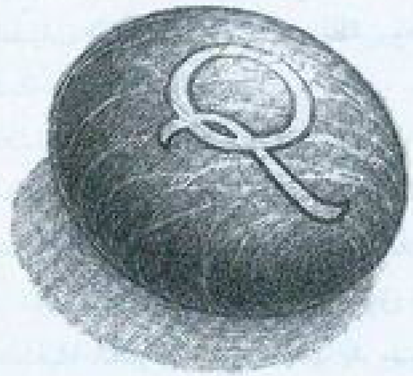
بدا على إيفانيا أنه يحاول تركيز بصره على چينا، ثم تأوه ورفع يده بتوتر، فأمسكت بيده وأعادتها برفق على صدره، لكن إيفانيا قاومها. فتركت چينا يده وراقبت أصابعه الطويلة النحيلة وهي تعبث في ثنايا عباءته حول عنقه، ثم سألته: «ما بالك؟ هل عنقك يؤلمك؟».

وردًا عليها، أخرج إيفانيا شيئًا من جيب سري، ووضعه في يدها وهو يضغط عليه. وبعد أن تنهد تنهيدة طويلة أغمض عينيه وراح في سُبات عميق.

حدقت چينا إلى يدها، ورأت قصاصة ورقية مستديرة يلمع سطحها لمعانًا طفيفًا، وتغطيه رسوم مفصلة بشكل دقيق مخططة بالقلم الرصاص. ولوهلة، تساءلت چينا في سرها عن ماهية هذه القصاصة، لكن كان ذلك لوهلة فقط؛ إذ في اللحظة التالية كانت قد علمت ماهية هذه الورقة؛ إنها القطعة المفقودة من الخريطة؛ إنها القطعة المرسوم عليها بيت *الفوريكس*.

43

الجسر



بسط ثلاثتهم *الخريطة في الخارج على الجليد* أسفل الشجرة، وأخذت الورقة المقواة تطقطق مع بسطهم لها، وبدت صفراء وسط بياض الثلوج.

قالت چينا: «لا يا أولر، لن تجلس هنا»، ثم رفعت القطعة المفقودة، وسألتهما: «هل هناك شيء مخصوص يجب أن أفعله الآن؛ كاستخدام تعويذة **إعادة التجميع** أو ما شابه ذلك؟».

رد بيتل عليها قائلًا: «لا»، ثم ابتسم ابتسامة عريضة وقال: «إنها جاهزة الآن كي تذهب إلى مكانها».

تركت چينا قصاصة الورق المستديرة من يدها.. وببطء، سقطت القصاصة وهي ترفرف. همَّ أولر ليضربها بكفه إلا أن چينا خطفت القط وأمسكته بقوة. أخذت قصاصة الورق المفقودة تحوم فوق الثقب وهي تلف؛ تارة في هذا الاتجاه؛ وتارة في ذاك، تريد أن تقرر أي اتجاه تثبت عليه وتهبط به.. ووسط صيحة اندهاش انطلقت من الجميع عادت قصاصة الورق بانسياب إلى مكانها على الخريطة.. وهكذا باتت خريطة سنوري الآن مكتملة.

قالت چينا: «هذا مدهش. أنت لا تستطيع حتى أن ترى الوصلات».

تفحص بيتل الخريطة بمظهر الخبير وقال: «إنجاز لا بأس به».

وأخرج سبتيموس عدسته المكبرة من حزام التلامذة الذي يرتديه وثبتها فوق مركز الخريطة، وبينما كان يحركها فوق القطعة المستعادة راقبوا التفاصيل الدقيقة الشارحة التي رسمتها يد سنوري والتي تكبرها العدسة الآن وتُظهرها بوضوح. رأوا بناءً مثمن الشكل مظللاً باللون الرمادي كتبت سنوري عليه **بيت الفوريكس** بأحرف سميكة.. وفي مركز المثمن، رسمت سنوري مفتاحًا وأحاطت المثمن من الخارج بأفعى هائلة الحجم، وكان البيت مقامًا على ما بدا أنها جزيرة، وموصولاً بالمحيط الخارجي عن طريق جسر متعرج، وكان بجانب الجسر شجرة وهيئة صغيرة يشير إليها سهم، وكتبت سنوري عنده **احذر المُحصِّل**! كما كتبت عبر الفجوة التي تمتد بعرض الجسر **هاوية سرمدية بلا قاع**، لكن سبتيموس لم يأبه لذلك. فمن فرط إحساسه بالارتياح والسعادة بأن **الرحلة الاستكشافية** في نهاية الأمر لم تأخذهم بعيدًا عن بيت الفوريكس،

شعر بأن في وسعه أن يمر فوق مئات الهاويات التي لا قاع لها إن كان لا بد من ذلك.. وإن كان يفضل ألا يفعل، فيكفيه المرور فوق هاوية واحدة.

وبعد أن وضعت چينا أولر في حقيبة الظهر بشكل آمن، وقفت للحظة بين العمودين الباسقين اللذين يكونان بوابة الجسر، ثم رفعت بصرها لأعلى ورأت الجسر يرتفع وسط السماء البيضاء بلونه الأسود وشكله العنكبوتي، وقد أخذت حباله السلكية الرفيعة تتلألأ من الرطوبة المتكثفة عليها. كان الضباب يلف ويدور حول قدمي چينا، ومن مكان ما من الأعماق في الأسفل سمعت صوتًا خفيضًا لنُواحٍ ممتد.

ازدردت چينا ريقها بصعوبة، ثم قالت في سرها إنَّ هذا هو الطريق إلى نكو، وهذا هو الطريق الذي لا بد أن تسلكه. فتقدمت ومرت بين العمودين، ووطئت بقدمها على طبقة الثلوج الخالية من العلامات التي تكسو أول لوح خشبي من ألواح الجسر التي تبدو غير ثابتة وخطيرة. رأت أمامها صف الألواح الخشبية وهو يرتفع عاليًا في مسار منحنٍ ويختفي وسط الضباب، ثم مدت يدها لتمسك بالدرابزين، والذي كان مشدودًا وباردًا في ملمسه، وضعيفًا على نحو مخيف. ومع إدراك چينا أن سبتيموس وراءها مباشرة، استجمعت شجاعتها وتقدمت خطوة أخرى للأمام؛ فهبط منسوب الجسر هبوطًا طفيفًا متأثرًا بوزنها، وتجمد الدم في عروقها مع إدراكها بشكل رهيب أنه لا يفصل بينها وبين غياهب النسيان في الأسفل سوى لوح خشبي رفيع.. لكنها أصرّت على ألا تُظهر مدى

الرعب الذي تشعر به، وقالت بلهجة متفائلة: «كل شيء على ما يُرام، هيا يا سب».

لكن سبتيموس تسمَّر في مكانه.

فقال له بيتل: «هيا يا سب»، ثم دفعه دفعة خفيفة، فوطئت قدم سبتيموس على أول الجسر تحركت چينا خطوتين ومرة أُخرى تحرك الجسر. وفي حالة من الهلع، أمسك سبتيموس على الفور بالدرابزين الحديدي، ثم قال بيتل بنبرة غلفها بقدر من الثقة بالنفس أكبر مما كان يشعر به حقيقة: «انتظراني»، ثم وطئت قدمه على أول الجسر الذي تحرك للمرة الثالثة، وشعر سبتيموس بالغثيان وكان قد أصر، داخله، على أنه سيسلك طريقه على الجسر بهدوء، معتبرًا أن الجسر لا يرتفع عن سطح الأرض إلا بضعة أقدام فقط.. لكنه أدرك فجأة أنه لن يستطيع.

نظرت چينا وراءها فرأت عيني سبتيموس الخضراوين مفتوحتين عن آخرهما من فرط الرعب والخوف فقالت له: «اطمئن يا سب، مفتاح العقدة هنا يكمن في أن تخطو خطوة واحدة كل مرة، كل ما عليك أن تفكر فيه هو أن تنقل قدمًا للأمام ثم تنقل الأخرى. مدى امتداد الجسر ليس مشكلة؛ لأننا نعلم أننا سوف نصل في نهاية المطاف إلى الجانب الآخر، وكل ما علينا فعله الآن هو أن ننقل قدمًا أمام الأخرى، حسنًا! الأمر بسيط».

أومأ لها سبتيموس برأسه، فمن شدة جفاف حلقه عجز عن الكلام.

وكما لو كانوا ثلاث قواقع تسير في صف وتزحف على امتداد حبل غسيل، انطلق ثلاثتهم يسلكون طريقهم على امتداد الجسر، وأخذت چينا تعد الخطوات «واحدة..اثنتان.. ثلاث.. أربع.. خمس.. عظيم يا سب، أنت تتقدم بشكل رائع. انظر إلى المسافة التي قطعناها حتى الآن.. لا لا! لا تفعل! أنا لم أقصد ذلك، لا تنظر إلى الوراء.. واصل تقدمك فحسب. عشر.. إحدى عشرة.. اثنتا عشرة.. ثلاث عشرة».

كان سبتيموس يطيع الأوامر بانصياع تام، ويضع قدمًا أمام الأخرى كواحدة من آلات إيفانيا.. وبدون أن تطرف عينه، أخذ يُحدق أمامه بالضباب. وظل المشهد، وللغرابة، كما هو.. ظل دائمًا كل ما في وسعه أن يراه هو مسافة من الجسر لا تزيد على بضعة أقدام أمامهم، ترتفع في مسار ينحني تدريجيًا لأعلى ويختفي وسط اللون الأبيض. في بعض اللحظات، كانت الريح تهب وتزيح بعض الضباب بعيدًا، لينكشف أمامهم امتداد أطول للجسر، لكن سبتيموس لم يكن يرى ذلك، فكلما هبت ريح كان يُغمض عينيه إلى أن يكف الجسر عن التأرجح.

لكنَّ عينيه المغمضتين لم تكونا تمنعانه من سماع النواح البشع والصرخات البائسة القادمة من الهاوية السرمدية. ومع تقدمهم على امتداد الألواح الخشبية المتقلقلة، متكئين على الدرابزين البارد كالثلج بأصابع تنملت، ازداد الصراخ وارتفعت نبرة يأسه. كانت هذه الأصوات تزعج بيتل أكثر من الجسر نفسه، وبدأ يغني نسخته المحورة الخاصة به والخالية من النغمات لإحدى الأغاني القديمة والمفضلة في القلعة،

والتي تقول كلماتها المحورة: «كم يساوي ويزل هذا المعروض في نافذة المتجر؟».. ولأول مرة في حياته لم يعترض سبتيموس.

وهكذا، وفي صحبة نغمات بيتل المملة - والتي كانت في بعض اللحظات يصعب التفريق بينها وبين النواح الآتي من بعيد في الأسفل - أخذوا يضعون قدمًا أمام الأخرى، ويتسلقون الانحناء الذي لا يريد أن ينتهي. وبعد فترة لم تتجاوز ربع الساعة، قالت چينا: «إن الجسر يمتد أفقيًا الآن ولا يصعد لأعلى. هل تشعران بذلك؟ لا بد أننا اقتربنا من القمة».

وعلى ذكر كلمة «قمة»، تجلت فجأة في ذهن سبتيموس صورة لهم وهم معلقون في المجهول، وتسرب من أسفل قدميه الإحساس بغياب سطح أرض صلبة يقف عليه جعل رأسه يدور، فترنح للوراء.. وعلى الفور، كان بيتل قد أمسكه وتوقفت النغمات المملة، ثم قال له بيتل: «اثبت يا سب، خذ الأمور ببساطة وسوف تمر الأزمة».

لكن سبتيموس لم يكن يقوى على الحركة، وأمسكت يداه الأسلاك بقوة حتى ابيضت مفاصل أصابعه. بدأت چينا تشعر أن خوفه يتسرب إليها هي أيضًا، ثم انجرف من الأسفل نواح بائس، أخذ يرتفع وينخفض كأنه يحكي قصة حياة الوحدة التي تعيشها الأرواح الضالة التي تسكن الضباب. أخذ سبتيموس يُنصت وهو مفتون، وداهمه إحساس جامح بأن يلقي بنفسه على وسادة الضباب اللينة وينضم إلى الأصوات في الأسفل، وارتخت يداه القابضتان على الأسلاك. وفي هذه اللحظة،

انزاحت كتلة من الضباب لأعلى، ورأت چينا طائرًا أسود ضخمًا يعبر محلقًا أمامهم فشهقت من فرط دهشها.

تنبه سبتيموس من حالة الافتتان التي داهمته، وقال: «چين.. ما خطبك؟».

«لا شيء يا سب». لكن كان لمرور الطائر أثر في تنشيط أفكارها فقالت له: «سب، **الوصفة السحرية للطيران**، أتتذكر؟».

ومع كلمات چينا، شعر سبتيموس بانقشاع الغشاوة التي كانت تغيم على ذهنه، وتذكر إحساس **الوصفة السحرية** وهي قابعة في يده بجناحيها الفضيين وهما يرفرفان حول السهم الذهبي كأنهما جناحا طائر صغير، وتذكر طنينها في يده.. فبدت له قدماه أخف وأقل التصاقًا بالألواح الخشبية المتقلقلة، وزال عنه إحساسه بأن ساقيه تحولتا إلى مادة هلامية، وما عادت الأصوات النائحة تدعوه للقفز وسط الضباب. ومع وصلة جديدة من أغنية بيتل، خطا سبتيموس خطوة أخرى للأمام وقال: «هيا، هيا، سرعان ما نصل».

لم ير سبتيموس نهاية الجسر؛ إذ كان ذهنه تسيطر عليه صورة **الوصفة السحرية للطيران** لا شيء آخر. لكن بينما كانت چينا وبيتل بخطوات آخر الخطوات على الجسر، بدأ هيكل بيت الفوريكس يتجسد أمامهما وسط الضباب.

همست چينا قائلة: «إنه ضخم جدًا».

وحوّل بيتل الأغنية إلى صفارة طويلة هامسة.

وبإحساس مفعم بالارتياح والسعادة تركت جينا الجسر، ومع انحنائها لتحرير أولـر من حقيبة ظهرها، وجـدت عينيها تنجرفان نحو بيت الفوريكس، كان المنظر يثير الرعب في النفس؛ فقد ارتفع البيت ارتفاعًا شاهقًا أمامهم – وكان أقرب للقلعة لا إلى البيوت – على هيئة كتلة مخيفة من أحجار الجرانيت، مقامة على قمة منحدر صخري. وتمامًا، كما أشارت رسوم ستوري، كان البيت يتكون من عمود مركزي مثمن الشكل، تكتنفه أربعة أبراج مثمنة الشكل أيضًا، تختفي هاماتها وسط سماء ناصعة البياض، تخفي حافتها المسننة بنوافذها المفرجة سحبًا ثلجية منخفضة. اعترض واجهته الرمادية الناعمة عدد قليل من النوافذ الصغيرة، لكن كان يصقل هذه النوافذ لمعان غريب راح يلف ويدور في حركة دائرية محورية، كما يلف ويدور الزيت على سطح الماء. وذكرها هذا المنظر بعيني قط مُسن مصاب بالعمى، كانت قد تبنته فيما مضى هي وصديقتها بو.

وبتحفز استمده سبتيموس من الوصلة الحادية والعشرين من أغنية بيتل، وصل إلى نهاية الجسر. وأخيرًا، ترك آخر لوح خشبي متقلقل، وبإحساس يغمره الابتهاج – بعد *النجاح الذي حققه* – جعل صورة **الوصفة السحرية للطيران** تترك ذهنه. فعاد يشعر بثقل قدميه من جديد، وعاد حذاؤه الطويل يستقر بثبات على الأرض. حاول سبتيموس جاهدًا – وهو يتألم – أن يمد أصابعه التي كانت تقبض بقوة على الدرابزين السلكي طوال الفترة السابقة لكنها أبت أن تنبسط، فدفع يديه المتجمدتين في جيوب ردائه، وعلى الفور كانت يده اليمنى تقبض على

حجر الرحلة الاستكشافية الذي استقر في راحة يده، ثم قال وهو يشهق: «إنه ساخن».

قالت جينا: «ماذا تقول؟ إن الجو قارس البرودة».

لم يرد سبتيموس عليها.

وبرفق، أمسكت جينا سبتيموس من ذراعه وقادته بعيدًا عن الهاوية، ثم قالت له: «هيا بنا يا سب، دعنا نواصل طريقنا الآن».

لكن سبتيموس كان لديه ما يقوله ولا يعلم من أين يبدأ. ومن ثم، أخرج من جيبه يده التي كان يُطبقها بإحكام وفتحها.. وكان **حجر الرحلة الاستكشافية** قابعًا في راحة يده. توهج **الحجر** باحمرار ساطع مائل إلى البرتقالي، وانبعث منه بريق وسط المحيط الأبيض الصامت كأنه شعلة فنار.

سأله بيتل بريبة: «ما هذا؟».

ردت جينا قائلة: «هيه! إنها صخرة **سحرية** لتدفئة الأيدي. كان ينبغي عليك أن تخبرنا عنها يا سب. لكننا استخدمناها معك نحن أيضًا».

همهم سبتيموس قائلًا: «إنها ليست كذلك».

قال بيتل وهو ينظر لأسفل إلى **الحجر**: «فعلًا، إنها ليست للتدفئة، أليس كذلك؟ لقد احتفظت بهذا السر داخلك يا سب».

فسألته جينا: «أي سر؟».

قال بيتل: «**حجر الرحلة الاستكشافية**. إن ***حجر الرحلة الاستكشافية*** معه. سب، لماذا لم ***تخبرنا***؟».

«لأننا كنا نبحث عن نكو وسنوري، وكان هذا هو الهدف الأهم، كما أنني في بادئ الأمر لم أر أن الأمر يستدعي القلق».

قال بيتل بذهول: «أخذت **حجر الرحلة الاستكشافية** و*رأيت أن الأمر لا يستدعي القلق*؟!».

«لا تتكأكأ عليَّ هكذا يا بيتل، فلم أكن أدري في بادئ الأمر أنه **حجر الرحلة الاستكشافية** عندما أخذته، أوتشك في ذلك؟ إنني ما كنت سآخذه لو كنت أعلم. لقد أعطته لي هيلدا جارد مباشرة قبل هروبنا من برج السحرة، وقالت لي إنه **الوصفة السحرية للسلامة** الخاصة بها».

قال بيتل بحدة: «ومن الواضح أنها ليست **وصفة سحرية للسلامة**».

قال سبتيموس: «كما *أن من أعطاها لي* لم يكن هيلدا جارد».

فسألتهما چينا بغضب: «ما الذي يحدث هنا؟ ومن الذي لم يكن هيلدا جارد؟ أخبراني».

رد بيتل دون إضافة ما يفيد: «إن هيلدا جارد لم تكن هيلدا جارد».

قالت چينا معترضة وهي تثبت بيتل بنظرة الأميرات: «*بيتل*».

تدخل سبتيموس لإنقاذ بيتل وقال: «إن بيتل محق يا چين. لقد فكرت في الأمر مرات عديدة.. أقصد أنني فكرت في اللحظة التي أخذت فيها **الحجر**. وأنا أعلم أن مارشا تقول بألا نقبل أبدًا أية **وصفات سحرية** من الغرباء، إلا أني حينها *لم أعتبر* هيلدا جارد من الغرباء. لكنها كانت تقف بجانب **جرة الرحلة الاستكشافية**؛ أليس كذلك؟ ولقد رأيت **الشيء في الجرة**. ومن ثم، عندما وضع تيرتيوس فيوم برج السحرة تحت **الحصار**، أظن أن ما حدث هو أن **الشيء** خرج من **الجرة** وسكن هيلدا

جارد. كان الجو مظلمًا جدًا ومفعمًا بالجنون، وأي شيء كان يمكن أن يحدث حينها».

نظرت چينا إلى سبتيموس وقد علتها الحيرة، ثم قالت: «لكن، لماذا لم تخبرنا؟».

«في الواقع، عندما اكتشفت في بادئ الأمر أني أخذتها، ظننت فعلًا أنه لا داعي للقلق مادمت قد تمكنت من الهرب من القلعة ومن **حراس الرحلة الاستكشافية**، كما قالت لي مارشا أن أفعل، وإننا نستطيع أن نذهب جميعًا للبحث عن نكو وسنوري، دون الالتفات إلى موضوع **الرحلة الاستكشافية**. وعندما تحول لونه إلى الأخضر...».

قاطعته چينا: «ما هذا الذي تحول إلى اللون الأخضر؟».

«**الحجر**. لقد كان في بادئ الأمر أزرق، لكن عندما كنا في الكوخ رأيت أن لونه تحول إلى الأخضر، تمامًا كما قال لي ألثر، وأدركت حينها أنني في **الرحلة الاستكشافية**».

«وما الذي منعك من أن *تخبرنا*؟».

استغرق سبتيموس لحظات حتى يرد قائلًا: «لم أستطع. لم أستطع فحسب. أنا آسف. فقد كنا نتتبع خريطة سنوري، وبدا كل شيء على ما يُرام؛ ولذلك رأيت...»، ولم يجد سبتيموس ما يقوله، وكان في غاية البؤس؛ كمن خان أعز أصدقائه.

قالت چينا: «هون عليك يا سب. فنحن لانزال ماضين لإنقاذ نكو، أليس كذلك؟».

وعلى الفور، رد بيتل قائلًا: «نعم، فوضعنا الراهن لا علاقة له بنكو الآن. فنحن مع سب، وسب في **الرحلة الاستكشافية**، وليس أمامه أي خيار آخر. *فالمرء ما إن يقبل **الحجر** حتى تسلب منه إرادته*، أليس هذا صحيحًا يا سب؟».

فأومأ له سبتيموس برأسه وهو في حالة من البؤس الشديد.

وهزت چينا رأسها غير مصدقة ما تسمع، ثم قالت: «لا! *مستحيل*. نحن في رحلة بحث خاصة بنا.. نحن نبحث عن نكو. وكما تريان، لقد نجحنا»، ثم أشارت إلى الأبراج المثمنة الشاهقة وهي تلتف وتنبثق بين الضباب، ثم أردفت قائلة: «لأننا *نرى أمامنا الآن* بيت الفوريكس».

ظل بيتل على موقفه معاندًا، وقال: «نحن لا نعلم ذلك على وجه اليقين. لم نعد نعلم *أي شيء* الآن. وكما قلت، كل ما نعرفه على وجه اليقين أننا مع سب، وسب في **الرحلة الاستكشافية**. كما أن هناك تفصيلة أخرى صغيرة...».

فسألته چينا بهدوء، وقد أدهشها سيل الكلمات الغاضبة الذي انطلق من بيتل: «ما هي؟».

«لم يحدث أن عاد أحد من **الرحلات الاستكشافية**».

وخيم الصمت عليهم مع إدراكهم هذه الحقيقة.

شعر سبتيموس بإحساس بغيض، وهمهم قائلًا: «أنا... أنا آسف. أنا فعلًا آسف».

ثم سقطت بعض الرقائق الجليدية الشاردة من السماء. وبحركة عنيفة، نظفت چينا ما وقع على عينيها، ثم رفعت بصرها ووجهته إلى القلعة المقامة بالجرانيت وهي ترتفع وسط الضباب البعيد الذي يلتف حولها؛ آملة، بشكل أو بآخر، أن تجد دليلًا على وجود نكو هناك. وبينما كانت تنظر إلى النوافذ المعتمة انطلق سرب من الغربان من أحد الأبراج وهو ينعق فارتجفت چينا، وسحبت عباءتها لتلتحف بها بإحكام، وأطلق أولر مواء يملؤه البؤس، ثم فرك رأسه في رِجل چينا، ووقف شعر عنقه.

وأخيرًا نطقت چينا وقالت: «إذن، إذا كنا الآن في **رحلة استكشافية** غبية فلا بأس، فسوف نقوم بها ونعود بعد ذلك.. ومعنا نكو، وسوف يلقنهم هذا درسًا». وبهذه الكلمات، انطلقت چينا بخطوات جادة تصعد المسار المتعرج شديد الانحدار، وأولر يتعقبها، وتابعها بيتل وسبتيموس..

بعد عدة دقائق، قال سبتيموس: «أنا آسف. كان ينبغي عليَّ أن أخبركما بأمر **الحجر**».

فرد بيتل قائلًا: «أجل، كان ينبغي عليك ذلك». وبعد عدة دقائق أخرى قال: «لكن ما كان الأمر سيختلف حينها، فأنا كنت سأحضر معك على أية حال».

«أشكرك يا بيتل».

ثم قال بيتل: «كما أن چينا كانت ستحضر معنا هي أيضًا».

رد سبتيموس قائلًا: «أنت مُحق.. لا أعتقد أني كنت سأستطيع أن أمنعها».

قال بيتل بابتسامة عريضة: «أنا لا أعتقد أن چينا يمكن منعها من أن تفعل ما تريد، ما دامت قد اتخذت قرارها».

وقفت چينا في منتصف الطريق، وانتظرت حتى يلحق بها سبتيموس وبيتل. كانت الثلوج تتساقط بشكل مطرد، ومع انبثاق سبتيموس وبيتل من وسط الضباب، بدا وكأن اللون الوحيد الذي يعم العالم في تلك اللحظة هو البرتقالي الناري **لحجر الرحلة الاستكشافية** الذي كان يبرق في يد سبتيموس.

قالت لهما چينا: «هل تعلمان؟ إن هذا المكان يذكرني بقصة كان أبي دائمًا يقصها علينا عن رحالة مرهقين تسلقوا برجًا ضخمًا وسط الضباب، ثم وصلوا إلى باب كان محفورًا في أنحاء سطحه بالكامل أشكالٌ لكائنات غريبة، وسحبوا شريط جرس الباب.. وبعد فترة طويلة، فتح لهم الباب رجل أحدب ضئيل الحجم، أخذ يُحدق إليهم *لساعات*، ثم قال بصوت مخيف للغاية: «مـــاااااااااذا تريييييييدوووون؟ هـل تـتـذكر ذلك يا سب؟».

فرد سبتيموس قائلًا: «بالطبع لا؛ فقد كنت حينها في جيش الشباب، على الأرجح كنت في قاع حفرة من حفر الولفرين، بينما كنت أنت تستمعين لحكايات ما قبل النوم».

«أنا آسفة يا سب؛ فأحيانًا يبدو لي وكأنك كنت تعيش معنا طوال الوقت».

قال سبتيموس بهدوء: «كم كنت أتمنى ذلك». ولقد كان في بعض الأحيان يحاول أن يتخيل ما الذي فاته مع أسرته، لكن لم يكن تأثير

ذلك عليه لطيفًا؛ إذ كان يثير في نفسه إحساسًا ثقيلًا من الصعب التخلص منه.

وانطلق ثلاثتهم مرة أخرى يسلكون طريقهم، لكن سرعان ما بدأ المسار يضيق، واضطروا للسير في صف واحد. وازدادت شدة انحدار المسار، مع تعرجه تارة متغلغلًا بين كتل صخرية، وخروجه تارة أخرى منها، وبدأ الجو مع صعودهم يزداد برودة. وبدأ بيتل يخالجه إحساس يحدثه بأنهم اقتربوا من القمة، واستعد لرؤية الأفعى التي رسمتها سنوري ملتفة حول البرج.

لا بد أنها ضخمة جدًا.. هكذا قال بيتل في سره.. تُرى، ماذا تأكل؟ ثم قرر أن يكف عن التفكير في هذه الأمور؛ إذ أزعجه ذلك كثيرًا.

بدأ المسار الآن يزداد عرضًا ويقترب من المستوى الأفقي. ومع مواصلة أحذيتهم الطويلة الطحن في الحصى الرفيع، بدءوا يقتربون من الرخام الأبيض الأملس للشرفة العريضة التي تحيط ببيت الفوريكس. ولدى وصولهم إلى الشرفة، توقفوا لالتقاط أنفاسهم. ظهرت أمامهم كتلة ضبابية وقد أخذت تتدحرج وتدور مع الثلوج، وظهر خلفها الجرانيت الرمادي لبيت الفوريكس الذي تمكنوا بصعوبة بالغة أن يروه. وهنا، تبادلوا النظرات فيما بينهم، فأين هي الأفعى؟

ثم زحفوا عبر الشرفة خلسةً، مع انزلاق أقدامهم على السطح الأملس للرخام المبلل. رفع سبتيموس **الحجر** أمامه، ومثل شعلة الفنار، قادهم إلى أعتاب سلم عريض ذي عدد محدود من الدرجات.

همس سبتيموس قائلًا: «انتظرا هنا! سأذهب لأتأكد ما إذا كانت الأفعى موجودة أم لا».

قالت جينا: «بل سنذهب معًا جميعًا، أليس كذلك يا بيتل؟».

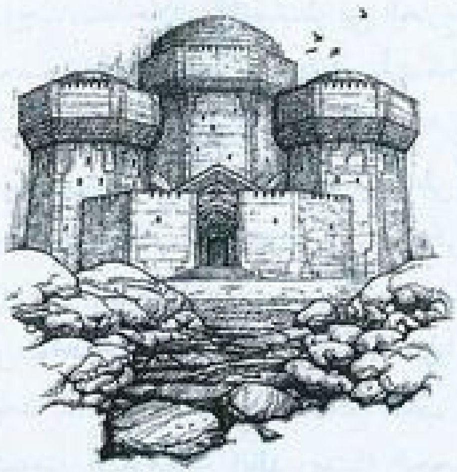
فأومأ لها برأسه على مضض؛ فهو يكره الأفاعي، ثم رد قائلًا: «حسنًا».

وبحذر، تسللوا صاعدين درجات السلم، وكان سبتيموس يمسك **بحجر الرحلة الاستكشافية** أمامه ليرشدهم إلى الطريق، ثم قال وسط الضباب: «ليس هناك أية أفاعٍ. وليس هناك سوى باب ضخم بأشكال غريبة محفورة حوله».

فسأله بيتل لمزيد من الاطمئنان: «حتمًا ليس هناك أية أفاعٍ؟».

ورد سبتيموس قائلًا: «حتمًا، ولا حتى واحدة صغيرةً جدًّا من العرقسوس».

44
حارس الباب



كان *الباب الضخم لبيت الفوريكس* يكاد يصل إلى ارتفاع باب برج السحرة.. ولقد صُنع من ألواح هائلة من خشب الأبنوس، تم تثبيتها بقضبان حديدية مطلية باللون الأسود، وبصفوف طويلة من المفصلات، وأحاط بالباب حلق ثقيل محفور بأشكال لوحوش وكائنات غريبة أخذت تحدق بعيونها إلى جينا وسبتيموس وبيتل. وقف ثلاثتهم وسط الثلوج التي تتساقط وتستقر على عباءاتهم المصنوعة من جلود الولفرين، يستجمعون شجاعتهم لجذب شريط جرس الباب الذي ينبثق

من فم تنين مصنوع من الحديد، يبرز من بين أحجار الجرانيت بجانب الباب.

سأل سبتيموس بيتل: «والآن، ألا تـزالان تتذكران القرار الذي اتخذناه؟».

«تمامًا، أنت وچينا ستدخلان وأنا سأنتظر في الخارج، وسأمنحكما ثلاث ساعات محسوبة على ساعتي، وبعد ذلك سأرن الجرس.. وإن لم تخرجا حينها سأواصل رنه كل ساعة بعد ذلك إلى أن تخرجا. حسنًا؟».

قال سبتيموس وهو يشير لبيتل بإبهامه المرفوعة لأعلى: «عظيم».

ثم مدت چينا يدها وجذبت بقوة شريط الجرس، وفي مكان ما في أعماق بيت الفوريكس جلجل صوت جرس. وفي صمت، وقف ثلاثتهم وسط الثلوج التي يتواصل تساقطها بشكل منتظم وانتظروا.. وانتظروا.

وبعدما مر وقت بدا لهم كأنه ساعات، انفتح الباب ببطء بصاحبه صرير، ثم أطلت منه هيئة محنية الظهر ضئيلة الحجم قالت لهم: «نعععععععم؟».

حدقت چينا إلى حارس الباب، وتذكرت سابلاس وهو يجلس بظهر محنيٍّ أمام كتاب القصص، مستخدمًا صوتًا مضحكًا له صرير، وألثغ في حرف الراء ويكسو وجهه بتعبيرات بلهاء، وإذا بها تنتابها نوبة قهقهة.

بدا الحارس بشكل أو بآخر مُهانًا من ضحك چينا؛ فعادة لا أحد يضحك عندما يصل إلى بيت الفوريكس؛ كان منظر الرجل يذكِّر چينا بالوطاويط البنية؛ إذ كان ضئيل الحجم وكانت عيناه صغيرتين ترتخي

عليهما الجفون، ويعتمر غطاء رأس قطنيًّا ناعمًا كان مُحكمًا، وعباءة بنية طويلة مصنوعة من نوع من الفرو المجذوذ. وكالوطواط الجاثم في مكانه، تشبث الرجل بمقبض الباب وكأنه يخشى أن يُطاح به بعيدًا.

ثم سألته چينا: «أحم! هل يمكننا الدخول؟».

فسألها الحارس وهو يقف وسط فتحة الباب الموارب ويسد عليهما الطريق: «هلللللللل لديكم موعد؟».

ردت چينا قائلة: «موعد؟ لا، لكن...».

قال الحارس بصوته الممطوط الأشبه بصوت الوطاويط: «لااااااااا أحد يدخل البيت دون موعد»، وحدق إليها بنظرات لائمة بعينيه الشبيهتين بالخرزتين السوداوين الصغيرتين.

فقالت له چينا: «في هذه الحالة، أود أن أحدد موعدًا إذا سمحت».

«يااااائع، يمكنكما الدخول عندما تحددان هذا الموعد. وداعًا».

«لكن كيف نحدد...» وبدأ الحارس يغلق الباب، فصاحت چينا قائلة: «لا.. انتظر!».. فقفز بيتل إلى الأمام ومد قدمه ليمنع انغلاق الباب، فصفق الحارس الباب بقوة في مواجهة حذاء بيتل، واندلعت معركة بين الحارس وحذاء بيتل الطويل.. لكن رويدًا رويدًا، كان الحارس يدفع حذاء بيتل للخلف. فاستعان بيتل بكتفيه مستندًا إلى الباب ليؤازر حذاءه الطويل في دفع الباب، لكن قوة الحارس كانت أكبر من حجم بيتل الضئيل، بدأ الهلع يصيب چينا؛ إذ لابد أن تدخل هي وسبتيموس.. لابد. إنها لا تستطيع أن تتخيل كيف يمكن أن يكونوا بكل هذا القرب

من نكو ويُصفق الباب في وجوههم بعد كل ذلك، فألقت بنفسها على الباب تؤازر بيتل بثقل جسمها، لكن الباب أوشك على الانغلاق.

فصاح سبتيموس قائلًا: «توقف! نحن لا نحتاج أن نحدد موعدًا».

ودفع **حجر الرحلة الاستكشافية** في وجه الحارس وقال: «إن معنا هذا».

وهنا كفُّ الحارس عن دفع الباب ونظر إلى **الحجر**، ثم رفع بصره ونظر إلى سبتيموس بريبة وقال: «ما هذا؟ أنتم جميعًا في **رحلة استكشافية**؟».

رد سبتيموس بنبرة تحدٍّ: «نعم».

«كالمعتاد. أنتم تنتظيون آلاف السنين لإيسال تلميذ واحد، وإذا بثلاثة منكم يأتون دفعة واحدة».

حدقت چينا إلى الحارس باندهاش؛ إنه يتحدث تمامًا كما كان سايلاس يفعل؛ إنه لا يستطيع أن ينطق حرف الراء. تُرى، هل يعرف سايلاس شيئًا عن بيت الفوريكس؟ هل جاء إلى هنا من قبل؟

أخذ الحارس يدقق النظر فيهم عن قرب، مدركًا أن سبتيموس فقط هو الذي يرتدي زيًّا أخضر، ثم قال له: «يمكنك أنت أن تدخل، أما الاثنان الأخيان فلا يستطيعان».

وتملك چينا الهلع من فكرة دخول سبتيموس وحده بيت الفوريكس؛ إذ إنها متأكدة من أنه لو دخل بمفرده فلن يرياه بعد ذلك أبدًا. وتخيلت نفسها هي وبيتل ينتظران في الخارج لأيام، أو لأسابيع.. أو ربما لشهور، ثم يعودان إلى القلعة بدونه. مستحيل! إنها لن تتحمل هذا. وباستماتة – متذكرة الجزء التالي من حكاية قبل النوم التي كان يحكيها لهم سايلاس– قالت: «نحن نطالب بحق الدخول عن طريق حل اللغز».

نظر إليها الحارس بدهش وسألها: «قلت *ماذا تطلبين*؟».

كررت چينا كلامها، وهي مدركة تحديق سبتيموس وبيتل إليها وكأنها أصيبت بلوثة عقلية، وقالت: «نحن نطالب بحق الدخول عن طريق حل اللغز».

«حق الدخول عن طييق حل اللغز؟».

ردت چينا بحزم مُصرة على الاحتفاظ بوجه يكسوه تعبير جاد، على الرغم من همهمة بيتل التي كان يكتمها: «نعم».

قال الحارس متذمرًا: «يائع».

فقالت له چينا تستعجله: «هيا، ألقِ علينا اللغز».

تنهد الحارس، ثم بدأ ينشد بصوته ذي النبرة العالية:

«أنا أهسس مثل لحم الخنزيي المقدد،
وأنا جئت من بيضة،
في عمودي الفقيي فقيات عديدة،
وأنا أتقشيي مثل البطاطس،
وطويلة مثل صايي العلم، ومع ذلك تسعني الثقوب،
من أنا؟».

فهمت چينا الآن رسوم سنوري وردت بابتسامة عريضة: «الأفعى».

بدا على الحارس الاندهاش، وإن لم يُسعده ذلك على وجه الخصوص، ثم قال: «يائع. لديك لغزان آخيان، لا أظن أنك ستبتسمين هكذا حينها»، ثم بدأ ينشد قائلًا:

«ما لا تستطيع أن تختيقه القوة والتحدي
أستطيع أنا ذلك بلمسة يقيقة مني.
والكثيوون في الشوايع سيمكثون،
عندما يبحثون عني ولا يجدونني.
من أنا؟».

علمت چينا الحل مباشرة، وقالت: «المفتاح».

والآن بدا الحارس متوترًا، ثم قال على مضض: «أصبتِ. لكن اللغز التالي لن يكون سهلًا».. ثم بدأ إنشاده مرة أخرى، لكنه كان ينشد هذه المرة بصوت هامس وسريع؛ فانحنوا للأمام حتى يلتقطوا كلمات اللغز:

«إن لوني واحد، لكن حجمي ليس واحدًا.
باليغم من أني مسلسل في الأيض، أستطيع أن أحلق وأطيي.
أنا موجود في وجود الشمس، ولست موجودًا في اليوم المطيي.
أنا لا أضي، ولا أشعي بالألم.
من أنا؟».

ارتبكت چينا هذه المرة، فماذا غير ما ذكرته الآن موجود على الخريطة؟ إنها لا تتذكر شيئًا آخر.

قال الحارس بنبرة غناءة ساخرة: «أنا منتتتتظي. أمامك دقيقة واحدة وبعد ذلك سأسمح بدخول **القائم باليحلة الاستكشافية**.. بمفيده. أما أنتما فيمكنكما أن تعودا إلى بيوتكما.. هذا إذا دفعتما للمحصل المقابل الذي يُضيه»، ثم ضحك ضحكة بشعة مكتومة.

وبهلع، بدأت چينا تبسط الخريطة.

فصاح الحارس بنبرة يملؤها الحماس: «ممنوع الغش. *قلت ممنوع الغش!*»، ثم خطف الخريطة وبدأ يمزقها إربًا إربًا.

صاحت چينا وهي تنقض للأمام لتخطفها منه: «لا! أعدها إليّ!».

قال سبتيموس وهو يجذب چينا للوراء: «چين، چين، ما عدنا نحتاج إليها. لا بد أن نهدأ الآن ونفكر».

وقال الحارس بصوت يعلوه صرير ساخر: «باقٍ عشيون ثانية. خمس عشية ثانية.. تسع ثوانٍ، ثماني ثوانٍ، سبع ثوانٍ...».

استرجع سبتيموس رسوم سنوري في رأسه؛ الأفعى، والمفتاح، وبيت الفوريكس المظلل.

«أيبع ثوانٍ، ثلاث ثوانٍ، ثانيتان..».

وهنالك توصل سبتيموس إلى الحل.

«واحد».

«الظل!».

فحدق الحارس إليهم ولم ينطق بكلمة واحدة، وإن كان الباب قد تحدث بالنيابة عنه مُطلِقًا وصلة من الآهات، بينما كان الحارس يفتحه بصعوبة من ثقل وزنه، وعبر سبتيموس عتبة الباب، وعندما همّت چينا لأن تدخل وراءه - كان الحارس يدفع الباب ليغلقه.

فصاح بيتل: «لا! دع چينا تدخل»، ثم قفز بيتل للأمام وألقى بنفسه على الباب.. رجع الحارس للوراء وهو يترنح، وانفتح الباب فجأة، فسقطت چينا وبيتل وسبتيموس داخل بيت الفوريكس وانغلق خلفهم بصفقة قوية.

فقال بيتل وهو يشهق، وقد أدرك فجأة فداحة الخطأ الذي وقع فيه: «يا للهول! دعني أخرج، دعني *أخرج*!».

لكن سبق السيف العزل.. وبات الوقت معلقًا.

45
بيت الفوريكس



أخذ بيتل يردد قائلًا: «سحقًا، سحقًا، سحقًا، سحقًا».

همست چينا قائلة، وقد بدأت تشعر بالغثيان: «ياللهول! *بيتل، ماذا سنفعل الآن؟!*».

«أنا لا أصدق أني تصرفت بهذا *الغباء*. كيف سنتمكن *الآن* من العودة إلى زمننا؟».

رفع الحارس بصره وقال لبيتل بابتسامة عريضة يركزها على جانب واحد من فمه: «زمن؟ وما قيمة الزمن الآن وأنتم هنا؟ ميحبًا بكم في بيت الفوريكس».

وجدوا أنفسهم في بهو المدخل، المعروف ببهو

الشطرنج الذي وصفته الخالة إيلس.. إلا أن المقعد التنيني الطويل الذي كانت الخالة إيلس تجلس عليه بكل حزم وإصرار كان خاليًا. وهنا، اجتاح چينا شعور بالإحباط؛ إذ كانت تتوقع أنها ستجد نكو جالسًا على المقعد ينتظرهم كما فعلت الخالة إيلس، *إلا أنه لم يكن موجودًا*.

قال الحارس وهو يشير إلى دولاب عريض: «ضعوا حقائبكم هنا».

أخرجت چينا أولر من حقيبة ظهرها، وحشرته أسفل ذراعها بإحكام وسط دهش الحارس، ثم ألقى الحارس بالحقائب في الدولاب، والتف إليهم يراقب هؤلاء القادمين الجدد.

رأى القادمون الجدد الثلاثة أمامهم بابًا فضيًا بمصراعين.. وكان نسخة مصغرة من باب مدخل برج السحرة، وإن كانت زخارفه أكثر صقلًا بكتاباته الهيروغليفية التي كانت تكسوه. فتح الحارس الباب على مصراعيه، ثم أشار لچينا وسبتيموس وبيتل بالدخول إلى بيت الفوريكس.. وما إن دخلوا حتى تسمروا في أماكنهم – في صورة ثلاث هيئات صغيرة بدت أقزامًا بين عمودين هائلين من الرخام، وقد بدأت الثلوج التي تكسو أحذيتهم الطويلة تذوب وسط دفء المكان تاركة آثار وحل على الأرض الرخام البيضاء، كان أمامهم مساحة ضخمة تضيئها آلاف الشموع، ومع ذلك كانت هذه المساحة مليئة بالظلال والعتمة.

شعرت چينا بدوار، وبدا لها كأنها تقف عند حافة لعبة دوامة خيول أخذت تلف وتدور في ملاءٍ صامتة يكسوها الضباب، منتظرة دورها.. هي لا تريد أن يأتي دورها، أما سبتيموس فقد ذكّره المكان ببرج السحرة. كان هناك إحساس ما تعكسه الأشياء يوحي له بأنها ليست كما تبدو

تمامًا؛ إحساس بأنها تتحرك حركة طفيفة كلما حاولت تركيز بصرك عليها، موحية لك بأنك كلما دققت النظر فيها قلَّ ما رأيته منها. كما أن بيتل أيضًا ذكره المكان بشيء؛ ذكّره بالفراغ الداخلي للصندوق الخطر الموجود في ساحة دار المخطوطات، ولقد تجرأ بيتل ذات مرة ورفع غطاء الصندوق فرأى دوامة ضبابية عميقة جعلته يريد أن يقفز فيها ويسبح إلى الأبد؛ إلى أن أمسكه فوكسي من ياقته وجذبه بعيدًا.

نظر الحارس إلى تعبيراتهم بابتهاج، وهو عمومًا يحرص على ألا يُبهجه كل شيء، لكنه سمح بهذا الاستثناء مع رؤية هذه التعبيرات التي علت وجوه القادمين الجدد وهم يحاولون فهم دوامات الزمن. وبعد عدة دقائق، بعد أن اكتفى الحارس بهذا القدر من المرح اليوم – بل الشهر بأسره في واقع الأمر – سار بخطوات سريعة صغيرة واختفى عبر باب مذهّب صغير قائم في العمود المجاور لچينا وصفقه.

أعادتهم صفقة الباب إلى أرض الواقع، وهمس سبتيموس قائلًا: «هيا بنا، فلندخل الآن». وبعد أن تشابكوا بالأذرع، تقدموا نحو دوامة من دخان الشموع، كانت تلف وتدور ببطء، وتنشر رطوبة وحرارة في الأجواء.

وبتردد، ساروا قدمًا وقد خالجهم إحساس بأنهم يخوضون عبر وسطٍ أشبه بالعسل مع اندفاعهم بالقوة عبر حاجز غير مرئي. رفع سبتيموس أمامه **حجر الرحلة الاستكشافية** الذي قبع في يده وهو يشع حرارة ويومض بضوء أحمر ناري ساطع، وكان يبرق كأنه شعلة فنار، مضيئًا لهم طريقًا وسط سحب الدخان حولهم. ومع توغلهم أكثر في بيت الفوريكس، بدأت تظهر أمامهم بشكل أوضح أشكال ظلالية اعتبروها في بادئ الأمر

دخان شموع متكاثفًا واضطرابات في الهواء، وبدأت تنبثق هيئات من وسط هذا الجو الخانق وتحيط بهم من بعيد.

همس بيتل قائلًا: «إن المكان هنا يضم أشباحًا، وبأعداد غفيرة».

قال سبتيموس: «إنهم ليسوا أشباحًا، إنهم حقيقيون. أقصد أحياء؛ فأنا أسمعهم؛ **أسمع دقات قلوب بشرية**، وهي بالمئات».

همست جينا قائلة: «ماذا يفعلون هنا؟».

قال سبتيموس: «يفعلون مثلما نفعل، على ما أظن يحاولون العودة إلى زمنهم».

«لكننا لا نفعل ذلك».

«سنفعل».

سكتت جينا ولم ترد بكلمة واحدة، بينما خالج بيتل إحساس بشع، وبدأت الهيئات المحيطة بهم تبدو أقرب إلى الحقيقة؛ حيث بدأت عباءاتهم تتلون وتتخذ أشكالًا، وأصبحت وجوههم أكثر وضوحًا. كان منهم المزارعون والصيادون ونساء في ملابس فاخرة وخدم تقديم الطعام من النساء والرجال في أردية خشنة، وفرسان مسلحون بكل أشكال الدروع والمعدات، ومجموعة كبيرة غريبة المنظر؛ إذ كانوا بملابس ذات حواف ذهبية، متجمعين في صف مثير للاهتمام بأغطية الرءوس المدببة التي يعتمرونها.

كان أولر متوترًا وأخذ يصارع أسفل ذراع جينا يريد القفز إلى الأرض، لكن جينا زادت من إحكام ذراعها عليه؛ فكان آخر ما ينقصها الآن هو أن تفقد أولر.

وبينما كانت هي وسبتيموس يتفحصان الحضور، على أمل أن يلمحا شعر نكو المألوف بخصلاته الشقراء الملفوفة وشعر سنوري الأشقر الفاتح - بدأ يدركان أنهما هما أيضًا باتا مرئيين، وأن كليهما - **وحجر الرحلة** على وجه الخصوص - أصبحا في بؤرة الاهتمام.

وفجأة، أفسح الجمهور الطريق وتقدمت فتاة شابة ترتدي عباءة ورداء أخضر متوجهة مباشرة نحو سبتيموس.. ثبتت الشابة بصرها طويلًا عليه بعينين خضراوين تبرقان بشكل مدهش، ثم أشارت بأصبع طويلة ورقيقة إلى **الحجر**، وقالت بدهش: «أنت معك **حجر الرحلة**».

فأومأ لها سبتيموس برأسه.

«وما اسمك ؟».

«همم، سبتيموس، سبتيموس هيب».

نظرت الفتاة إلى سبتيموس وقد علا وجهها تعبير حائر، ثم قالت وكأنها تبحث عن الكلمات المناسبة: «حسنًا يا سبتيموس هيب، أنت.. أ... قصير جدًا».

رد سبتيموس عليها بسخط: «قصير؟».

«أقصد.. صغير السن. صغير السن جدًا. من المؤكد أنك لم تنهِ فترة تلمذتك بعد».

رد سبتيموس بحيرة: «نعم.. لم أنهها بعد».

فقالت الفتاة بأسلوب جعلها تبدو أشبه بمارشا: «فما الذي تفعله إذن في **الرحلة الاستكشافية**؟».

رد سبتيموس متلعثمًا، وقال: «أنا... أنا لست في **الرحلة** بالمعنى المفهوم، أو بالأحرى أنا لم *أقصد* أن أقوم **بالرحلة الاستكشافية**؛ فقد أعطاني شخص **العجر** وأخذته عن طريق الخطأ».

قالت الفتاة وقد بدت الآن صورة طبق الأصل من مارشا: «عن *طريق الخطأ؟ يا له من غباء!* لكن أيًا كان الأمر فالاختيار ليس بيدنا هنا، وسيضطر سيدي لأن يقابلك بما أنك المتاح لدينا الآن، فقد كنا نتوقع أشياء عظيمة، لكن الآن والأمر هكذا...» ثم نظرت الفتاة إلى سبتيموس تتفحصه من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، بتعبير علا وجهها يوحي بأنها لا تتوقع بأي حال من الأحوال أي شيء أصلًا، ناهيك عن الأشياء العظيمة - إذا كان سبتيموس هو المنوط به ذلك.

كانت چينا تنتظر بفارغ الصبر فرصة تسأل فيها الفتاة ما إذا كانت قد رأت نكو، لكن ما إن فتحت فمها لتنطق حتى اخترقت الجمهور امرأة طويلة القامة يبدو عليها علو الشأن، كانت ترتدي عباءة زرقاء قاتمة حافتها من الفرو، ووجهها الطويل ذكَّر بيتل بحصان كان قد اعتاد أن يطعمه تفاحًا وهو في طريقه إلى المدرسة، ودفعت المرأة الفتاة المتذمرة ذات الرداء الأخضر جانبًا.

ثم قالت: «مرحبًا بكم في عالم الخلود».

قال بيتل وهو يشهق: «عالم الخلود؟ هل أصبحنا *أمواتًا*؟».

ردت المرأة قائلة: «أنتم أحياء في كل الأزمان، ورغم ذلك فأنتم أموات في كل الأزمان. مرحبًا بكم».

رأى بيتل أن هذا لم يكن أفضل ترحيب تلقاه في حياته، وألقى نظرة خاطفة إلى چينا وسبتيموس ولم يبدُ عليهما هما أيضًا الانبهار.

واصلت السيدة ذات الوجه الأشبه بوجه الحصان كلامها قائلة: «أنا حارسة البيت. هذا البيت ساحة انتظار. هنا لن تنقصكم أي وسيلة من وسائل الراحة أو ما إلى ذلك، هنا لن تحتاجوا لأي شيء. والكثيرون يحضرون، لكن القليلون يتمنون الرحيل...»، ثم ظهرت سيدة شابة لها شعر داكن، ترتدي عباءة طويلة من الفرو الأبيض، سلكت طريقها، ثم قاطعت الحارسة قائلة: «*بعضنا* يتمنى الرحيل»، ثم نظرت السيدة الشابة إلى چينا وسبتيموس وبيتل وقالت لهم بنبرة ملؤها الاشتياق: «اشتم فيكم رائحة الثلوج، فقد جئت من قصور سهول الثلوج الغربية، وكل ما أتمناه هو العودة إلى بيتي وأسرتي. لكن *أنتم* دخلتم إلى هنا دون أن تذكروا لأحد الزمن الذي جئتم منه. فلم تتسن لأي منا فرصة الخروج قطُّ».

كانت الفتاة ذات الزي الأخضر، والتي أدرك سبتيموس الآن أنها ترتدي صيحة قديمة جدًّا لرداء - من النوع الذي يصل طوله إلى الأرض ومزخرف بكتابات هيروغليفية قديمة - قد بدأ صبرها ينفد، وقالت: «السيدة الحارسة، لقد حضرت لاصطحاب الفتى التلميذ إلى سيدنا».

قال لها سبتيموس: «إن أصدقائي سيأتون معي».

نظرت الفتاة إلى بيتل وچينا باندهاش، ثم قالت: «أجلبت معك أصدقاءك في *الرحلة الاستكشافية*؟»، ثم لاحظت عباءة چينا الحمراء والطوق الذهبي فشعرت بحرج شديد وانحنت، ثم قالت: «أعتذر ألف

مرة أيتها الأميرة، لم أعِ وجودك»، ثم التفت إلى سبتيموس وقد علاها الآن تعبير أكثر استنكارًا، وقالت له: «ما الذي جعلك تجلب الأميرة معك؟ إن هذا التصرف في منتهى الحمق والغباء؛ فمن الذي سيحمي القلعة الآن؟».

قال سبتيموس وقد ارتسم الغضب على محياه: «لم *أجلبها* معي. لقد كانت فكرتها هي، فنحن نبحث عن أخينا، ونعتقد أنه هنا».

بدا الذهول على التلميذة القديمة، وقالت له: «أنت أمير. أنا آسفة جدًا» وانحنت مرة أخرى.

فقال سبتيموس على الفور: «لا.. لا، لست أميرًا».

فتوقفت التلميذة في منتصف الانحناءة، ثم قالت باقتضاب: «اتبعوني». وانطلقت وسط الزحام كأنها البطة الأم التي تجر خلفها صغارها الثلاثة المنفلتة، وأفسح لهم الجمهور الطريق حتى يمروا، محدقين إليهم وهم يسلكون طريقهم.

وهكذا، تابع ثلاثتهم البطة الأم إلى سلم عريض أخذهم لأعلى وأعلى، إلى أن باتوا محاطين بسديم من دخان الشموع، كان معلقًا في الأجواء فوق البهو بالأسفل، وأخيرًا وصلوا وهم يسعلون ويجمجمون إلى منبسط سلم له درابزين وتصطف على امتداد جدرانه دكك رخام، ومئات التجاويف التي تحتوي - رغم صغرها - على مزيد من الشموع. وبعد أن أصبحوا الآن بعيدًا عن الزحام، بدأت التلميذة القديمة تسترخي قليلًا، ثم توقفت ونظرت إليهم على طريقة المرشدة السياحية، وقالت وهي تشير

نحو السديم: «هناك أربعة سلالم، كل منها يقود إلى برج، وفي كل برج هناك لوح زجاجي قديم».

نظر سبتيموس إلى جينا؛ فهذا الكلام جديد وله أبعاد ستفيدهم كثيرًا. فسألها: «ما نوع هذه الألواح الزجاجية؟».

ردت عليه التلميذة بطريقة مارشا مرة أخرى قائلة: «لن أشرح هذا، أنت أصغر بكثير من أن تفهم. اتبعوني»، ثم دفعت الفتاة بابًا مخفيًا في الجدران الرخام البيضاء المبقعة بالسخام وفتحته، ثم أمرتهم قائلة وهي تشير إلى مجموعة من الشموع المشتعلة في شمعدانات نحاسية متراصة في صفوف بتجويف بجانب الباب: «فليأخذ كل منكم الآن شمعة»، وبعد أن أخذت هي نفسها شمعة مرت عبر الباب.

ثم أخذ كل منهم شمعة، وتابعوا خطوات الفتاة ودخلوا ممرًا ضيقًا يسلك طريقه وسط الجدران الرخام بحيث كان جانباها المائلان لأعلى يتقابلان في منسوب لا يبعد كثيرًا فوق رءوسهم. كان الممر يمتد في مسار شديد الانحدار لأعلى، وراحوا يتبعون الفتاة المتمرسة بخطوات تتزحلق وتتعثر على سطح الرخام الناعم أسفل أقدامهم.

ثم سألها سبتيموس: «إلى أين نحن ذاهبون؟».

لم ترد عليه الفتاة.

وبعد عدة دقائق، وصلوا لاهثين إلى نهاية الممر من طول السير على امتداد المنحدر. وهنا، تأججت شعلات الشموع وألقت بظلال متعرجة عبر الرخام الذي يكسوه لون أسود من دخان. ولوهلة، خُيل إلى

سبتيموس أنه يرى أشياء؛ إذ رأى أمامه الباب الأرجواني الكبير الذي يؤدي إلى جناح مارشا يسد عليهم الطريق.

صاح سبتيموس وهو يشهق: «هذا باب جناح مارشا!»، ثم نظر حوله إلى چينا وبيتل وقال: «إنه هو، أليس كذلك؟».

رد بيتل قائلًا: «هكذا يبدو، وإن كان ذلك مستحيلًا، أليس كذلك؟ لا بد أنه نسخة منه».

«بل إنه طبق الأصل؛ انظر إلى هذا.. فقد باغتت مارشا كاتشبول ذات مرة وهو يحفر على الباب الحرفين الأولين من اسمه حين كان في نوبة حراسة». وأشار سبتيموس إلى حرفي (الكاف) و(الباء)، وكان الحرف الأخير غير مكتمل، ثم واصل سبتيموس قائلًا: «وهذه هي الحافة التي مضغها لافظ اللهب، وهذا هو المكان الذي ركله السفاحة؛ إنه نفس الباب».

ومع اقتراب سبتيموس من الباب، تصرف الباب كما يتصرف باب مارشا دائمًا؛ إذ تحرك مزلاجه وبدأ ينفتح على مصراعيه.

قال بيتل وهو يحاول أن يطل منه: «هذا غريب جدًا. هل تعتقد أننا سنجد مارشا في الداخل أيضًا؟».

قالت الفتاة لبيتل وهي تتقدم أمامهم: «لن تجد أحدًا بالداخل»، ثم أمسكت بمقبض الباب بقوة وقالت: «لأنك *لن* تدخل».

قالت چينا: «بل سيدخل. وأينما يذهب سبتيموس سنذهب معه».

بدأت الفتاة تقول: «يا صاحبة الجلالة...».

قاطعتها چينا وهي تستشيط غضبًا وقالت: «لا تناديني بصاحبة الجلالة».

«أنا آسفة، ما كنت أقصد الإزعاج. والآن، سوف أمنحك عدة دقائق تودعين فيها **القائم بالرحلة الاستكشافية**، ثم لا بد بعد ذلك أن ترحلي أنت وخادمك. أنا مدركة أن هذا موقف مُحزن يفطر القلوب، لكني أتمنى لكليكما رحلة سريعة أثناء عودتكما إلى القلعة، كما أتمنى أن يحالفكما الحظ في العثور على الزمن المناسب؛ أنت محظوظة إذ معك مفتاح هذا البيت، ولعل حريتكما في التجول تأخذكما إلى حيث تتمنيان. الوداع». ثم انحنت الفتاة وفجأة - على نحو باغت ثلاثتهم - دفعت سبتيموس داخل الغرفة، وعلى الفور كانت قد دخلت وراءه جريًا، لتصفق الباب بعد ذلك في وجه چينا وبيتل.

وفي ذهول، تبادلت چينا وبيتل النظرات وهما يسمعان الصوت الذي يميزانه للباب وهو **يمترس**.

قال بيتل: «*سحقًا، سحقًا، سحقًا، سحقًا*».

46
رحلة أولر الاستكشافية



أخذت چينا *تطرق الباب وهي تصيح: «سب! سب!».*

ومغتنمًا الفرصة، حرر أولر نفسه من أسفل ذراع چينا، لكن بيتل أمسك على الفور بذيله وهو يهم بالانطلاق كالصاروخ. وبغضب أطلق أولر صرخة، لكن بيتل – متجاهلًا مخالبه الحادة – استطاع أن يرفعه من على الأرض، وحشره أسفل ذراعه دون أن يكف القط عن صراعه، ثم قال لچينا: «چينا.. سوف نُخرج سبتيموس من هنا، مهما كلفنا ذلك. أوه! كفى يا أولر».

وبيأس، استندت چينا بظهرها إلى الباب **المحترس**، وقالت وهي تنوح: «لكن كيف؟ كيف؟».

قال بيتل على الفور وهو ينظر في عينيها: «سوف أعثر على فأس وأحطم بها الباب».

نظرت چينا بدورها إلى بيتل، وهي تعلم أنه كان يقصد كل ما قاله، فقالت له: «حسنًا».

وانطلقا نازلَيْن الممر الرخام.. ومع تقهقرهما المؤقت بعيدًا عن ميدان المعركة، صاح بيتل قائلًا: «سوف نعود!» حدق الباب إليهما بدوره، يتحداهما وهو المنيع.

كانت السيدة ذات الوجه الأشبه بوجه الحصان تنتظر على دكة لدى المنبسط الذي تملؤه الشموع، ومع انبثاق چينا من الباب المخفي هبت الحارسة واقفة على قدميها، وقالت وهي تزرع نفسها أمام چينا وتسد عليها الطريق: «أيتها الأميرة؟».

ردت چينا بنبرة حادة: «نعم».

وبرقة، ابتسمت الحارسة؛ كان وجهها يكسوه تعبير أقرب إلى الزهو بالنفس أصاب چينا بالتوتر، ثم قالت لهما: «إلى أين أنتما ذاهبان؟».

ردت چينا بحدة: «ذاهبان للبحث عن فأس»، ثم تمنت على الفور لو ما قالت.

ومع ذلك لم تبدِ الحارسة أي رد فعل، وقالت: «أريد التحدث معكِ في بعض الأمور.. يمكنك أن ترسلي خادمك كي ينفذ لك طلباتك».

«خادمي؟».

لوحت الحارسة بذراعها نحو بيتل الذي كان محشورًا في الممر خلف جينا ومنشغلًا بأولر.

شعرت جينا بالسخط وقالت: «إنه ليس *خادمي*».

«وما هو إذن؟».

«إنه ليس جمادًا أو حيوانًا كي تقولي عنه *ما*.. قولي من هو. كما أن هذا ليس من شأنك. هل تسمحين لنا بالمرور من فضلك؟ فنحن منشغلان الآن»، وحاولت جينا أن تمر من جانب الحارسة، لكن مرة أخرى سُد عليها الطريق.

وقالت لها الحارسة: «أيًا كان ذلك الذي تريدين القيام به، فليس هناك داعٍ للعجلة؛ فالوقت أمامك ممتد للأبد، ما عدتِ الآن تعيشين في عربة الزمن تلك التي يجرها حمار وتواصل بلا توقف تدحرجها قدمًا».

ردت جينا عليها ببرود وقالت: «أشكرك. لكن *أنا أفضل* العربة التي يجرها حمار؛ فهي على الأقل توصل إلى أي مكان. والآن، بعد *إذنك*».

«أنت صغيرة السن؛ ولذلك سوف أعذرك.. والآن أعطيني المفتاح».

«*ماذا قلت*؟».

«المفتاح»، وأشارت الحارسة إلى مفتاح غرفة الملكة الذي يتدلى من عنقها.. وهو مفتاح ذهبي جميل مرصع بالزمرد.

«لا!».

«بل سآخذه!» وعلى الفور، كانت الحارسة قد أمسكت جينا بقبضة قوية وأخذت تغرز أظافرها في ذراعها، وهمست لها قائلة بصوت

كالفحيح: «لا بد أن تعطيني المفتاح؛ إنه ملك هذا البيت هنا، ولقد سرقتِه».

وجدت جينا نفسها تستشيط غضبًا، وردت عليها قائلة: «*أنا لم أسرقه*! ودعيني الآن!».

هزت الحارسة رأسها وقالت لها: «ليس قبل أن تعطيني المفتاح»، ثم ابتسمت فتلألأت أسنانها الأشبه بأسنان الحصان، ثم واصلت قائلة: «أنا صبور جدًا؛ فالزمن لا يعني لي شيئًا، وإن كان لايزال يمثل لك شيئًا على ما يبدو لسوف أنتظر، ويمكننا الوقوف هنا كما تشائين». وهنا، غاصت أظافرها أكثر في ذراع جينا.

جاء صوت بيتل وهو يقول بنبرة تهديد لم تسمعها جينا منه من قبل: «اتركيها فورًا».

قالت الحارسة بتهكم: «إن خادمك *مخلص* جدًا».

وفجأة، انطلقت بداية زمجرة طويلة من مكان ما بجانب ركبتي الحارسة.. وما إن نظرت الحارسة للأسفل حتى كان أولر الليلي الذي بدا مستعدًا للانقضاض- يحدق إليها بعينين غاضبتين، ثم قال بيتل بنبرة هادئة: «اتركي الأميرة فورًا، أو ستترك نمرها الأسود ينقضُ عليكِ».

وعلى الفور كانت الحارسة قد تركت جينا؛ فالنمر الأسود، أيًا كان الزمن، يظل نمرًا أسود.

ثم أمسك بيتل بيد جينا بقوة، وقال لها: «هيا بنا. فأمامنا الآن مهمة العثور على فأس».

تسمرت الحارسة في مكانها من فرط الخوف، وراقبتهم وهم يعبرون المنبسط مسرعين، ثم رأتهم – مع انعطاف النمر الأسود فجأة وانطلاقه بسرعة فائقة صاعدًا أحد سلالم الأبراج الجانبية – وهما يغيران من سرعتهما إلى الركض السريع وراء النمر الأسود.

صاحت چينا وهي تنطلق كالصاروخ في أعقابه: «أولر! عد يا أولر! *أولر!*».

ولأن الحارسة لم تعتد مثل هذه الإثارة، استأنفت جلوسها في مكانها على الدكة وانتظرت؛ لعلمها بأن كل شيء في بيت الفوريكس يحصل عليه هؤلاء الذين ينتظرون؛

كان سلم البرج الجانبي ضيقًا وشديد الانحدار، ويبدو وكأنه بلا نهاية. وانطلقت چينا وبيتل صاعدَيْن وراء أولر، ثم توقفت بعد أن كانت تتقدم بيتل وانتظرته لدى مدخل صغير مقنطر مبني من الأحجار. كان السلم يواصل صعوده لأعلى، لكنها رأت من المدخل المقنطر طرقة طويلة مظلمة يضيئها عدد قليل من الشموع فتوقفت لتلتقط أنفاسها. تُرى، أي اتجاه انطلق فيه أولر؟

ثم لحق بها بيتل فسألته وهي تزفر: «هل تراه؟».

كان بيتل يلهث لدرجة منعته من الرد عليها فهز لها رأسه، ثم لمح في ظل ضوء آخر شمعة من شموع الطرقة الطرف البرتقالي لذيل النمر الأسود، فقال على الفور: «إنه هناك!».

ومع شعور چينا بدفعة جديدة من النشاط تدب في جسدها، رفعت رداءها الطويل عن الأرض، واندفعت جريًا على امتداد الطرقة، يتبعها

بيتل عن قرب. كان الممر يتبع في مساره الشكل المثمن للبرج، وكان انعطافه بزاوية 135 درجة عند نهاية كل ضلع كافيًا لأن يحجب رؤية الضلع التالي، كان البرج يتسم بالخشونة، خلافًا لثراء منظر الرخام الذي يكسو الجزء الرئيسي من بيت الفوريكس، وكان صدى صوت أقدامهم يتردد مع انطلاقهما جريًا على الأرض الحجرية العارية.. ومن فرط حرص چينا وبيتل على اللحاق بأولر، لم يلحظا الغرف الصغيرة التي كانت تتفرع من الطرقة؛ كانت كل غرفة منها مضاءة بشمعة واحدة، وتحتلها هيئات ضبابية تؤدي أعمالها الروتينية المألوفة التي تقوم بها يوميًا، علمًا بأن بعضهم يقوم بهذه الأعمال منذ آلاف السنين.

وبينما كانت چينا وبيتل ينعطفان عند كل ركن، كانا يلمحان ذيل أولر وهو يتوارى عن الأنظار متوجهًا إلى الضلع التالي، ثم الذي يليه، وهكذا. كان عدد قليل من المقيمين في البرج يخرجون من غرفهم ويلقون نظرة في الطرقة؛ إلى أولر أولًا ثم إلى خطوات چينا وبيتل المسرعة، لكن لم يولهم أحد أي اهتمام.

ومع انعطافهما عند ركن آخر، أدركت چينا أن ذيل أولر لم يعد له أي أثر فتوقفت لتلتقط أنفاسها، وزفرت قائلة بعد عدة ثوانٍ عندما لحق بها بيتل: «لا أستطيع .. أن.. أراه.. لقد اختفى».

استند بيتل إلى الحائط وهو يلهث؛ فحتى الأيام القليلة الماضية كان نمط حياته تقل فيه الحركة، ولقد أجهزت عليه الدقائق المعدودة الأخيرة، وكان كل ما في وسعه الآن أن ينطق به أن قال لها: «آآآآآآآه».

وفجأة، من مكان ما على امتداد الطرقة، صدرت صرخة تلتها صيحة تملؤها الفرحة، تقول: «أولر! أولر، أولر، أولر، أولر!».

نظرت چينا إلى بيتل شبه متحمسة وشبه خائفة، ثم همست قائلة: «إنها سنوري».

«فعلا ؟».

«فعلًا يا بيتل! إن سنوري *هنا*. ولا بد إذن أن نكو... لا بد أنه هو أيضًا هنا»، ثم لاحت فكرة بشعة في ذهنها: فماذا لو كان نكو غير موجود هنا.. ماذا لو كان قد ألمَّ به شيء وأن سنوري فقط هي الموجودة هنا؟! نظرت چينا إلى بيتل، ثم همست قائلة: «أنا مرعوبة. أخشى أن نكون قد قطعنا كل هذا الطريق بلا جدوى».

وضع بيتل ذراعه حول چينا وقال لها: «ليس هناك سوى طريق واحد لاكتشاف ذلك. هيا بنا، فلنذهب إليها الآن ونر».

بدا لچينا أنها تقطع أطول طريق في حياتها، كانت هي وبيتل يتقدمان ببطء؛ حيث كانا يتوقفان لينظرا داخل الغرف، كان كل منها يضيئها ضوء خافت. في أول غرفة، كان هناك سريران ومائدة بسيطة، ويجلس إلى المائدة فتاتان تثرثران بهدوء وبينهما زجاجة شراب، وكانت الغرفة الثانية شبه خالية من الأثاث وتشبه الثكنات العسكرية، وكان هناك رجل يجلس على طرف سرير ضيق يُلمع سترة مدرعة براقة، وفي الغرفة الثالثة كان هناك سرير حبلي طرفاه مثبتان في حائطين متقابلين.. وكانت قطعة الأثاث الوحيدة الموجودة في الغرفة جذعَ شجرةٍ عريضًا، وكان يجلس عليه رجل ذو لحية يكسوها الشيب ويرتدي زي الصيادين، وقد أخذ

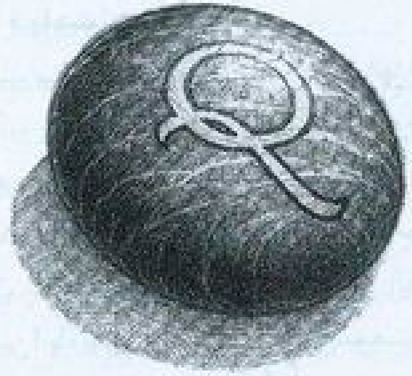
ينسج بالتريكو، بينما كانت الغرفة الرابعة متراصة بالكتب.. ورأت چينا في الظل هيئة سيدة ترتدي ثوبًا طويلًا داكنًا تجلس إلى مكتب وتكتب، وكانت الغرفة الخامسة خالية.. أما الغرفة السادسة فكانت تضم ثلاثة أعضاء من الفرقة التي تعتمر قبعات مدببة وكانوا يجلسون حول مائدة، يلعبون إحدى ألعاب الألواح ثم نظرا في الغرفة السابعة، وكانت هي الغرفة التي وجدا فيها سنوري سنوريلسن.

وبيد متشبثة بيد بيتل وبقلب يخفق بشدة حتى إنها كانت واثقة من أن سنوري تسمع دقاته - دخلت چينا من الباب برفق ووقفت في الظلال؛ كان كل ما رأته هو الشمعة المشتعلة التي كانت تلقي بضوئها على شعر سنوري الأشقر الفاتح والهيئة الداكنة لأولر في حضن سنوري، أما نكو فلم تر له أثرًا. وهنالك... وهنالك، ارتفع صوت من بين الظلال بجانب چينا يقول: «چين؟ چين! ياه يا چين!».. وعلى الفور سمعت چينا صوت مقعد يُزاح بعيدًا عن مائدة وهو يقعقع محتكًا بالأرض.. وفي لمح البصر، وجدت نفسها تلفها دوامة عاصفة رفعتها فوق سطح الأرض، أخذت تدور بها الغرفة وتلف وتدور.. كأنها عادت طفلة صغيرة من جديد.

أنزل نكو چينا لتقف على قدميها مرة أخرى لكنها أبت أن تتركه، ورأى بيتل رأس چينا موضوعًا في زي البحارة المتسخ الذي يرتديه نكو، وكانت كتفاها تهتزان.. ولم يكن بيتل واثقًا ما إذا كانت تبكي أم تضحك، وظل غير واثق حتى بعد أن رفعت چينا بصرها بعينين يملؤهما الإشراق، وبأعرض ابتسامة رآها بيتل ترتسم على وجهها.

وقالت چينا وهي تضحك: «عثرنا عليه. عثرنا عليه!».

47
رحلة سبتيموس الاستكشافية



لم *يسمع سبتيموس على الجانب الآخر من الباب الأرجواني السميك* صياح چينا وطرقها. وبغضب، أمر الباب بأن **يُبطل مترسه**.

فضحكت الفتاة وقالت له: «لن تنجح يا سبتيموس هيب، وعلى الرغم من أن البابين بالفعل **توءمان**، فإن كل التوائم المتشابهة طبق الأصل تحمل أيضًا اختلافات بينها.. ولقد اكتشفت توًّا أحد هذه الاختلافات»، ثم نظرت التلميذة إلى سبتيموس وهي تقيمه بنظرة محبطة، وقالت: «لقد قضيت زمنًا طويلًا في انتظار **أحد القائمين بالرحلات الاستكشافية**، وكنت

آمل أن يحضر شخص أكثر نضجًا أستطيع أن أقضي معه أيامًا أرفه بها عن نفسي. هل تلعب الورق؟».

«الورق؟».

«أستطيع أن أعلمك بعض الألعاب، أعتقد أن لعبة الشايب ستكون من مستواك».

«الشايب؟».

تنهدت الفتاة وقالت: «ربما لا».

سكت سبتيموس ولم ينطق بكلمة واحدة، كانت الفتاة تذكره بلوسي جرينج وإن كانت أكثر إزعاجًا منها. وبعد أن علم أنه لا أمل في التحاور معها بشكل عقلاني، صب تركيزه على المحيط الجديد حوله فوجد نفسه في غرفة هائلة الحجم مثمنة الشكل تعلوها قبة زجاجية رائعة، رأى من خلالها السماء التي بدأ يتسلل إليها الظلام ليغمرها بلون الشفق الوردي الذي يصاحب غروب الشمس. إنه، على حسب ظنه، في أعلى مكان من بيت الفوريكس.. وبينما كانت التلميذة القديمة تراقبه بعيني الصقر، راح سبتيموس يجوب الغرفة.. كانت الغرفة شاسعة، وذكّره كل أثاثها ومفروشاتها – من السجاد والصناديق المزخرفة باللازوردي إلى اللوحات المطرزة الفاخرة – بجناح مارشا. لكن هذا، وكما قال في سره، لا يفسر تمامًا سبب هذا الإحساس المألوف على نحو غريب الذي شعر به؛ فهناك شيء آخر في الغرفة هو السبب في هذا الإحساس؛ شيء أساسي أكثر من كل هذا – نعم؛ إنها *رائحة السحر* التي تنتشر في المكان.

سأل سبتيموس التلميذة المتذمرة: «*ما* هذا المكان؟».

فجاء الرد ساخرًا: «إنه بيت الفوريكس».

رد سبتيموس محاولًا أن يتحلى بالصبر: «أعلم ذلك، أقصد المكان *هنا*؛ *هذه الغرفة*.. ما هذه الغرفة؟».

«انتظر وسرعان ما ستكتشف ذلك».

تنهد سبتيموس، ثم حاول التحاور معها بسؤال آخر: «من *أنتِ*؟».

ولدهشته، ردت الفتاة على السؤال وقالت: «أنا تلمار».

تلمار. إن الاسم مألوف، وحاول سبتيموس أن يتذكر السبب.. ثم تذكر. وفجأة، خالجه إحساس غريب جدًا، ثم سألها قائلًا: «أتقصدين تلمار *راي بيل*؟».

وارتسمت نظرة اندهاش على وجه الفتاة، ثم سألته: «كيف عرفت هذا؟».

فابتسم سبتيموس ابتسامة عريضة؛ سعيدًا بتأثير رده.

ومن مكان ما ليس ببعيد، صدر رنين لجرس فضي، واستعادت تلمار هيئتها المتعالية، ثم قالت: «إن السيد مستعد. اتبعني يا سبتيموس هيب».

ومع غروب الشمس الآن أظلمت القبة الزجاجية.. وبينما كان سبتيموس يتبع تلمار كانت الشموع تشتعل واحدة تلو الأخرى لتضيء لهما الطريق. وعند الطرف البعيد من الغرفة، أزاحت تلمار ستائر ثقيلة لتكشف عن هيئة جالسة بجانب النار على مقعد مريح ومنخفض، خلافًا

لذلك المقعد المجاور للمدفأة في جناح مارشا، والذي تصر دائمًا على أنه مقعدها هي.

أشارت تلمار لسبتيموس بالتقدم فمر عبر الستائر ورأى الهيئة الجالسة؛ وهي لرجل كهل هزيل، شعره الأبيض طويل ومموج، ويجعله منسدلًا للخلف رباط رأس خاص بالسحرة الأعظمين، ثم انعكس ضوء شعلات الشموع على عينيه الخضراوين وجعلهما تبدوان كأن النار شبت فيهما.

قالت تلمار: «هذا هو **القائم بالرحلة الاستكشافية** الذي ننتظره؛ سبتيموس هيب».

قال الرجل **المسن** بابتسامة أضاءت وجهه: «مرحبًا أيها الفتى»، وبدأ يهم بالوقوف فأسرعت إليه تلمار لتساعده. وبعد أن وقف بهيئة مترنحة ومحنية الظهر بعض الشيء، رآه سبتيموس يرتدي عباءة من عباءات السحرة التي عفى عليها الزمن، تنتمي للزمن البائد عندما كانت العباءات مطرزة بخيوط من الذهب ترسم أشكالًا لكتابات هيروغليفية، ثم بدأ الرجل يسير نحو سبتيموس بخطوات بطيئة متكئًا على ذراع تلمار.

ثم قال هامسًا وبلهجة لم يسمعها سبتيموس من قبل: «من القديم إلى الحديث، أقدم تحياتي».

رد سبتيموس ممسكًا بيد الرجل النحيلة: «وأنا أيضًا أقدم لك تحياتي».

نظر الرجل لأسفل إلى يد سبتيموس اليمنى، وتابع سبتيموس نظرته فوجده ينظر إلى الخاتم التنيني الذي كان يبرق بسطوع غير مسبوق، كأن سبابة يده اليمنى يعلوها مصباح صغير.. همس الساحر الأعظم القديم قائلًا: «إن معك خاتمي التنيني».

قال سبتيموس: «*خاتمك*؟! لكني كنت أظن أنه ليس ملكًا لأحد غير... ياه! آه! *بالطبع*».

فسأله الرجل المسن: «إذن، أنت تعلم من أنا؟».

فأومأ له سبتيموس برأسه؛ لقد فهم *الآن*، وقال: «أنت حتب رع».

وفي صحبة النجوم التي أخذت تتلألأ عبر القبة والقمر الذي كان يتحرك في السماء - جلس سبتيموس وتلمار وحتب رع يتناولون أفخر الأصناف التي شملتها الوليمة التي افترشت المائدة الطويلة المنخفضة أمامهم، والتي أعدتها تلمار أمام نار المدفأة، ثم صبت تلمار شايًا بالنعناع في ثلاث كئوس صغيرة ملونة.

رفع حتب رع كأسه وقال: «دعونا نحتفل بانتهاء **الرحلة الاستكشافية**»، ثم ارتشف الشاي في جرعة واحدة، وحذا سبتيموس وتلمار حذوه.

«لم يتبق الآن سوى أمر واحد قبل أن تنتهي **الرحلة الاستكشافية**».

قال سبتيموس وهو يخشى الأسوأ: «ماذا؟!».

«لا بد أن تعطيني **حجر الرحلة الاستكشافية**».

ابتسم سبتيموس؛ فهذا هو منتهى أمله وأخرج من جيبه **الحجر** الذي توهج الآن باللون الأحمر الناري.

ومع شعور سبتيموس بالارتياح وهو يتخلص أخيرًا من **الحجر** وضعه في اليد الممدودة إليه، ثم وضع حتب رع يده الأخرى على **الحجر** فرأى سبتيموس الضوء الساطع الصادر عنها وهو ينفذ ببريقه عبر يد الرجل، ويرسم عظامها أسفل الجلد كأنها ظلال حمراء قاتمة، ثم بدأ الضوء يتلاشى وعادت يد حتب رع كما كانت غير شفافة. وما إن بسط يده حتى كان **حجر الرحلة** قد تحول لونه إلى الأسود القاتم، ثم قال حتب رع وقد أشرقت على وجهه ابتسامة: «لقد أنهيت **الرحلة**، أما عن سبب أني جعلتك تقطع كل هذا الطريق فهذا لتجلس إلى جواري وتحكي لي كل ما حدث في القلعة أثناء غيابي».

فسأله سبتيموس، وهو يتساءل في سره كيف يفترض الرجل أنه يعرف كل هذا: «*كل شيء*؟».

«بصفتك تلميذًا ستعرف مثل هذه الأمور. والآن، قبل أن تبدأ، سأضع توقيعي على ظهر **الحجر** وأعيده إليك حتى تحتفظ به كذكرى من هذه الرحلة».

لم يكن سبتيموس يدري ما إذا كان بالفعل يريد الاحتفاظ بشيء يذكره بهذه الرحلة أم لا، لكنه لم ينطق بكلمة. وما إن لف حتب رع **الحجر** على وجهه الآخر حتى علا وجهه تعبير ينمُّ عن الانزعاج، فسألته تلمار: «ما الخطب يا سيدي؟».

فغمغم حتب رع قائلًا: «لا أفهم. لقد رقمت هذه **الأحجار** بعداد مخفي، وكلما تم سحب **حجر** منها ظهر عليه رقم السحب.. والرقم الذي ظهر على هذا **الحجر** الآن هو 21؛ أي أن هذا هو آخر **حجر**».

قالت تلمار وهي تحدق إلى سبتيموس: «لقد *رأيت* بالفعل أن ثمة شيئًا غريبًا؛ إنه صغير السن جدًّا، حتى إنه لم يُكمل فترة تلمذته».

فقال حتب رع في حيرة: «فعلًا! لكن هذه الرحلة من المفترض أن تكون تكريمًا يُحجز حتى آخر يوم من أيام تلمذة التلميذ».

«بالضبط. لا بد أنه سرقها. إنه ليس إلا لصًّا!».

وهنا ما عاد في قوس الصبر منزع، فقد طفح به الكيل من طريقة تلمار الفظة، وانفجر بسخط قائلًا: «*كيف تجرؤين* وتصفينني باللص؟ على أية حال، من الذي سيرغب أصلًا في أن يسرق هذا **الحجر**؟ إنه لا يجلب سوى المتاعب، وأؤكد لك *أنني* آخر **القائمين بالرحلات الاستكشافية**.. لقد كان هذا آخر **حجر في الجرة**، ودعيني أقل لك شيئًا: إن كل هؤلاء الذين خرجوا في **الرحلات الاستكشافية** لم يعودوا قطُّ؛ إنها ليست تكريمًا يناله صاحبها بل لعنة، وكل تلميذ يتملكه *الرعب* من آخر يوم في فترة تلمذته بسبب ذلك.. وتيرتيوس فيوم...».

وهنا قاطعه حتب رع وقال هو يشهق: «تيرتيوس فيوم! هل عاد هذا الكذاب الداهية المخادع المقزز؟».

قال سبتيموس: «في واقع الأمر شبحه هو الذي عاد».

«شبحه؟ حسنًا، إنه على الأقل ما عاد حيًّا. لكن ما هذه الوقاحة؟ فبعد أن **نفيته** يتسلل ويعود بمجرد رحيلي. متى حدث ذلك؟».

«منذ زمن بعيد؛ إنه من *القدماء* الآن».

«ما مدى قِدَمه؟».

«أنا... أنا لا أعلم بالضبط، لكنه أحد *أقدم القدماء* في القلعة».

«أحد *أقدم* القدماء!»، ثم صمت حتب رع لبضع دقائق ولم تجرؤ تلمار أو سبتيموس على الكلام. وأخيرًا، قال الساحر الأعظم القديم بهدوء وكأنه يتوقع أن يسمع أنباء سيئة: «قل لي أيها التلميذ عدد السحرة الأعظمين الذين جاءوا بعد أن تركت أنا وتلمار القلعة؟».

رد سبتيموس قائلًا: «سبعمائة وستة وسبعون».

قال حتب رع مذهولًا: «*أنت تمزح!*».

«لا. لقد كان لا بد أن أحفظ ذلك منذ أن أصبحت تلميذًا، والساحرة العظمى التي أتدرب على يديها الآن كانت تجعلني أكتب ذلك وألصقه على الحائط. وعلى أية حال، لقد أحصيتهم الأسبوع الماضي».

ازدرد حتب رع ريقه بصعوبة، ثم قال بهدوء: «كنت أظن أن الرقم سيكون على أقصى تقدير خمسة أو ستة، إن الأمور ليست كما كان ينبغي أن تكون»، فسأله سبتيموس: «وكيف... وكيف كان ينبغي أن تكون؟».

تنهد حتب رع وقال: «تناول شيئًا من الطعام أيها الزميل الذي يقاسمني في سيادة التنين. احكِ لي الآن عن **رحلتك الاستكشافية**، ولسوف أحكي لك عن رحلتي أنا».

وهكذا، حكى سبتيموس له وهو جالس أسفل القبة التي بات يضيئها نور القمر الآن - كيف وصل إلى بيت الفوريكس. وبعد ذلك، وبعد أن التهم بنهم من أطباق الفاكهة التي كانت تفوح منها رائحة زكية، ومن اللحوم والأسماك المتبلة، وشرب الشاي بالنعناع، استمع إلى الصوت الخافت الرخيم لأول ساحر أعظم في التاريخ.

قال حتب رع: «عندما كنت شابًا، فقد كنت شابًا في يوم من الأيام، لم يكن مسموحًا بالعبث بعنصر الزمن، لكن مثل العديد من الشباب كنت أخترق القوانين أحيانًا، وعندما اكتشفت سر تعليق الزمن علمت أني لا بد أن أعثر على مكان أحتفظ فيه بالسر وأعمل على إنجاحه. ولقد جُبت العالم من أقصاه إلى أدناه، وعثرت مصادفةً على غابة جميلة في مركزها هاوية، وكان ينبثق من مركز هذه الهاوية صخرة مرتفعة، وعندما رأيتها علمت أني عثرت على أفضل مكان أقيم فيه «بيت الزمن» السري الخاص بي.. «ومن ثم شرعت في إنشائه، وأول ما فعلته أني تسببت في إنشاء جسر.. ما رأيك فيه؟ إنه جسر جميل، أليس كذلك؟».

أومأ له سبتيموس برأسه؛ حتب رع محق في ذلك؛ الجسر بالفعل جميل.

ابتسم حتب رع، ثم قال: «إنه جميل لكن مرعب، وهناك الآن لسوء الحظ استعدادات بين السحرة الذين يتميزون بقدرات **سحرية** أقوى من غيرهم للخوف من الارتفاعات، ولا بد أن أقر هنا بأني تمنيت أن يظل زملائي السحرة بعيدين عن «بيت الزمن»؛ إذ لم أكن أود أية تدخلات منهم أو خدع؛ فالسحرة قد يشعرون بالغيرة من المواهب الحقيقية أيها التلميذ ومن غير المستبعد عليهم أن يُقدِموا على أعمال تخريبية.. ضع ذلك دائمًا في الاعتبار ولا تنسه أيها التلميذ. ومن ثم، لكي أضمن تمامًا أنهم سيتركونني وشأني - أغريت حيوانات الفوريكس التي يعتقد الكثيرون أنها أسطورية، وجعلتها تواصل اللف جريًا إلى الأبد حول

المسار الذي يحيط بالهاوية؛ كي تحرس «بيت الزمن».. وسرعان ما لاحظت أن هؤلاء الذين يحضرون يُطلقون على هذا المكان هنا بيت حيوانات الفوريكس، ولقد أسعدني ذلك؛ حيث إن الاسم فيه تمويه، ويخفي حقيقة أن هذا المكان هو الذي تتلاقى فيه كل الأزمان.

«عندما تقدمت في السن، تركت القلعة والملكة العزيزة ومركبي التنينية المسكينة، وجئت إلى بيتي هنا، وأتمنى الآن لو كنت جئت إلى هنا قبل ذلك، عندما كنت متمتعًا بقوتي، لكنني أردت أن أرى المركب أثناء إصلاحها. ونصيحة لك أيها التلميذ، لا تلجأ أبدًا إلى عمال الميناء لإصلاح أي مركب؛ إنهم كسالى ولصوص. وكنت أواسي نفسي بينما كنت في طريقي إلى هنا في بيت حيوانات الفوريكس - بأني، وإن كنت سأفتقد القلعة، لا أزال أستطيع أن أعلم ما الذي يحدث هناك؛ لأني قمت بإعداد **الرحلة الاستكشافية**.

«وكانت **الرحلة الاستكشافية** تُعد شرفًا عظيمًا يناله التلميذ، وكنت ألهو مستمتعًا بفكرة أني جعلت أكثر التلامذة موهبةً فقط هم من يقومون **بالرحلة الاستكشافية**، لكني أدركت أن هذا ليس عدلًا، ومن ثم ابتكرت سَحْبًا، وملأت جرة ضخمة بمئات القطع من أحجار اللازوردي، والتي كان من بينها إحدى وعشرون قطعة محفورًا عليها حرفا (ر.ا) بالذهب، وبذلك تُسنح لكل التلامذة فرصة عادلة للسحب. ولقد رأيت أنه بعد سبعة أعوام من العمل المضني سيُعد بمثابة التتويج للتلميذ أن يتم اختياره للخروج في **رحلة استكشافية**، يزور فيها مؤسس برج السحرة ويزوده بأخبار القلعة؛ ليعود بعد ذلك بمعلومات ومفاهيم جديدة. وحتى

أجعل الرحلة آمنة – فأنا لم أود أن أعرض حياة أحد للخطر – **أنشأت** مركبًا ليقل التلميذ المختار بأمان عبر البحر مرورًا بالنهر العظيم ليصل مباشرة إلى أطراف ما كان يومًا غابة عظيمة، كما **عينت** سبعة **حراس للرحلة الاستكشافية**؛ حتى يحرسوا التلميذ أثناء الرحلة، ويقودوه مرورًا بحيوانات الفوريكس، وعبر الجسر.. وكانت مهمتهم الأهم بالطبع هي انتظارهم خارج بيتي؛ حتى يتمكن **القائم بالرحلة الاستكشافية** من العودة إلى زمنه، كما أني حرصت على أن يقوم **الحجر** بإرشاد التلميذ إلى هنا بأمان في حال فشل **الحراس**؛ هذه كانت خطتي. لكن على ما يبدو ليس هذا هو ما كان يحدث، أليس كذلك؟».

رد سبتيموس بنبرة يشوبها الحزن: «بلى».

ثم قال حتب رع: «وكان هناك قبلك عشرون تلميذًا قاموا بهذه الرحلة، أليس هذا ما قلته؟».

أومأ له سبتيموس برأسه.

«جميعهم هلكوا؟».

«في الحقيقة لم يعد منهم أحد. لو كان في استطاعتهم العودة لعادوا، أليس كذلك؟».

أومأ له حتب رع برأسه ببطء واستغرق في أفكاره، ثم قال: «إنه فيوم؛ هو الذي أحاط **الرحلة الاستكشافية بالسحر الأسود**؛ فهذا واضح من كل ما ذكرته: الغابة المجمدة، والصمت الذي يخيم عليها، والضباب البغيض والنواح، **وحراس الرحلة الاستكشافية** القتلة.. لا تندهش هكذا

أيها التلميذ، فكيف كان سيتسنى له – إلا بهذه الطرق – أن يضمن عدم وصول أحد إليَّ؟ إنه هو. أنا واثق من هذا».

سبتيموس أيضًا كان واثقًا من ذلك.

قال حتب رع بنبرة يشوبها الحزن: «لقد كان أقرب أصدقائي، ولقد وثقت يومًا به ثقة عمياء.. ولقد أحببته كما يحب المرء أخاه. لكن ذات مرة، عندما رحلت إلى المستنقعات لرعاية مركبي التنينية العزيزة، استولى على البرج وأرسل حراسه لقتلي»، وهز حتب رع رأسه غير مصدق ثم واصل قائلًا: «لقد ظل يخطط لذلك سنوات.. بينما كان طوال هذه الفترة لا يُظهر لي إلا كل مشاعر الصداقة. تخيل ماذا سيكون شعورك أيها التلميذ إذا فعل أعز أصدقائك هذا معك؟».

أومأ له سبتيموس برأسه متعاطفًا معه، إنه لا يستطيع حتى أن يتخيل أن يُقدِم بيتل على شيء كهذا أبدًا.

«لم يتمكن تيرتيوس من الاستيلاء على البرج إلا لسبعة أيام فقط، لكن إصلاح الأضرار التي تسبب فيها **السحر الأسود** استغرق حينها سبع سنوات. وبالطبع **نفيته**»، ثم تنهد حتب رع وواصل قائلًا: «ولا بد أن أعترف بأني كنت أفتقده حتى بعد أن خانني. وبينما كان في طريقه للرحيل، قال لي إن كنت أعتقد أني سأحكم البرج إلى الأبد فإن الأمر لن يكون كذلك، وأقسم إنه سوف يعود وسوف أندم حينها، وأتذكر أني قلت له إنه ليس هناك ما يمكن أن يفعله ويجعلني أشعر بالندم أكثر من ذلك، لكنني لا أعتقد أني كنت مصيبًا فيما قلت، فقدْ فقدَ عشرون شابًا

حياتهم، دون أن أعلم شيئًا عن كل هذا. وبقيت طوال هذه السنين وحيدًا، أنتظر».

وتلاشى صوت حتب رع ببطء وسط ظلام الليل في جو غلفه الحزن..

وبينما كانت تلمار تشغل نفسها بتجهيز السجاد والبطاطين استعدادًا لبرد الليل، جلس سبتيموس بهدوء يراقب **حجر الرحلة** وهو يتلألأ بلون أزرق عميق متقزح في نور البدر الذي كان يلقي بنوره عبر القبة التي تعلوه؛ لقد نجح، هكذا قال في سره باندهاش؛ لقد *أكمل* **الرحلة الاستكشافية**. لكن رغم ذلك خالجه إحساس بالحزن؛ فهناك عشرون آخرون لم يتمكنوا من ذلك؛ ثم فكر سبتيموس فيما فات هؤلاء التلامذة؛ إنهم لم يفقدوا بقية حياتهم فحسب بل فقدوا أيضًا فرصة قضاء ليلة **سحرية** يتحدثون فيها مع أول ساحر أعظم في الدنيا. ارتجف جسم سبتيموس؛ إنه يشتم رائحة **السحر** في الهواء، ولأول مرة منذ أن بدأ يقرأ أعمال مارسيلوس باي شعر بالرضا والسعادة؛ وهو إحساس طيب. ومارشا.. إن مارشا سوف تفخر به.. هذا إذا رآها مرة ثانية.

* * *

في وقت مبكر من صباح اليوم التالي، ومع شعور سبتيموس بدوار في رأسه، ألقى التحية على حتب رع ليودعه، ثم خرج من الغرفة المثمنة، وانغلق الباب **التوءم** لباب مارشا خلفه برفق. وبشمعة في يده - زودته بها تلمار راي بيل بهامش من المعاملة الودود - نزل الممر الرخام الضيق شديد الانحدار، وظهر عند المنبسط المحاط بالدرابزين.

كان سبتيموس يعلم أنه في صباح يوم جديد؛ إذ رأى الشمس تشرق من القبة الزجاجية، وهو أمر مستحيل معرفته من داخل بيت

الفوريكس الذي لا ينفذ منه أي ضوء من الخارج. ومع شعوره بالإرهاق، جلس على إحدى الدكك متجنبًا الحارسة ذات الوجه الأشبه بوجه الحصان، والتي كانت لا تزال جالسة تنتظر.. ومثلها جلس هو أيضًا ينتظر. فكل الموجودين في بيت الفوريكس كافةً سوف يمرون بالمنبسط إذا انتظرت وقتًا كافيًا، هكذا نصحه حتب رع. وكان سبتيموس مستعدًا للانتظار أيًا كان الوقت الذي ستستغرقه چينا ويتل كي يمرا من هنا. لكن سرعان ما بدأ يقع تحت تأثير اندماج دفء الجو ورطوبته الشديدة مع ليلة أمس المتوترة، ولم يمض وقت حتى كان ممددًا على الدكة مستغرقًا في النوم.

ورأى في نومه أغرب الأحلام؛ رأى حتب رع وتيرتيوس فيوم وهما يرقصان على امتداد طريق السحرة، ورأى مارشا تحلق بلافظ اللهب وسط عاصفة رعدية، ورأى تلمار وهي تلعب الورق مع تمساح، ورأى نكو وهو يهزه ويقول له «استيقظ أيها الكسول!».

استمر الهز بعد انتهاء الحلم، وما إن فتح سبتيموس عينًا واحدة من عينيه التي كان يملؤهما النعاس حتى وجد نفسه وجهًا لوجه مع نكو! وفي لمح البصر، كان سبتيموس قد استيقظ وانتبه وهو يقول: «نكو!»، ثم ألقى ذراعيه حول أخيه وقال: «أنت تقف أمامي الآن *بشحمك ولحمك*».

ضحك نكو وقال: «*وأنت أيضًا*».

وصاحت چينا من الفرحة وقالت: «سب.. ياه يا سب! لقد تمكنت إذن من *الهرب*!».

«في الحقيقة، ليس هذا هو ما حدث بالضبط، لكن...».

وهنا اخترقتهم المرأة طويلة القامة ذات الوجه الأشبه بوجه الحصان، وأطبقت بيد ثقيلة على كتف چينا.

«عندما تنتهون من هذا اللقاء المؤثر، سوف آخذ المفتاح. الآن إذا سمحت».

اندفع بيتل نحو چينا ورفع يدها وهو يقول للحارسة: «ابتعدي عنها».

لكن في غياب النمر الأسود، لم يكن أحد ليثبط من عزيمة الحارسة فأمسكت ذراع چينا بقوة فصاحت متألمة، ثم قالت الحارسة: «*أعطيني المفتاح*، وإذا اضطررت لأن آخذه بنفسي فسوف أستخدمه كي *أحبسك.. إلى الأبد*».

وكان نكو يمقت الحارسة؛ فقد أطلقت ذات مرة على سنوري الساحرة الشريرة، وخبأتها في برج آخر لمدة.. تُرى كم طالت؟ إنه لا يعلم. ربما لأيام، أو أسابيع، أو قرون.. إنه لا يعلم مطلقًا ولقد حان الآن وقت الثأر. ومستخدمًا قدرًا من القوة أكبر من القدر الذي يحتاج إليه، أمسك نكو الحارسة من معصمها بقوة.. وبغضب دفع ذراعها بعيدًا عن چينا. وفجأة، انطلقت صرخة مدوية وأخذت الحارسة تهز معصمها، ويدها تتدلى عاجزةً عن الحركة.

قالت چينا وهي تشهق: «نكو! لقد كسرت ذراعها».

قال نكو متوجهًا نحو السلم الذي ينزل إلى البهو في الأسفل: «الضرورات تبيح المحظورات. دعونا نخرج الآن من هنا. من إذن الذي ينتظرنا في الخارج؟ أراهن أنه سام، أليس كذلك؟».

انطلقت چينا وراءه لتلحق به، وقالت له: «نعم، ليس هو».

«أهو أبي إذن؟ لا بد أنه أبي. أنا لا أستطيع أن أنتظر حتى أراه، وأرى أمي أيضًا».

لم تحتمل چينا وقالت: «لا! يا إلهي! أنا لم أخبرك يا نكو، لا أحد هناك في انتظارنا في الخارج».

وتسمر نكو في مكانه فجأة وقال: «*لا أحد؟*».

«لا أحد».

حدق بيتل إلى قدميه، وتمنى في هذه اللحظة لو أن يختفي من على وجه الأرض إلى الأبد.. حتى تبادر إلى ذهنه أن هذا هو بالفعل ما سيفعله. إنه يشعر بتأنيب ضمير قاتل.

ثم قال نكو بنبرة غاضبة: «أي أننا أصبحنا جميعًا محبوسين هنا، تمامًا كما كنت أنا وسنوري. نحن لن نعود أبدًا إلى زماننا. *أبدًا*».

قال سبتيموس: «ليس بالضرورة.. لديَّ فكرة».

48

من الباب إلى الباب



قالت *مارشا لكاتشبول*، وقد باغتته وهو يغفو لبعض الوقت في دولاب التعاويذ القديمة: «هناك شخص شوه باب جناحي» فانتفض من مكانه شاعرًا بالذنب، ووقف شعر رأسه القليل ذو اللون الذهبي، وردَّ عليها قائلًا: «ياه!».

فقالت مارشا ببرود: «إن كانت هذه هي فكرتك عن الدعابة، فلا أرى فيها أي شيء يدعو للمرح». وقف كاتشبول متزنًا على قدم واحدة كطائر مالك الحزين؛ فهو لم يفهم ما الذي تتحدث عنه مارشا، لكن يبدو أن هناك مشكلة.. مرة أخرى.

قال: «بحق السماء!».

«إذن، هل الأمر هكذا؟».

«أي أمر تتحدثين عنه؟».

«هل تعتبر هذا الذي فعلته دعابة؟ فأنا أعرف ميلك للرسم على الأبواب».

وأخيرًا، فهم كاتشبول الأمر وردَّ قائلًا: «لا، لا. ليس أنا من فعل ذلك، صدقيني. ليس أنا على الإطلاق. صدقيني.. *ليس أنا*».

تنهدت مارشا؛ فقد صدقته؛ لأن هذه «الشخبطة» الغريبة ذات المستوى المعقد بدت أبعد كثيرًا عن مستوى كاتشبول، ثم قالت له: «إذن، اذهب وأحضر دلوًا وفرشاة تنظيف، أريد إزالتها تمامًا. أنا ذاهبة لمقابلة سارة هيب، وأتوقع لدى عودتي أن أجد بابًا نظيفًا ومحترمًا، مفهوم؟».

«مفهوم يا سيدة مارشا، سوف أنفذ ذلك على الفور»، وانطلق كالصاروخ ليبحث عن دلو وفرشاة تنظيف.

قالت چينا وهي تشهق، وقد بدأت الخريطة تتلاشى أمامهم: «إنها تختفي! كفى كفى!».

قال نكو: «بسرعة، قولي له أن يكفَّ عن محو الخريطة».

صاحت چينا: «كفى!».

«لا.. لا، أقصد اكتبي عليه. بسرعة يا چين، قبل أن تختفي تمامًا».

التقطت چينا قطعة الطباشير وكتبت: «**توقف! لا تُزِل الرسوم**..

✱ ✱ ✱

وهنا، صرخ كاتشبول، وسقطت الدلو المملوءة بالماء الساخن والصابون على قدمه؛ إذ كانت هناك حروف ضخمة وملتوية تكتب نفسها فوق الباب بينما كان واقفًا يراقبها. ولقد بدا الباب الآن في حالة أسوأ عن ذي قبل.. تُرى، ماذا ستقول مارشا في هذا؟ أخذ كاتشبول فرشاة التنظيف مرة أخرى وهمَّ أن يباشر عمله بروح انتقامية، لكن حتى عندما كان ينظف توالى ظهور الكلمات في نفس المكان الذي كان قد انتهى لتوّه من تنظيفه. وفجأة، فهم كاتشبول الأمر؛ إنه اختبار. ولقد أعدته مارشا حتى يُثبت لها أنه جدير بأن يعود إلى وظيفته السابقة كساحر ثانوي، وأصر كاتشبول الآن على ألا يفشل في هذا الاختبار. ومع ظهور المزيد والمزيد من الكلمات التي تقول له **توقف! هذه رسالة عاجلة!** أزاد كاتشبول من سرعته في التنظيف، وأخذ يلاحق كل كلمة بمجرد ظهورها بفرشاة التنظيف، وهو ما كان يصاحبه تناثر الماء في كل مكان حوله، وسرعان ما أصبح منبسط السلم أمام جناح مارشا عبارة عن بركة واسعة من الماء الممزوج بالطباشير.

صاحت چينا: «أريد المزيد من الطباشير! بسرعة!».

ناولتها سنوري بقايا قطعة طباشير وقالت لها: «إنها آخر قطعة».

توقفت چينا عن الكتابة بيد مرفوعة على الباب؛ فهي لا تستطيع أن تجازف بإهدار آخر قطعة، ثم راحوا يراقبون كلمات مارشا، **نحن هنا!** وهي

تختفي من على الباب، تبعها اختفاء ما تبقى من الخريطة الثمينة إلى أن اختفت رسالة چينا بالكامل.. قالت چينا بنبرة بائسة: «لن تنجح الفكرة. إن الباب ببساطة يتخلص منها».

خيم الصمت على الجميع، كما خيم على الأجواء إحساس باليأس، وفجأة قال سبتيموس: «لقد نجحت الفكرة بالفعل، لكنَّ هناك شخصًا ما ينظفها من على الباب».

فسأل نكو: «ومن الذي سيفعل ذلك؟».

قالت چينا: «مارشا لن تفعل ذلك، ولا أي من السحرة؛ لأنهم كانوا سيعلمون أنها رسالة مهمة».

فقال نكو: «فمن إذن الذي سيكون بهذا *الغباء* ليزيلها؟».

علم سبتيموس من هو ذلك الشخص، وقال: «إنه كاتشبول».

«*كاتشبول*؟».

«تمامًا. لا بد أنه كاتشبول. فلا أحد في البرج سواه يجرؤ على أن يفعل ذلك. چين، أعطيني الطباشير، فأنا أعلم ماذا سأكتب».

وكتب سبتيموس بحروف واضحة تمامًا **أهو أنت يا كاتشبول؟**

تم محو الجزء من الجملة الذي كان يقول «أهو أنت يا»، لكن توقف التنظيف عند الحرف الأول من اسم كاتشبول.

ثم قال سبتيموس: «سأنتظر إلى أن يرد. فليس هناك أي داعٍ لإهدار ما تبقى من الطباشير إلى أن نعرف أنه اكتشف الأمر».

وهكذا انتظر خمسة أشخاص لدى الباب *التوءم* لباب جناح مارشا- يراقبون الباب بأنفاس مكتومة. مرت سبع دقائق طويلة كانت هي الفترة

التي استغرقها كاتشبول كي يضبط السلم فورًا على الوتيرة السريعة، وينطلق مسرعًا إلى دولاب التعاويذ القديمة ليجلب قلمه، وعاد ليجد مارشا تستشيط غضبًا في صحبة سارة هيب التي كان يملؤها القلق..

وكانت مارشا قد قابلتها مصادفة أسفل القوس العظيم. وقفت مارشا تحدق إلى الباب وقد جمعت عباءتها عند كعبيها، بينما كان حذاؤها المصنوع من جلد الأفعى الأرجوانية يتشرب الماء الممزوج بالطباشير كأنهما قطعتان مدبيتان من الإسفنج. ترك كاتشبول السلم بقفزة، وإذا به ينزلق فوق الأرض المكسوة بالصابون واصطدم بدلوه مرسلًا في الهواء ما تبقى فيها من ماء ليحط الماء بعد ذلك على مارشا، والتي انفجرت في وجهه قائلة: «ما هذا الذي تفعله؟ طلبت منك مهمة بسيطة لا تزيد على إزالة شخبطة من على الباب.. فإذا بك وبكل وقاحة تكتب اسمك على الباب. كاتشبول، إن هذه الفعلة كانت القشة التي قصمت ظهر البعير. أنت *مفصول*!».

بدا الذهول على سارة، فلا عجب أن سبتيموس هرب إذا كانت مارشا تقضي وقتها في الصياح بهذا الشكل.

تملك الذعر قلب كاتشبول، وأخذ يتوسل إليها قائلًا: «لا! إن الأمر ليس كما يبدو».

ردت مارشا قائلة: «ها! لقد سمعت ذلك من قبل. لكن صدقني يا كاتشبول إن الأمور بوجه عام تبدو كما تراها *بالضبط* .. وأكثر».

فرفع كاتشبول القلم وأخذ بيأس يلوح لها به، وهو يقول: «لكن، أنا كنت...».

قاطعته مارشا قائلة: «لست في حاجة لأن أرى ما الذي كنت تكتب به، فلديّ ما هو أهم من هذا. هل لك أن تبتعد عن طريقي الآن؟».

«لا! لا، أنت لا تفهمين»، وألقى كاتشبول بنفسه أمام الباب ليمنع مارشا من الدخول، ثم قال: «أرجوك يا سيدة مارشا، أرجوك، ليس أنا من كتب هذا. يمكنني أن أثبت لك ذلك، أرجوك».. كان هناك شيء في نبرة صوته أدهشها فجأة.

فقالت له: «حسنًا، أثبت لي ذلك».

«ياه! أشكرك، أشكرك، *أشكرك*».

«بحق السماء! كفاك تذللًا، وأثبت لي ما تقول».

جثا كاتشبول على ركبتيه، متجاهلًا الماء والصابون، وكتب على الباب **نعم إنه أنا بوريس كاتشبول، من أنت؟**

أخذت مارشا تدق بقدمها على الأرض بنفاد صبر يصاحبها صوت تناثر خفيف، لكن مع ظهور كلمة سبتيموس (الفتى 412) توقف صوت تناثر الماء، وانطلقت صرخة من سارة.

وقال كاتشبول: «هل رأيتِ هذا؟ إنه يكتب من تلقاء نفسه، ولقد قال الكثير قبل ذلك».

فسألته مارشا: «مثل ماذا؟».

رد كاتشبول قائلًا: «لا أعلم، فقد كنت منشغلًا بإزالته».

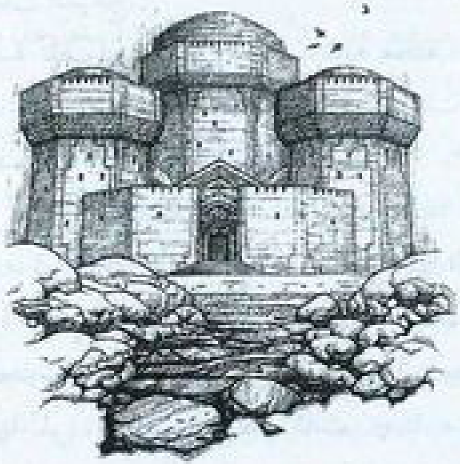
«أيها الأحمق! *أزلت كل الكلمات*؟».

«لكن، أليس هذا هو *ما طلبتِه* مني؟».

«ياه! بحق السماء! أعطني قلمك»، وخطفت مارشا القلم من يده المرتجفة، ثم كتبت: **سبتيموس، أنا مارشا، أين أنت؟**

وبعيدًا في بيت الفوريكس، انطلقت صرخة ابتهاج مدوية.

49
في اللحظة الأخيرة



ومع *انبثاقهم منتصرين عند منبسط السلم المحاط بالدرابزين كانت* هناك لجنة استقبال في انتظارهم، وانقضّ للأمام حارسان ضخما الجثة وسحبا نكو.. وهنا صرخت سنوري؛ إنهما نفس الحارسين - المعروفين بفاولر وبرات - اللذين أخذاها إلى مكان ما بعيدًا بعد أن اتهمها أحد جيرانها بأنها **دعت** على نبات الصبار الخاص به.

صاح نكو قائلًا وهو يصارعهما بمنتهى الغضب: «اتركاني!»، وتلا ذلك حالة من الشغب والاضطراب وجهت فيها سنوري ركلة لفاولر -

وهو رجل ضخم الجثة ذو رأس أصلع لامع- الذي قام بتشبيك يدي نكو خلف ظهره، وتكأكأ عليه سبتيموس وبيتل، وتبعتهما چينا. لكن برات تدخل، وهو من أصغر الحراس حجمًا وإن كان قويًا على نحو غير متوقع، وله أذنان كبيرتان مشوهتان، ووجه إليهم ضربة أطاحت بهم جميعًا كأنهم مجموعة من الذباب المزعج.

كانت الحارسة تقف بعيدًا في الخلف شبه مختفية وسط دخان الشموع، وذراعها باتت الآن ملفوفة بضمادات، ثم صاحت قائلة: «خذوه إلى الغرفة المحصنة، لا أود أن أراه أبدًا هنا».

ضحك فاولر وقال: «لا تقلقي يا سيدتي الحارسة، لن تريه أبدًا. *تأكدي* من ذلك»، ثم غمغم قائلًا: «أخ! *ابتعد* عني أيها الفتى».. كانت الكلمات الأخيرة موجهة إلى بيتل الذي نجح في الإمساك برأسه.

ثم سحب الحارسان نكو جرًا على منبسط السلم، يصاحبه صراخ سنوري وركلاتها في أرجلهما، بينما كانت چينا متشبثة بأخيها كالبطلينوس. كان بيتل حتى ذلك الوقت يمسكه مسكة الرأس - لكن دون أي تأثير يُذكر - وكان أولر يتابع أحداث هذه المعركة وهو يهس.

أما سبتيموس فكان قد تراجع للوراء بعيدًا عن ميدان المعركة.. ومن جيب حزام التلامذة الذي يلبسه أخرج قطعة صغيرة من البلّور تشبه الجليد. وقام وهو يمسكها بحرص، بين سبابته وإبهامه، بتوجيه حافتها الحادة نحو فاولر الذي كان يحاول الآن جر نكو والجمع المحتشد حوله عبر مدخل مقنطر ومظلم عند الجانب البعيد من المنبسط.

وصاح سبتيموس قائلًا: «**تجمد!**».

وهنالك **تجمد** بيتل، وأدرك سبتيموس بفزع الخطأ الذي ارتكبه. إلا أن **تجمد** بيتل الذي يتدلى الآن من عنق الحارس كأنه قطعة جماد ثقيلة الوزن عاق حركة فاولر، فاغتنم نكو الفرصة فصارع حتى حرر نفسه، ثم أمسك سنوري بقوة، وفي لحظة كانا منطلقين جريًا نحو السلم. وبشراسة، أزاح فاولر بيتل فسقط على الأرض كالشجرة المقطوعة، وصاحت چينا: «*بيتل*! يا للهول! *بيتل*!».

اندفع نكو مارًا بسبتيموس وهو يسحب سنوري خلفه، ثم صاح قائلًا: «هيا يا سب! دعنا نخرج من هذا المكان. لقد طفح بي الكيل.. وأنا لا يعنيني الآن الزمن الذي سينتهي بنا الأمر عنده».

صاح سبتيموس قائلًا: «لا يا نكو! لا.. *لا تفعل ذلك*!».

لكن نكو وسنوري كانا منطلقين نزولًا بأقصى سرعة على السلم العريض والفسيح، يتعقبهما فاولر وبرات في مطاردة ساخنة.

انطلقَ سبتيموس إلى چينا جريًا وقال لها: «لا بد أن تمنعي نكو. إنه انطلق كالصاروخ. امنعيه قبل أن نفقده *للأبد*».

انتفضت چينا وهبت واقفة على قدميها، ثم قالت: «لكن بيتل...».

«لا تقلقي، سيكون على ما يُرام. سوف أتولى أمر ذلك. *انطلقي أنتِ* الآن!».

فانطلقت چينا بسرعة فائقة، وهي تدفع الحارسة بعيدًا عن طريقها، والتي حاولت على استحياء أن تمسك بها، ونزلت چينا السلم دون أن تبطئ من سرعتها.

ترك سبتيموس بيتل **المتجمد** وانحنى عند الدرابزين فرأى جينا تنطلق كالصاروخ نازلة السلم، وعباءتها الحمراء تنسال خلفها. وبعيدًا في الأسفل بين دخان الشموع، رأى الهيئتين الضبابيتين لنكو وسنوري تصلان إلى البهو المزدحم، وبدأ يسلكان طريقهما وسط الزحام متوجهيْن نحو الباب الفضي، بينما كان فولر وبرات يقتربان منهما بسرعة.

انضمت الحارسة إلى سبتيموس بعد أن أساءت فهم ما بدا عليه من عدم اكتراث ظاهري، وقالت له: «سرعان ما سنقبض على ذلك الفتى المثير للشغب»، ثم ابتسمت.. لكن سبتيموس لم يرد عليها. شعرت الحارسة فجأة بإحساس غير مريح وابتعدت؛ إذ لم ترقها النظرة الغريبة الغائمة التي علت عيني سبتيموس، كما لم يرقها على وجه الخصوص السديم الأرجواني الغريب الذي بدأ يحيط به؛ لخشيتها أن يكون مُعديًا.

أما في الأسفل في بهو البيت فكان برات قد سبق فاولر، وبات لا يبعد عن نكو إلا بمسافة ذراع، ومد يده ليقبض عليه، لكن نكو تمكن في اللحظة الأخيرة من الفرار منه بعد أن انطلق كالصاروخ وراء رجل ضخم الجثة يعتمر قبعة طويلة ومدببة على رأسه. وفجأة توقف فاولر وقد بدا عليه الاندهاش، ثم صاح في برات يقول له: «أيها الغبي.. إنه هناك!» التف برات للخلف ليرى صيده يتوجه عائدًا إلى السلم.. تُرى، كيف تمكن الفتى من فعل هذا؟!

كان سبتيموس في تلك الأثناء متكئًا على الدرابزين، في حالة من التركيز غير المسبوق، **فإسقاط** صورة لشخص حي يُعد من أصعب عمليات **الإسقاط**. وكان سبتيموس يصارع مع استخدامه الآن قدرته **السحرية** التي ما كان يصدق يومًا أنه يمتلكها، لكن مثل كل عمليات **الإسقاط** لم تكن الصورة التي **أسقطها** لنكو متقنة تمامًا؛ إذ كانت هناك أطراف مهزوزة للصورة، وبعض الفجوات اللحظية. لكن لحسن الحظ، غطى دخان الشموع على هذه النواقص، وحرص سبتيموس على أن تنطلق صورة نكو **المُسقطة** جريًا أمام الحارسين على بُعد لا يسمح لهما برؤيته عن قرب. ومع انبهار سبتيموس بقدرته على إتقان عملية **الإسقاط** وتحكمه فيها - جعل صورة نكو **المُسقطة** تصعد السلم. وبينما كانت صورة نكو طبق الأصل تقترب منه، تراجع للوراء بمسافة.. فكلما كانت عمليات **الإسقاط** أكثر قربًا كان من الصعب الحفاظ عليها. لاحظت الحارسة، باستحسان، أن سبتيموس راقب الشاب يمر من أمامه دون أن يفعل شيئًا، وقالت في سرها إنها أساءت الحكم على التلميذ. وعلا طرف أنفها بريق مع شعورها بالحماس وهي تراقب دنو المخلصيْن فاولر وبرات وهما يتصببان عرقًا وبوجهين يتوهجان باحمرار؛ فالفتى سيقع في أيديهما في أي لحظة الآن.

أرسل سبتيموس **إسقاطه** مصورًا نكو وسنوري ينطلقان جريًا في البرج الجانبي الذي يضم غرفتهم، وسمح لأعصابه بالاسترخاء؛ فكل ما كان عليه أن يفعله الآن هو أن يقوم **بإسقاط** صوت لخطوات أقدام تنطلق جريًا، ويُرهق الحارسين جريًا خلفهما. نظر سبتيموس للأسفل ليرى ما

إذا كانت چينا قد تمكنت بشكل أو بآخر من منع نكو وسنوري من المغادرة، ولكن كان دخان الشموع يحجب الرؤية. اجتاحت سبتيموس رغبة ملحة لأن ينزل فورًا ويقنع نكو بكلام منطقي، لكنه يعلم أنه يثق بقدرة چينا على القيام بهذه المهمة؛ إذ كانت هناك مهمة أخرى لا بد أن يقوم بها الآن؛ ولا يستطيع تأجيلها؛ فبيتل يحتاج لعملية **إذابة**.

راقبت الحارسة سبتيموس وهو يقود بيتل المهزوز الآن وينزل به السلم الفسيح.. ومع اختفائهما وسط سحابة دخان الشموع، سمعت الصوت المكتوم لخطوات أقدام ڤاولر وبرات الثقيلة مع عودة الرجلين من البرج الجانبي؛ فعلت وجهها تلك الابتسامة التي قد تتوقعها من حصان أصر على إسقاط راكبه ورأى في الأفق غصنًا يتدلى من شجرة.

كانت چينا قد لحقت بنكو وسنوري في بهو المدخل، وصاحت تقول: «لا يا نكو! لا، لا تذهب. لا تذهب وحدك، *أرجوك*».

قال نكو: «لن أبقى هنا. لن أقضي بقية حياتي – وأكثر قليلًا – حبيسًا في حفرة قذرة أسفل سطح الأرض، لقد حبسوا سنوري فيها لزمن طويل جدًا، وكان ذلك بشعًا».

قالت سنوري: «إن الأمر لم يزد على بضعة أيام يا نكو».

قال نكو متذمرًا: «من *يدرينا* كم مكثتِ هناك؟ إن هذا المكان يصيب العقول بالجنون. فلا أحد يعلم إلى أي مدى سيطول أي زمن هنا.. هذا جنون. ولقد طفح بي الكيل ولم أعد أحتمل *أكثر من هذا*»، ثم اندفع نحو

الباب ليفتحه ويخرج إلى الزمن في الخارج لكن چينا أمسكت بيده في منتصف الطريق.

«نكو! لا أريد منك سوى وعدٍ الآن، أرجوك!».

«ماذا تريدين؟».

«أن تنتظر حتى يصل سب وبيتل».

«هذا *إذا* ظهرا أصلًا.. فأنت لا تعلمين شيئًا، إن المكان هنا غريب، والناس يختفون».

«سوف يظهران، أنا واثقة من هذا».

وردًا على كلامها، انفتح الباب الفضي الذي يُفتح على بهو المدخل فجأة وانطلق منه سبتيموس وبيتل.

ثم قال سبتيموس لاهثًا: «إنهما قادمان؛ فقد توقفت عملية **الإسقاط** عندما كنت **أذيب** بيتل».

قال نكو: «حسنًا، لقد حُسم الأمر. أنا سأخرج».

قالت چينا: «نكو.. *انتظر!*» وفكت مفتاح «غرفة الملكة» الذي يتدلى من حزامها، ودفعته في ثقب يكاد يكون مخفيًا وسط كتابات هيروغليفية تعلو سطح المصراع الأيمن من الباب الفضي. وما إن أدارته في الثقب حتى سمعوا صوت الباب وهو **يُمترس**.

قال نكو: «هذا لن يمنعها؛ فهي أيضًا معها المفتاح».

قالت چينا بابتسامة علت وجهها: «سوف يمنعها لو تركتُ المفتاح في الثقب».

قال سبتيموس بابتسامة عريضة: «فكرة صائبة يا چين».

* * *

وهكذا، جلسوا في بهو المدخل المعروف ببهو الشطرنج، معلقين بين عالمَيْن. ومثل خالة والدتها، جلست سنوري على المقعد التنيني الطويل، ثم أسندت قدميها إلى الذيل السميك الملفوف وكادت هيئتها النحيلة تتلاشى بين جناحي التنين المنحوتين اللذين يشكلان ظهر المقعد، بينما استند نكو إلى أحد مسندي المقعد المنحوت على شكل رأس تنين، وقد بدا على كليهما التوتر والإجهاد.

أما چينا وسبتيموس وبيتل فقد استعادوا حقائب الظهر الخاصة بهم، وجلسوا على الأرض الرخام الباردة، متكئين على حقائبهم.

نظر نكو إليهم وهو يهز رأسه من فرط اندهاشه وقال: «إنني لا أزال غير مصدق ذلك؛ فأنتم بالفعل هنا. أنا فعلًا لا أصدق ذلك. فكم طال انتظارنا، أليس كذلك يا سنوري؟».

فأومأت له سنوري برأسها.

قالت چينا بنبرة هادئة: «وأنا في غاية السعادة أننا وجدناكما.. فكم كنت أخشى ألا تكونا هنا».

قال نكو: «لقد كدت بالفعل أخرج، فكم عدد المرات التي قررت فيها أن أغادر المكان. فالأبواب مفتوحة ولا شيء يمنعكم من الخروج كما تعلمون. لكنهم يقولون إنك عند خروجك منها قد تجد نفسك في أي زمن، ربما في زمن...»، وهنا ارتجف جسم نكو، ثم واصل قائلًا: «قبل أن يكون هناك بشر على سطح الأرض، وقبل أن يكون لبيت حيوانات الفوريكس وجود أصلًا.. ومن ثم، لن يكون في وسعك العودة أبدًا.

وكانت سنوري دائمًا تقول لي إنه خير لنا أن ننتظر، ولقد كانت محقة.. وهي دائمًا محقة»، وهنالك احمر وجه سنوري.

قالت چينا بنبرة يشوبها شيء من الود تجاه سنوري: «نعم، لقد كانت محقة».

خيم صمت على بهو المدخل مع استغراقهم في التفكير إلا أنه لم يدم طويلًا؛ إذ فجأة علا صوت طرق على الباب الفضي، تبعه ارتجاج الباب بعنف؛ فكان هناك من يحاول وضع المفتاح في الثقب.

ثم جاء صوت الحارسة الغاضب يقول: «إنه لا يدخل! يا حراس، حطموا الباب!».

وعلى الفور كان نكو قد هب واقفًا على قدميه بعينين مفتوحتين عن آخرهما، ثم قال معلنًا: «لن ينالوني، سأخرج وأنا وحظي، فهذا أفضل من البقاء هنا».

قالت سنوري: «سأذهب معك»، ثم رفعت أولر من على الأرض وقالت: «وأولر أيضًا سيذهب معنا».

قالت چينا بجلالة: «ونحن أيضًا سوف نذهب معكم»، ثم نظرت إلى سبتيموس وبيتل وقالت: «أليس كذلك؟».

نظر سبتيموس إلى بيتل الذي قال: «أنا معكم».

وقال سبتيموس: «وأنا أيضًا».

فقال نكو: «حقًا! لكن الحراس يريدونني أنا، لا أنتم».

قال سبتيموس: «نحن معًا يا نكو، أيًا كان الذي يحدث».

وبدءوا يسمعون الآن طرقًا مكتومًا متناغمًا؛ ففاولر كان يدفع الباب بجسمه وسرعان ما بدأ القُفل – وهو أضعف جزء من الباب – يخضع.

قال نكو وهو متمالك أعصابه تمامًا وواثق من نفسه: «سأخرج الآن»، ووضع يده على ترباس الباب الأبنوس لمدخل بيت الفوريكس. نظر نكو إلى چينا وسبتيموس وبيتل، ثم قال وهو يرفع صوته فوق صوت الخبط المتناغم خلفه: «لكني أريدكم أن تبقوا. فلا تزال الفرصة سانحة أمامكم كي تعودوا إلى زمنكم، وتروا أمي وأبي، وتحكوا لهما كل ما حدث. واعتذروا لهما بالنيابة عني...».

أخذ سبتيموس نفسًا عميقًا، ثم قال وهو يلقي نظرة على الآخرين: «لا يا نكو، سنأتي معك»، وتلاقت أربعة أزواج من العيون المذعورة مع عينيه.. وقد شعروا فجأة بهول ما هم على وشك مواجهته الآن.

طراخ!

شعر نكو بغشاوة أمامه، ثم نظر شزرًا وقال: «حسنًا، هيا بنا».

طراخ! طراخ!

همَّ نكو برفع ترباس الباب الأبنوس الذي سيخرجون منه إلى الزمن في الخارج.. أيًا كان ذلك الزمن.. وما إن لمست يده ترباس الباب الأبنوس حتى سمعوا طرقًا يستشيط غضبًا على الباب أسكت صوت تحطيم الباب الفضي خلفهم، وانتفض الجميع مذعورين.

انطلقت من سبتيموس صيحة فرح مدوية؛ فهو لا يعرف سوى شخص واحد هو الذي سيتجاهل استخدام جرس الباب المتاح ويهجم على

مقبض الطَّرْق على هذا النحو، وعلى الفور كان قد فتح باب بيت الفوريكس.

قالت مارشا وقد علت وجهها ابتسامة عريضة: «حسنًا، ألن تدعوني للدخول؟».

رد سبتيموس قائلًا: «مستحيل، نحن الذين سنخرج لكِ».

كانت سارة هيب تراقب من الشرفة الرخام الفسيحة أصغر اثنين من أبنائها وابنتها وهم يخرجون في الجو الضبابي الأبيض ويصيحون ويقفزون من فرط الفرحة.. راقبتهم وهم يغدقون مارشا أوفرستراند بالأحضان، وكانت سارة بالكاد تصدق ما تراه أمام عينيها. فاتكأت على عنق التنين الصلب تصلب جسمها، ثم ضرب لافظ اللهب بذيله على الأرض بصوت مكتوم من فرط الإرهاق؛ لقد كانت رحلة طويلة باردة.

لفت انتباه نكو صوت ضربات الذيل، وعلى الفور كان يصيح متجاهلًا وجود التنين، ولا يرى شيئًا أمامه سوى هيئة نحيلة في حالة مزرية من الرياح، ملتحفة بعباءة خضراء قديمة: «أمي؟ أمي؟».

«آه نكو».. وكان هذا كل ما كان في وسعها أن تنطق به في هذه اللحظة.

نهايات وبدايات ...

أليس وألثر

كانت نهاية حياة أليس في واقع الأمر بداية أوقات طويلة تملؤها السعادة سيقضيانها معًا وهي وألثر؛ فكلاهما أثناء حياته، على وجه الخصوص ألثر - وإن كان ذلك كان ينطبق أيضًا على أليس - كان منشغلًا أكثر من اللازم بمستقبله المهني مهما حال دون التئام الشمل بينهما. والآن، قرر ألثر تغيير هذا الوضع.

بعد مرور أربع وعشرين ساعة من إطلاق النار على أليس، ظهر شبحها على مرسى القصر ليجد ألثر في انتظاره. والأشباح كافة لا بد لها أن تقضي الفترة الأولى من دخولها إلى عالم الأشباح، وهي فترة مدتها سنة ويوم واحد، في نفس المكان بالتحديد الذي تحولوا فيه إلى أشباح. وتُعرف هذه الفترة باسم **فترة الاستكانة**، وقد تكون هذه الفترة عصيبة على الشبح الذي يلقى حتفه على نحو غير متوقع، ولقد كان ألثر مصرًّا على أنه سيلازم أليس طوال هذه الفترة ويساعدها في تجاوزها. وربما أن

ألثر لم يكن سندًا لها أثناء حياتها، لكن هذا هو ما سيفعله من الآن فصاعدًا.

لا ألثر ولا أليس كان يهمه سواء أكانا يقضيان أوقاتهما معًا في مكان مغلق أم في الهواء الطلق، فالطقس عمومًا أمر غير ذي شأن بالنسبة للأشباح.. فيما عدا أوقات هبوب الريح العاصفة؛ حيث يشعر الشبح حينها باختراق الريح له. ورغم علم چينا بذلك فإنها كرهت فكرة مكوثهما لدى مرسى القصر على هذا النحو، ومن ثم جعلت بيلي بوت يساعدها في نصب خيمة واسعة مقلمة باللونين الأحمر والأبيض - أو المقصورة كما كانت تحب أن تسميها - في نفس المكان بالتحديد الذي تم اغتيال أليس فيه.

ولقد كانت چينا سعيدة لأنها تصرفت على هذا النحو؛ فقد شهد هذا العام هبوب ريح عاصفة عدة مرات، إلا أن الخيمة ظلت من الداخل دائمًا واحة يعمها الهدوء والسكينة. وكانت چينا مُصرَّة على أن تجعل أليس وألثر أيضًا يشعران بالراحة في هذا المكان وكأنهما في بيتهما الخاص. ففُرشت الألواح الخشبية التي تكسو سطح المرسى بسجاد ثقيل منقوش جلبته من القصر، كما فرشت الخيمة بالأثاث والوسائدوالكتب، وأغراض متنوعة لها ذكريات خاصة، كما كان بالخيمة صندوق زينة خشب مُطعم ضخم، غطاؤه المكشوف كان يكشف عن العديد من الكنوز الثمينة المفضلة لدى أليس كانت قد جُلبت من وكر مخزنها القديم.. كان منها شطرنج من الرخام مرفق به سفينتان للفيش، وكوفية شغلتها لها يدويًّا إحدى بنات إخوتها الكُثر، وبعض الرسائل من ألثر كانت ملفوفة بشكل مرتب بشريط أحمر، والشعر المستعار الذي

كانت تعتمره أثناء عملها قاضية منذ سنوات طويلة مضت، كما احتوت الخيمة على الكرسي المفضل لدى ألثر؛ وهو مقعد جلدي متهالك، جلبته چينا من غرفة الجلوس الخاصة بسارة هيب ووضعته في ركن من الخيمة بجانب الأريكة الوردية الذهبية المنجدة بشكل مبالغ فيه، والتي أصرت سارة على أنها ستروق أليس كثيرًا. لكن أليس لم ترقها الأريكة، إلا أن الأرائك الخالية من الذوق ما عادت من المسائل التي تهتم بها الآن كما كانت تفعل في السابق.

ولعلم چينا أن أليس وألثر سيستقبلان العديد من الزوار، أعدت مائدة قصيرة الارتفاع جهزتها بإبريق من العصير الطازج والبسكويت الشهي وإناء من الفاكهة للزوار من الأحياء.

كان سايلاس هيب وچينا أكثر زوارهما المنتظمين، وكان سايلاس ما عاد يستطيع التحدث مع سارة في موضوع نكو، ويحتاج أن يجد من يتحدث إليه ويفضفض معه. وكان ألثر – معلم سايلاس القديم – يُنصت لساعات طويلة إلى سايلاس، وكانا يواصلان النقاش طويلًا حول نكو، والزمن، وفي الأونة الأخيرة حول الغابات، ثم يعود سايلاس في وقت متأخر من المساء مترنحًا إلى القصر عبر بساتينه الممتدة، يصاحبه الإحساس بأن رأسه محشو عن آخره بالقطن. ولم يكن ألثر يسعد دائمًا باللحظة التي يطل فيها سايلاس برأسه داخل الخيمة من فتحتها ويقول له: «همم، ألثر، أتسمح لي ببضع دقائق؟» إلا أنه لم يرفض دخوله قط.

ولقد أحبت چينا المقصورة حبًا جمًا، وكانت في صباح معظم الأيام تقوم بزيارة قصيرة تتحدث فيها بهدوء إلى أليس التي أنقذت حياتها، وكانتا تثرثران حول حياة أليس عندما كانت حية، وكم أنها كانت تستمتع بوظيفتها قاضية في ساحة قضاء القلعة في تلك الأيام الخوالي، كما يُطلق عليها الجميع. وكانت أليس تحكي لچينا عن شقتها التي كانت تعلو المخزن – والتي كانت تحبها من كل قلبها – وتقص عليها حالات مثيرة للاهتمام تعاملت معها بصفتها رئيسة موظفي الجمارك في الميناء. لكن أحيانًا كانت أليس تهب فجأة وتقول لچينا إنها لا بد أن تعود إلى العمل الآن، وتضطر چينا عندئذ لأن تذكرها أنها ما عادت من الأحياء. وكانت هذه الأوقات عصيبة بالنسبة لأليس؛ حيث كانت تستغرق حينها في الحزن والتفكير، وتضطر چينا لأن تغادر الخيمة، تاركةً أليس وألثر لحالهما عدة أيام.

وكانت الليلة التي تم استدعاء ألثر فيها لحضور **التجمع** هي أول ليلة يترك فيها أليس وحدها، وكان هذا الاستدعاء صدمة لألثر. وإن كان هذا الاستدعاء **للتجمع** حدثًا ينتظره كل السحرة الأعظمين بنهاية فترة تلمذة التلميذ، إلا أن الاستدعاء غير المتوقع يُعد حدثًا نادرًا ولم يكن نذيرًا بالخير بالنسبة لألثر. وما أدهش أليس حينها أن ألثر تم طرده من المقصورة، وبدا لها – رغم أن شعورها بالوقت لايزال مرتبكًا – أن ألثر تغيّب عنها لبضعة أيام.

كانت أليس تحب ألثر من كل قلبها، وأثر فيها كثيرًا إخلاصه المفاجئ لها، لكنها أثناء حياتها عاشت وحيدة تستمتع بصحبة نفسها. ولقد أتاح

لها غيابه عنها وقتًا تعيد فيه ترتيب أفكارها من جديد وتبدأ في إدراك ما الذي حدث لها عصر ذلك اليوم عند مرسى القصر.

وعندما عاد ألثر بعد فك **الحصار** - في حالة مزرية شاعرًا بالندم على تركه أليس وحدها - كانت أليس بالطبع سعيدة برؤيته، لكنها في تلك الليلة أقنعته بأنه لا بد أن يعود إلى عادته القديمة بزيارة حانة فجوة السور، وهذا لصالحهما كما قالت له.

السيدة بيتل

لم يدم زواج باميلا بيتل-جورني ببراين بيتل طويلًا للأسف، وهو ما أحزنها كثيرًا، ولقد رُزق الزوجان بعد عام من زواجهما بمولود له خصلة شعر سوداء وابتسامة عابثة. ولم يمض وقت، قبل حتى أن يتم تسجيل اسم المولود، حتى لقي براين بيتل حتفه - وهو الذي كان يعمل في رصيف مراكب القلعة في تحميل وتفريغ مراكب الميناء - بعد أن لدغته حية زحفت من صندوق معبأ بالفواكه الغريبة. وعلى إثر اللدغة - وكما ستظل باميلا تحكي لسنوات عديدة بعد ذلك - انتفخ جسده كالبالون وازرق، وما كان في وسع أحد إنقاذه.

وبعد بضعة أسابيع من رحيله، قام الموظف المختص بتسجيل الأسماء بزيارة للسيدة بيتل ليخبرها بأن مهلة تسجيل أسماء المواليد قد انتهت، ولا بد أن تسجل اسمه في التو واللحظة، وكانت السيدة بيتل في حالة بائسة؛ إذ ظل الطفل يبكي طوال الليلة السابقة، وظلت هي تبكي

طوال النهار، وكان آخر ما يمكن أن تفكر فيه في تلك اللحظة هو اختيار اسم لطفلها الوليد. وبينما كان موظف التسجيل يُخرج دفتر تسجيل الأسماء، كان كل ما في وسع السيدة بيتل أن تفعله هو النواح: «آه! بيتل.. بيتل»، وهو الاسم الذي كانت تطلقه على زوجها. ومن ثم، تم تسجيل بيتل باسم آه بيتل بيتل.

واضطرت السيدة بيتل، بدون راتب براين بيتل، إلى الانتقال لغرفتين صغيرتين في نهاية ممر قذر بمنطقة العشوائيات. وكانت عائلتها - وعائلة براين أيضًا - تعيش في الميناء، ولا أحد منهم قدم لها يد العون. ولقد فكرت السيدة بيتل في العودة إلى الميناء، لكنها أحبت منطقة العشوائيات، ولقد كان جيرانها، وكما كانت تقول في سرها، يساعدونها أكثر من عائلتها، كما كان لها طموحات كبيرة بالنسبة لابنها؛ لقد أرادت أن يكون حظه أوفر في عمله، عن العمل في أرصفة المراكب، وكانت مدارس القلعة توفر فرصًا أفضل بكثير للحصول على التعليم الجيد مقارنة بمدارس الميناء البسيطة.

والتحق بيتل الابن بإحدى المدارس العديدة والمؤهلة بشكل جيد في منطقة العشوائيات، واضطرت السيدة بيتل لأن تعمل ساعات إضافية عاملة نظافة كي توفر لابنها مدرسًا في أيام السبت. وكان بيتل تلميذًا نجيبًا، وسرعان ما تحققت طموحات السيدة بيتل وتم ذلك أسرع مما كانت تتوقع؛ حيث كان أول من نجح في امتحانات دار المخطوطات في هذه السن الصغيرة.

ولقد كفَّت باميلا بعد رحيل براين عن استخدام اسم جورني، وهو اسم العائلة قبل زواجها، وسرعان ما كفَّت أيضًا عن استخدام اسم باميلا، وعرفها الجميع باسم السيدة بيتل.. فيما عدا بيتل نفسه الذي ظل يُطلق عليها ماما، وما كان يكترث من جراء ذلك بأن يسخر منه الكتبة؛ لأن جميع الكتبة يطلقون على أمهاتهم اسم والدتي.. هذا إذا أشاروا إليها أصلًا، وبيتل كان ينشغل على والدته ويتمنى أن يراها سعيدة في حياتها من جديد.

جانيت مارتن ونكو

عندما عادت جانيت إلى ساحة مراكبها بعد زيارتها لسارة هيب، بدت - وكما وصفها حينها روبرت جرينج - محطمة تمامًا، وكانت تعتمر أيضًا قبعة غريبة جدًا. وما لم يكن معهودًا عليها الجلوس والحملقة في الفضاء، لكن هذا هو ما فعلته طوال الساعات المتبقية من ذلك اليوم. حتى بعد أن جلب لها روبرت التجهيزات النحاسية الملائمة التي اكتشفها لمشروعها الصيفي الصغير لهذا الموسم كي تراها - ترميم لزورق نادر من الميناء - اكتفت جانيت بأن ابتسمت ابتسامة فاترة.

وكان روبرت يعلم ما الذي يزعجها؛ فهو عندما رآها صباح اليوم تنطلق ومعها أوراق تعيين نكو، تكهن بما كانت مُقدِمةً عليه. وروبرت لم يكن من مشجعي أسرة هيب، لاسيما في الوقت الراهن بعد أن هربت أخته لوسي من البيت مع ذلك اللعين - هيب - كما يُطلق عليه دائمًا روبرت، لكنه هو أيضًا لم يُسعده اختفاء نكو. ولم يكن روبرت واثقًا ما إذا كان يُصدق كل تلك القصص التي أُشيعت في القلعة والتي كانت تقول إن نكو كان حبيسًا في زمن آخر، لكن كان من الواضح تمامًا أن نكو تعرض لمكروه ما، وكان روبرت يؤلمه ذلك كثيرًا.

وعلى الرغم من أنه في بادئ الأمر كان يتوجس من تعيين جانيت لأحد أفراد أسرة هيب، فإنه مع مرور الوقت بدأ يحب نكو ويحترمه؛ فقد كان نكو رفقة مرحة، وجاهزًا دائمًا للإبحار إلى الميناء وقضاء بعض الأوقات في المرح والضحك هناك. ولقد أدرك روبرت منذ رحيل نكو كمَّ الأعباء التي كان نكو يتحملها على عاتقه - فكما قال لجانيت، كان يتحمل ما يعادل ما تقوم به يدان طولاهما ياردتان. لكن على الرغم من أن نكو لا يمكن تعويضه، كانوا يحتاجون في الساحة إلى تلميذ جديد قبل بداية موسم الصيف.

وفي عصر ذلك اليوم، عندما عادت جانيت من القصر، راقبها روبرت وهي تهيم بخطوات بطيئة متوجهة نحو كوخها المتداعي المقام عند مدخل ساحة المراكب. كانت هناك سقيفة صغيرة تكتنف جانبًا من الكوخ يستخدمها التلميذ المستجد لينام فيها، ورآها روبرت وهي تفتح على استحياء باب السقيفة وتدخلها، وبعد نصف ساعة خرجت جانيت تبحث عنه.. واقتصر ما قالته له على: «أحتاج إلى مساعدة».

وكانت جانيت تحتاج إلى يد تعاونها في حمل صندوق كبير مدون على سطحه بالطلاء بخط نكو المتعرج **نكو هيب**، ونقله إلى غرفة الحجز القديمة.

ثم قالت له: «احتفظ بالصندوق هنا إلى أن يعود».

ورد عليها روبرت قائلًا: «نعم نعم، إلى أن يعود». ثم ذهب وجلس على الدَّوْقَل المائل لزورق الميناء نصف ساعة، وأخذ يراقب المياه الموحلة وهي تنجرف مارَّةً به.

سايمون ولوسي

وصلت لوسي وسايمون إلى النهر في أمان، ثم دفعا مبلغًا كبيرًا لاستعادة رعد من إسطبلات مرسى المعديات، ثم انطلقا إلى الميناء. وكانت الرحلة هادئة؛ فعودتهما إلى القلعة أحبطت كليهما.

لقد صُدم سايمون عندما وجد برج السحرة تحت **الحصار**، ولقد جعله ذلك يُدرك كم أن هذا المكان له أهمية خاصة في نفسه، وكم أنه كان يعنيه أن يظل البرج باقيًا دون أي أذى. ومع إدراكه ذلك، أدرك للأسف أنه من خلال تصرفاته على مدار السنوات الثلاث الماضية كان قد أجهض أية فرصة له بأن يصبح يومًا ساحرًا من السحرة العاديين (وهو ما كان سيقبله سايمون الآن بكل سرور)، وأن يعيش ويعمل في مثل هذا المكان الرائع الذي يملؤه **السحر**. وهو على الأرجح، والأمر كذلك، لن يستطيع أبدًا أن يرى برج السحرة من جديد.

جلست لوسي خلف سايمون ونظرت وراءها بنظرة يملؤها الرثاء، كان رعد يركض بخطوات سريعة على امتداد الطريق الممتد على ضفة النهر، ومع اختفاء القلعة خلف صخرة راڤن، تمنت لوسي في سرها لو كان لديها من الشجاعة ما يجعلها تذهب إلى أبيها وتحييه عندما ذهبت إلى بيت البوابة صباح اليوم التالي من وصولهما إلى القلعة. لقد بدا لها أبوها مرهقًا مهمومًا، وأصغر حجمًا بكثير من الصورة التي تتذكرها له.. ولم تعلم لوسي ما الذي جعلها لا تجرؤ على أن تذهب إليه وإن كانت في حقيقة الأمر تعلم السبب؛ إنه التفكير في أن تجد نفسها في مواجهة إحدى النوبات العارمة من نوبات السيدة جرينج، لكنها الآن تمنت لو أنها ذهبت إليه. تُرى، كم سيمضي من الوقت حتى ترى والديها مرة أخرى؟ ربما سنوات، كما قالت في سرها، كما أنها لن تستطيع أبدًا أن تأتي إليهما بسايمون ليقابلهما، وكأنهما أصلًا معنيان بأن يقابلاه - كما قالت في سرها باكتئاب.

ومع مواصلة رعد انطلاقه ركضًا، وقد ارتفعت معنوياته بعد أن ترك تلك الإسطبلات الرطبة القذرة، حاولت لوسي أن تبذل قصارى جهدها لتلطيف الأجواء وإزاحة حالة الاكتئاب التي كانت تخيم عليهما، وقالت: «على الأقل، مارشا لم تحبسك، ليست مجنونة *تمامًا*».

رد عليها سايمون بكلمة واحدة وقال: «هه». لكن بعد فترة قال لها: «آمل أن ترعى سلوث. إن هذا اللعين ميرين أخذه قبل أن تستكمل **عملية شحنه**. أعتقد أنني سأرسل لها التعليمات الخاصة بذلك».

«لا يمكن يا ساي!».

«ولم لا؟».

«ياه يا سايمون! أنت لا تستسلم أبدًا، أليس كذلك؟».

«بلى يا لوسي، أبدًا».

ميرين

لم يكن ميرين في مستهل تعيينه بدار المخطوطات في أفضل أوقاته. وبعد صدمة مواجهته بسايمون - وضياع سلوث منه على نحو غير متوقع- التهم كل ما كان لديه من ثعابين العرقسوس. وبحلول منتصف النهار، شعر بالإعياء والتوتر الشديدين، وعندما طلب منه فوكسي أن يجلب له كتيب ألغاز الجمال والنمور المنقطة من مخزن الكتب الجامحة، قال له ميرين - والذي كان يملؤه الذعر من دخول المخزن بعد قصص بيتل النارية - أن يذهب هو بنفسه ليجلبها، بدا الذهول على فوكسي؛ فبيتل ما كان سيتصرف هكذا *أبدًا* معه. وواصل فوكسي بعد ذلك - في رأي ميرين - التصرف بشكل متجاوز كل حدود المعقول. وسارع ميرين بإهانة فوكسي، وعاد فوكسي بخطوات ثقيلة إلى مكتبه وهو ينفخ.

ثم أخذ ميرين يتنصت على الباب لفترة.. لكن ككل المتنصتين، لم يُذكر عنه شيء طيب فيما ذُكر فقرر أن يتركهم لحالهم ويذهب لشراء مخزون من الثعابين. فخرج متسللًا، وأغلق الباب خلفه بالمفتاح؛ حتى يضمن عدم دخول أي زبون، ثم عبر طريق السحرة متوجهًا إلى الحارات

المتداخلة التي ستوصلة - كما يأمل - إلى متجر حلويات ما كاسترد، 24 ساعة خدمة.

لكن لم تبدُ له الحارات كما كان يتذكرها وكأن هناك من غيرها كي يزعجه، وعندما عثر ميرين في نهاية المطاف على متجر ما كاسترد كان يتضور جوعًا، وربما كان ذلك هو ما جعله يشتري ثلاث دست من ثعابين العرقسوس، وكيسين من خيوط العناكب، وعلبة طوفي النمل الأبيض، وبرطمانًا بأكمله يحتوي على دبب الموز. فسألته ما كاسترد ما إذا كان بصدد أن يقيم حفلًا. لم يدرِ ميرين بالتحديد معنى كلمة حفل، ورد عليها بالإيجاب. ومن ثم، أعطته ما كاسترد إناء مملوءًا بكسرات مقرمشة من الكاكاو، وقالت له: «لأصدقائك صغار السن».

وقرر ميرين أن الوقت تأخر ولا داعي لأن يزعج نفسه بالعودة إلى دار المخطوطات اليوم.. وبعد أن تناول ثلاثة ثعابين وانغمس في التهام كسرات الكاكاو وعشر قطع من دبب الموز، دبت الشجاعة في نفسه. ومن ثم، عاد إلى حديقة مطابخ القصر واستعاد أغراضه التي كان قد تركها في السقيفة، ومع علمه بأنه بات الآن آمنًا بعد أن طُرد سايمون من القلعة، عاد إلى غرفته مرة أخرى.

وعلى الفور، فر هربًا شبح المربية وهو ينشج إلى غرفة المدرسة القديمة.

وفي دار المخطوطات في الساعة الخامسة والنصف بالتحديد - هب الكتبة من على مكاتبهم، وهموا إلى باب المدخل. لكن الباب كان موصدًا بالمفتاح؛ إذ إن دار المخطوطات لها تعويذة غلق بالمفتاح من

الخارج تغلق الباب في وجه **الجميع**. واضطر الكتبة للانتظار إلى أن انبثقت مارشا من الغرفة الهرمسية بعد بضع ساعات حتى تمكنوا من الخروج، وقضوا تلك الفترة يناقشون - بشيء من التفصيل - ما الذي ينوون أن يفعلوه في ميرين عندما يقع في أيديهم.

وعندما ظهر ميرين في اليوم التالي، كان مطلوبًا منه تقديم استفسار لما حدث، إلا أنه تمكن من اختلاق سلسلة من القصص والروايات الطويلة، ولقد صدقته چيلي دچين (خلافًا للكتبة)؛ فچيلي لم تكن مستعدة لأن تقر بأنها أخطأت في اختيارها - ثم، من سوى ميرين أصلًا سيسعده غاية السعادة أن يستغرق في إحصاء مخزون أقلام الرصاص بأكمله الخاص بدار المخطوطات وترتيبه وفقًا لنظام الفهرسة الجديد الذي وضعته چيلي دچين، والذي يعتمد على عدد علامات الأسنان الموجودة على قلم؟

ستانلي

لم يكن العمل في مكتب خدمة الجرذان الرسل الخاص بستانلي في بادئ الأمر يسير كما كان يأمل. وبعد أن رفض عرض إيفانيا جريب بتوفير فريق عمل، وجد ستانلي أن الأخبار كانت قد انتشرت حول استئناف خدمة الجرذان الرسل، وسرعان ما كانت هناك أعداد ثابتة لا بأس بها من الزبائن تتهافت على برج مراقبة البوابة الشرقية.

ووجد ستانلي نفسه بشكل أو بآخر متوترًا من الهوس المفاجئ بإرسال الرسائل التافهة الخاصة بأعياد الميلاد بين سكان القلعة صغار السن، وبعد أن رفض - ولثالث مرة ذلك اليوم - أن يغني تهنئة بعيد ميلاد، بدأ يفكر جديًا في أن يوقف نشاط المكتب.

وفي الليلة التالية لليلة التي لم يرفض فيها فحسب أن يغني رسالة، بل رفض أيضًا تأدية رقصة، خرج ستانلي ليزحف على امتداد الممر الخارجي كي يصفي ذهنه من همومه، وكان ستانلي يروقه الممر الخارجي الذي كان يمتد بطول أسوار القلعة وكان إلى حد ما - وكما اكتشف سبتيموس ذات مرة - لا يزيد على الحافة الضيقة. ولم يكن ستانلي يصدق القصص والروايات التي كانت تدور حول **الأشياء** وحول أنها تسير في الممر، بل إنه في واقع الأمر لم يكن يعتقد في وجود هذه **الأشياء** أصلًا. لكن الظلام كان حالكًا في تلك الليلة، وعندما وصل إلى جزء من الممر كان على وجه الخصوص ضيقًا ويتفتت تحت الأقدام، سمع خمشًا وصريرًا عاليين أمامه مباشرة في الطريق، واكتشف فجأة أنه يعتقد في وجود **الأشياء** في نهاية المطاف، وكانت لحظات قاسية وكاد بالفعل يقفز في الخندق المائي.

لكن ستانلي يكره أن يجد نفسه مبللًا، كما أن مياه الخندق بدت باردة. ومن ثم، قرر في سره أن **الشيء** لن يهتم كثيرًا بجرذ، وإذا واصل طريقه بسكون تام فعلى الأرجح سوف يرحل **الشيء** بعيدًا، ثم وجد ستانلي أنه كلما أمعن في الإنصات، أدرك مدى تشابه هذه الأصوات

بأصوات صرير الجرذان.. أو بالأحرى أصوات صرير جرذان حديثة الولادة.

وكان الفجر قد انبلج عندما عاد ستانلي إلى برج مراقبة البوابة الشرقية.. ولم يكن وحده؛ إذ كان معه أربعة جرذان أيتام حديثة الولادة، وكانت تتضور جوعًا.

سيرا سيارا

عندما رأت **سيرا** الخناجر الطويلة التي كان يحملها **حراس الرحلة الاستكشافية**، علمت أنها في مأزق.. وبدون أن تُسنح لها الفرصة كي تودع جوليوس بايك الذي كانت تحبه كما لو كان والدها - تم سحبها إلى **مركب الرحلة الاستكشافية**.. وما إن وطئت بقدمها على متن **المركب** حتى شعرت بانسحاب قدراتها **السحرية** من جسمها.

وبينما كان تيرتيوس فيوم يودعها فرحًا بهذا الانتصار، انطلق **مركب الرحلة الاستكشافية** سريعًا.. وأحاط بالقلاع سديم **سحري**، وسرعان ما كانوا يُبحرون مارين بالميناء ووصلوا إلى البحر. ورفضت **سيرا** أن تنزل في الأسفل، وجلست وهي ترتجف من شدة الريح والأمطار بينما كان **المركب** يخترق الأمواج، وظلت مستيقظة طوال الليلة الأولى واليوم التالي لها بعينين مفتوحتين عن آخرهما - لا تكاد تجرؤ على أن ترمش- وظلت تراقب عن قرب **حراس مركب الرحلة الاستكشافية** وخناجرهم الحادة.

وكانت **سيرا** تعلم أنها إذا استغرقت في النوم فحتمًا سوف تلقى حتفها على الفور. ومع دخول الليل في اليوم الثاني على ظهر **مركب الرحلة الاستكشافية**، شعرت سيرا بأن النوم يتسلل إلى جفونها وبات من المستحيل مقاومته؛ إذ كان يهجم عليها. وبينما كانت تحملق في البحر الهادئ من المركب، وهي تراقب شعلة فنار تلوح في الأفق، استسلمت للنوم مع هدهدة **المركب** لها، ثم هبت مستيقظة من غفوتها فزعة لتجد الحراس يتقدمون نحوها بخناجرهم ولم يكن أمامها خيار آخر، فقفزت في مياه البحر.

كان السقوط في البحر صدمة لها، فكانت مياهه باردة، ولم تكن قد تعلمت السباحة، كانت ملابسها الثقيلة تسحبها إلى الأسفل، لكن بينما كانت تصارع للابتعاد عن **مركب الرحلة الاستكشافية**، بدأت تشعر بأنها تستعيد قدراتها **السحرية** فنادت على دُلفين، وصل إليها في اللحظة التي كانت المياه قد غطت رأسها للمرة الأخيرة. ووجدت سيرا نفسها ممددة بجسد مرهق على ظهره، متوجهة نحو الفنار الذي كانت تراه في الأفق، ووصل الدُّلفين والتلميذة بأمان مع بزوغ الفجر.

وهكذا، بدأت سيرا حياة جديدة بعيدًا عن القلعة، ولم تجرؤ يومًا على العودة، لكنها أرسلت رسالة مشفرة إلى جوليوس بايك لتخبره بأنها سالمة. لكن للأسف، التبس الأمر عليه وظنّ أن الرسالة هي الفاتورة الأخيرة لبعض الأواني **السحرية** التي كان قد طلبها، ولأنه كان قد سدد كل الفواتير في ذلك الوقت فقد ألقى بالرسالة في ماسورة القمامة.

مورروينا

كانت اللحظة التي اكتشفت فيها مورروينا أنها خُدعت وأن چينا وحيوانها المتحول فرًا بعيدًا- هي نقطة الانطلاق لعهد جديد من العداوة بين ساحرات ويندرون والقلعة. أو بالأحرى كانت تلك اللحظة إشارة انتهاء الهدنة التي قامت بينهما منذ أن قام سايلاس، عندما كان ساحرًا شابًا، بإنقاذ مورروينا من مجموعة من حيوانات الولڤرين.

ولقد اعتبرت مورروينا أنها قد سددت الدين لسايلاس عندما أوصلته إلى والده، كما أن هروب إيفانيا جريب جعلها تستشيط غضبًا، فبعد كل ما فعلته من أجله نكث هو **بوعده** كما افترضت وأخذ چينا معه.

وعُد معسكر هيب خارج الحدود المسموحة بالنسبة لكل الساحرات الشابات، وهو ما أثار ذعرهن، ووجد أبناء هيب، خاصة چوچو، أن حياتهم لم تعد مريحة كما كانت، وهو ما أفزعهم. أما ماريسا فكان عليها الاختيار بين چوچو ومورروينا، ولأنها كانت في صميمها ساحرة فقد اختارت مورروينا.

مُحصّل رسوم عبور الجسر

ما كان محصل رسوم عبور الجسر يومًا بالشخص المبهج.. ومن غير المعتقد أن هؤلاء الذين عرفوا هذا الرجل قبل أن يظهر **الشيء** فجأة في

بيته فوق الشجرة كانوا سيلحظون أي اختلاف - فيما عدا خاتم العرقسوس. وإن كان الخاتم الذي كان يلبسه المحصل في أصبعه لحيرهم حينها لأن الرجل كان رأيه أن هؤلاء الذين يلبسون الخواتم ينبغي إلقاؤهم من فوق قمة منحدر شديد الانحدار؛ «حتى يتعلموا الدرس». وسواء تعلم المحصل الدرس أو لا، فلن يتسنى لأحد معرفة ذلك الآن..

لكن لا أحد يتمنى أن **يسكنه شيء**، مهما بلغ من الإزعاج. كان المحصل في بيته محتميًا من حيوانات الفوريكس، كما اعتاد أن يفعل بانتظام مرتين يوميًا، عندما دخل عليه **الشيء** وكشف عن نواياه بشكل واضح.. ومثل هيلدا جارد وإيفانيا، تعرض المُحصّل للحظة مرعبة.. كحال جميع المعاندين من هؤلاء الذين كانوا يرفضون أن يمنحوه سِنًّا ذهبية ليجدوا أنفسهم فجأة يغوصون عبر ضباب الهاوية.

إيفانيا جريب

كاد إيفانيا أن يلقى حتفه في بيت الشجرة بجانب الجسر، وعلى الرغم من أن چينا وسبتيموس وبيتل تركوه بعد أن مددوه في وضع مريح بقدر استطاعتهم وغطوه بجلود حيوانات الولڤرين - فقد باغتته حمى شديدة وبدأ يهلوس. ولولا أنه كان قد وصل إلى هذا الحد من الضعف لكان قد سقط - على الأرجح - من البيت أثناء هزيانه ولقي حتفه بعد سقوطه على الجليد. وما كان هناك شيء في وسع إيفانيا سوى أن يظل ممددًا

على الأرض الخشبية الباردة، وهو يرتجف مع سريان موجات من الحرارة والبرودة في جسده حاملةً معها أكثر الكوابيس المثيرة للفزع والتي كانت أسوأ حتى من تلك الكوابيس التي كانت تجتاحه في الأيام الأولى من تلقيه لعنة الجرذان.

ولم يكن إلا في منتصف نهار اليوم الثاني في بيت الشجرة - رغم أن كل ما كان يُدركه إيفانيا أنه ربما دخل في الشهر الثاني من مكوثه في هذا المكان - أن أخذت كوابيسه فجأة منحى مخيفًا. وكانت الحمى التي أصيب بها قد خفت حدتها بعض الشيء بين يوم وليلة، ودب بعض النشاط في جسمه. وفي ذلك الصباح، تدحرج حتى وصل إلى فتحة الباب، وأطل برأسه للخارج. ولحسن الحظ أنه كان مدركًا بالقدر الذي جعله لا يسقط، وظل ممددًا على ظهره يحملق في الأغصان المكسوة بالثلوج، بينما كان أنفه الجرذاني الحساس يستنشق بامتنان الهواء الصحو، ولسانه الوردي الصغير يلعق رقائق الثلوج التي كانت تسقط كل حين في طريقه. وظل إيفانيا ممددًا هكذا لفترة، راضيًا وسعيدًا إلى حد كبير، وإذا بالشجرة فجأة تتعرض لاصطدام بصوت أجوف جعلها ترتج، وسقطت على وجهه كتلة كبيرة من الثلوج كانت على غصن فوقه. وفي حالة من الذهول، هز رأسه وتدحرج فوجد نفسه وجهًا لوجه مع نوع من الهلوسة كان أكثر قربًا للحقيقة. كان هناك تنين ضخم يقف على الأرض أسفل الشجرة، وقد وصل عنقه الطويل المكسو بالقشور إلى مستوى الأغصان في الأعلى، وعيناه الخضراوان الزمرديتان بحدقتيهما الحمراوين تحدقان إليه مباشرة.

وجاء صوت من مكان ما؛ صوت كان سيتعرفه إيفانيا حتى في أقصى حالات التيه، وإن كان لم يتمكن من تحديد صاحبه يقول: «هل تراه يا سبتيموس؟».

رد صوت آخر قائلًا: «كل شيء على ما يرام يا مارشا، إنه هنا. وهو بخير. أنت بخير يا إيفانيا، أليس كذلك؟» وهنالك لاحظ إيفانيا هيئة صغيرة تعلوها الابتسامة، مختبئة في مكان غاطس بين كتفي التنين وبداية انبثاق عنقه، وخلفه كانت تجلس على نحو غير مريح بين فقرات التنين سيدة بعباءة أرجوانية تنظر إليه شزرًا بعين تومض بوميض يكاد يقترب من وميض عيني التنين.

قالت السيدة الأرجوانية: «إنه يبدو ثقيلًا جدًا».

رد الفتى: «إنه بالفعل ثقيل جدًا. ولا أدري كيف سنتمكن من أن نفعل ذلك».

«سوف أنقله إلى الأسفل على الثلوج، ثم سيضطر لافظ اللهب لأن يحمله بين مخالبه. أتعتقد أنه سيستطيع أن يفعل ذلك؟».

وبدأ إيفانيا يُدرك أنهم يتحدثون عنه؛ إنه كابوس بشع، ليته ينتهي.

«هذا سهل.. ولقد حمل لافظ اللهب جينا بهذه الطريقة من قبل، أليس كذلك يا لافظ اللهب؟».

قالت السيدة بنبرة حادة: «أنت لم تخبرني بذلك من قبل».

«همم، فعلًا. أعتقد أني نسيت».

«تنين يحمل أميرة بمخالبه *وتنسى ذلك* ؟!».

إن الكابوس يزداد سوءًا، بل إن إيفانيا من هول ما آلت إليه أحداث الكابوس فقد وعيه مرة أخرى، وعندما استعاد وعيه بعد أسبوع وجد نفسه في قسم المرضى ببرج السحرة لا يتذكر شيئًا عن التنين. لكن لافظ اللهب ظل يتذكره، وهو منذ ذلك اليوم لم تطأ قدمه قطُّ على أي جُرذ.

بنيامين هيب

كان بنيامين هيب لا يتمنى لنفسه أن ينتهي به الأمر إلى أن يصبح شبحًا يحوم في أنحاء القصر، ويزداد تخريفًا يومًا بعد يوم، ويجد نفسه قد انسحب إلى حانة فجوة السور- بل كان يتمنى أن تنتهي حياته في الغابة؛ وهي المكان الذي لطالما أحبه، وهذا هو بالفعل ما فعله. وهكذا تحول بنيامين هيب، وهو من **المتحولين**، إلى شجرة. ولقد تحول إلى إحدى أكثر الأشجار التي يفضلها، وهي أشجار الأرز، وظل بكل فخر قائمًا بهامة شاهقة تزداد طولًا يومًا بعد يوم.

وعندما تحول بنيامين هيب إلى شجرة، تحولت أفكاره أيضًا إلى أفكار الأشجار، لكن ظل دائمًا جزءً صغيرً في قلب شجرة الأرز ينتمي إلى بنيامين هيب؛ الساحر العادي؛ أو الجد بنجي، كما كان يُطلق عليه أحفاده الكثر. كان بنيامين هيب قد تزوج چينا كراكل (أخت بيتي كراكل، إحدى الساحرات البيضاوات) في يوم من أيام الشتاء في البهو

العظيم ببرج السحرة، ولقد رُزقا بسبعة أبناء، جميعهم، فيما عدا اثنين وهما ألفريد وإيدموند، رُزقوا بعدد من الأبناء.

وأشجار الغابة دائمًا تستمع؛ تستمع إلى هؤلاء الذين يتقابلون أسفلها ويتهامسون بالأسرار؛ إلى أحاديث الرحالة؛ إلى أصوات تحملها الرياح.. كل ذلك تسمعه أشجار الغابة. وليست خشخشة أوراق الأشجار دائمًا هي صوت انجرافها مع الرياح؛ فهي كثيرًا ما تكون أصوات الأحاديث الدائرة بين الأشجار نفسها.

وبهذه الطريقة، علم بنيامين هيب كل شيء عن الثروات التي كانت أسرته الكبيرة تُرزق بها. وكان ابنه الأصغر سايلاس، وهو الابن السابع أكثر أبنائه الذي كان يتابعه عن قرب. وكان سايلاس قد وُلد بعد ستة إخوة، وعندما وُلد كان بنيامين قد بدأ يشعر بكبر سِنه، وظل يؤجل مسألة تحوله إلى شجرة بكل ما أوتي من صبر، لكن عندما وصل سايلاس إلى الحادية والعشرين من عمره، لم يكن في وسعه الصبر أكثر من ذلك. وكان بنيامين يُدرك أنه لا بد أن يتحول وهو لا يزال قادرًا على التحول- إلى شجرة تتمتع بوافر الصحة.

وكان سايلاس يفتقد أباه بشكل رهيب، ولقد قضى أسابيع عديدة في الغابة يبحث عنه، لكنه لم يعثر عليه قط. وعندما قابل أخيرًا الشابة الجميلة سارة ويلو في الغابة وهي تجمع الأعشاب أثناء إحدى رحلات البحث عن أبيه غير الناجحة، قرر أنه مكث ما يكفي من الوقت بحثًا عنه، وتزوج سايلاس سارة، ثم استقر وهدأ حتى يرعى أسرته التي كان يزداد عدد أفرادها بشكل سريع.

كان بنيامين يُنصت إلى ثرثرة الغابة، وعلم أن سايلاس رُزق بسبعة أبناء. وعلى مدار عشر سنوات طويلة كان يعلم أيضًا أن أصغر أحفاده كان مفقودًا، ويعيش في جيش الشباب. وكان يتلهف إلى أن يخبر سايلاس عن مكان سبتيموس، لكن سايلاس لم يأت قطُّ لزيارته، وما كان هناك شيء في وسعه أن يفعله سوى ضمان أن كل الأشجار ستحافظ على سلامة سبتيموس من التدريبات المشهورة بسمعتها السيئة. وهكذا، عندما أخذت مورروينا سايلاس ليقابل والده، غمرت كل منهما الفرحة.. رغم المسائل الجادة التي كانت تنتظرهما لمناقشتها.

وقص سايلاس على والده الحلم الذي راوده حول وجود نكو في غابة متجمدة؛ ورد عليه بنيامين بأن الغابة المتجمدة كانت يومًا دافئة وودودًا، وكانت تزخر بالحيوانات والمستوطنات التي كانت تعيش في سعادة وهناء. لكنها الآن تقبع تحت تأثير **سحر أسود** ولم تعد بالمكان الآمن، وعندما أصر سايلاس على الذهاب أرشده والده على مضض كيف يعثر على **طريق الغابة**.

وفي وقت مبكر من عصر اليوم التالي، بينما كان سايلاس وماكسي يغادران المناطق القديمة مقطوعة الأشجار في الغابة ليبدآ رحلتهما، قابلا هيئة ضخمة تتعثر في مشيتها، كانت في زي أبيض وتلبس خاتمًا صغيرًا من العرقسوس في أصبع يدها اليسرى الصغير – رغم أن سايلاس اندهش تمامًا أن يصادف شخصًا وسط الغابة. وعندما نظر سايلاس في النظارة السميكة التي كانت ترتديها هذه الهيئة، خالجه إحساس غريب جدًا – من فرط غرابته أفصح عن إرشادات والده التي توصل إلى طريق الغابة دون حتى أن يُطلب منه ذلك.. ولم يُدرك سايلاس أنه كان على

وشك أن يتم **سُكنته** – لكن عويل ماكسي الذي امتد طويلًا وشعر عنقه الذي وقف، ناهيك عن أسنانه التي برزت– أقنع **الشيء** بألا يُزعج نفسه **ويسكن** سايلاس.

لم يتذكر سايلاس قطُّ ما الذي حدث بعد أن ترك مورروينا، وأرجع هذا اليوم الذي سقط من ذاكرته إلى سحر ملعون قامت به الساحرة وانشغل باله وهو يفكر في ماهية هذا الذي يمكن أن يكون قد فعله وأحبط الساحرة الأم، ونسي حتى أنه قابل والده.

وقاد ماكسي سايلاس في طريق العودة إلى القلعة، وعندما وصلا أخيرًا إلى القصر، أحدهما بقدمين مجهدتين والآخر بحوافر مرهقة، لم يجد أثرًا لسارة في أي مكان. وأخبره بيلي بوت بأنها رحلت مع مارشا على ظهر لافظ اللهب، لكن سايلاس لم يصدقه. فما الذي – بحق السماء!– سيدفعها لأن تفعل ذلك؟

هز بيلي بوت كتفيه؛ فهو أيضًا لا يدري سبب ذلك، لكن الشيء الذي كان يعلمه أن لا شيء يمكن أن يقف في طريق مارشا إذا أرادت أن تحلق بالتنين.

لافظ اللهب

أحب لافظ اللهب حقله الجديد، وأحب أيضًا بيلي بوت، وكان الشيء الوحيد الذي يفتقده في برج السحرة هو وجبات الإفطار. فلا أحد يصنع إفطاره كما كان سبتيموس يفعل. وبطبيعة الحال، كان لافظ

اللهب يتساءل داخله أين ذهب سبتيموس، ولكنه الآن، بعد أن أصبح كامل النضج، لم يعد يشعر بأنه في حاجة لأن يرى **صاحب البصمة**.

كما أن لافظ اللهب ما عاد يشعر بأنه في حاجة لأن يرى الشخص الذي يشك في أنه والدته، لكن في هيئة متنكرة - كما هو حال بعض أمهات التنانين. لكن هذه السيدة التي ترتدي زيًا أرجوانيًا وكثيرة الصياح، شعرت فجأة بأنها في حاجة لأن تزوره.

لكن عندما أدرك لافظ اللهب أن هذه الأم التنين ذات الزي الأرجواني جلبت معها أربع دلاء مليئة بالمقانق والموز - وهما من أفضل الأطعمة لديه - غير رأيه، ولم يأبه عندما أخبرته أمه التنين ذات الزي الأرجواني بأنها ستأخذ مكان **صاحب البصمة** ولا بد أن يفعل ما يُؤمر به؛ فلافظ اللهب مستعد لأن يفعل أي شيء في مقابل أربع دلاء من المقانق والموز، وكان هذا هو ما حدث عندما انطلق في أطول رحلة طيران قام بها.

ولقد أحسنت قائدته الجديدة قيادته، رغم أن ملاحتها المستكشفة - وهي سيدة نحيلة ترتدي زيًا أخضر - كانت كثيرة الصراخ.. ولقد استمتع لافظ اللهب برحلة الطيران هذه؛ فقد كان في حاجة لأن يبسط جناحيه، كما أن مقابلة **صاحب البصمة** في نهاية رحلة الذهاب أسعدته كثيرًا. لكن المكان الذي وصل إليه كان غريبًا؛ كان باردًا ويبث القشعريرة في الجلد، ويفتقد بشكل ملحوظ المقانق والموز. ثم فجأة، بدا أن هناك عددًا كبيرًا من الركاب يتوقعون أن يقلهم التنين، لكن لم يكن المكان يسعهم جميعًا، كما أنه لم يكن هناك داع لصياح أمه ذات الزي الأرجواني بهذا الشكل.. فالصياح لن يحل المشكلة، وعليهم أن يفكروا في طريقة أخرى ليعودوا بها، ثم أين عشاؤه؟!